إدوار الخَرّاط

رامة والتنين

رواية

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والاسكندرية

رامة والتنين

رواية

لوحه الغلاف مهداه من الفنان / أحمد مرسي

إدوار الخراط

رامــة والتــنيــن

دار و مطابع المستقبل
بالفجالة والإسكندرية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ١٩٩٠ بيروت
الطبعة الثانية ١٩٩٣ القاهرة

١ - ميخائيل والبجعة

عندما دخل الميدان الضيق الذي تتلاقى عنده، في وسط العجوزة، عدة شوارع جانبية، ما زالت مهجورة، وأنيقة ومظللة بأشجار الجميز والتوت والكافور، كانت السيارة في الصبح البِكْر قد اخترقت حافة الشمس التي بدأت، منذ دقائق قليلة، تشتعل باخضرار في وسط فروع الشجر المورقة، يقَظةً بفرح، كالأطفال، حول الميدان الصغير الخالي.

زقزقة العصافير - خفيّة تتطاير مندفعة ولا تُلحظ بين الشجر وشرفات البيوت النائمة - تعطي الميدان نبرة ريفية، أو كأننا في ركن من ضاحية بعيدة. كأنما شارع النيل، على بعد خطوات، وجسوره الضيقة المزدحمة، وتسابُق السيارات والترولّي باص والاوتوبيسات، كلّها، في عالم آخر.

هواء الصبح، سخناً وإن كان ما زال بليلاً، ينسكب داخلاً من نافذة السيارة وهو يدير عجلة القيادة بيد واحدة، ذراعه مرتكنة على النافذة، يخرج من لحظة عابرة، غير حقيقية، باهتة الزرقة، ليدخل الشوارع الممتلئة.

عندما فتح عينيه، وقد انتفض من النوم فجأة، دون سبب، وجد أنه لم يغادر الحلم الخانق الذي كان قد نام في قبضته. وكأنما هتف باسمها. في شجىً ملتاع، كما نام وهو ينادي به، وكأنما قال لها: رامة، رامة، هل تسمعينني، هل تردّين؟ أحبك, وكأنما ضحك من نفسه، يهزأ من نفسه.

حوائط غرفة نومه، بخشونتها العارية والشروخ المتلوية الدقيقة فيها، تصحو معه، مهدّدة، وتميل عليه. الستارة على نافذة الحجرة لا تحجز عنه ضغط الوحشة التي تدخل عليه، وحدها، لا شيء آخر معها، من قصة السماء بين سطوح البيوت. هل الحب هو هذا النداء الذي لا ردّ عليه أبداً؟ ولا ينقطع، لا يملك أن يرده عنه، ملحّاً، يصحبه في صحوته ونومه، منذ أمد يبدو له قديماً، قديماً، لا بدء له ولا تبدو له نهاية؟

هل الحب هو هذه الوحدة؟

في كل ليلة يموت ميتة صغيرة، ويبعث في الصبح، ميتاً.

وطبعاً، ليس هذا بالأمر المسلّي.

قال لها: ما كنت أظن في نفسي هذا القدر من المراهقة بعد.

وكان قد قال لها، بصوت جهد أن يكون خافتاً ومعتدلاً، كأن فيه ظلّ سخرية:

- كل هذه الخيالات، هذه الآلام، والحديث الذي لا ينقطع، بيني وبينك في حلم يقظة مستمر يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة.

هل يبدو لك هذا عاطفياً جداً، وصبيانياً؟

ولكنه حقيقي.

أريد أن أقول حقيقي بمعنى آخر، محدد، وغير عاطفي بالمرة. كل شيء آخر، بجانب هذا الحلم، بجانب هذا النداء المكتوم، بجانب هذا الشوق اللاذع الألم، كل شيء آخر خفيف الوزن، يطفو في ماء ضحل.

قالت له: ولكنه حسّ بالحياة الحقيقية، حسّ طيب.

قالت له: منذ يومين، وأنت غائب، جلست إلى مائدتي، وكتبت لك

خطاباً أحاول أن أقول لك فيه ما أحسّ. كتبت نصف صفحة، ومزقتها، وجدتها مراهقة جداً.

كان صامتاً، مختنقاً، حبه الآن سجن بلا نافذة ولا باب.

قال لنفسه: في هذا كله عنصر طفلّي لم أبرأ منه. كنت ظننت نفسي قد برئت.

قال لنفسه: أين المرض؟ في الطفولة أم في الجفاف الذي نفرضه على أنفسنا لأننا لم نعد أطفالاً.

قال لنفسه: ليست هذه نكسة إلى مرض قديم. هي حياة هي الحياة وحدها الحياة.

ولم يضحك، هذه المرّة، من نفسه.

قال لها: لست أدري كيف أقول. لست أدري ماذا أقول!

قالت له: هذا أحبك.

لم يكن قد قال لها، أبداً، إنه في كل مرة يلقاها يذهب إليها وفي قلبه عذاب غير مفهوم، كأنما ينتظر ألا يجدها، بل يجدها أخرى، لا تعرفه، وتسأله: من أنت؟

لم يقل لها أبداً: ألا تحسين وطء قضبان السجن تضغط على اللحم العاري المكشوف؟ ألا تحسين القهر يقبض على ناصية القلب، يقبض على ناصية السماء؟ والصرخة المكتومة؟

ولن يقول لها. فقد كان يظن أن في طبعه شيئاً من الكبرياء. وكان يظن أن الأشياء المهمة حقاً لا تقال، ولا يمكن أن تقال. هل هناك أشياء مهمة، حقاً؟

في حديثه لنفسه معها، قال لها: ماذا يمكن للواحد أن يقول عن شيء كالموت، أو عن الصدق؟ أو عن الحب؟ كل شيء قيل.

وكان يظن أن الكلام ـ مجرد الكلام ـ مهما كان حاراً، أو نابعاً من أصل الحياة نفسها، خيانة.

وكان يقول لنفسه إنه مخطىء في هذا كله. وإن البلاء ليس في مراهقة الحس والقلب وحدها. وإن النضوج معناه التصالح مع نصف الحلّ، وقبول نصف التسوية، والتسليم بما لك وما عليك، والرضى بما تستطيع، وما يستطيع لك العالم. النضوج معناه، كما يقال، الاحتفاظ بغضاضة الأمل الناعمة، مروّية بالماء ـ ولو كان ماء ملحاً ـ في قلب صخرة اليأس اليابسة.

وكان هذا كله يبدو له فجّاً جداً، وغير مقنع.

ويقول لنفسه: ليس الأمر نكسة إلى المراهقة، بل هي عرامة شوق للحياة لا تنطفىء أبداً، وإيمان كلي بأن الإنسان لا يمكن أن يظل وحيداً. وأن الحب ليس كذبة. إيمان ينكر كل الوقائع وكل الحقائق، ويتحداها.

ويقول لنفسه: هذه بالضبط هي المراهقة.

فيسكت، دون اقتناع.

قال لها: أين نذهب؟

قالت: كما تحب، أنا تحت أمرك يا حبيبي.

قال: جزيرة الشاي؟

قالت: نعم.

كانت قد جاءت قبل موعدها. لم يكن يرى شيئاً غيرها ـ وكان لها جمالها

الـذي يؤلم، هل الحب هـو هذا الألم؟ ـ في وسط ميـدان التحـريـر الغـاصّ بالوحوش والمسوخ.

وجهها الآخر، الماثل أبداً في الزمن، لم يعرفه، كأنما كان هناك دائماً مع ذلك.

في عينيها توق مصمّم، ترى شيئاً لا يـراه أحد غـيرها، ووحشـة ترفض اليأس، وبحْث. هل تجدين أبداً ما تبحثين عنه، يا حبيبتي؟ مـوجة الـزمن الـزرقـاء والخضراء ثـابتـة، لا تتحـرك، لا تنحـسر. وأجسـاد الأعشـاب البحرية التي جففتها الشمس في صفرة عينيها. لحم العشب الأصفر ينضج بالحرارة والجفاف على صخرة لا يبلّها الماء، غارقـة في بحر قـديم. شفتاهـا رقيقتان ناعمتان، فيهما سمرة نظيفـة، بدائيـة، لم يخضبهما الـروج. وكانت وحدها. يا طفلتي كم أنت وحيدة، أنت أيضاً، وحيدة في كل سياق حيـاتك المزدحم المضطرب.

كانت قد قالت له، في آخر تلك الليلة التي رمت بها إليه عاصفة الحب والشهـوة والبكاء والحنـين والاحباط: احـك لي حكـايـة. لا تـتركني، حتى أنام.

بصوت صغير، جارح، لأنه رقيق ولا حـول له، أمـام اتساع وحشـة لا نهاية لها.

كانت وديعة كطفلة، تحت غطائها. وكان يحس دفء جسمها يملأ لحظته كلها. ولم يكن يعرف، عنـدئذ، قيمـة الكنز الـذي بين يديه. رصيـد من الحب والـدفء ضيّعـه إلى الأبـد. كـان يبحث، رغـماً عنه، عن صـدق موهوم. كان مدفوعاً به إلى الخلف دائماً بقـوة يقاومهـا وتستنفده. وكـان ما يزال مبهوراً في صدمة كشف لا يُصـدَّق. يصارع نفسـه. ألن يتعلّـم أبداً كيف يـطلق نفسـه من إسـارهـا؟ ليس من صـدقٍ أبداً إلا هـذا الصـدق

الوحشيّ العاري الأول، صدق صدمة الالتقاء الذي لا يقاوَم بين جسدين - أكثر بكثير من جسدين - في تجاذب يكتسح أمامه كل انفصال، تلاحم انفجار نواة الكون نفسه، ارتطام الأفلاك بقوة قانون لا يُقهر، التفاف العناق والالتصاق الحميم الذي لا ينفصم، وقبلة الاعتصار والشوق الذي لا تحده حدود، فجائيةً وعذبة عذوبتها الصارمة الكاملة التي لا تعرف حداً، عذوبةَ حرية لا نهاية لها، عذوبةَ تحقُّقٍ نهائي لا يمكن إلغاؤه أو نكرانه.

قالت له مرة: هذا الوعي الفيزيقي المخيف بيننا..

ولم يجد ما يقول. لأنه لم يستطع أن يختار ما يقول من بين ما كانت نفسه تهضب به وتمور، من تدفُّقٍ تتقلب فيه ألف صرخة شوق وفرح، وتعتلج فيه نداءات محرقة، وبهجة مكتومة. يد ضخمة ثقيلة تكتم الزلزال، والأرض تدور دورتها البطيئة في الليل.

بدأ يحكي لها حكاية أطفال، مستمتعاً بحكايته، متعثراً بها، وساخراً منها. صوته يرتعش بحب لا يعرف بعد أنه هناك: يُحكى أن أميرة صغيرة خرجت إلى الغابة، تبحث عن شيء لا تعرفه، ولكنها تعرف أنه هناك. وقطعت الأميرة بلاد الله، بلاد تشيلها وبلاد تحطّها، والتقت في بحثها بالأشجار، والسحاب والغيلان، والأطفال.. لم تجد ما تبحث عنه. ويشرق الصباح، ثم يأتي الليل.. دائماً يأتي الليل.. والبحث.

قاطعته بصوت نصف نائم، نصف ساخر:

- ليس هكذا تُحكى الحكايات، يجب أن تقول اسم الأميرة، وأن تصفها لي. رامة.. رامة.

قال فجأة، بحدة، ضاحكاً:

- ليس عليك إلا أن تسمعي الحكاية فقط. حتى تنامي.

قالت بخضوعٍ أوجع قلبه، بنت صغيرة تبحث عن أمير صغير، ولا تريد أن تفقده:

ـ طيب.. أكمل حكايتك يا حبيبي.

وعندما كان يقول لها إن الأميرة وجدت الفارس الذي تبحث عنه، لم يكن يصدق الحكاية الرثة البالية. وكانت في عينيه مياه ملِحْة قليلة، لم تنسكب.

قالت له: لا تتركني، حتى أنام.

لم يقل لها: ممّ تخافين يا حبيبتي؟ ما سرّ الفراغ الموحش حواليك، صحراء لا نهاية لها؟

أحاط كتفيها بذراعه في حنوّ يُثقِل ذراعه بأحمال لا تطاق. وكانت قد غرقت في عالمها الخاص الذي لا يمكن أن يدخله معها. وشهقت، في نومها، بآخر شهقات البكاء، وقالت في الحلم: يا له من رجل غريب.

قال لها: من هو؟ من هو الرجل الغريب؟

استيقظت نصف يقظة، وقالت: نعم؟ من؟

قال لها: نامي يا حبيبتي، نامي الآن.

ـ لا تتركني.

ـ لن أتركك. أنا معك. نامي الآن.

من هو الرجل الغريب الذي تساءلت عنه، في أول خطواتها على أرض نومها؟ أكانت تحدّث نفسها عنه هو؟ أكان هو الرجل الغريب، المضحك شيئاً ما؟ لا شك أنه مضحك قليلاً ـ على الأقل ـ عندها. لن يعرف أبداً، بالطبع، هذه الأسرار الصغيرة التي لا يعرفها حتى أصحابها.

عندما كانت السيارة الصغيرة الضيقة مغلقة عليهما، في عتمة أول الليل

التي تشقّها أنوار زرقاء خافتة سرعان ما تمضي، كان حسّه بالنَّفَس الدافىء الخصيب الذي يتضوّع من مجرد وجودها يحيط به كأنه نشوة سُكْر خفيفة وعميقة معاً، تكشف عن المعنى في كل شيء. كان هذا النَّفَس الأنثوي نفح ينبوع خفي من ماء دسم يجري عن بؤرة غنية في داخلها.

قالت له: كل الناس تحب المحبين.

نظر إلى عمق عينيها، في قربى العتمة الحميمة. بحيرتين من الملح في رمل الصحراء الأصفر. ومع ذلك فالسيارة الصغيرة قطة معابثة، كأنها أيضاً سعيدة مرحة وإن كانت لها مخالب. كان القماش الأزرق الرقيق الذي تعصب به شعرها يوحي إليه بنعومة خاصة. لجّت به رغبة لاعجة أن يعرف مرة أخرى رقة شفتيها، وبهجة ملمس وجهها، وذلك التحقق النادر الغريب الذي يجده في حضنها. لكنه كان يبحث أيضاً، في عينيها، عن صدق لا يعرف ما كنهه. أيّ صدق ذلك الذي يبحث عنه، ولماذا؟ هذا البحث المُوقِف المُجمِّد لانسياب دماء الحياة؟

لم يكن قد عرف طعم الفقدان بعد. كانت يدها على يده في السيارة فيها أمان، موقوت حقاً، ولكنه كامل، ونجاة من عذابات قلق خام غير واضح الحدود. هذا الحسّ لا يفارقه، مجسّماً، عضوياً، هذائياً في حضوره المستمر، يفرض نفسه فرضاً، حسه بهذه اليد المليئة بذخر من حنان لا ينفد، تستقر لحظة على يده، ثم ترتفع، تنقلب تحت شفتيه، تتلمس وجهه تلمّساً وثيقاً ومرتجفاً وبطيئاً.

نداؤه باسمها، بلا صوت، يحجب عنه كل صوت آخر.

قال لنفسه: أنت عندما تفقد شيئاً تعرف أنه لن يعوض، لا يعوض، وترفض مع ذلك. ترفض هذا الحس بالفقدان، تتمرد عليه كل جوارحك كما يتمرد شيء حي متوفّز بالحياة ضد ما يحمل إليه الموت، ترفض، كأنك

تحطّم السماء بيديك العاريتين، كأنك سقطت على تراب القبر، تدق أرضه بقبضتك المضمومة وتقول لا، لا، ومع ذلك تظل حفرة القبر مفتوحة، في داخلك. الفقدان هناك، قائم، شيء ما قد نُهش مكانه، وانتُزع من فلذة النسيج الذي يغلف حياتك نفسها، لا أمل أبداً في استرداده، عليك أن تطيقه، أن تحتمل فجوة الضياع الذي لا يُحتمل، وأن تعيش معه. لماذا تعيش؟ أنت ترى نفسك ميتاً. وتعيش مع الموت، تعيش الموت. وتحمله معك، وتصبر عليه. وتعانيه. أنت تحمل ميتاً في داخلك. والميت هو أنت أيضاً. قبر متحرك يواري هذا المدفون من غير غطاء ولا كفن.

ـ ليال غاضبة، حزينة، ووحشية. ليال مضطربة عاصفة. طَرْقات تهد أرض القلب من التمرد والنداء المحبَط والرفض، في داخل الصمت المطبق.

قال لها: قضيت ليالي غاضبة، وحزينة، ووحشية.

قالت له: لماذا؟

قال: لأنني لم أسمع منك، لم تحدثيني، لم أرك.

قالت له، كأن في صوتها نبرة خلفية من ضحك وسخرية خفيفة: هذا كل شيء؟ سأحدثك كل يوم. سوف تملني.

ولم تحدثه كل يوم، لم تتصل به بالتلفون. ولم تكن سخريته من نفسه خفيفة جداً، كأقل ما يقال. كانت الأيام رحلة في جحيم داخلي حميم خفي. وكان دفتر الرحلة في الجحيم مطوي الغلاف.

قالت له مرة، في نور صبح شتوي صحوٍ خاوٍ ليس فيه إلا هما، على درجات سلالم رخامية قديمة التراب، عريضة وسوداء:

ـ كما تريد، أنا مستسلمة لك يا حبيبي.

كان قد عاش طول عمره غريباً في أرض وطنه، وعرف لحظتها ما معنى أن تقول له امرأة يحبها: يا حبيبي! عرف لأول مرة، بين ذراعيها الخمريتين، في بضاضتها الممتلئة بالحنو، طعم أن يكون في أرضه.

ما جدوى أن يقول لها إن كلمتها، وهي تناديه بلغته، في أرض غريبة «يا حبيبي» كانت طعنة عذبة ـ ما أعذبها! ـ نزفت لها، مرة واحدة، كل دماء قلبه، وكانت في الوقت نفسه البلسم الذي أبرأ كل الجروح ـ أو هكذا كان في ظنه... ألم يقل كل المحبين هذا الكلام؟ كل شيء قد قيل. ولكن الحب، والموت لا يقال، ولا يتكرر. والصدق وهم مستحيل.

لم يقل لها: عَلّمَني حبّي بفقدانك أننا نحب وحدنا. ونموت وحدنا. واستشرفتُ أنه ليس حتى في الموت برءٌ من الوحدة. بعد حياة الوحشة المحكوم بها علينا، نحن نموت. ولا نجد في الموت نجدة. ولا نلتقي فيه بأحد. الموت يطوي الكتاب ويغلقه ويكرّس ختمه. والحب؟ الحب كذبة. هو الشهوة العارمة للخلاص من الوحدة، الاندفاعة التي لا توقّف نحو الانصهار الكامل والاندماج والاشتعال المزدهر لكنه يدور أيضاً في الوحدة. وينتهي بتكريسها، أكثر علقماً من الموت. نحن نحب وحدنا. الحب أيضاً وحدة لا شفاء منها.

قال يصرخ في ظلمة ليلة، مسدود الحلق: ليس صحيحاً. لا يمكن أن يكون صحيحاً. لا.

كان الصمت هو الذي يواجهه. دون رد.

قالت له: نحن قد بلغنا سن الرشد. ونستطيع أن نتحكم في أنفسنا.

فلم يقل لها إن الزلزال قد كسر قشرة العقل والاتزان، ولم يسألها أيها أصدق وأقرب إلى ينبوع الحياة؟ وما الصدق، وما جدوى مياه الينبوع المالحة؟ أهذا الامتزاج الحارّ وحده هو الصدق؟ هذا الحضور الماثل أبداً،

كل لحظة، نعم كل لحظة، هو الصدق؟ لكنّي يا حبيبتي دائماً أعيشهما معاً، اندفاعٌ كأنّه احتضان الوجد ونكوص كضربة البتر معاً، اصطدام وافتراق لا يتوقّفان أبداً، نسيجُ نفسي ينقطع ويلتئم، ينشقّ ويلتحم، في ثورة دائمة التقلّب لا تهمد فورتها أبداً، من الحقيقة واللاحقيقة. حبك لي - أهو هناك، أما يزال؟ - يوجد وينتفي، يقوم وينقضّ، ألف مرّة كل يوم في وهمي.

قلتِ لي مرة: أحبّك.

كنا في قلب حمم النيران. لم تقوليها مرة أخرى.

حضورك الدائم، وصمتك، قربك مني، وابتعاد حياتك في مسارات عديدة تحسنين الدفاع عنها، بذكاء يقظ حادّ. كأنما تجري حياتك داخل مقاصير مقفلة محجوزة عن بعضها البعض، منفصلة، وأنت تحامين تحت كل جدارٍ عازلٍ منها، باستماتة. هل تظنين يا حبيبتي أنك - أنت - الحقيقيّة - موجودة في قلب هذا التيه من الأسوار والحيطان، موجودة وراء هذه الحصون والقلاع التي تقيمينها في وجهي، في وجه العالم، وفي وجه نفسك؟ هل تظنين أنك - أنت أنت - موجودة في كل عالم من هذه الأفلاك التي تتماسّ ولكن لا تتداخل، تتساوق ولكن لا تتقاطع أبداً، في كل عالم، وحده من هذه التي تدور غريبة كل منها عن الآخر؟

قال لها: هل تعرفين يا حبيبتي أن الملاك ميخائيل هو شفيعي، وسميّ وملاكي الحارس؟ هكذا قيل لي وأنا صغير. وقيل لي أيضاً إن مياه النيل لا تفيض أبداً إلا عندما ينزل الملاك ميخائيل، في ليلة عيده، على أرض مصر، ويبكي.

قطرة واحدة من مياهِ دموعه وتنهمر الأمواج الغنية بالخصب والحمرة، وترفّ النباتات العطشى في التربة، وتمتلىء شقوق الشراقي بالدسم.

قال لها: كنت في صغري يصنعون لي الفطير في عيدي، عيد الملاك

ميخائيل، كبير الملائكة، وقائد جنود السماء، بسيفه ذي الحدينّ. وعندما آكل الفطير المنقوش بالكلمات القبطية القديمة، اللامع الوجه بالزيت، أراه، ملاكي وحارسي وشقيقي، بدرعه الفضّية، ورمحه الطويل، يهجم، ويقتل كل الأكاذيب وكل الشياطين المتزاحمة في الظلام.

لا. لم يقل لها شيئاً من هذا.

لم يقل لها: إن الحق عندي هو انهدام الأسوار، وتدفق مياه الحياة المختلطة في بحر مفتوح الأفق يطفو على عبابه المضطرب حبيبان في قشرة خشبية خفيفة واحدة.

لم يقل لها: ما أريده، أريده أكثر من كل شيء آخر، أريده لك أنت، أريده لنا، أن تكوني معي حرة، حرة من الحاجة إلى تبرير نفسك. صغيرتي التي طال بحثك في الليل، والتقيتِ بالأشباح، أنت مبرَّرة، لأنك محبوبة، الحب هو الشيء الوحيد الذي لا يحتاج إلى تبرير. بل يأخذ ويعطي، دون سؤال. حبيبتي أظنني أعرفك، أعرف الجوهريّ فيك، أعرفك أنت وإن كنت لا أعرف شرحاً لك ولا تبريراً. الحب عندي هو المعرفة. والصدق شهوة محرقة. لا أريد أن أقول إنني أقْبَلك. لماذا أقبل أو لا أقبل؟ أريد أن أقول إنني أحبك، أنت، بكل ما هو أنت، دون شرط، دون حيطة.

وعندما أقول هذا أعرف أنني أكسر كل قواعد اللعبة. نعم، هي لعبة، الحياة، والحب أيضاً. كل ما فيها له قواعد وأصول. أنا أرفض أصول اللعبة. أغامر، أضع قلبي كله، عارياً، مرتجفاً بنبضه، عنيداً بإيمانه، تحت وطأة الانكشاف، دون حماية. ما الذي يحدث عندما تنهار الحواجز والسدود وتندفع الأمواج المحبوسة القلقة المحوّط عليها، داخل المقاصير المسوّرة، وتجري متلاطمة تحمل معها أنقاض الأحجار؟ أهذا مخيف؟ نعم، أعرف دفء الظلمة المكنونة، وحماية السرّ، لكنني أعرف أيضاً مُرّ الوحدة خلف

الأسوار. ماذا يحدث عندما تسفر النفس عن اضـطرابها الحميم، وأشـواقها التي لا تُفهَم ولا تُبرَر، واندفاعات هوسها وتَطلّباتها المخبوءة؟

ولأن حبي هو المعرفة، هو اليقظة الكاملة أمام كل نأمة، كـل اختلاجـة في الصوت، كل ارتجـافة جفن، لهـذا أجد نفسي، وأنـا أحبك، وحـدي، ولستِ معي.

الشيء الخارق الغريب: حـرية المـوج تحت نور السحـاب. . أنت بعيدة عني. الأبواب صخور، مغلقة.

لم يقل لها: يقف بيني وبين كل شيء، الآن، حاجز لا عبور منه. السماء غريبة، البنـايات في الشـوارع غريبـة، والنـاس أشيـاء تضطرب بـلا معنى. وحدي. الهواء الـذي يدخـل إلى صدري، عنـد الغروب، عـبْر النيل، لا يحمـل إليّ إنفسـاحـاً ولا راحـة ولا متعـة. حـدة شمس الـظهـر، وصمت الشوارع في الليل، ونشْق هواء الصبح النقيّ البارد، كلها تأتيني بحس من الحرمان، كـأن هناك غشـاوة شفافـة، ولكنها صلبـة لا تنزاح، عـلى عيني، تغلف قلبي، تجمّدني. لأنني أفتقدك.

لم يقل لها: أين آفاق الكشف والسعادة والـراحة التي عـرفناهـا معاً؟ أين البهجة التي لا توصف في كل لمسة، في كل نسمة هواء؟ وانطلاق الحيـاة لا يكـاد ينفد معـين لتدفقهـا، تحملنا عـلى أمواج الفرح الخفي عـبر مـدينتنـا المسحورة؟ أين الشوارع التي لا تنتهي أبداً تحت أقدامنا، كأنما تتفتح لنـا، وحدنا، كنوزُها المضيئة بنور مصـابيح تتـوهج في سـماء الليل والقلب معـاً، وتتسع لنا المدينة، وتزدهر، لنا وحدنا، بلا حدود؟

رامة، رامة. . أين أنت؟

عندما كانت إلى جانبه، وطنين المحركات الرتيب حولهـا، إصرار أمواج لا تني تـرتطم بـالصخـر وتعـود، والنـاس في خـدر من الحس بـالـرعـة

والاندفاع، وكأنهما هما في عالم خاص قد تحرر من القيود والروابط، ومضى في طريق بهجة كونيّة من الحرية والطاقة المبذولة بسخاء وقوة، كان وجودها إلى جواره وفيراً خصيباً، كان تماسّ ذراعه بذراعها وإحساسه بقرب صدرها وامتلاءِ جسمها يحمل إليه، في تيار خفي يأخذ ويعطي، وعداً بغنى أنثوي لا ينضب، بمياهٍ كثيفة وعذبة الوقع على جدران نفسه. وقالت له: إذا حدث لك هذا، فلا شك أنه سيكون، بالنسبة لك، زلزالاً.

كان صوتها متأملاً، بعيد الصدى.

أكان في ذلك نبوءة، أم وعد، عرّافتي وساحرتي، أم حدْس بما سوف يقع، أم هو الخطوة الأولى التي لم أكن أعرف أنني أخطوها، على قشرة الأرض التي تدمدم بالتشقق والانفجار؟ أم هل كنت أنت قد بدأت منذ ذلك الحين تلاوة رقيتك المُلغَزة بالسرّ؟

أنت الآن تقولين لي: إنني سعيدة أنك توجد.. وأنني التقيت بك.

ولا تكملين.

وأحس في نبرة هذه الكلمة ما يوحي بأنك تريدين أن تضعي نهاية. كأن فيها نزوعاً نحو ختام، وخطوة نحو شيء قد انطوى. لم تسعدني الكلمة. بل فتحت جرحاً لم يلتئم. إنني في قلب الزلزال، في فوهة البركان التي تغص بالحمم، مندلعة بنار تسطع في لهبها كل صخور العمر الصلبة، وتذوب. ماذا تفعل يداي العاريتان اللتان تحجزان انهيار حمم البركان، وتسندان بنايات عالمي التي تتقوض في الزلزال؟

اسمك يختلط بماء مرّ ملح.

لم يكن أحد قد عرف أبداً تلك الليلة. منذ سنين مرّت كأنها زمن العمر، والسماء مشحونة بنذر الانكسار، والعواء المعدني قد علا، مع شظايا السماء المتفجرة، ثم خبا في صمت مثقل بالكارثة. والبيت المقفل

الساكن في الليل هش رقيق القشرة في قلب بؤرة العاصفة التي هدمت كل شيء حواليه. يحيط به نوم متعب بريء لم يعرف بعد طعم المرارة الذي لا يزول أبداً. وجاء الخبر. والموسيقى الرثة الصاخبة، وأغنية المجد والحب والصوت المرتعش.. لك حبي وفؤادي.. الضجيج يصمي القلب ويدميه.. أغلى دُرّة.. الأصوات جوفاء صداها يتردد في خواء فقد فيه حتى الحزن معناه.. عشتِ حرّة.. عشتِ حرّة.. وانفجرت الدموع، فجأة، على غير انتظار. القلب المتفطر لم يكن يجد في شيءٍ رحمة. كل الحب قد بُذل، وأُهدر، وامتُهن. عارياً، بلا حماية. ظلت عاصفة الدموع تهزّه، وتنفضه، وتطوّح به، في وحدة وحشية. لا تنجاب ولا تنتهي. وفي الصبح، كل صبح، ظلّ ثقل الحجر الرازح في جوفه يغرقه تحت الماء لا يطفو قلبه أبداً.

لم يبك قط بعدها إلا هذا الصباح. حملت إليه الموسيقى، مرة أخرى، لذع الوحشة النهائية، موسيقى تفيض قادمة إليه من قلوب عذّبها حب قديم انحسرت به السنين الطوال، لكنها ما زالت تحمل حرارة الألم المدفون، وحزنَ العالم. وفي نور الشمس الشتوية التي تدخل من نافذته، كان بكاؤه مكتوماً ووحيداً.

قال لنفسه: حبيبتي دائماً واحدة، مقدّسة وحميمة، ومستباحة مبذولة لشيء غريب لا أعرفه. لا، لا بل لا أعترف به. دائماً تدعوني، وتسحرني، ومهما قاومت فإنني في حضنها، وحده أجد نفسي. أجد المعنى الذي أفتقده في كل شيء. ثم أقع بعد ذلك في وحدتي، يداي خاويتان، وفي داخلي حفرة مفتوحة.

قال لنفسه: أنتَ قد بلغت سن الرشد جداً، رجل في منتصف العمر، فماذا بعد؟ ألا تظن أن هذا التفسير الأوديبي سهل، وبخس، حقاً؟ ألا

تظن هذه القضية كلها شيئاً مفككاً، وليست، على أي حال، هنا أو هناك؟ وشططاً عن الموضوع أيضاً؟

قال لنفسه: إنني قادر مع ذلك على احتمال ذلك كله، والحياة به، أياً كان الثمن.

كان يظن نفسه صلب العرد، لا ينكسر بسهولة.

وكان فريسة لموسيقى الدموع.

كان يعرف، ولكنه لم يكن يصدّق، أن نداءه المتصل، الملحّ، اللاعج، باسمها، يذهب مهدوراً. لم يكن يصدق أنها لا تسمعه بالفعل وهو يناديها، عندما يأوي إلى سجن ليلته، يناديها كما ينادي الحرية. لم يكن يصدق أنها لا تعرف، وربما لا تهتم وربما تجد الأمر كله مسلياً قليلاً، ويشي بضعف وحساسية بأسوأ المعاني. لم يكن يصدق أن حياتها تختطّ مساراتها المتعددة الجياشة بتطلبات أخرى، وأشواق أخرى وتحقّقات أخرى، لكنه كان يعرف أن اسمها على شفتيه، أول كلمة من كلمات النهار، في رحلته الحميمة، ليس إلا شأنه الخاص، هوَ. لم يكن يصدق أنه ليس هناك، ولا يمكن أن يكون، ردّ.

قالت له: تمزقني الرغبات المتناقضة في أن أكون قريبة منك، وأن أفرّ منك. أريد أن أهرب بعيداً إلى جزيرة منسيّة في ركن المحيط، إلى بلد غريب. أستيقظ في الصبح، لأتنفس بعمق، وراحة، ومن غير ضغط، وأقول لنفسي: بعد الظهر أنطّ الحبل! وأنا أعرف أنه يمكنني بالفعل، بعد الظهر، أن أجري، وألعب، وأنطّ الحبل.

ولم تكن تبتسم، لم يكن في صوتها إلا نبرة توقٍ محرق.

وابتسمت بعد ذلك، وقالت: ولكنني وجدت أن كل الجزر في المحيط قد اشتراها المليونيرات الأمريكان!

كان قد قال لها: أنت قد عذّبتني.

فقالت: لو كان لك في هذا عزاء، فلم أكن أقل منك عذاباً.

فألح عليه، في دخيلته، سؤال لم يقله لها. لم يكن يحبّ أن يقول لها أسئلة لا قيمة لها ثم يسمع نُظُم الأجوبة المتقنة المحكمة التي لا يريدها على أي حال.

لماذا كنت تتعذّبين يا حبيبتي؟ أكان ثمّ صلة وتجاوب بين هذا الذي يعذّبني ويمزقني، وبين عذابك؟ أم أنك، حتى هناك، بعيدة لا شأن لك بي، تدور آلامك في خيوط أخرى، تجدلُها أيدٍ أخرى؟

خيّل إليه أنه يعرف كم عذابها حقيقيّ، ومرّ، ووحيد. وأنه لا يستطيع أن يصل إليه، بل هي لا تتيح له، لا تريد أن تبيحه ذاتها الداخلية المكنونة، بل تقف دونه في ضراوة تخفيها، تذوده عن الاقتراب من جرح وقهر أوليّ قديم متجدد أبداً. لأنها لا تريده أن يبرأ، لا تصدّق في صميمها أنه سيبرأ، بل تجد في الجرح متعة متوحشة.

ما جدوى أن يتفطر المرء بالألم بينما هو لا يحمل العزاء.

قال لها: لا تفرّي مني بعد الآن.

قالت: نعم.

وأمسك بيدها. كانت أنوار الكوبري القديم تومض وتخبو، تنزلق على جسد الليل دون أن تطعنه. وضغطت على يده تردّ عليه، ولكنها كانت غائبة، منذ الآن دخلت إلى مأوى خاص، منذ الآن عادت إلى ما وراء أسوارها، وهي تبتسم له ابتسامة مؤسية. لم تكن معه ولم يرها بعد ذلك أياماً بطول الأبد. نغمة الفقدان أصبحت الآن ترداداً يئد الآمال الهوجاء كل يوم، ويغيّبها قبوراً متعاقبة تعاقُب اللحظات التي لا تصل إلى نهاية،

لكنه ترداد، على تكرّره، لا يفقد حدة وقع الصدمة التي تسقط بإصرار، مرّة بعد مرّة بعد مرّة، بلا نهاية.

قال لها: هذا الخيال، هذا الوهم: الفرار، الحرية.

وقال دون أن يتكلم: يا حبيبتي، نحطّم بأيدينا كلّ بنايات عمرنا، هذه الجدران التي أقمناها، كلّ منا وحده، طول السنين، بتضحيات لا أحد يعرف ثمنها، هذه السجون التي تلتطم بأبوابها الموصدة كل يوم. حبّنا نافذة في الشمس، قطعة ممزقة من سماء الليل الفسيحة. العلاقات التي تُبتَر، نُظُم الحياة التي تتقوض وتنهار. متاع خفيف وجوهري من الحب والكُتُب. قطع أخرى أيضاً من القلوب تُمزَّق، وتُترك وراءنا. موسيقى التوقع والتشوّف. خطو المغامرة إلى باب الطائرة التي تقلع بنا. أيمكن أن يصل بي الوهم إلى هذا البيت الحجريّ بين حقول الزيتون، قريباً من الثلج والأرز القديم، والطريق الضيّقة التي تتلوى تحت سيارة نصف جديدة نشتريها بالتقسيط؟ وأحجار الصخر المخضلّة بالبلل، وهوّة الوديان المزدحمة بزرقة أشجار سامقة وسفلية؟ وانطلاق الوحوش البريئة النقيّة الجسد التي ظلت محبوسة طول العمر والفرح الشرس الذي ينوء بالجسم المكدود من طول العمل في بناء صروح الحرية وخلق المستحيل.. بضربة واحدة، فادحة، يمّحي الزيف وتتكسر نبرات الصوت المكتوم إذ يصطدم بزحام الأنوار والأصوات الأخرى التي تعلو وتنخفض، وتعرف دفء الحوار. أنا وأنت وقد أصبحنا نحن. وتغيّر الضمير، وتطهّر، مهما كان جريحاً وملوثاً يقطر بالدم. يدي التي ولغت في جريمة الصمت - شُلّت يدي - البقع التي عليها لها لون دمائي أنا، ودماء إخوتي أيضاً، يدي التي لم ترتفع، وظلت صامتة، تتلوى نعم ولكن خرساء، يدي تنطق الآن، كفاني إثماً، قد تُخِمت نفسي بريح العفن، ونتن الجيفة المدفونة داخلي. أنتِ الآن، بشكل معجز

وغريب ومقلوب قد طهرتني، حررتني، أطلقتِ على الأقل بعض الوحوش العارمة الصافية العينين من حبْسٍ طال عشرين عاماً، لو لم تطلقيها لظلت تتقلب وراء قضبان من لحمي الحي تنهشه. وأراك، بجانبي، لأول مرة تكشفين الآفاق الفسيحة في داخل عالمك، وتخرجين من تلك المنطقة الموحشة الغائمة بنصف الظلمة ونصف النور. تحيين حياتك كما تريدين لا لمجرد الحسّ بالواجب. بل يصبح الواجب حرية.. ولك، ولي، الحق المطلق في الجنون، وفي الهجوم على الحياة.

حرة، أي إيزيس، تحت عين أبيك المتقدة «رع» في سطوع النهار أو تحت نيران النجوم على السواء.

كان قد قال لها: هذا الخيال، هذا الوهم: الفرار، الحرية.

كانت قد قالت له، ليلتها: لا نؤذي الآخرين، لا نؤذي أحداً.

فلم يقل لها: مجرد فعل الحياة ينطوي على الجريمة والايذاء. إما الآخرون، وإما نحن، أو هم جميعاً، نحن وهم معاً. كل خطوة على الأرض، كل نَفَس في الصدر، حَتْمٌ أن يكون فيه قتل وتدمير. وقد اخترنا أن نقتل أنفسنا، ألم نختر؟ أحقٌ أننا قمنا، بالفعل، بهذا الاختيار المروّع الذي لا ارتداد فيه.

وكانت قد قالت له: أيمكن البناء دون أن نهدم؟

فلم يقل شيئاً. قوة الأشياء.. وحدها.. مفحمة.

عندما كان في أسوان كتب إليها بطاقة بريد: دائماً أتذكرك، وأفتقدك.

وعندما سألها: هل تلقيتِ رسالتي؟ تدفقت الدماء فاختلطت بسمرة وجنتها الناعمة، قالت: نعم.

قالت له: أنت تعرف أنني أكثر الناس تعذيباً للنفس. وقد فكّرت

طويلاً. لم أجد إلا أنّ شيئاً ما قد صدمنا. أيمكن أن يصدمك شيء فجأة، على غير انتظار، ثم تهتف، بعد وقوع الواقعة: حاسب.. لماذا؟ كيف لم تتخذ حيطتك؟

كان قد أبرق إليها، من الجنوب الحارّ المزدحم بسوقيةِ البذخ البالي القديم، يطلب منها أن تنتظره في المحطة. وفكّر كيف يوقع على البرقية، وقضى الساعات الطوال يصوغ العبارات ويختار التوقيعات، ويبني ويهدم، في عُري غرفته المقفلة في الفندق.

ورتّب كل شيء، وأعد لكل شيء عدته. يصل يومين أو ثلاثة قبل ميعاده، لا ينتظره أحد إلاها، لا يعرف أحد بوصوله.

ويعودان إلى الأرض الغريبة المسحورة التي عرفت خطواتهما.

وكانت على رصيف السكة الحديد، وقد لمحها من القطار وهو يدخل المحطة متمهلاً، مستنفَداً، فجن جنون قلبه فرحاً وشوقاً ولهفة. واحتواها بين ذراعيه، في زحمة الناس، غير عابئ بشيء. وتلمست شفتاه خدّها الوثير، وغمرت وجهه مرة أخرى رائحة أنوثتها العبقة الخصيبة ممتزجة بعطرها الذي يذكّره دائماً بليال ليست من هذا العالم. يدها في يده، وهما في السيارة، وحدهما، وعلى أرضها. ميناهاوس؟ شبرد؟ سميراميس؟ بل أوبرج الفيوم.. والطريق الصحراوي في الظهر، حار ومتوهج ومليء بوعود غامضة.

في الفندق نحرص، أمام الموظفين والخدم أن نُخافت بسعادتنا، أن نحتاط على حبنا الذي نهرب به منهم، منهم جميعاً. وكنت قد اشتريت لك خاتماً ذهبياً عندما أدخلته أصبعك، برقق، على غير انتظار، في السيارة، لم تنطقي بكلمة، من الدهشة. على غير عادتك.. والغرفة العلوية الفسيحة، بعد السلّم الخشبي العريض الداكن المعتم قليلاً، ومرة أخرى، مرة

أخرى، تقذف بنا مياه الشوق والوجد المتلاطمة الهوجاء إلى أحدنـا الآخر، بمجرّد ان يُردّ علينـا البـاب، أنتِ الآن بـين ذراعيَّ والسدود التي تضغط عـلى ينـابيع حيـاتي تسقط في نعومـة جسدك وتتهـاوى دون أن يكون لهـا وقـع ولا صدمة. أنت معي. أنت لي. وأستطيع الآن أن أملأ قلبي بعينيك الواسعتين الصافيتين اللتين لم أعرف أجمل منهما، أستطيع أخيراً أن أحس دفئك يذيب الجمـد حـول نفسي وأن أذوق طعم شفتيك الحـارّ اللدن. رامـة، رامـة، حبيبتي الرائعة الغريبة. أستطيع أخيراً أن أسألك هل تحبينني. وتقـولين لي نعم، نعم. ولا أكـاد أصـدق حسّ يـديّ ووجهي وشفتي بـك. لا أكـاد أصدّق أن هذا الحب، هذه البهجة مـوجودة. وأنها حقيقـة. وأن العالم قـد أصبح توافُقاً، وطواعيـة، وصُلحاً. إن الحـرية والمعنى قـد أصبحت حقائق حسية مجسدة بين ذراعيّ، بازاء جسمي، أضمها إليّ وتحتويني.

وتُفتح الحقائب في لهفة، وتطير الثياب، وتهتفين أمـام الهدايـا وأنا أبتسم صـامتاً، ولأول مـرة نذهب إلى الشرفـة فنفتحها عـلى هواء البحـيرة الملحيّ ومائها السـاكن بفضيته المتـوهجة التي تلمـع مثل رقـائق الصلب الداكنـة. والرائحة الحرّيفة يهب بها هواء الظهر السـاخن، وصرخة نـورس وحيـدة في قلب الفراغ، حارة وعذبة كجرح سكين في جسـدٍ طري، وهي تنقض من علٍ، وترتفع. ونحن نضحك، لا لسبب. لمجرد أننا معاً، وأننا عاشقان.

وجهك المشبوب بوهج الحب تحت شفتي، وذراعي تحيط بظهرك الشامخ الناعم الالتفاف المستقرّ إليّ في راحة وأمن، وأنت تهمسـين لي مرة أخـرى، كما همسـت لي ليلتها: ضع يدك على صدري.

صدرك الصافي، العذريّ، باستدارته التي تفوق عذوبتها كل نشوة، دافئاً وخمرياً ونـاعماً، وأنفـاسك المتـلاحقة الحـارة لها طعم الرحيق الحلو، وهذا الثمل الخفيف الذي تفقد فيه كل الأشياء ثقلها يقودنـا مرة أخـرى الى أولى خطواتنا نحو سماوات رقـراقة تضيئهـا شمس عينيك، ثم ننقضّ كـالجوارح

إلى الأغوار المبتلّة بندى الحب، تنبت فيها أزهار ضارية، في وحشة أدغالٍ تفور بكثافة الخصب والايناع الشرس.

والسلام الذي تعقِد فيه النفس صلحاً راضياً، تقبل فيه وحشيّة الحياة، بل تنساها وتنفيها.

ونزلنا نتغدى، ونمنا بعد الظهر، جنباً إلى جنب، ولم نكفّ عن الكلام والضحك. وكانت عيناك دائماً باسمتين، عاشقتين، ليست فيهما تغطية ولا ترقّب وليس وراءهما هذا الذكاء المتوفز السريع الحركة، بل الأنس، وابتسامة.

وسرنا بجانب الحقول، وكان نسيم بعد الظهر فيه نفحة برد، ونزلنا إلى برك الملح الصغيرة على شطّ البحيرة الرمليّ الليّن، وجمعنا حفنات هشّة من المسحوق الرمادي الأبيض الذي ذاب في أيدينا، ومررنا بأصابعنا على شفتي أحدنا الآخر فذقنا طعمه اللاذع وضحكنا. وأنا أنظر إلى شفتيك السمراوين وقد استيقظت رغبتي فيهما، بتوق وتطلّب ورضى

لا .. لم يحدث شيء من ذلك كله.

لم يقل لها: تخاييل حبي غذاء مُر، لا أقبل عنه عوضاً، والخبز الذي به أعيش، والدم النبيذ لا ريّ لعطشي فيه ولا أني أعبّ من خمرته المدمّرة.

لم يقل لها: توشك الحياة كلها، بعد أن عدنا، تصبح شاحبة، شفافة، كالخيال.

كان المغيب قد هبط فجأة على جزيرة الشاي، وكان الحديث قد سقط في إحدى الفجوات التي تجيء من آن لآخر. أشعل ميخائيل سيجارتين. وعندما انطبقت شفتاها على سيجارته، في موضع شفتيه، وبها بلل خفيف لا يكاد يُلحظ، احسّ بين شفتيه هو بما يشبه نفح قبلةٍ لا جسد لها، عابرة، مُتوَهّمة، ولا ثقل فيها.

ونـاداها، من غـير صوت، وهي أمـامه، تـنـظر إلى الأشجار عـلى الشط الآخر:

ـ رامة. . رامة. . أريد أن أعرف. . أين الحقيقة؟ ما الحقيقة؟

كـان البطّ البكيني الصغير في الميـاه القـاتمـة قـد كفّ عن الصبـاح، والأشجار الكثيفة على شاطىء البركة الآخر تبدو مهدّدة، وداكنة، كأنما تنوء تحت وطأة رقية غامضة.

سقـطت قطرة مـاء ملح في البركـة الراكـدة، وجاءت البجعـة السـوداء، الملفوفة الجناحين، تلعاء العنق، تنساب دون صوت على المـاء. كانت أنوار الكـازينو قـد انبثقت، زرقاء ومكتـومة، والنـاس قد ذهبـوا، والجرسـونات جلسوا في المطبخ، يتحدثون بصوت خفيض، كأنما كانوا خائفين.

وقفت البجعـة تحت السـور الحـديدي الـرقيق العظْم، أمـام مائـدتهـا. سـاكنة تنـظر بعينين زجـاجيتين، خضرتهـا حالكـة، وفي جسمها المستـدير نعومة متحدِّية مستقرّة لا تُنال.

وهبّ ميخـائيل فجـأة، قائـماً. وثب وثبـة واحـدة خفيفـة إلى الـبركـة، وغاصت قدماه في الطين الرخو، بصمت، وارتفعت المياه، دون أن يتطايـر لها رشاش، إلى ركبتيه. كانت يده قد قبضت على البجعة، والتفّت أصابعه على العنق الطويل وهو يضغط على العظْم المدور المضلع النحيل، والريش الأسود الحريري يكاد يغطي يديه، ويثيره.

لم يندّ عن البجعة الصوت، لم تزعق زعقتها الأخيرة، لم ينفتـح منقارهـا الحادّ الممدود، لم يرتفع جناحاها يصطفقـان ويرفـرفان في طلب الحيـاة، في سكرة الاحتضار. ظل العنق السـامق، في العتمة الخفيفة، قوياً، متـماسكاً، صلبـاً، في قبضته المهتصرة. وغـاص ميخائيـل في المياه، ودار ذراعـه حول جسمها يطويها إليه، يحتضنها إلى صدره وقد أوشكت المياه الآسنـة أن تغمر

وجهه، وذاق طعمها الطينيّ فيه حلاوة عطنة خفيفة، وهي ما زالت شامخة، مرتفعة، ناعمة الاستدارة، طافية على وجه الغمر، لا تعلق بها المياه.

وغـارت الأرض الطينية تحت قدميه، وانزلقت رجلاه تحت الماء في وحل لـينّ مرحّب طـريّ الملمس يجذبـه إليه بتـوق لا يُرَد. وقلبـه يصرخ صرخةَ راحة بازاء جسد البجعة المنساب الذي يكاد يفلت من حضنه، وهو يعتصر بين ذراعيه الجناحين المنطبقين، في هدوء، على الجسم المدور البارد.

الطين ينفتح فجأة، ويشرخ، ويغـور في عمق ساكن مـظلم، وهو ينقلب مع البجعة الصامتة التي تميل على جنبها، بين ذراعيه المتقبّضتين.

وتتداح موجة واحدة واسعة الدوائر، على سطح المياه التي ينعكس عليها آخر احمرار قطعة ممزقة من السحاب في سماء المَغيب.

هذا كله قد حدث بالفعل.

٣- مركب فى آخر البحيرة

لما استضاءت الأرض وطلع النهار، نزلتُ إلى البركة. وعندئذ رأيت امرأة لم تكن من سلالة البشر. اقشعر جسدي عندما نظرت إليها، كان أهابها غضاً وناعماً وما زال حبها في جسدي.

ولكن الضوء كان يتقطر من سقف العالم، خافتاً من وراء سحاب أبيض. مبنى الأوبرج، من ورائه، منخفض، جدرانه حفرتها ضربات الهواء الملحيّ، ووقدة الشمس، وتركت نقطاً دقيقة كثيرة غائرة في حجره الرمادي ونسيج الخشب القديم في أبوابه العريضة. كانت النوافذ مغلقة الزجاج مسدلة الستائر، والسور الرقيق يتعرج، مكسوراً هنا وهناك. مياه البحيرة يبدو له ملمسها صلباً فضياً خفيف الموج. وأكوام صغيرة من الطوب تضغط بثقلها على الأرض الرملية الرخوة، الداكنة بنشع الملح.

دوت طلقة رصاص من بعيد، قال لنفسه: هذا أحد الأعراب يصطاد السمّان وأضاف: لبيعه للسياح والزوار. وانشقت السماء فجأة عن رعد طائرة ميج تَقَلّبَ هزيعُها بين السحاب، وخطفت، ثم اختفت في البعد.

كان قد قال لنفسه، عندما فتح عينيه من النوم: نأخذ مركباً، ونطلع إلى عرض البحيرة.

كان يخطو على الأحجار الناتئة في نشع المياه القليلة الغور، إلى الجسر الخشبي المرتفع على الماء. كانت قدماه تتلمسان صلابة الحجر المبتلة، وهو

يكاد في كل خطوة ينزلق، بحذائه القماشي الأسود، على الطحلب اللزج. والقواقع الصغيرة النابتة على الحجر تتهشم تحته في قرقعةٍ مكتومة، خفيضة الصوت في الهواء الفسيح. ثم يثب بخفة من حجر إلى حجر، مبتسماً وحده، يمد ذراعه ويوازن حركته السريعة الحرجة. وقد حس حياة جديدة، وتوفزاً في الهواء برائحته اللاذعة وبرده الخفيف. ويقف لحظة، يعبّ ملء صدره من السماء البيضاء الرقيقة.

رامة.. رامة..

الشوق الممضّ، المحرق، للعودة إلى حضنها الناعم الدفيء، إلى إحاطة كتفيها بذراعيه، إلى عينيها. الشوق يهجم عليه فجأة، والنداء المكتوم يرتفع مرة أخرى. رامة، رامة، ماذا حدث؟ أين أنت؟ أين أنت الآن مني؟

قال لنفسه: لن يسحقني هذا الشوق، لن تغرقني موجته التي ترتفع، وتغمرني، كموجة من الدموع تصعد بي، وتسقط. لن أترك المياه المرتطمة تطويني في غمرتها، وتملأ عيني بهذا الملح الحارّ، أشهق بالصرخة التي تسدّها المياه.

ولكن الارادة، والنيّة المعقودة، ليست لهما الكلمة الأخيرة.

كانت قد قالت له: إنه لا يضفي على شيء صيغة درامية.

كانت تتحدث عن صديق لها، لا يعرفه، كم لها من أصدقاء؟ ومن أي نوع هذه الصداقات؟

وهل كانت تلومه، بلباقة، وتومىء إلى خيط من الدراما في فهمه وتصوره للأمور؟

نظر إليها، كما ينظر دائماً، يحاول أن يعرف من هي.

ولم يقل لها: ألا تقع، في الحياة؟ أليست كل لحظة من حولنا دوراً في مأساة مكتومة، مسلمًا بها أو غير مسلّم، سواء، رثة، ولا صوت لها، صحيح، ولكنها هناك. ما الذي هناك. وطء الألم الرازح القدمين يغوص في أرض النفس، ولا يتزاح؟ مجرد الألم؟ العالم، بالطبع، معجون بالألم.

نعم، كانت ستقول له، بلا شك، نعم، ولكن لا نُضْفِ عليه هالة ضوء مسرحيّ. نعم، كانت ستقول له، بلا شك، ولكن لنضع الأمور في حجمها الحقيقي، فلا تُبتذَل.

لكن المأساة يا حبيبتي أنها مبتذلة، حياتنا، وما فيها من مأساة، مكرورة، ليس فيها صيغة. قد تكون صيغتها، وحقيقتها، هي الألم. ولكنها في كل مرة، في كل لحظة، لها حرارة القسوة التي لا تتكرر. الصيغ لا معنى لها، الكلمات لا معنى لها، لكن حروق المأساة ينتفض لها اللحم الحيّ العاري، هذه لا صيغة لها، لا كلمة تحملها أو تنقلها أو تعنيها، هذه أعرفها فقط، ولا يمكن أن أعرف كيف أقولها.

كل الناس تعرفها، بشكل أو آخر.

هذه، يا حبيبتي، صيغة أخرى، من جديد. هذا كل شيء.

لا مفر من حصار الابتذال والرثاثة، لا مفر من وجه الفاجعة القبيح.

شوق الحب الذي لا ريّ له، في غرفته الصامتة، يغمره، لا يمكن مقاومته، مهما كان الإنكار.

كانت قد قالت له: بعد الظهر، لعلّي ـ لعلّي، لا أكثر ـ أستطيع أن آتي إليك. فإذا لم أستطع، أتمنى لك رحلة سعيدة.

السعادة؟ هذه قصة أخرى.

لا يضفي على شيء صيغة درامية. لكن هذا الانتظار الذي لا طائل

وراءه، هذه الرابطة الحميمة التي تُقيم حياته، حتى بالشوق، حتى بالحديث الصامت معها ـ قد انقطعت الآن. يتوق الآن إلى أن يسمع فقط نبرة صوتها، يحس نغمة الدفء، أو مجرد حرارة النفَس، في نأمتها. لا يسمعها، وكأنه لن يسمعها أبداً. وارادته في ذلك كله محبّطة بالضرورة. لن يحدث شيء، فما من وسيلة. قد انقطعت كل السبل. قال لنفسه أنزل الآن، واذهب أبحث عنها، عبر الشوارع الليلية في القاهرة، النيل، ثم الكوبري الذي عبرناه معاً، وأترك إلى يميني الشارع الجانبيّ المفضي إلى الأزقة الضيّقة المزدحمة بالأوهام وأنصاف الحقائق والعذابات، إلى البيت القديم الذي ما تزال تراودني صورته، بالحاح، تحمل إليّ هولات الجنون الشائهة، أتجاوزه هذا الشارع الذي لا جدوى من مقتي له، وأنساه لحظة كما أنسى أشياء كثيرة، أو أدفعها إلى النسيان بيدي بقسوة، وأطلب من سائق التاكسي أن يمضي بي في الطريق الليلي، وأسأل، أتوقّف عند أكشاك السجاير أسأل عن طريقي إليها، وأنحرف في شوارع متحدّرة، وأطرق باب بيتها. ألف عذر، على الفور، تتخلق في وهمه، وألف حجة، ومشهد الطارق الغريب في الليل ـ وهو مسافر في الفجر ـ تدور حوادثه، وتبرز من الظل شخوص حياتها الأخرى، تتحلق به، وتتخبط في حصار التحيات وعبارات الترحيب وأهلاً وسهلاً هل تأخذ بيرة؟ تعشيت؟ وكيف الأحوال؟ وهو يئد المشهد ويكتم الوهم ويعصر بيديه دماء الخيال الأخرق، فلن يحدث شيء.

ولكن الوحشة هي التي تبقى. أبدية الوحشة. والأفق الذي لا يمكن الوصول إليه. متى يخرج من الوحشة الخاوية الشاسعة التي لا نهاية لها، ولا أمل في نهاية؟

عندما انحسرت موجة الدموع التي جاءته ـ كما تأتيه كثيراً الآن ـ تطوح به على الرغم منه وتمزقه، في سجنها الكامل، كان البيت كله، حواليه،

تهبّ فيه رائحة الخوف. خوف غير عاقل، غير مدرك، لا يمكن أن يُمسك به. أنفاس شيء غريب متربص، يهدده تهديداً غير واضح ولكنه مؤكد، ماثل، باق. كان خائفاً. النوافذ المفتوحة على حرّ الليل مصمتة مقفلة مسدودة على هذه الأنفاس المخيفة التي معه. لم يكن يستطيع أن يتحرك، ومقاومته لهذا الخوف تضعف بالتدريج. رفع سماعة التليفون، كأنما على الرغم منه، كأنما يطلب المساعدة، على الرغم منه. وتماسك، وهو يسخر مرة أخرى من نفسه، ليس في سلوكه شيء جديد؟

ـ هاللو، كيف أنت يا عم؟ ماذا تفعل؟ أبداً، أنا مسافر بعد ساعات، كنت أريد أن أراك قبل السفر. لا بأس، نعم. . لو تستطيع أن تأتي. . أنا وحدي في البيت. . نعم. . أحس بالطبع شيئاً من الوحشة. . لو استطعت أن تأتي.

انكسر شق آخر، وأحس، في قلق، أن صوته فيه رعشة:

ـ أبداً. . الحقيقة أني مستوحش جداً، وخائف قليلاً.

وضحك ضحكة غير ثابتة:

ـ لا أدري، أبداً. . خوف هكذا. . لا معنى له. . ليست هذه أول مرة أسافر. . بعد ساعة؟ نعم، عظيم. . أنا أنتظرك.

واستسلم بعد ذلك للانهيار الكامل. كل شيء فقد حدوده، تراجعت كل المقاييس، لم يعد هناك إلا انبثاق مياه الألم والوحشة انبثاقاً صعباً، من الصخر، ينحت الحجر، لم يعد إلا هذا العواء الأجش المكتوم، عواء الألم الحيوانيّ بأسنانه العارية الحادة، بلا مقاومة.

قال: الناس يكررون أنفسهم، ما أشد املال هذا!

قال لنفسه: وفي داخل أنفسنا، كلنا نظن أن ما يحدث لنا شيء فذّ لم يحدث من قبل لأحد، ولا يمكن أن يحدث مرة أخرى. . مجرد هذا النداء

الذي أجله يرتفع مني، على الرغم مني، باسمك: رامة. . رامة. . يبعث أمواج الحب المضطربة في بحر مسدود مغلق عليه، ويغرق عينيّ، دائماً، دائماً.

هل تذكرين ليلة أن جئت إلينا، شربنا كأساً، وتحدثنا عن رحلتك الأخيرة، وكنت كعادتك مرحة لماحة خارقة في ذكاء ملاحظتك، مليئة باللقطات البارعة الساخرة الطيبة عن زميلتك في الغرفة، كيف كنت تجدين معجون الاسنان تحت المخدّة وقطعة من ملابسها الداخلية، فجأة وبلا سبب، في حقيبة يدك، جنب منديلك، وضحكنا. وحكيت أيضاً كيف شربت كأسين بالأمس، وسكرت سريعاً، قلت إنك تسكرين بسرعة، وقلت لي بعد ذلك إنك، في فترة من الفترات، اكتشفت فجأة أنك على وشك الوقوع في الادمان، وأنك قاومت. قلت إنك سكرت، مع أصدقاء، وغنّيت. قلت إن صوتك ليس على الإطلاق غنائياً، ولكنك انطلقت في الغناء.

رأيتك فجأة، في صحراء القمر القديم، أجسام السيارات معتمة، واقفة على البعد في غير انتظام، مطفأة الأنوار، الرياح جافة، طعم الرمل الناعم في الهواء الليلي. الشاليه الصحراوي مفتوح الباب، والناس حواليك، يتحركون، وجالسون، في غموض حلمي السّيء الموجع، أنت تغنّين بمرح، ولا مبالاة أتصور فيها نبرة يأس وطلب للنجدة أيضاً، نبرة مع ذلك فيها تحد وتطويح بالمسلمات والأصول، وأنت جالسة على مرتبة، بالبنطلون، على رمال الصحراء.

هل كانت تلك الليلة هي أول رمضان؟ أم ليلة أخرى؟

كنتِ قد قلتِ لي:

- أميل الآن إلى أن أفعل أشياء متهورة. عدت إلى نغمة تمردي القديم.

لعل استحالة التهور أمامي، أمامنا، في هذه الحكاية، تدفعني إلى هذا التمرد من جديد، وإلى الجموح برأسي، في وجه كل شيء.

قال لنفسه:

قلبي يصرخ بالتمرد يا حبيبتي. وأكتمه. أريد أن أحطم العالم. أريد أن أكسر صخرة الحلم بضربة واحدة، وأجمع فتاته بين يدي، في فرح وحشي، وأقذف به في وجه كل الصخور الأخرى، أغرسه، بشراسة التمرد الذي لا يعَقِل، في قلب العالم الحجري، وأغرقه، وأستنبت منه أعواد البوص المجنونة المزدهرة في الشمس، بشواشيها المحلولة الشعر. أريد أن أعتصر هذا الشوق الذي يتفجر في داخلي، بين كفيّ المحروقتين اللتين يضرب فيهما الألم، حتى يجف قلبي ويتصلب عموداً يشق ثغرة نحو المستحيل، وأجمعك، أنت يا ساحرتي الطائرة الشتات، إلى صدري، كنزي ومجدي شهوتي، وأجعلك واحدة. أريد أن أمحو، بدقات يدي، كل الملامح الممسوخة الشائهة في وجه العالم، أن أمزق بأظافري لحم الزيف الذي يتقطر بسائل باهت بطيء، أن أسلخ الجلد الصخري، أن أدمر، أدمر، أدمر القهر والوحشية الرابضة بصمت وكآبة خلف عينيه. كم أنت حبيبة إليّ. أريد أن أضم بين يدي وجهك الناعم السمرة، وأضغط على عظامه، أضغط عليه، حتى تتشكل عجينته بعظام يدي، وتمتلىء لحظة واحدة وإلى الأبد، يداي الخاويتان. المياه امتلأت، فجأة، بالحيوانات الغارقة التي تعوي فاغرة أشداقها، تنهش لحمها بأسنانها الطويلة.

قلت لك: نعم، بالأمس، كنت في الهرم، في الشاليه.

لم تكوني قد قلت أين كنت، فقلت، وفي صوتك نبرة متيقظة، مفاجَأة، متنبهة لخطر ما:

ـ كيف عرفت؟

أنت تعرفين كيف تدافعين عن خطوطك، ولكنني ـ أنا أيضاً ـ أعرف قليلاً وأحياناً فن المناورة.

رويتِ كيف احترقت مرتبة القش، من عقب سيجارة، أو جذوة نار. هل كان في هذا المشهد شواء لحم، مع الشرب والغناء؟ وكيف أنك قلت له:

ـ لا شك أنك يا بني غارق في الحب. . أو مسطول!

من تلك اللحظة سمعت في صوتك نبرة غريبة، لم تزل أصداؤها تسقط بالطعنات حتى الآن، وقد تضخمت بعد ذلك بألف ثقل جديد.

في عيد ميلادك، سيارةٌ تحمل أثمن ما في العالم كله تنحرف إلى اليمين، في غير طريقها، إلى شارع مزدحم، نحو بيت قديم له باب ضيق معتم، ملامسة كتفين، أمامي، في تاكسي مزدحم، نظرةٌ متحفظة تحمل سراً، أغنيةٌ مكتوبة في ورقة صغيرة، حديثٌ ـ بتلك اللهجة التي أعرفها حق المعرفة ـ في التليفون، أبياتُ شعر منشورة في صحيفة قديمة، ميعادُ عمل، سهرةٌ في البيت، وورقةُ خطاب بيضاء تصل إلى بعيد وعلى رأسها كلمات «القاهرة، بعد نصف الليل»، ألف طعنة تمزق ذهني بالعواء المكتوم العاري الاسنان. ما أخف وزن الأشياء التي تصنع نسيج الموت، وما أكثرها حولنا.

قلت لي، وفي عينيك تلك النظرة المعابثة الحنون معاً:

ـ هل تغار منه؟

أغار من كل رجل في حياتك. كل رجل.

مددت أصبعك إلى ذقني، باسمة، تمسحين جرحاً حديثاً:

ـ يا لك من صبيانيّ؟!

وكانت ذراعي على فخذك العارية، والقميص الأبيض القصير منحسر إلى أعلى وبطنك مستديرة سمراء ناعمة الاهاب، والأعشاب الخفيفة جافة. ومن الفتحة الطويلة في النايلون الخفيف تبدو لعيني جوانب نهديك الممتلئين بالبضاضة اللدنة المستريحة، مستقرين على الصدر الذي يحمل في داخله لغز الحب، مستكناً، منيعاً، خفياً.

عندما نزلنا إلى الشارع النائم، قلت لي:

ـ في الفترة الأخيرة ظللت أستعيد ما حدث في مدينتنا المسحورة، وأسترجعه ألف مرة.

قلت لك: نعم.. كأنه حلم غريب.. هل هذا حدث فعلاً؟ يخيل إليّ أنه لم يحدث...!

قلت بنبرة فيها سرعةٌ ما، ومهاجِمة:

ـ أعتقد أنه حدث بالفعل.

قلت لك: نعم.

لم أقل لك إنني لم أنكر، ولم أكن أريد أن أنكر أنه قد حدث. هل كان في حدة نبرتك اتهام، ووثبة دفاعٍ عن حقيقة حلم ليس في عالمي إلا هي؟ بل كنت لا أصدق ـ حتى الآن لا أستطيع أن أصدق ـ ما زلت أظنه حلماً اشتركنا فيه، بالصدفة. ما زلت على غير يقين من أن العالم كان يحمل إليّ، على غير انتظار، في آخر نوره، هذه البهجة الجنونية التي تقع، لفرط شراسة عذوبتها الحادة، خارج موسيقى السماء.

قلت لي: ألا توصلني إلى فوق؟

توقفت حركة الصعود، فجأة، وسكت الطنين الكهربائي المنتظم. تحت النور بين جدران البئر الأبيض المضيء، أمسكت وجهي بيدك الغضة،

وأدرته إليك، ووجدتُ شفتيك من جديد. ضربات الصناج، وعزف النحاس العميق المتردد الأصداء في وحشة الأفق الخاوي الساطع بالنور، شفاهنا كائنات حية تنتزي وتتقلب وتعتصر جسد البهجة وتجوس ببطء ولهفة لا ترتوي أبداً تتلمس جدران الشوق المطاوعة. أنفاس صدرك المليء الحار بين ذراعي، هي وحدها الرياح التي تسير بها الآن سفينة العالم، تمتلىء بها الأشرعة المفرودة عن آخرها، على سارية تشق، بانتصار، صدر البحر المظلم.

قال لنفسه: ليس في قصة هذا الحب ـ ليس في قصة هذا الرجل ـ لحظات سعيدة كثيرة. تلك كانت لحظة سعيدة.

قال لنفسه: كان فيها مفاجأة التأكيد الذي يوهب ولا يُطلب. كان فيها الوعد المرغوب الذي يتحقق، وهو في الوقت نفسه يحمل البشارة غير المحدودة. ما أندر لحظات السعادة. وكم هي مُضْنية.

ولم يقل لها: يا حبيبتي، أين ذهبت أيام البشارة؟ هل انقضى صباح حبنا؟ أمقت الليل. أمقت الليل. الوجه الآخر لصخرة الحب، قاطع، مرتفع، مصمت ومسدود.

قال لنفسه: لن أدع الحلم يسحقني.

كانت في داخله صلابة مفتوحة العينين. الليل لا يجيء ولا يذهب. وليس هناك صباح. بؤرة الشمس المظلمة المتقدة بنور أسود صخريّ.

عندما كان يهبط عليه المساء، والليل، على مهل، جناحين شاسعين من الحر والصمت ينطبقان، لم تكن خطى الساعات سريعة. كانت للوحشة أيديها الكثيرة الطويلة، وأصابعها الجافة العظام، تنغرس في الأرض المبتلة، جرحاً بلا دم، ولا صوت. كان نداؤه الوحشي باسمها في كل مرة جرحاً جديداً.

قال لنفسه: هذا غير صحيح. أنه لا يحدث. لا يحدث لي. لا يمكن أن يكون هذا هو الذي يقع. هذا الألم الطفليّ الذي لا يطاق. لكنه ليس طفلاً ذلك الذي يتعذب الآن.

من غير جدوى.

قال لنفسه: عذابات الطفولة قد انقضت. ألم تنقض؟

قال لنفسه، بصوت مرتفع، وللجدران المعتمة: أجنّ. هل أنا أجنّ؟ وأفقد السيطرة على الرشد؟ هذا مضحك، وصغير، وغير معقول. ولكنه يحدث. يحدث لي. لا أكاد أصدق هذا الذي أراه - مرة أخرى؟، مرة أخرى؟ - هذا الذي يحدث أمامي، في سنة ٧١، في غرفة من شقة في بيت في شارع في مدينة مزدحمة. لا يجري هذا في السحاب ولا في حلم ما. هذا الكرسي، والكتب، وأوراق الصحف والمجلات، وكيزان صنوبر جافة، وموسيقى ميكانيكية من ريكوردر ياباني، وأباجورة صفراء فيها مصباحان مائة شمعة، وزجاج مكتب قديم، وأحجار وأخشاب رثة منحوتة، ونسخ صور من روبنز ورينوار وآخرين، وأقلام وزجاجات حبر، وكل نفاية الحياة التي يعيش الناس معها، أمد ذراعيّ مقهوراً بقوة لا تُرد، أبتهل هل هناك إلا أنني أبتهل؟ - أهمس بصرخة خافتة أخاف أن يسمعها أحد، باسمك:

- رامة.. رامة..

بنداء لا سيطرة لي عليه، ينشق عن شيء آخر في داخلي، شيء غريب عني، هو أنا. أمد ذراعيّ، في توتر المقاومة المشدود، إلى استجابة ما، لا أعرف أنها هناك، من وراء السقف الأبيض الذي يسقط عليّ، أبتهل، نعم.. ليس هناك إلا حرارة صلاة، ضغط كابوس، أنين نداء للمرأة التي احتضنتها، وعشقتها، وكرهتها، وأحببتها، وأخذتها إلى قلبي، وعرفت غور أغوارها، ودفء رحمها، ونعومة ثدييها، وقسوة عينيها، وشهقات شهوتها، ووجدها وانكسارها، وطعم دموعها، وأموت كل يوم، كل يوم، ظمأ إليها،

المرأة الالهية العرافة الطفلة، الضاحكة الجادّة التعسة، العابثة الداعرة القديسة العذراء الأبدية، ولا أعرفها، غريبة، وجزء مني لا انفصال له عني. ولا نهاية لها الآن وأبد الدهر. أهذه السورة من الجنون تحدث؟ ليس سحراً توقعينه بي، هذا غير السحر، وغير العشق، وغير الجنون. . وألف مرة في اليوم، كل يوم أصمم أن أنهي هذا كله، وأظن نفسي قادراً على القطيعة، وألف مرة أعود فأجد نفسي غارقاً في حمأة حبّك، في طين حلم خصيب أغوص فيه، برغمي وباختياري، والحجر يجرح أضلاعي، أغوص في مادة طينية لزجة كثيفة وأقول لنفسي سوف أنتزع جذور الحلم من أرض نفسي، سوف أنتزع نفسي من طينة الحلم، حتى لو تركت هناك فلذة حية تنتفض، مقطوعة حمراء بالدم تقطر ماءً قاتماً، بعيداً عني، أريد صفحة البحر الشاسع الملح الذي لا أفق له، لا أريد هذه الأمواج الثقيلة تسد فمي وأفتح عينيّ في مياهها المضطربة أرى عكارتها الكثيفة ملء الحدقتين ملء العالم وعندما أصحو أجد نفسي دائماً دائماً ذاهباً إليك مقتحماً عليك عالمك عالمي الذي لا أتعرف عليه أعيش بك ومعك ولستِ معي أهذا يحدث؟

قال لنفسه: أنت لا يمكن أن تتحقق ما يحدث لك، ولا تصدقه، بينما هو يعصف بك ويدمرك. الموت، عندما يحدث، سوف تنكره أيضاً. لن تصدق، وهذا موت جديد في كل مرة، تحطيم لا يطاق، لا يُتصور أنه يحدث.

قال لنفسه: وهو في النهاية شيء مُهدر، مجاني، بالفعل، مهدر ولا معنى له. وهي. . هي لا يهمها، ولو عرفت أنه هناك، تراه غير جدير بالكلام، لا يقال، أو غريباً على الأقل، وغير ضروري، وغير مفهوم. وهو نفس الشيء.

أو يُقابَل، عندها، بالسخرية الخفيفة، أو الرثاء، أو التسامح والقبـول، أو الفهم والتقدير، أو العطف.. وهو ما لا يطاق.. كله.. سواء.

فماذا تريد؟ لا حاجة لأحد بهذه الدراما.

كان ميخائيل واقفاً على خط الحجر المتقطع الذي يمتد متلوياً عبر مياه المستنقع الخضراء الرصاصية القليلة الغور. ملأ صدره بهبات الهواء الملح. تخبطت في أفق السماء الشفافة المشدودة بضع صرخات بعيدة من أولاد الاعراب، يلعبون أو يتعاركون، اختلطت وحشية نبرتها، في البعد، برقة صبيانية مكتومة، غير مفهومة. فرقعت طلقات رصاص متلاحقة. وسقطت، بثقل، من سقف العالم، أحجارُ الأحلام الهشة الغضّة اللحم ترفرف في يأس، مزّق الرصاص صدورها المفتوحة، على الشط القريب، وعلى السور، وأكوام الطوب الأسود. قطرات دم قليلة تنز، شحيحة ومدوّرة، على اللحم المشقوق الأسمر، نقط ثقيلة داكنة، عيون حمراء كلها. عيون صفراء واسعة قاسية، يخفيها ريش الحلم الملون بالأبيض والبني والرمادي، صغيرة، لم تسعفها الأجنحة الدقيقة المحكمة الجمال ولا نفعتها سعة السماء الفسيحة. كانت تطير في موجة كثيفة ترفرف صاعدة، تهرب بحياتها من خطر ماحق يرتفع ويلاحقها من تحت. مناقيرها العظمية الفضية مطبقة الآن. أحلام سقف العالم الغضة لن تجد من يدفنها ـ على الأقل ـ في تربة الأرض الرملية الملحة. تباع في سوق النخاسة مقابل ثمن تافه الوزن وحجمه صغير. صدورها السمراء اليانعة قد انشرخت عظامها، في الصدمة النهائية، ونزت بدم قليل.

كنت أريد أن أضمك إليّ، أنت والحلم والعالم معاً، ما أكثر ما كنت أريد! ومع ذلك فما أشد ضرورته الصارمة.

كانت ذراعاه تتأرجحان في الهواء، يوازن حركة جسمه المندفعة إلى

الأمام، في وثبات خفيفة، على الأحجار الزلقة بوجوهها الممسوحة المبتلة، وخصل الشعر الخضراء الصفراء من طحلبها الأبدي المزدهر اللمعان الذي يهتز في الماء الملح أمواجه الصغيرة تترقرق بأصوات قبلات طرية، في ثقوب الحجر.

أمسك بالحاجزين الطويلين على جانبي السلم، ومسُّ الحديد الصدىء الخشن يخدش يديه، ويكهربهما، وارتفع بجسمه على القضبان العرضية التي تهتز وتنزل تحت ثقله قليلاً. كانت عوارض الجسد الخشبية الجافة الدقيقة الألياف تتأرجح وهو يسير عليها. عيناه تتعلقان بخيوطها الملتوية بذكريات خُضرةٍ قديمة غابرة قد ابيضت الآن من الملح والشمس، وخطوط رفيعة جداً من الماء تلمع من خلال شقوقها المستقيمة، كان لاهتزاز الخشب تحت قدميه وقع استسلام هين مرن يصعد في قلبه بنشوة خفيفة، يأخذ طريقاً طويلاً ممتداً فوق الموج الرصاصي الثقيل، كأنه يعود به إلى موطن قديم منسي. يتجاوز الآن دغلات البوص الملتفة الحادة الأطراف حوله، بينما رغوات الخضرة المتخثرة الراكدة على سطح الماء الكثيف المعتم. وبين التفافات البوص نفايات علب المحفوظات الصدئة، وفردة واحدة من قبقاب خشبي، مبتلة طافية منزوعة الجلد، وقطعة مطاط لامعة سوداء من عجلة سيارة. طريق عريض، نظيف، جاف، فوق الرغوات والالتفاف والتخثر، بحاجزيه الحديديين الرقيقين، يدعوه بمجرد براءته ونصاعة جسده الخشبي العاري الألياف، نحو عرض الماء الرحب، والمركب ينتظره في الآخر، عند السلم الحديدي الغارق في الماء. ولا يكاد الشط الصحراوي من بعيد يبدو لعينيه، في خط من ضباب رماديّ باهت، يتخايل من ورائه ما يكاد يشبه الأوهام من بنايات الأبراج الرومانية القديمة البيضاء، وقمائن حرق الطوب بكتلتها الغليظة غير واضحة، يكاد يمحوها البعد

كان الهواء الملحي يحمل إليه نشوة حرية نادرة، قدماه طيّعتان وجسمه فيه ما يشبه خفة التحليق في أجواء جديدة.

وانقضّت نورس ضخمة بيضاء، قريبة منه جداً، بصمت، عريضة الجناحين، ثقيلة، في سقطتها تصميمُ تهديدٍ أعمى القصد

كانت قد قالت له: لا تطفىء النور عندما تذهب يا حبيبي. أخاف في الليل عندما أستيقظ وحدي في الظلام.

آذاك العالم يا حبيبتي.

مَنْ منا لم يؤذه العالم؟

ونحن نتحمّل، بالطبع.

ومع ذلك فلم تأت إلى نجدتك، في الليل، كل شجاعتك، كل صراحة أخذك النفس بالقسوة، كل التزامك - كنت مدارس صغيرة مجتهدة - بالواجبات، وأكثر. كل إصرارك على الهجوم، كل التفتح الذي تقابلين به الآخرين، كل الكرم الذي تفحين به نفسك للآخرين، كل هذا الجهد المستميت في استجلاب الحب والقبول، كل هذا البحث الذي لا يتوقف أبداً عن العطاء والبذل، عطاء كل شيء، حتى الآخِر، هذا البحث الذي لا تستطيعين مقاومته، يحفزك ويدفعك باستمرار باستمرار، نوعاً من جنون الرغبة في الطمأنينة والأمان، في الانتهاء، في الإرضاء والاسترضاء، في أنك مطلوبة ومحبوبة، طفلة تبحث عن عمود الأمن والخلاص، التقت في بحثها بالغيلان والمسوخ ووجدت أوراق حلمها الخضراء قد سقطت ذابلة عند هبوب كل ريح.

كنت قد جئت في الصباح، وعندما دخلت الشقة النائمة كانت الجدران الصامتة تحجز أمواج العالم كله في الخارج، وضربات المياه قد أصبحت خفيفة، تكاد تُنسى.

كنت إلى جانبي، على طرف الفوتيّ، لا تريدين أن تستريحي، أن تستقري، أن تتركي جسمك يستسلم لغرفتي الغريبة عليك، التي طالما امتلأت بك، دون أن تعرفي عنها شيئاً. وضعت يدي على ركبتك. كان وجهك قناعاً، تتقد في عينيك نيران صفراء ثابتة. كانت سماء الصبح الضبابية من خلف الستارة الشفافة ناعمة، فيها مسّ الراحة الموقوتة على جراح تنبض نبضاً هادئاً وقد أصبحت منذ تلك اللحظة قديمة وعصية على الشفاء، لن تبرأ.

فنجان القهوة الذي صنعته لك ـ بعد أن جلست ترقبينني أتناول الفطور، قلت إنك لا تأكلين في الصبح أبداً، إنك لا تحتاجين لشيء، فنجان قهوة فيما بعد، بكل سرور ـ في يدك الآن، قد برد، ولم تشربيه كله. تدورين بعينيك في غرفة غريبة عليك، عرفت منك فيما بعد أنها تحمل إليك رسالة الرفض والاحباط، قلت إن النزعة التطهرية عندك تحول دونك وأشياء كثيرة. كنت تلفين نفسك بالصوف الثقيل والتصميم الثقيل. ومددت لي رسالتك الأولى، دون إمضاء، مقطوعة السياق. قرأتها من وراء حرارة ما تغيم على عيني.

ـ خرجت بعد الظهر، وحدي، تائهة، أرى صورتي يردها إليّ زجاج واجهات المحلات، مرة بعد مرة، موحشة قليلاً، في الشوارع المزدحمة التي ليس فيها أحد. صورتي تتردد أمامي، يرسلها إليّ هذا العالم المزدحم، لا أجد فيها شيئاً. وعندما وصلت إلى سينما «راديو» كانت الظلمة، وزحام الناس، وضجة النسيان مغرية أسلمت نفسي لها. وهانذا أكتب لك، في كافيتريا السينما، تتنازعني رغبة متناقضة أن أفر منك، وأن آتي إليك.. أريد أن أقول لك إنني سعيدة بأنك موجود.. بأنني التقيت بك.

حبيبي..

مزقت رسالتك في لحظة، متكررة أبداً، من الغضب والتمرد والشوق المحبط واليقين الذي ينهار ويقوم باستمرار بأنّ تلك كلها طقوس في دراما رثة، نقوم فيها كلانا، بأدوار مقهورة، لا أعرف نص كلماتها، من بين أدوار أخرى كثيرة.

ومرة أخرى، ـ مرة أخرى سوف تتكرر دائماً ـ لم أقل شيئاً، وغاص في داخلي الخوف القديم المتجدد أبداً من فقدانك. الحَجَر الغائر الشائه الذي لا يهتز، هذا الخوف من أن أفقدك، رازحاً وغير عاقل، وعنيد الجبين، بعينيه المحقونتين بالدم يكاد يشفي بي إلى أن أفقدك فعلاً. كأنما فيّ ارادة غير مبررة. لا تدعيني أفقدك. ليس هذا رجاء، ولا طلباً، هو مجرد تقرير أمر واقع، أساسي، هو صخر الأرض نفسها. لا تدعيني أفقدك، لن أفقدك.

وبالطبع لم تلتق شفاهنا، ولم أعرف، ذلك الصباح، في تلك الغرفة، حس جسمك المعصوب بعذابات شوق غامض غير حسيّ. بقيتِ في داخل أرضك الأخرى المبهمة الحدود. ويدي على ركبتك، تتلمس من وراء نسيج النايلون الشفاف أرضاً غريبة لا أعرف معالمها، وأحبّها، وبعيدة عني لا تصل إليها يدي.

وكان وداعنا متعجلاً وقبلتنا متعثرة صامتة وحائرة.

قلت لي، في تلك الغرفة، في ذلك الصباح: أريد أن أرضي الناس كلهم. لا أستطيع أن أغير طبيعتي.. انني أعرف هذا، وأعرف السبب. والمفروض أنني عندما أعرف، أبرأ. ولكنني لم أبرأ بعد. أليست المعرفة تشفي؟

لم أقل لك بالطبع، المعرفة هي المعاناة. وما عذاباتك؟ أهي من نوع آخر، لست أدري ما هو؟ الحِكَم الرثة المبتذلة، والحقائق ذات الوجه

الممسوخ، والأحجار المكسورة السيقان التي تحمل في داخل رخامها جذوة خضراء اللهب.

قال لنفسه إن من أخطائه، خطاياه، من جرائمة إذا أحب أن يسميها كذلك، أو من نواحي خذلانه وفشله على أقل القليل - ما أمَرَّ هذا القليل! - إنه لم يقل لها، مع ذلك:

- يا حبيبتي، استرضاء، العالم ليس ممكناً.

لم تكن لتقتنع، هذا يعرفه.

قالت له: لا يمكن أن أتغير. هذا يدخل في تكوين نفسي. لا أستطيع أن أغير نفسي.

تلك أيضاً من جرائمه، إذا شاء أن يسميها كذلك.

كنت أريد حبّي - حبّنا - أن يكون هو المقامرة المستميتة، معاناة النظر بأعيننا المفتوحة المصمّمة في الوجه الممسوخ الذي تقتل النظرة إليه، وأن تتجاوز القتل نفسه، بعد هذه النظرة إلى بؤرة الظلام المتّقدة. كنت أريد - وما أزال - أن نرفع بأيدينا العارية - معاً - كل شواهد القبور الثقيلة التي تغوص في التربة، أن نحفر بأجسادنا العارية - معاً - كل الحفر الغائرة، أمام نار العينين المفتوحتين، في طين الأرض اللزجة المبتلة، هذا الطين عنصر غنيّ فيه كل البراءة، فيه قوة ما تتجاوز الادانة والبراءة معاً.

لأنك أعز الناس إليّ.

بالرغم من كل شيء. بالرغم من أنني آذيتك، أنا أيضاً، اعرف هذا. وآذيتني. لأن وحشتك، ووحدتك، أعرفها. تثقل على ضلعي المكسور الناتىء السنان المفتوح، بعظمه الأبيض، في الهواء.

قلت لي: لعله لا شيء يجمع بيننا، بيننا اختلافات كبيرة وجوهرية كما تقول، إلا الوحشة وبحث ما.

كنت نائمة، وجهك المدور الرائع السمرة على المخدة، أنظر إليك، لا ارتوي، في فمي ظمأ جاف مر الطعم. كان المصباح الصغير من ورائك، يلقي بضوئه القليل على ذراعك العارية، في شفتي طعم قبلاتي على أعلى ذراعك السمراء المسترخية اللحم وعلى الطيات الغضة بينها وبين ثديك المنسكب المليء. واستدرت أضع السيجارة المحترقة واقفة على عقبها، على الرف الخشبي اللامع، في ليل الغرفة المحبوس.

تقلبتِ فجأة في نومك، ونهضت برأسك قليلاً، وفتحت عينيك. نظرت إليّ، هل رأيتني؟ لم يكن في نظرتك معرفة. هل كان فيها، أيضاً، رفض، وإدانة؟ لحظة واحدة في صمت النور الشحيح. نظرة امرأة غريبة إلى رجل غريب في غرفة نوم واحدة.

وعدت إلى نومك، ومرت الدقائق البطيئة، السكوت المتقلب بالهوس المكبوت كالمعتاد، لا يجعلني أنام. الانتظار، بلا نهاية، بلا وصول.

كان الأنين الذي يندّ عنك، في نومك، موجعاً، ثقيلاً، بطيئاً. في الصمت المطبق المسدود أنات تخرج عن صدر يحمل ثقلاً لا يطاق، لا يطاق. أنين طويل، موحش، مختنق، بلا أمل. لم يكن هذا نداء، أو طلباً، أو انتظاراً. اليأس فيه نهائي، كامل. وفيه وحشة لا تحتمل. يا حبيبتي، من يأتيك بالنجدة في المنطقة المعتمة الخاوية التي تهب فيها عليك وحدك أنفاس الوحشة، من يستطيع أن يخترق إليك امتدادات الوحدة التي لا حدود لها؟ هذا الأنين. أسمعه، ما أزال، في حلم طويل سيّء لا ينتهي.

أردت أن أذهب إليك، أن أضع ذراعي على كتفك، أن أمس بشفتي

وجنتك الناعمة الجلد، مسّاً خفيفاً، لا أصدمك في نومك. أن أعود بك إليّ، أن أرفع عن صدرك ثقل العبء الذي يغوص فيه، أن أضمّك إليّ، أرد عنك خوف الوحشة، أدفىء شفتيك بحبي. أقول إن حبيّ هنا.

كان كل شيء يهتز حولي، وأنا على سريري المقابل لسريرك، متجمداً في حركة لم تكتمل، أريد أن أذهب إليك، ولا أتحرك.

وانحدر الأنين الذي يصدر عن صدرك المزدحم المخنوق، خافتاً، مقهوراً مستسلماً، لحظة، لنسيان موقوت، لصمت الأنفاس المترددة في انتظام النوم، في البعد الكامل، في الغربة التي لا وصول إليها ولا مجيء منها، لا أنت ولا أنا. . لا أحد. . لا شيء. . لم يعد العالم هنا، ولا شيء. . إلا أنني أستدير، وأضع السيجارة الأخرى، قائمة على عقبها، تنطفىء على مهل، على الرف الخشبي بلونه الموجني الداكن اللمعان، بجانب النظارة، والكتاب، والمفتاح، وقطع صغيرة من العملة النحاسية والفضية، وورقة تذكرة مسرحية لم نحضرها، وأعقاب سجاير كثيرة واقفة على أعقابها، منطفئة باردة، ما زال على شفتيّ رمادها التافه الخفيف، في طعمه مرارة وجفاف.

كنت قد قلت لي: على فكرة، لا تنزعج. . يحدث لي أحياناً، عندما أنام، أن يصدر عني أنين كأن أحداً يقتلني أو شيئاً ما. . لا تهتم. . هذا شيء يحدث، هكذا، لا يعني شيئاً.

كانت ما تزال نائمة، بينما ميخائيل قد استيقظ من نوم غير كامل ومضطرب. أصبح من عادته هذا النوم القليل المتقطع نصف اليقظ، خلال هذه الأيام الستة الممزقة بالتحقق والخذلان بالتملك والفشل والانتظار والبهجة والحبوط وجنون الغيرة وترددات الشك والغربة والحيرة، بينما كنزها كله - في الوقت نفسه - ملء يديه. كنزها، ليس كنزه. لم يكن له شيء.

كان همه الوصول إلى عطاء كامل آخر، أن يكون العطاء والأخذ شيئاً واحداً. ليس فيه شيء ملك لأحد.

كان يكمل طقوس حلاقة ذقنه، والمرآة ترسل له من جديد وجهه الذي لا يقرأ فيه رسالة ما من أي نوع، لم يحس حد الموسى وهو يدخل، وتقطرت دماء نزرة من أصبعه المجروحة، وأخذ يبحث في حقيبته الصغيرة عن قطعة قطن، ولصقت ندفة القطن البيضاء بسبابته.

وعندما استيقظت وفتحت عينيها الواسعتين المتسائلتين، ردت عليه بصوتها المتمطي، المسترخي من وراء توتّر ما مكتوم مرّ عليه الليل:

- صباح الخير.

صوت بنت صغيرة تعرف أنها محبوبة، وتستزيد، فيه تمدد صغير كسول، قطة صغيرة ما زالت بعد نصف نائمة، كل حسيتها الشرسة ما زالت بعد غضة وناعمة جداً، ثدياها المدوران بسمرة اللحم التي تدعو قليلاً، ينهمران من القميص الأبيض المتهدل المفتوح، تفوح منهما رائحة النوم والراحة، وهي تجذب ملاءة السرير على كتفها العارية.

عندما كان إلى جانبها، وهي تتزحزح قليلاً على السرير الضيّق، لم تعطه شفتيها مفتوحتين، كانت قد قالت له مرة:

- لا تثرني.. هذا يجعلني عصبية طول النهار.

قالت له: ماذا حدث؟

قال: لا أعرف.. أنا أشوه نفسي، أجرح نفسي، في كل مكان.

كانت ذراعه تحت عنقها، ورأسها بشعره الوحشيّ القصير القوي الرائحة، على كتفه. يجرحه أيضاً جمالها الخاص. مد يده، محاذراً أن تقع عن أصبعه قطعة القطن البيضاء التي تسربت نقطة من الدم إليها:

قال: جرحت إصبعي.

قالت: يا عيني!

عصفت به فجأة، دوامة غضب قديم وإحساسه بأنه مرفوض، صغير، وضحك ضحكة قصيرة عصبية:

- ما معنى هذا: يا عيني؟

وحاول أن يقبّل خدها.

قالت بسرعة وحسم وهي تدير وجهها عنه:

- «يا عيني».. تعبير عربي يدل على العطف!

كل شيء يتدهور من جديد، في حماقة، وفي الصباح هذا اليوم الأخير. ها هو يفسد هذه الساعات الأخيرة. كان في داخله، بعيداً، شك في أن العطف عنده وعندها شيئان مختلفان.

كانت قد قالت له: بعد أيام قليلة سوف تمقتني!

قال لها: أحبك.

قالت متأملة تبحث عن شيء ما: نعم، بطريقة ما. ربما.

بل أحبك، حباً كاملاً، نهائياً. أحبك، هذا كل شيء. دون تحديد، دون أن يدخل على حبي وصف، ولا تحديد، ولا شرط. هذا مطلق. الجوهر. النهاية الكاملة. حبي لك، لا يقابله ولا يقف بجانبه، أو في مواجهته، شيء. أحبك، وأريدك، أنت، كلك. وتساءل: كم مرة قالها، كم مرة لم يقلها، كم مرة سيقولها. دائماً، دائماً.

ضم رأسها إليه، أكثر، فأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى منه. نهض قليلاً ودار حولها، وجاء بوجهه في حركة مضطربة، إليها، فأطبقت شفتيها، ولم تعطه عينيها اللتين يموت شوقاً إلى نظرتها الحانية الغريبة. كان

الحصار حوله يشتد، وانحسرت عنه مياه الاندفاع التلقائية المخزونة، في أول هذه الساعات القليلة الأخيرة، لم يعد هناك إلا جسمان ملقى بهما، دون نجدة. توتره لم يعد إلا ارادة فاشلة. الخطاب الذي جاءها بالأمس: «القاهرة.. بعد نصف الليل» ماثل أمامه، كابوس أبيض. وتلك النظرة البعيدة. قالت له: لا تحاول أن تقيّم العلاقة التي بيننا.. ماذا تنتظر مني أن أقول؟

هذا عالم آخر من تلك التي تقوم بينه وبينها. حواجز تتحصن وراءها، بتصميم، لأنها تريدها، ولا تريد أن تتخلّى عنها. دورات الانتظار، والقلق والرفض والحبوط كلها، كلها، الحيرة والأسئلة المدمرة لكل استسلام لأفراح جسمها، كلها تصنع منه عاشقاً خائباً في أولّ الصبح.

كانت قد قالت له: ألا تشتهيني، كامرأة؟

قال: نعم، نعم.

نظرت إليه، صامتة، في تساؤل، وقالت:

- يخيل إليّ، أنك على الرغم من أنك سعيد بما بيننا، فأنت غير مقتنع به.

نعم، يثيرني جسدك الشامخ الناعم، المليء بالحياة. لكني لا أريدك، يا رامة، جسداً فقط... ألا تعرفين هذا بعد؟ ألا يهمك هذا، على أي حال؟ لا أريد جسدك سداً بين وبينك، أو تعلّة، أو حلاً. اريدك أنت، كلك، أحبك كلك، ووحدك. لا أريد معك هذه المسوخ التي تحتفظين بها في داخلك. هذا الجسد الغني الوثير القديم قدم الأزل، المتقلب بطينة خصبه العجيبة، المتوفز بالشباب الغض الجديد أبداً، المتفتح بالرغبة الدائمة، المخضلّ بندي العذوبة، العطشان الذي لا يرتوي بالدموع ولا باقتحامات كثيرة، السمرة اللدنة المحروثة، لا أريدها هي فقط، أريدها

ومعها أنت، وأنا، وحلمي المكسور وقد التأم من جديد، كلها معاً. أريدك مع حبي، حبنا، يا رامتي أريد جسدك وسماءك القاسية معاً، يلمع فيها رأس يوحنا المعمدان المقطوع، في الشمس الناصعة المحرقة التي تدور حافتها الحادة باستمرار، في هذا النقاء الكثيف الذي عرفته ـ عرفناه معاً ـ في لحظات النشوة والتحقّق والجنون.

قالت له: كنت قد استيقظت من النوم، وعندي لك كل الرقة والحنان.

تمنى أن يبكي، أن يحطم بيديه المشدودتين حجراً يابساً وهشاً في عينيه.

الحنان الذي رفضْتُ، باسم أي كبرياء هشة، باسم أي غضب، باسم أي خوف؟

لم يفعل إلاّ أن نظر إليها، ألا تعرف أن تقرأ نظرته؟ لا تريدها، على أي حال. في بوفيه المحطة، وهما يشربان فنجان شاي قبل أن تسافر، والجدران مصقولة مفتوحة على سلالم عريضة، بينها مسافات شاسعة، قال لها: من يعرف متى سنلتقي مرة أخرى؟

قالت بنفاد صبر، وضيق: الله أعلم!

عندما كان وجهه إلى جانب خدها، في المحطة، والقطار يوشك أن يقوم الآن، عليه أن يتركها، وسوف تتركه، وتهديد السفر أصبح أمراً واقعاً، والضياع الكامل يفقده الحسَّ بنفسه وبما حوله ولا يعود يعرف إلا حس وجودها الثقيل بازاء جسمه، وحضورها المليء المقفل على ذاته بين ذراعيه، لحظة واحدة سوف تنقضي الآن، سوف تمضي ولن تعود، لحظة لا يريدها أن تمر، يشدد حولها ذراعيه، يمسك، في عناد يأس تام، بما يعرف أنه ليس هناك، يعانق جسمها الذي ليس فيه إلا الرفض، أو على الأقل مجرد التسامح، قال لها:

ـ أحبك. . أحبك. . مهما يحدث، أحبك.

لم ترد عليه. كانت رحيمة. لكنها قبلته برغم كل شيء قبلة حزينة.

قال لنفسه: إلى إين انتهت رحلتي؟ لم تنته. لا يبدو أن لها نهاية. هل أتعلّم أن أقبل هذا كله، كما هو، بكل ما فيّ، وما فيها، من احتياج، دون تبرير؟

الموجة التي تحاصرني جافة لا تنحسر.

كانت تقف أمامه على شاطىء البحيرة، ساقاها الراسختان على رمال الحافة، في المياه الضحلة الباهتة. وهو في القارب الذي أجره منذ الصبح، من ولد عربي حافي القدمين عذب العينين، طماع. كانت قمائن الطوب البعيدة حمراء الفم بنار بطيئة كثيفة القوام. وحائط البرج الروماني القديم تبدو كتِفُه مكسورة بأحجارها الرمادية من وراء كثبان الرمل المهتزة في نور الظهر. المركب الصغير ثابت، قليل الغور، ضيق، وهش على الماء، وهو يشق صفحة الماء الثقيلة، ولا يبدو أنه يتقدم، تحت هذه السماء الرصاصية. كان قد نسي أن يضع الشمع في أذنيه. ما زال مبنى الأوبرج يبدو له قريباً، وعريضاً وراء سوره المتعرج الرقيق.

قال، دون غضب: ماذا صنعت بي؟

قالت: ألا تعرف أنني ساحرة؟

قال: لماذا ظهرت لي، وكنت أستعد لرحلة هادئة في آخر البحيرة؟ لماذا أحببتك؟ لماذا أحبك، وأرفضك، أرفض العذاب والألم الذي لا يطاق، أرفض الذي تنطوين عليه، في كل إقبالك، في كل عطاياك: أياً كنت، إلهة أو ساحرةً أو عاشقة، لماذا أشعلتِ لي نار هذا الجحيم، وأخذت ترقصين لي فيها، رقصتك المملوءة شراً، الواعدة بحنان لا يجيء؟ كنت أنزلق، صامتاً، حتى عن نفسي، وألمي صامت، إلى آخر نور المغيب، سيرسيه، سيرافينا، سيرينه، صوتك العذب باللدونة والرقة يلاحقني في ليل ساطع

الشمس، رامة، ثمرة اللوز الممتلئة الناضجة بين ثديك تنسكب منها مياه الفيضان أسمع تدفقها بين جدران غرفتي، أصداء كلامك الحلو الجرْس في أذني، أسمعها، أسمعها وأنا مقيد بالسلاسل في صمت غرفتي بالليل، الوحوش والحيتان تحت قدميك، في البرج الباهت الزرقة، تفتح أفواهها بلا صوت، والهواء الجاف يهز شعرك على صفحة خدك الناعمة العريضة، ما زالت أنفاسك تحت فمي، ، عبقة برائحة خاصة حميمة، أَلِفْتُك، وأعرفُ أعرفُ أنني ساحبك، لم أمقت في حياتي شيئاً ولا أحداً كما أمقتُك، أنت قلت لي مرة: «أريد أن أقتل». . أنا أريد أن أقتل. . أعرف الآن حرارة أن يريد المرء أن يقتل. أن يحطم، أن يضم راحتي يديه على الوجه العذب الثمين الذي ليس في العالم غيره، الذي يحمل جمال العالم كله، وكل قسوته، وغرابته، أن يضمه بين يديه، ويضغط، بكل الحب، بكل التوق، بكل الألم، حتى يتحطم بين اليدين. . أعطيتني كل المجد، وكل بهجة المتعة الجنونية، ، وكل الألم، ومرارة الخذلان، معاً كل ما لي في هذا العالم. لماذا ظهرتِ في حياتي، لماذا جئت؟

رأى ميخائيل طير النورس بأجنحته العريضة وقد سقط وراء حجر البرج، ولم يرتفع. عرف وجهه.

كانت المجاذيف تضرب في الرمال البيضاء الناعمة، وتغوص، وترتفع، بلا صوت. والمركب يهتز، محبوساً في الرمل، هشاً، يحمله الموج الأصفر الدقيق الذرات، لا يتحرك وهو يضرب بالمجاذيف، بكل قواه. فيصدر عنها صرير خشن مكتوم، يجرح حلقتي الحديد المثبتتين بجدار المركب، في الصمت، والهواء الساكن. المجاذيف تغيب في الرمل الذي لا مقاومة فيه، وتصعد، وتغيب من جديد. بحيرة الرمل ليس فيها زمن. وهو يجذف دون توقف، لا يحس جهداً، لا يحس عائقاً، والمركب في مكانه، لا يتحرك، طافياً بخفة على جسد الرمال الذي لا قوام له.

عندما نظر خلفه رأى شريطاً عريضاً محمر اللون يخط صفحة البحيرة الزرقاء، جدولاً من الدم المسكوب على سطح المياه.

فلما استضاءت الأرض حدث ما قال. لقيته هذه المرأة التي ليست من سلالة البشر، حينما كان ذاهباً إلى نهاية البحيرة، وقد جاءت عارية، وشعرها مضطرب.

٣- السلالم الضيقة والتنين

كُتَلٌ تبدو له شاهقةً من الضوء والصمت المعتم تميل عليه في رذاذ المطر، وتطبق عليه في آخر المساء. والطريق أمامه، وأمامها، فسيح، غامض، يكاد يكون خالياً. امتدادات من عالم مخطط نظيف، مهجور الآن، تومض فيه اعلانات النيون والبنايات الشاسعة الزجاجية، في العتمة المائية الخفيفة.

مدَّ يده يساعدها في النزول من على الرصيف، عبر بركة صغيرة من الماء. كان حذاؤها مكشوفاً، والشريط الجلدي الرفيع يمر مضغوطاً بين ابهام القدم والأصابع المكتنزة القصيرة المبلولة، وقد تقشر المانيكير الأحمر الباهت على أظافرها. وكانت انحناءة القدم العلوية تبدو له مشتهاة، مليئة.

كان في استجابتها له، لحظة واحدة، نفرة لا تكاد تُحسّ، كأن وراءها تصميماً قديماً مستقراً. كانت لها دائماً تصميماتها القديمة المستقرة. ولم تمد له يدها. لم تضع ذراعها في ذراعه، قط، في الشارع، خلال الأيام الستة في المدينة التي قالت له إنها مدينتنا.

قال لنفسه: لم تكن مدينتنا. مدينتنا حلم ليلي ساطع النور، قديم وخارج عن الزمن، مقتطع من جدران العالم العتيقة.

كانت قد قالت له، منذ شهور عديدة، في ليلتها الأولى:

- بدأت أحس بهذا من عدة أشياء. أولها عندما كنت تضع ذراعك في ذراعي وثانيها..

كان في البداية، عندما يعبران شارعاً من الشوارع الكثيرة الغريبة التي عبراها معاً، يجد دفئاً ومودة في ذراعها اللدنة القوية المستسلمة له، ويحس أمناً نادراً ومتبادلاً. ولم يكن في حسه عندئذ إلا هذه المتعة الخفيفة كوهج داخلي هيِّن الثقل.

قال لنفسه، فيما بعد: الشمس تشرق مرة واحدة. دائماً. لا تتكرر.

ينادي الشمس، حتى الآن، بلا توقف. بيأس ينكر نفسه، ويزداد ضراوة، ويطبق عليه بلا نجدة. ضراوته الآن لا تُنْقَض.

قال لنفسه: الشمس دائماً، لا تجيب.

كانت تلك ليلتها الأولى في المدينة التي قالت له إنها مدينتنا. كانت قد قالت له أعرف، هي مدينة كل الناس. كنت أظن أنها مدينتنا.

ومع ذلك فقد كانت مسقط رأسه.

وكان قد جاءها عبر مسافات سحيقة من الألم والقلق والانهاك الروحي. ولم يكن يعرف بعد أنها قادمة إليه - كالعادة - من عالم فيه حرارةُ التحقق والانتصارات الكثيرة التي تحبها وتقول إنها بلا دلالة، وفخامةُ الامجاد الأنيقة المكيفة الهواء. وكان قد قال لها لا أكاد أصدق أننا سنلتقي وكانت قد قالت له نعم سنلتقي ما لم تقم حرب عالمية ثالثة أو يحدث زلزال أو تقع كارثة كونية وقالت له ساعدني يا حبيبي في اختيار هدية صغيرة لهذا الصديق العجوز، شخص ممتاز حقاً، مثال الجنتلمان الكامل في السبعين من عمره وقد عرفته أخيراً وأحبه جداً ويحبني كثيراً فيما أعتقد. هل تظن أزرار قميص هدية مناسبة مثلاً، أو. . ماذا؟ هذا محيِّر اختيار هدية لمثل هذا الصديق. فضحك. فقالت له بيقظةٍ وتنبهٍ مفاجىء: لماذا تضحك؟ قال: لا. أبداً أضحك على الموقف كله نعم أزرار قميص لا بأس أو أي شيء تحبين. فانسحبت فجأة إلى الداخل ثم انطلقت في تصميم، قالت يجب أن نناقش

التذاكر يا حبيبي أخشى أنه ليس لدي وقت. وكانت الأصوات حولها مرتفعة والمكان مزدحماً.

وعندما كان في طريقه إليها، أخيراً، كان حس الكارثة لا يفارقه، لم يكن على يقين من أن العالم كله حقاً له أدنى معنى، كان يختق بيدين وحشيتين عربدة الفرح الشرس ويتردى على الفور في دمار الترقب لأسوأ ما يمكن أن يحدث. لن يحدث شيء. كان القطار يدخل به عالماً صامتاً من الوحشة والغربة، بيوته منخفضة رمادية يسح عليها مطر ضبابي غير محسوس، وهزات الموتور الديزل الضخم تا ...ب قلبه ضربات متكررة رتيبة مكتومة الوقع. وفي حسه الكارثة. كارثة أنه لن يلتقي بها، لن يجدها لن يعرف أبداً إلا صدمة الرفض والنسيان.

وها الآن في الشارع، وهي الآن بجانبه، في المساء الشتوي، وبعيدة عنه، تتوفز بحيويتها التي لا تغيض، وقد ارتدت ثوبها الطويل الأسود بالأبيض، وصدرها الخمري في فتحة الثوب الواسعة المستديرة يبدو له غضاً، مضغوطاً في راحة، عليه ندى خفيف من المطر، لحمه الطري يلمع من حبيبات البلل الدقيقة. ولجت به رغبة في أن يدفن فيه شفتيه، ووجهه.

قال لها أخشى عليك من هذا المطر ثيابك خفيفة فقالت له ضاحكة لا تخش شيئاً أصبحت لا يؤثر علي المطر ولا البرد والدنيا ليست برداً بل الجو منعش قال وحذاؤك مفتوح قالت لا يهم لا تقلق ومضت تحدثه باستمرار عن السوق عن المشاهد التي يمران بها عن الأسعار والآثار عن الجو عن كل شيء وأي شيء وفي داخله استمتاع بانبثاقات الذكاء اللماح ولمعان الاتقان الناعم المصقول في الحديث وحنق لأنه يستشف في نبرتها أيضاً لهجة المدرّسة القديمة والأم والدليلة السياحية معاً وتغيظه وتثيره هذه النبرة ويقول لنفسه لعل هذا الدفق من الكلام ليس إلا جسراً رقيقاً لا قوام له فوق المهاوي الغائرة المظلمة المفتوحة في عمق الروح القلقة والأحشاء المتقلبة بالهوى

والمضض والاشتهاء والجنون. كان قد قال لها بعد ذلك بيوم أو اثنين، بلهجة قاطعة: لا تهمني المعلومات ولا الاحصائيات ولا البيانات، هذه يحصل المرء عليها من مصادرها، من الكتب، والمكتبات، يهمني شيء آخر. ثم إن هذه بلدي، هل نسيت؟ وخيل إليه أنها اصطدمت فيه بهذه الكبرياء الطفلية ولم ترد، إلا بنظرتها الغريبة الصامتة التي ترفض، على عكس كلماتها.

وفي ذهنه الآن رواسب ثقيلة لم تنحل، من الشهور والأسابيع والأيام والساعات الأخيرة كأنها أزمان مترامية لا نهاية لها، من الانتظار والتوجس والإنكار واللهفة المجنونة والفرح الذي ينسحق تحت وطأة شك أساسي لا يتزاح، من لحظات الضياع التي عاناها منذ قليل، اليأس الكامل المطبق عندما افتقدها فلم يجدها. والقرارات الوحشية الحاسمة التي اتخذها ألف مرة ونقضها ألف مرة وهو يدور في الشوارع. واللعنات وموجات المقت والبغض المدمرة والتصميم النبائي - في كل مرة نهائي - على أن يُسقط من يديه كل شيء، يسقط الشيء الوحيد الذي له قيمة ومعنى في العالم كله، الشيء الوحيد الذي يحبه ويريده أكثر من أي شيء في العالم كله، ويعود على الفور، ومخضُ الاحتمالات التي لا عداد لها يقذف به في كل ناحية، وقد فقد الاتجاه مع فقدانه لكل شيء، ويثقله ارهاق يظن أن لا قِبَل لانسان به، ثم صدمةُ اللقاء المفاجىء، على غير انتظار، بعد أن عاد كأنما لم يعد يهمه شيء من فرط المرارة. وكأن قلبه الذي مزّقته وهدّته الطعنات والرضوض لم يعد قادراً على الحس بالفرح ولا بشيء، أمام روعة المفاجأة، وظهورُها أمامه على غير توقع أبداً بينما هو يخطو خطوات القنوط، جميلة، غريبة، ما أجملها، ما أغربها، تتدفق كالمعتاد بهذا المزيج من أنصاف الأكاذيب أنصاف الحقائق.

في ذهنه الآن هذه الطبقات من الطين الأسود الطريّ يشلّ إحساسه

بأولى خطواته في المدينة التي قالت له إنها مدينتنا، قالت له كنت أظن أنها مدينتنا.

كان الحذاء في قدميه ضيقاً يوجعه وإحساسه بنفسه غير مريح وملابسه غير مستقرة عليه وغير منسجمة معه ووجهه الحليق على عجل والمغسول بماء بارد والجو الممطر في المساء الصيفي نصف الحار والتوفز والقلق يجعل خطواته غير ثابتة وأراد أن يخلص فقال لها إن أول شيء سيفعله أنه سيشتري جاكتة شمواه رمادي غامقة وبنطلون قطيفة على آخر موضة قطيفة سوداء مضلّعة ثقيلة وبلوفر أبيض برقبة يجب أن يكون برقبة وأبيض ناصع البياض دخل لحظة في لعبة الكلام نصف اللعبة هربٌ وتحد للمضض والثقل والحنق الذي يؤوده ونصفُها مداعبةٌ لنوايا لا عزم لديه على تحقيقها فنظرت إليه النظرة الغريبة التي ما زالت تؤرق لياليه كأنها نظرة أبدية مفتوحة دائماً في قلبه نظرة الاستغراب والبعد والتحيد وقالت له أنت؟ لا أستطيع أن أتصورك لا أستطيع أن أراك ببنطلون قطيفة أسود وبلوفر أبيض برقبة فضحك وقال كأنه يحكي عن شخص آخر أنت لا تعرفينني هل تعرفين أنني منذ عشرين سنة هنا في الاسكندرية أيام الصعلكة والعربدة فقاطعته مداعبة آه هل كانت لك أيام للعربدة اعترف فقال ضاحكاً أبداً عربدة بريئة بالطبع عندما كنت أقضي اليوم كله والليل كله في الشوارع والمقاهي والسينما كانت هناك قهوة في شارع سعد زغلول اسمها الفريسكادور كنا نقضي فيها تقريباً عمرنا كله ونذهب للسينما مرتين أو ثلاثاً على التوالي في يوم واحد ونأخذ معنا في سينما مترو زجاجات الويسكي الصغيرة وسجاير الكرافن ايه والپول مول مع قرطاس ضخم من أم الخلول ونشرب في عتمة السينما ونضحك على ميلودراما هوليورد ونقزقز أم الخلول ونرمي القشر على جنب في القرطاس المفتوح على البساط الأحمر الفخم ويكاد يضربنا الناس قالت له لا أصدق أنت تخترع بالتأكيد؟ قال أبداً في

هذه الأيام كنت أمر بالمحنة وترددّ قليلاً قبل أن يقول المحنة العاطفية التي حدثتك عنها ثم انطلق بحرارة أيام اليأس الكامل وفقدان الإيمان بكل شيء وحبوط الحب الذي لم يكن أحد في العالم يعرفه لماذا يقترن الحب دائماً عندي بالمرارة والمعاناة التي لا تطاق وضحك أيضاً ليداري فزعه من الاعتراف بالفاجعة القديمة المتجددة أبداً فهل كان يحس أنها تتكرر الآن بكل عنفها وضراوة بطشها؟ وقال كان عندي قميص حرير أزرق مشجر به نقط وتشكيلات حمراء وصفراء وبيضاء وبنطلون أسود قطيفة فعلاً. وكان هذا نوعاً من التحدي لليأس والظلام واندفاعاً نحو الاستهتار واللامبالاة بكل شيء وأساساً بنفسي وبأعز ما كان لدي. فقالت بلهجة بعيدة كأنها على مستوى آخر جامدة وهادئة ومهذبة جداً نفس اللهجة التي تتلقى بها كل اعترافاته الحارة الساذجة لا يمكن أن أصدّق ولكن سنشتري لك من أجل خاطرك البنطلون القطيفة والبلوفر الأبيض برقبة. . .

فلم يقل لها النوم على الأرض الخضراء بالحشائش البرية واستنشاق ريح ترابها المبلول المكتوم وورقة الزهرة الصفراء تملأ عين السماء على سعتها وطعنة النحلة في قلب النعومة المتفتحة مبرّرة بشكل ما وعدوانية أزيزها تلقى قبولاً غائباً لم يقل لها حس التراب الناعم على جسر النيل يغوص فيه باطن القدمين لكي يلقى في كل خطوة الصلابةَ الهينة التي تقاوم وتستقبل وطء الخطوات الدافئة لم يقل لها صدمات مياه المطر على قماش الجاكتة والقميص المفتوح العنق حتى الجلد الساخن المقشعر وانثيال انهيارات صغيرة منتظمة من الماء والملح على الوجه والصدر في قلب هبوب الريح الممتلئة حيويةً وبرداً مع عصف الدموع الحارة التي لا أمل لها لم يقل لها صرخات الجري على اسفلت الشوارع بين العيون المتوحشة وحرائق الخوف والتمرد وتوتر الجرحى الساقطين بجانب العجلات والجنازير الحديدية التي تقضم الرصيف وحشائش الحدائق العامة والفوهات الضيقة المنطلقة بقرقعات

جافة قصيرة نهائية صرخات الجري على الأحجار البيضاء بين البحر والشارع في قلب الزحمة اللامبالية والسيارات المنطلقة بصمت تحت شمس خريفية هادئة الوقع، لم يقل لها تشبث اليدين بكل طوبة وكل نتوء في حائط تتسلخ فوقه الركبتان ويلتصق به الجسم مستنجداً صاعداً بدفعة الجهد المستميت والتطلع إلى كروم حسيّة تحتجز عصيرها المزّ الداكن ويتفجر به جلدها المدوّر المترب الخمري لم يقل لها موجات البحر الهينة تغرق الحذاء فيتملىء بالماء ويغوص في الرمل الطري بخطوات أخيرة لا رجعة فيها.

قال لها ذات مرة، على الغداء، قرب نهاية الحكاية ـ هل هناك أبداً نهاية، للحكاية؟ ـ وهما يتحدثان حديثاً محسوباً مكبوحاً كأنهما صديقان غريبان أحدهما عن الآخر:

ـ نعم، النبرة المُثلى.. الوسط الذهبي.. هذا هو الحل المعقول دائماً، والمنطقي دائماً، والذي يبدو أكثر إقناعاً وكأنما لا مفرّ منه ومن التسليم بصحته. هذا هو الأمر، ببساطة. لا بد من مواجهته.. الحلّ الارسطيطالي. ذلك أني أرسطيطاليّ.

قالت له: نعم.

قال، باسماً ومتهكماً بنفسه: كنت أظن نفسي أفلاطونياً على الأرجح.

هزت رأسها وهي تتأمله، بعينيها الخضراوين الفاتحتين البعيدتين ليس فيهما إلا الصمت الكامل الذي لا يقول شيئاً، أي شيء.

قال: لست ديونيزياً؟ كنت أظن نفسي من أتباع ديونيزيوس.

قالت: أنت؟ ديونيزيّ؟

قال: ولا أفلوطنيّ حتى؟

قالت: لا.. أنت على الأصح أبوللوي.

ثم أشارت إلى رأسها، اشارة قاطعة نهائية، وقالت له: كل شيء عندك يمرّ من هنا.

قال باسماً: طيب.. خلاص.. ما دمتِ على اقتناع بهذا.. ما دام كل الناس، فيما يبدو، يجمعون على هذا.. ماذا أستطيع أن أفعل. ربما كان هذا صحيحاً.. يجب أن أسلّم إذن وأمري لله. والله تِهتُ أنا، بين كل هؤلاء الاغريق.

فابتسمت ابتسامة صغيرة، مجامِلة. ولم تقل له إنه مُتَفَيْقِه من غير داع.

كانت تتحدث قبلها بأسابيع عن أصدقائها، كتاب وشعراء، كانوا بالأمس، في حفلة السفارة السوفييتية، يأكلون أكلاً لا يصدَّق، ويعبون الويسكي بلا توقف. قالت: هؤلاء الشعراء، كيف يستطيعون هذا؟ لا أكاد أتصور.. لكنهم هكذا، فيما أفترض، الشعراء، ذرية ديونيزيوس.. لم يقل لها ديونيزيوس؟ لم يقل لها رفرفة ظلال الشجر العتيق الوفير على النوم الصيفيّ العميق في قلب الطهر المزدحم الذي تجري على حوافه حياة المدينة الغريبة ولا الفزع البهيج بينما ثقل الوجود كلّه يتأرجح على رقة غصن يهتزّ منذراً بأن ينقصف مرناً ينخفض ثم يرتفع لا ينفصل عن عضل الخشب المتين الوثيق والتراب على الأوراق العالية يسقط بخفة على عَرَق الجبهة والعينين واليدين النديتين اللزجتين في قبضة الحياة التي تهدد بالهُويّ إلى أرض سحيقة ومتعة الصعود بين ألف ثقب في زرقة السماء ورقة الأخشاب الحية والجميز الأخضر المغلق على دسامته النيئة والصرخات التي تهتف في روع وترقب ومتعة بخطر الكارثة لم يقل لها التقلب في الوديان الناعمة والتردي بين أحضان موت من المتعة ثم الصعود البطيء ثم السريع ثم المحموم نحو لهفات جديدة وأمواج جديدة مطواعة لها ألف ذراع معتصرة وألف ساق متعانقة وملء قلبي عينان مضيئتان تتقطران محبة شمس الليل الساطعة التي

يتراقص فيها لهب يلعق أطراف الروح كأنه لسان يلعق لبن الحنوّ النادر المتسلم وتطيب له الجراح القديمة فلم تحرق القلب قط لم يقل ديونيزيوس الويسكي الاسكتلندي وعشاء الأوبرج الباذخ والصالات المكيفة الهواء ديونيزيوس الاناقة البرلينية المشتراة بثمن الدم البخس والخساسة الفخمة الألفاظ لم يقل لها ديونيزيوس، أين أنت؟ ديونيزيوس السُكْر بخمر الشهوة السهلة والعاطفية الرخو والقصائد المصقولة ديونيزيوس السائر على اسفلت السكك نصف المظلمة نصف المضيئة بنيون الاعلانات والفوانيس المطفأة والصراخ على مسرح الصالة أمام أشباه البورجوازيين أشباه المثقفين أشباه التقدميين أشباه الناس المتخمين بالخيانة وبندم خرير الكلمات الرخيصة ديونيزيوس الكؤوس المغسولة والصحون الصيني على المفارش المكوية شغل شبرا الخيمة والمضاجعة الملهوفة بعد الرقص على أنين الموسيقى المسجلة التي بهتت يصاحبها خشيش الريكوردر أو الراديو أو البيك آب أو الأوركسترا الكهربائي الذي يستحسن أن يكون اسمه البلاك كوتس أو الفروجز أو الشانوار فلا يعني شيئاً إلا شارة على قماش ساتان ديونيزيوس القاهرة وبرلين وموسكو الذي أفرغ من كل شيء إلا من النهم الذي لا قرار له والاكتظاظ بالأكل المصنوع والشرب المصنوع والكلام المصنوع والجنس المصنوع. ديونيزيوس؟

قالت له: لا يمكن أن أتصورك، مثلاً، تمشي على الأرض حافي القدمين لمجرد المتعة بالحس بالأرض.

فقال لنفسه: أنا عندها صيغة، نمط، نوع، قالب. هي دائماً تقول لي أنت باعتبارك مثقَّفاً، أنت باعتبارك عاقلاً، منطقيّاً، أنت باعتبارك ناضجاً راشداً، قال لنفسه من أنا؟ ما أنا؟ هل نجحت فعلاً أن أحوِّل نفسي إلى صيغة وقالب نمطي. وضحك، هذه المرّة صامتاً.

وخطر في باله، فيما بعد، أن في اشارتها إلى الديونيزيين نوعاً من

الاستفزاز له، من حَفْزِه على أن يكشف عن ذات نفسه، من حثه على أن يكسر قشرة التابوت الذي يغلّف به نفسه. ثم تذكر عينيها وتيقن أنها لا تعرف منه إلا قشرة التابوت، وأنها محقة، وأنه لا يستطيع أن يلومها.

قال لنفسه: هذه حكاية أخرى.

كانت قد قالت له، هامسة، في الفجر الموحش الأخير، كأنها تحدث نفسها:

- لا تعرف كم أحتاج إلى الحب. وكم من الحب والمتعة أستطيع أن أعطي.

بل أعرف. لأنني أعرف شيئاً عن نفسي.

يا حبيبتي، ماذا تعرفين عني، بعد، على الرغم من كل شيء؟ أتعرفين على الأقل مدى هذا الألم، والوحشة؟ مدى هذا الحب؟

بلا مدى. ولا حد. ولا نهاية.

قال لنفسه: متى يسكت صوت الألم؟ هل تنجاب الوحشة أبداً؟ وجاءته صرخته إجابته من غور ظلامه: بين ذراعيها، في عينيها حينما تضيئان، ووجهي على صدرها، عندما تعرف كم أحبها، عندما تقول لي «يا حبيبي» وأعرف أنها تعني ما تقول.. وأنها تقوله لي.. وحدي.. وأن الكلمة عندها لها معناها.

- حبيبتي، لن تعرفي أبداً كم أحبك، كم أحتاج إلى حبك. أجيبيني.. هل تحبينني؟

الوحشة أصبحت الآن كاملة. كانت دائماً حتى الآن تشوبها عكارة الأمل. الآن لم يعد أمل. وجه الوحشة المحتوم ينظر إليّ بعينين لا تطرفان، لا تخرج عن الرعب الصامت.

رامة.. رامة.. كيف فقدتك؟ هل فقدتك؟

ماذا نعرف عن عذاب الآخرين، حتى لو كنا نحبهم؟ وأنت لا تعرفين. ماذا إذن؟ هل تهتمين الهم الذي فيه غفران؟ من سوف يطلب مني الغفران عن العذاب؟ هل أقول أهدِرَ دمي؟ هل أقول هذا الموت البطيء الخانق اليدين لا ترتفع قبضته أبداً من على عنقي، ولا تخف ولا تنزاح، ولا تطبق حتى النهاية حتى تكسر الفقرة الأخيرة من العظم المرضوض؟

رامة.. أحبك، وأمقت هذا الحب، وأتمنى ـ كطفل ـ أن أموت.

وأرفض أمنيتي الطفلية، وأقول لنفسي لست طفلاً وأقول لن يدمّرني هذا الحب، وهو يدمرني.

لأنك لا تحبينني، ولا أعرف أبداً ماذا يعني الحب عندك.

أعطيتني نفسك، نعم، وصعدنا معاً إلى ذروة البهجة والتحقق، وترديدنا معاً متعانقين عاريين في التراب إلى جحيم الهبوط، وضحكنا معاً وبكيتِ مني ولي كثيراً. وأنا. وعشتُ معك أيامك الستّة الحزينة المجيدة ولا أعرف.. لا أعرف من أنا عندك.

لم يعد صوت، وكل ركن في العالم صمت.

قال لنفسه في اضطراب غمراته: ثم ماذا؟ ثم ماذا يا أخي؟ هي لا تحبك.. ليس هذا جديداً. هذه حكاية كل يوم، حكاية رثة، متكررة، لا جديد فيها. وكم هي شاقة مع ذلك.

لن يتحطم العالم.. ما معنى ذلك كله؟ لا شيء، ببساطة.

ولم يصدّق.

كان ميخائيل قد أبرق إليها بميعاد وصوله. وبينما يمضي به الطريق، وهو

مهدود من اللهفة والتخبط بين الأحلام والمفازع، يصور لنفسه ماذا يفعل إذا لم يجدها في انتظاره، إذا خذلت ميعاده، وينتقم لنفسه ولحبّه سلفاً ألف انتقام، ويعود فتنتفي عن نفسه المخاوف. يراها باسمة، مرحّبة، تقبل عليه، بهاء الدنيا ورونقها كله، تعانقه في المحطة، صورتها تعاند اليأس. سوف يجدها في المحطة، في استقباله. دقات قلبه المتعَب تصعد وتهوي في إيقاع مضطرب، وهو يحمل حقيبته في كلتا يديه، مسرعاً بين طرقات المحطة يظن نفسه لا يتحرك. وجاءته الصدمة الأولى، خفيفة ولكن منذرة، تحمل في طياتها التهديد. لم يجدها. وسأل عنها، في الاستعلامات، والمعاون، وناظر المحطة. والشرطيّ المهذب على الباب ينظر إليه في غير ترحيب عندما ذهب في حمّى اللهفة يتلمس خبراً أي خبر، في غرفة مباحث المحطة. كانت الهواجس قد دفعت به، في حرارتها وحضورها الكثيف، حتى المباحث. هل حدثت لها حادثة؟ ماذا جرى؟ وكان الضابط رفيقاً به، وغير مشغول، فمضى يستطلع دفتر الأحوال، وفهرس الأسماء، تحت حرف الميم، والياء والخاء.. حرفاً بعد حرف وهو ينتظر، كأنه يستقطر حروف اسمه واحداً بعد واحد، يتطلب صدى ورداً، ينتظر في غير جدوى صوتاً ينبئه أنها هنا، أنها في الفندق الذي لم يسمع به قط، في زيزنيا، بعد شارع أبو قير. كانت قد رسمت له خريطة صغيرة، في مذكرته، بالعنوان، منذ زمن يبدو له الآن قريباً جداً، وبعيداً في أغوار ماض لا عمق له، أو أنها في عنوان آخر، أنها تنتظره، أنها ستأتي غداً، أو بعد غد. لا شيء. ثم يبحث عنها على الباب، في ساحة المحطة التي بدت له خاوية، بشكل غريب، وعند موقف سيارات الأجرة. لا شيء.. لا شيء.

قالت له، فيما بعد: كنت وصلت، منذ دقائق، من منطقة الآثار في دير مارمينا، فطلبت منهم في المحطة أن يكتبوا لك رسالتي، اتصلت بناظر المحطة بالتليفون أسأل، مرتين، وأخذت حيطتي فطلبت منهم أن يضعوا

رسالتي تحت حرف الميم، وتحت حرف الياء.. وتحت حرف اللام. قال لها، بيأس، لا يعرف إن كان أي شيء قد حدث فعلاً أم لم يحدث: بحثت عنك، تحت كل الحروف. لم أجد شيئاً.

قال لها، صامتاً: أنتِ الحرف الأول، والأخير.

ثم وصلت به سيارة الأجرة إلى العنوان. وقد جاءت آخر لحظة، وأول لحظة. إنه الآن هنا. وبصوت جهد أن يكون ثابتاً، وصدره كله يرفرف في داخله، بعد أن وضع الحقيبة الثقيلة، والحقائب الخفيفة، بسرعة، على الأرض، سأل عنها.

منذ تلك اللحظة خيل إليه أن كل شيء يجري في عالم آخر، لا يصدق منه شيئاً. الأصوات شديدة الوضوح، وبعيدة جداً، من وراء حاجز. الدهشة، والإنكار، والنفي، ولحظة الفقدان التي لا تنتهي. الوجوه التي يحملها الغرباء، والدوران على العناوين التي يعطيها الغرباء، لا.. نأسف، لا يوجد، لا، لا، لا شيء. جئت متأخراً جداً، لا، نأسف، والحقيبة أصبحت ثقيلة جداً، والجو فيه هذا القلق من البرد والحر الرطيب معاً، والسماء الشتوية غائمة بين شقوق السطوح المنخفضة، والأعمدة الجليلة الجبال، ديكور خاو، والحقيبة توشك أن تفلت من بين يديه، وجنون صامت مكبوح يغلي في دمه، ويحس العرق على وجهه. كان معه عنوان آخر، في سيدي بشر، ورقم تليفون، قالت إنه عنوان ابن عمها. يذهب إليه الآن؟ يتكلم في التليفون يسأل؟ مريضة؟ ماذا حدث؟ ليست هنا؟ هل عادت؟ لا، بل كانت تحذره من طرف خفي أنها لن تجيء قط ما لم تحدث كارثة كونية، أو تقع الحرب. لم تكن تنوي المجيء قط. وأخيراً، وقد حزم أمره على أن يستسلم بأي ثمن لهذا العنوان الأخير الذي لم يعد هناك غيره والذي يتطوع به رجل غريب، فندق اسمه لوكاندة فيكتوريا، في داخل زيزنيا، في زقاق هادئ يغطيه الشجر. ويدق الجرس، ويشير إليه

وجهً لطيف أن يدفع الباب. وهو يهم بأن يسأل عما إذا.. وفجأة، في هذا العنوان الذي جاء بالصدفة البحتة، يسمعها هي، تهتف بصوت خافت: ها هو ذا.. أخيراً.

وتقبل عليه، هي، هي، في غمار هذا الهوس الذي لا يُصَدَّق، ما أجملها ما أغرب عينيها، وما أروع التفاف هذا الجسم الحبيب الذي يعرفه، لا يعرفه، جسمها اللدن الطيّع المتوفز هذا الذي يصدمه، ويجذبه، كل مرة، كأنها أول مرة، بسحر لا يقاوم، بخيوط رقيقة غير مرئية لا تنكسر أبداً. وما أسرع تدفقها بالحديث الذي لا ينتهي كيف أنها انتظرته، كيف تركت عنوانها الجديد في العنوان الآخر، كيف أكدته مرة ومرة، كيف سألت هنا وهناك، كيف اتخذت كل حيطة، كيف تحدثت إلى المحطة بالتليفون، كيف قضت ليلة في استراحة الآثار في العامرية، كيف سافرت وعادت، كيف رأت الطبيب وستراه، كيف جاءت اليوم بعد الظهر فقط، بالقطار، كيف أرسلت إليه رسالة في استعلامات المحطة، كيف كانت توشك على القيام للحديث مرة أخرى بالتليفون، كيف حجزت له غرفة على أي حال، وكيف هو؟ كيف كانت رحلته، كيف كانت على وشك أن تيأس من وصوله اليوم، وأين حقائبك؟ هذا كل شيء؟ دعني أساعدك.. سأحمل عنك هذه.. خفيفة.. لا.. دعني.. سأحملها عنك.. تعال.. من هنا.

وهو ما زال في غربة الصدمة، خطاه تنتقل في أرض موحشة بعد، كأنما فقد كل مقدرة على الدهشة أو البهجة.

ويصعد على السلالم الضيقة، وراءها، وهي ترقى الدرجات المتعرجة، ويكاد يتعثر بطرف السجاد الأحمر الكابي وهو غائب الانتباه، في دهشة من أناقة هذا الفندق الذي لا يعرفه. وظهرها القوي النشط ينحني أمامه، صاعدة تنهج، ثم تهتف، وتعود إليه، صدرها يرتفع ويهبط، يخفق أمام

عينيه، وهي تقول: لا، صعدنا السلالم الخطأ. . ليس من هنا. . جعلتني آخذ الاتجاه الخطأ، ننزل من هنا. . تعال.

الشوق إليها، والألم منها، يخدره، ويُثقل خطاه القلقة المحشودة فجأة بنشاط مفاجىء مكبوت لا يعرف له تصريفاً.

قالت له، فيما بعد، وهي تتذكر: كان يبدو عليك أنك مرهق، ومشدود وضائع كل الضياع.

وعرف، بالصدفة، فيما بعد، أن رقم التليفون الذي كان عنده مغلوط، مع أنها كررته أمامه مرتين، وهو يكتبه. كانت تطلب الرقم، مرة وهو يقف ينتظرها، فإذا به يكتشف، فجأة أن ثمّ رقماً يتبادل مكانه مع آخر، وسألها، وصحّح الخطأ حيث لم تعد ضرورة لتصحيحه على أي حال. الخطأ؟ وعرف أيضاً أن العنوان الآخر الذي كان معه ناقص.

هل كل شيء جاء إذن بالصدفة البحتة؟ هل كانت تنوي ألا تلقاه حقاً؟ كل شيء يشير إلى هذا. أيمكن أن تصل به الحيرة إلى هذا الحد؟ هل هي تقبلته، على علاته، عندما ظهر على غير انتظار، كما تتقبل الصدفة، والأمر الواقع فقط؟ وأخذته معها، في مجرى خطاها، دون تردد، ما دام قد جاء على أي حال، بهذه الصدفة الغريبة؟ أهو حقاً عندها مجرد سد ثغرة، مجرد ظهور. غير مطلوب حقاً لكنه إذا كان غير مرفوض تماماً فذلك إنما يجيء هكذا، دون الحاح على الطلب أو الرفض سواء؟ أيمكن أن يكون هذا هو الذي يحدث؟ لا يقتنع بشيء ولا بعكسه. ويقلّب في ذهنه، حتى الآن، بلا توقف، هذيان الحيرة التي لا تنتهي.

حبيبتي، في داخلي أحملك، أرضي وسمائي، مجدي وانكساري، إلى الأبد، متى نلتقي فلا يعود في اللقاء شرخ الانفصال الدائم؟ نلتقي فلا

نعود أنا وأنت. . لا قبل ولا بعد. . والغد نجمة محرقة لا تفلتها أصابعنا المضمومة؟

هكذا كانت لحظاته الأولى في المدينة التي قالت له إنها مدينتنا.

عندما صعد آخر السلالم الضيقة، وفتحت له باب غرفتها، وجد نفسه فجأة معها، وحدهما.

بعد أن وضعت حقيبته على الأرض، وقفت أمامه، بكل مجد حضورها. كانت تنظر إليه بعينين فيهما استطلاع، وابتسامة خفيفة لا يكاد يراها، تنتظر. كان في جسمه وروحه حسٌّ متوتر من الإرهاق الحاد المتيقظ، وقلق الفرح العصبي. قال لها: رامة. . رامة. . . . لا أستطيع أن أصدِّق.

ومد يديه يحتضن وجهها بين راحتيه. كانت عيناها ما تزالان تنتظران.

اندفع إليها وكانت بين ذراعيه، في لحظة واحدة.

وأحس ظهرها المستدير وصدرها كله ملء ذراعيه، ووجهها تحت شفتيه.

لم يكن العذاب قد غادر جسمه الذي بدأت تسري فيه عصارة ثقيلة جديدة من الراحة، تهبط به إلى منطقة معتمة.

رامة. . رامة. . لا أستطيع أن أصدق.

لم يكن يستطيع، حتى في هذا الخدر المتوفز الذي يشيعه وجودها معه، في هذه الدوامة البطيئة من الاختلاط والفوضى الداخلية، لم يكن يستطيع أن ينسى وهو يقول لنفسه ها هي ذي الآن بين ذراعيك، معك، وحدك، ماذا تريد؟ لم ينس أن كل شيء ربما كان قد جاء بالصدفة البحتة، أنه مقبول، فقط، على علاته، كما تُقبل الأشياء التي تأتي هدراً، ومجاناً، لماذا الحب منصهر عنده. بمعنى وجوده نفسه؟ وجوده الفيزيقي، وقامته في العالم، وموقع قدميه على كل هذه الأرض؟

قالت له: نلتقي بعد دقائق، سأذهب إلى غرفتي. تكون أنت قد استرحت قليلاً، وغسلت وجهك.. إلى آخره.. لا بد أنك متعب جداً من السفر.

لم يَدرك نغمة الحبوط منه، والصبر عليه، خفيفة، خفيفة لا يكاد يحسها، إلا بعد ذلك بأيام وأسابيع وشهور، في هذيان أحلامه التي يعود فيها إليه كل حضورها، صورتها ونظرتها ونبرة صوتها وكلماتها والحس بها، تعود إليه مرة بعد مرة بعد مرة بلا نهاية، مختلطة بالمرارة التي لا تنحل.

كانت جالسة على السرير الضيق الطويل، والحقائب الكبيرة والصغيرة مبعثرة ما تزال على الأرض وعلى الوسائد وعلى السرير الآخر، واستندت إلى حاجز الخشب الموجني الداكن المصقول، وكان وجهها يشع بدكنة خفيفة، في عكس الضوء الآتي من النافذة وراءها، نصف مغلقة، عليها ستارة بيضاء تلوح منها سقوف غريبة باردة، وأطراف الشجر، خلف الزجاج، خضرة أوراقه اليانعة المنقطعة معلّقة في الخشب الأسود بجلده الصلب المشقق.

قال لها: انتظري.. انتظري قليلاً.. لم أنس.

كان في صوته بهجةٌ حقيقيّة، وتخففٌ من العبء، واقبالٌ على حبيبته وفتح الحقيبة الصغيرة بلهفةٍ وتعجلٍ واضطراب، وأخرج عروستها الصغيرة الخضراء العينين الخضراء الثوب.

قال لها: لم أنس.. انظري.. انظري عينيها.. ألا تذكرك بشيء؟

ووضع العروسة بجانب وجهها، ونظر إليهما، جنباً إلى جنب. العينان الخضروان الصفراوان اللتان تراودان صحوته وحلمه، وحياته وموته، ساطعتين في ظلمته دائماً مفتوحتين، دائماً مفتقدتين. كان قد سألها مرة، وهو ينظر إلى عينيها، مسحوراً دائماً كلما نظر إليهما، في داخل الفتنة الخاصة

التي ليست من هذه الأرض، في داخل الرقية التي يجد نفسه ساقطاً فيها، يهوي بلا ثقل، إلى عمق لن يصل إليه أبداً، لا أمل له في أن يصطدم بقاع:

ـ رامة ما لون عينيك؟

فقالت: لونها يتغير دائماً كما يقال لي. عسلي فيما أظن. لونها داكن عندما أكون عصبيّة أو قلقة أو حزينة. وفي الضوء المتغيّر تتغيران.. كعيون القطط.

قال: عسلية خضراء صفراء لا أدري.. وبها أشعة داكنة غريبة.. صادرة من البؤرة إلى أطراف الكون.

قالت: صفراء؟ لا.. لا أظن.. لا أدري مع ذلك.

قالت له: أوه، ما أجملها.. حبيبتي عروستي.. أشكرك يا حبيبي.

وهي ترفع العروسة، أمام وجهها، في النور: ما أحلاها. وتضمها إلى صدرها. وقبّلته، في فرحة طفلية، قبلة شكر سريعة.

قال لنفسه، فيما بعد: ثم أنها نسيت كل شيء عنها، بعد ذلك، بقسوة طفلية.

قال: انتظري، لم أفرغ بعد.

باسماً، مداعباً، كأنما يتشوف قبلة أخرى.

قالت: ماذا أيضاً؟ لا؟

بنفس الاستطلاع والفضول الخفيف، كأنما تستغربه قليلاً، وتتسلى.. وتعجب.

أما هو بالطبع، فقد كان حتى في تخففه الحقيقي وفرحه النادر، يعطي

الأمر خطورةً ما. تكن هدية بقدر ما كانت رمزاً، دون أن يتضح الأمر مع ذلك تماماً في نفسه.

فك الورقة الخفيفة، وفتح العلبة الطويلة من الورق المقوّى الداكن اللون، وأخرج لها إسوارة، وعقداً، فيهما تصوُّرٌ حديثُ النزعة، وتجريدية في الخط والتصميم، بلونهما المحروق اللامع الصدىء معاً، ونقوشهما الجريئة. كان يمد يده بالإسوارة، فأعطته ذراعها، بصمت، ونظرة تَقَبُّل وخضوع ورضى، كأنها نظرة حب، ولم يفهم، لحظة واحدة، ثم تذكر، فأحاط معصمها الذي استسلم له، بالصفائح الرقيقة. وشبك طرفي الإسوارة، وأحاط عنقها بالعقد، وضمها إلى صدره.

قالت: آه أصبحت تعرف ما أحب.. أحب هذه الأشياء العجيبة المزخرفة أنا.

قال لها: نعم.

وعبثت يداها قليلاً بالعقد الذي يتدلى على صدرها المليء الوثير، وامتلأ قلبه لها بالشهوة والحنو معاً. وتذكر فجأة يوم عيد ميلادها، عندما أعطاها إسوارة فضية. كانت قد أعطته معصمها من قبل. قالت له يومها: ألبسني الإسوارة. ووضعت يدها باستسلام، على المائدة، واعتذرت له أنها لن تقضي وقتاً طويلاً معه، وقالت إن عندها في البيت أقارب وضيوفاً، وتقبّل سقطة حلمه في قضاء السهرة معها، سهرة عيد ميلادها، يحتفل به معها، وحدهما، وفي السيارة المعتمة وهي في طريقها للعودة إلى بيتها قالت له أعطني سيجارة العلبة على حجري، والتقط علبة السجاير من على فخذها، واضطرب وهو يشعلها لها، وعندما رجع وجد علبة كبريتها في جيبه مع علبته، ثم رآها بعد أن نزل من السيارة، وهي تنعطف إلى الشارع الضيّق المزدحم في بولاق، بعد الكوبري، وقال لنفسه إذن فقد ذهبت إلى صديقها

في البيت القديم، هو إذن أقرباؤها وضيوفها. وقضى ليلته كما يقضي ليالي طويلة كثيرة، بين سورات الجنون المكتوم التي لا تفقد مخالبها، في كل مرة، ولأنيابها الممزّقة حروق تغوص، كاوية، إلى الداخل، لا تبرأ ولا تزال تعود، وتعود، جديدة دائماً. قال لنفسه بابتسامة: لم تبق قطعة غير محترقة. وضحك، صامتاً، من الملح الذي يملأ عينيه.

وخيل إليه أنها، بحس ما تملكه وتمتاز به، أدركت ما بنفسه، فوثبت من على السرير وقالت: هيا بنا نخرج.. يجب أن أريك المدينة.. ما زال في النهار بقية. ونزلا معاً، لأول مرة، السلالم الضيقة. وقبل أن يخرجا ابتسمت الفتاة التي في الردهة بوجهها اللطيف، وحيّتها، وكانت الشوارع هادئة، وصامتة، وغريبة. وصدره يحمل، بقوة وتوفّز، كل الأثقال التي تركتها أزمان الألم القديم التي لم تكد تمر بعد.

كانت قد قالت له، في يوم عيد ميلادها أيضاً: انني أجيد فن الكلام. هذا صحيح، منذ طفولتي اكتشفت أن الكلام يرضي الناس، ويريحهم. ولكنني من الداخل لا أحس شيئاً.

وكانت قد قالت له، مرة: لماذا لا تتحدث.. وأنت رجل الكلمات؟

أنتِ الكلمة الأولى.

قال لها في غمرات حديثه الداخليّ الصامت معها، تعصف به باستمرار وتمزقه وهو فيما يبدو هادىء المظهر في وسط الناس والعمل والزحمة والأصدقاء والأغراب:

ـ أنت تجيدين فن الحديث. ما أروع إجادتك له.. أما أنا فلا اعرف كيف أتكلم.. وإذا تكلمت فلن أقول شيئاً، حقاً. كم من الفنون تجيدين؟ تجيدين أيضاً فن إعطاء الجسد؟ وتحتفظين بقلبك منيعاً، حصيناً، لا يستباح؟ وأيضاً من الداخل لا تحسين شيئاً.. أقوة لا غلاب لها

تـدفعك، لا تقـاوم، نحو هـذا الاتقان؟ أمـا أنـا فـلا أطيق هـذه الصنعـة الباهرة. . أريد بجنونٍ ويأسٍ معاً ما وراء الكلمات، وما وراء الجسد معاً. أريدهما معاً، الكلمة، وحرارة الحب الجسدي وتفتح القلب التي وراءها، معاً. . وأمام الصنعة المحكمة أموت، وأجمد، وتنطوي عني موجة الحياة، وأرقبك، معجباً ومجنوناً بالحنق واليأس، كأنني حيوان مظلم في جُحْر.

قـالت له، مـرة: لا تصدق أبـداً ما أقـول. لا تصدق إلا مـا أفعـل. . الأفعال المجسدة، العينية، الحقيقية.

ماذا تفعلين يا رامة؟ ماذا تفعلين؟

أريد أن أصدقك. .

قـال لها مـرة أخرى، عندما وصـلا أخيراً إلى المـرحلة التي يمزقـان فيها أحدهما الآخر بالتعذيب البـطيء المقصود أو غير المقصود: أنا لست عنـدك إلا حدثاً عرضياً عابراً، مؤقتاً. . مثل الكثير من الآخرين.

فلم ترد عليه. وتذكر أنها قالت له مـرة: لا تحاول أبـداً أن تجعلني أقيّم علاقتنا.

رامـة. . أريد أن أضـع ذراعيّ، كلتيهما، عـلى كتفيـك، أن أحيط بهـما عنقك. الحنان الذي لك في قلبي يملأ العالم أريد أن تحملك موجته الرقيقة السـاكنة التي يغرق فيها كل شيء. أريد أن أنحني فأقبّل وجنتـك الناعمـة، أن أضـم إلى صدري وجهك الباكي، أن ترتاحي لحظة بين ذراعيّ وأن أمحو الألم عن ابتسـامتـك الجـريحـة، أريـد أن تجـدي معي الأمن من حـيرتـك وبحثك، فلا تعـود هناك أسئلة، يـا حبيبتي. عظام الـوجه المسفـوحة تحت شمس الصمت تحلم، حلم اليـأس، أن تتمـرغ عـلى نعـومـة وجنتـك. الذراعان الملتويتان على فـراغ الضلوع المشدودة العـطشى إلى لدونـة نهديك تـطلبانـك، والعمـود الصلب المتـوتـر بـإرادةٍ أن يغـوص في عتمـة الـدفء

المخضلّ المرتعش. أمواج الحنو والوجد الثقيلة ترتطم مياهها الحالكة السواد بالصخر، وتمتلىء، وتتضخّم محبوسة تفيض وتتخبط في حفرة الظلام المسدود، شفتاي طال بهما الجفاف، يشق فيهما الملح خطوطه، والشوق المحرق إلى ندى شفتيك وعسل لسانك. عيناي تريان رؤيا، لم تحدث أبداً، لن تحدث أبداً، مثل سبحات الهذيان: في عينيك أنهما تقبلانني بلا تساؤل، بلا استطلاع ولا استغراب، بلا رفض ولا جمود، بلا يأس. رؤيا ليست من هذا العالم، انّ في عينيك لي الحب والمعرفة. وشفتاي عندئذ تعتصران العنب المتوتر الذي ينبض مليئاً بعصارته من نبيذ الجسد المخبوء. وجهي يلتصق بضغط رقيق متطلب في العجين الناعم، أعمدة المجد المستلقية على التربة السمراء، تحت أصابعي الممدودة التي تحتوي العالم كله. وعيناي مغمضتان، مدفونتين في القباب المستديرة اللدنة. أنشقّ رائحة الخصوبة الأولية، وأعرف بطرفِ لسانٍ مكهرب طعم مذاقها الحرّيف العذب معاً ووجهي في دغلات النباتات المبتلة بمياه النهر، يهاجمني عطرها الوحشيّ. شفتاي لهما حياة بدائية في غابات الجسد، تستطلع وتتراجع وتهجم وتقضم وتمتص المياه الدسمة، تحف بهما خشونة العشب الندي، وتصرخ استجابةً لصرخات هاربة في نشوة المطاردة والتشبث بالحياة. ثم يأتي التوتر الذي لا يُحتمل والدفعة النهائية نحو الغياب الأخير والطعنة في جرح العالم الطريّ المفتوح الذي يريد أن يموت، ورقصة التضحية الأخيرة حيث لم تعد هناك مطاردة ولا طريدة، لم يعد قربان ولا ضحية، بل اشتعال الوهج الباهر وسط الموسيقى الساطعة من التحقق واليقين وانفجار الكون وانبثاق شلالات النجوم وتدهور الشموس المحترقة في قلب ظلام السماء. وأنا أقبّل العنق المجزوز، بشفتين راضيتين ومؤلمتين، وأضم بين يدي الرأس المذبوح، يتقطر من فمي الخمر والدم معاً، وأفسح شفتيّ في غدائر الأغصان المهتزة المتهدلة بشعرها الساقط على عينيّ.

كان مخائيل قد تركها، بعد ليلتها الأولى في مدينتها، وقد شبع فيها

جانب من جوعها المعذَّب الدائم إلى الحنو والرضى، نصف نائمة، نصف مرتاحة، وقالت له، مرة أخرى، وهو يخرج: لا تطفىء النور يا حبيبي.

وفي صباح اليوم التالي، عندما فتح باب غرفته، فوجىء بها، نصف مفاجأة كأنما كان يحس أنها هناك. نصف مفاجأة، لأنه يحس دائماً أنها هناك، في كل مكان، في كل زمن، دائماً سيفتح لها بابه، دائماً سيراها في طريقه، دائماً ستمر به، دائماً سيجدها تنتظره، دائماً ستأتي له، حيثما كان، حضورها معه هذيان ملازم، دائماً على الاستديو أمام مكتبه، وفي زحمة الشارع، وعندما يأوي إلى نومه القلق، دائماً رنين التليفون منها، وسيسمع صوتها العذب الذي لا يحب في العالم صوتاً أكثر منه، أو صوتها الجامد الجاف الذي يكرهه وتوجعه صلابته، يرن التليفون في صمت الليل، وقبيل الفجر، رنيناً ملحاً، ثابتاً، وتثب دماؤه كلها فرحاً ولهفة، ثم يتيقن فجأة أنه كان يسمع الرنين في هذاء حبه، في الصمت الكامل. في مرة واحدة تحقق الوهم فجأة، وفتح بابه، على غير انتظار، فإذا هي أمامه حقاً، والمفاجأة تصدم قلبه، وتشله وتفقد العالم حدوده.

رآها الآن، تصعد إليه من الحمّام، وترفع إليه وجهها القمحي الغضّ، في نور الصبح الشفاف المشاع، في صمت السلالم، ونظرت إليه نظرة الخجل والخضوع والسعادة والترقب والعرفان. كانت في قميص قصير من نسيج قطني رقيق، لا يكاد يصل إلى ركبتيها، واسع على جسمها اللدن القوي المرتاح. كان النور الخفيف يسقط على عظمتي خديها الناعمين، من فوق، ويبرزهما في انحناءاتها الرقيقة، وكانت عيناها واسعتين لا يرى الآن لونها، دائماً هذه النظرة التي يمتلىء بها قلبه، ترتفع إليه من عالم آخر. تحمل على رأسها القمر، وقد نام الثعبان.

كانت قد ربطت شعرها، مثل بنات البلد، بمدورة بيضاء صغيرة. وقدماها المكتنزتان في الشبشب الصغير، على البساط الأحمر الداكن، وفي

السلالم كلها هدوء الصبح وسكون عميق غريب. وأحسَّ مرة أخرى بطعم السعادة. بمجرد نظرتها إليه حملت له هذا المذاق النادر الذي لم يعرفه إلا قليلاً. قال لها، نصف هامس، وصدره يدر بالحنان: صباح الخير يا حبيتي. قال لها: سأجيء إليك حالاً. وأومأت برأسها، بابتسامة عذبة، نادرة أيضاً لأنها صافية، صافية. لأنها ابتسامة من غير ارادة للابتسام، من غير صنعة، من غير إتقان.

قالت له، بعد الظهر: هل تصدمك المدوّرة؟ أحب أن ألم بها شعري، أجدها عملية وظريفة.. لم لا؟ ولكن أمي تقول لي عندما تراني بها، ما هذا؟ عيب! فأضحك. ما رأيك؟ عيب، أن ألبسها كبنات البلد؟ قلت لأمي وماذا فيها؟ أليست عملية ومفيدة وسهلة وحلوة أيضاً؟ ما رأيك؟

كانت قطعة النسيج الرقيقة البيضاء على شعرها كأنما اكتسبت شيئاً من نفح شعَرها وحيويته ودفء جسمها نفسه، وكان لونها قد بهت قليلاً، وتغضن قماشها وأصبح مطواعاً وناعماً به طيات حميمة من أثر عَقدته كثيراً حول خصل شعرها، ولَفّته المحبوكة عليها، فضمّ رأسها إليه، وقبّلها. ونسي، لحظة ما ينطوي عليه سؤالها كله: هل تصدمك المدوّرة؟ نسي، لحظة، أنها تراه دائماً في صيغة ثابتة، صيغة الأحكام والقواعد الجامدة التي لا بد أنه يلزم نفسه بها هذا الظل في نبرة سؤالها كان يلح عليه، بعد ذلك، في موجات التساؤل والاستعادة والألم تصعد به وتهبط بلا توقف، ولا يصل منها إلى شاطئ.

كانا في السيارة، بعد انتهاء أيامهما الستة، بعد انقضاء صباح مترب خانق. الصباح الأخير. الذي غصّ بالنزاع واللجَج والغضب والاحباط، به شمس قاسية ومكتومة يتفطر منها اليوم بالحر والرطوبة. وكانت المسافة طويلة إلى المحطة، طويلة جداً، ومليئة بفجوات الصمت والحس بالمرارة. وعندما وضع يده على يدها، كان في يدها الرفض والجمود. ولكنهما كانا

يتحدثان، وإن كانت لم تعن كثيراً بـأن تجيد ممارسة صنعـة الحديث. كـان يحسّ قتامة نظرتها إلى الأيام الكثيرة القادمة التي لا يعرفها أحد. قالت لـه: لم يكن ينبغي أن تـأتي معي. كان يجب أن نـودّع أحدنـا الآخـر في الفنـدق. غير معقول أن تصرّ على المجيء معي لغاية المحطّة، وأنت ستسافر اليـوم بعد الظهر. تسافر لغاية المحطّة مرّتين في يوم واحد. هل تعرف.. أنت قتلت التنين.

فأُخذ قليلاً، وقال: لماذا؟

قالت: قتلت التنين. أنت تعـرف. في القصص القديمـة، قصص الحب العذري ـ وغير العـذري ـ يثبت الفارس حبـه بأن يقتـل التنين. يخـرج إلى الغابة الموحشة، بعد أن يعطي حبيبتـه منديـلاً، أو شعاراً. ويمضي وحـده، يجتاز كل اختبار، ويبلو كل محنة.. ويتحمل المشقـة.. حتى يقتل التنين ـ وأنت قتلت التنين.. واستدركت بسرعـة: وليس هـذا تهكـماً أو دعـابـة، أيضاً.. أعني ما أقول.

لم يقل لها: أأحتـاج أن أثبت حبي، بعد؟ لست أريـد أن أثبت أو أنفي شيئـاً. هـذا كله يقـع فيـما وراء الإثبـات والنفي. أتحتـاجـين ـ أنت ـ إلى مقاييس وشواهد للإثبات والنفي؟ ما تزالين، مرة بعد مرة ـ وتقولين ـ كأنما تتسـاءلين، كـأنما أنت عـلى غير يقـين.. ألا تحسّين هـذا الـذي يتفجـر في داخلي، ليل نهار؟ ألا يبدو له أثر؟ ألا تحسّين هذا الذي لم يعد له انفصـال، أبداً، عن حياتي؟

زئير أجش تتقوض تحتـه قضبان الضلوع، زلـزال تتخبط فيه، وتـسقط، احجـار مكسـورة وصلبـة، مقطوعـة بـالـظفـر والمخلب، من حَبّـة القلب، اليـدان بأصـابعهما المتقبضـة تحفر البرك المتقـطرة بـالـدم في جـدران صلدة قاسيـة، وتكشط فلذة الحجر الذي ينبض بعناد وانتظام.

يصرخ في الصمت المطبق آآآآي . . . آآآي . . يجأر، ويمسك بفمه المشقوق، فاغراً، بملء صوته، عن صرخته التي لا تنطفىء، وغير مسموعة تملأ كل فجوة، كل حفرة، كل جرح، كل ثغرة في الأرض والسماء.

قال لنفسه: لم أقتل التنين، أعيش معه، أسنانه مغروزة في قلبي، متعانقين بلا فراق أبداً، حتى الموت.

٤- رامة نائمة .. نائمة تحت القمر

قالت له: هل تعرف أريد أن أسافر معك إلى جزيرة البحر النائمة، صغيرة وعرة بها أشجار حمراء الورق، حولها الماء تراه وتحسه وتشم هواءه الملح من كل ركن، لا نصل إليها إلا بعد ساعات من السفر في البحر، تعرف؟ تحت شمس ساخنة جافة، على باخرة قديمة، من تلك المراكب المسطحة الكسول، كلها من حديد وخشب، تعرفها؟ ونعيش في بيت من الحجر الأبيض مع الصيادين، وليس هناك على الميناء الحجرية إلا قهوة وبقال واحد هو أيضاً الحلاق والنجار نأخذ منه الخبز والتموين مرة كل يوم سبت، تحب أن تأتي معي؟ الا يشوقك هذا؟ أنا أحب أن أسافر معك في هذه الرحلة.

كان الحلم حياً، صحواً، تحدُّر فجأة إلى الانحسار.

قال لنفسه: مادة الأحلام، أيضاً، حجرية.

قال لنفسه: الجُزُر في بحرنا الضيق الحار ليس فيها خبز ولا ماء، وليس فيها شجر، قاحلة، تحترق في الشمس.

كانت قد قالت له: لم أعد أؤمن بالأحلام - إلا إذا علمتَني أنت كيف أحلم من جديد.

فلم يقل لها: أنت علمتِني أن الحلم مستحيل. ما زلت أؤمن به مع ذلك وأعرف استحالته.

أؤمن، أؤمن، أؤمن وأصدق.

أيها الحلم، أين شوكتك؟

بل قال وهو ينظر إلى خضرة عينيها التي لا تعكس شيئاً: لم تقولي لي أبداً هل تحبين القمر؟ ليالي القمر الساطعة الغريبة، عندما يكون هناك الشيء وظله، كل شيء اثنان، كيان متلاصق ومنفصل، كأنه يحيا حياة أخرى؟

قالت بصوتها المحايد، من غير حرارة، كأنها تتلو رقية محفوظة مجرَّبة، وفعالة الأثر: بالطبع أحب القمر. ألم أقل لك؟ أنا عابدة للقمر. أنا من جنس عابدات القمر.

قالت له: هل تعرف أنني قطعت ألف كيلو متر في جنوب الصحراء لكي أذهب إليهن؟

قال: من؟

قالت: ألا تعرف؟ ما زلن حتى الآن، عابدات القمر، في صحرائنا. محجّبات في الواحة المغلقة، وما زالت الشعائر القديمة لها سطوة. عبادة القرص الذهبي، والبغاء المقدس. تعرف أن هناك ما يسمى بظاهرة البغايا المقدسات، هذا تقليد تاريخي عريق ما زال حياً، ويقال إن...

قال بنفاد صبر وشيء من الحيرة: نعم، نعم، عند الأشوريين والهنود وفي اليونان القديمة إلى آخره، وعند أجدادنا أيضاً فيما يقال. هذا في التاريخ مشهور.

قالت وقد تراجع الصوت المصمت النبرة: عرفت عندئذ، تماماً وعلى الفور، معرفة كأنها كانت عندي، في داخلي، منذ أول لحظة في حياتي، أنني من جنسهن، لماذا تستغرب؟ قال: لا أستغرب. قالت: إحساس غريب كما قد تتصور. لا مبرر له اطلاقاً كما تعرف، حقيقة، ولكن.

نظر في غير شغف، من وراء زجاج الديزل المعتم قليلاً، من داخل اللغط الخفيف ورتابة إيقاع العجلات في دقاتها المكتومة المتتالية. كانت الغيطان تتابع في عالم آخر، لوحة طويلة مرسومة بالباستيل الباهت في شمس بعد الظهر المملة. ذراعها السمراء المكتنزة بجانبه على المسند عارية تلمع بشهوية خاصة، لا يلمسها، ولا يريد أن يلمسها، يكفيه حسّ من الحيوية يشع عنها ويحيط به في الهواء المحبوس المبرَّد الذي تتخلله فجأة نفحات من السخونة اليابسة. النور يصبه نهار منفيٌّ في الخارج ويذوب في ضوء الكهرباء الأبيض الأعمى.

كانت قد قالت له: سأسافر بعد الظهر. أراك بعد أسبوع.

قال لها: معك التذكرة؟ قالت نعم، قال تعطيني رقمها؟ قال سأراك في القطار مسافر معك قالت هل تستطيع؟ قال نعم وخطف ملابسه خطفاً ونزل مندفعاً وجرى وراء التاكسي ووصل بعد اللأي المعتاد إلى ميدان المحطة الذي يفور بالناس والعربات ووقف في الصف بتململ ولهفة وعاد في حلمٍ مزدحم بالحر والانتصار وبعد ساعة تماماً كان يحدثها يتكلف الهدوء ويعابثها قليلاً إذ حصل على المقعد المجاور لها في الديزل ويستوجس منها حساً حروناً ومكتوماً بالحنق وعدم الراحة كأنما اكتسح من تحت قدميها حتة أرض صغيرة كانت تحرص على أن تحتويها لنفسها وحدها.

ومع ذلك كانت نشوة المغامرة الصغيرة الناجحة تنسيه هذا الحرج، وأمامه زجاجة البيرة الاستيلا على المائدة الصفيح الصدئة اللون، حبات الفول السوداني البنية المنبعجة المتسلخة الجلد، وغطاء الزجاجة الصغير المدور بفلينته القديمة المنقطة بالسواد، والغيطان تبتعد من وراء الطريق الزراعي الضيّق النظيف بأشجاره القصيرة الهشة، مع نشوة البيرة الممتزجة بطعم السيجارة الحريفة، وهو ينفث الدخان عن صدر طلق رحب واسع العينين.

وجوه البيوت الطينية تتراجع بسرعة في الدقات الخافتة المتوالية جدائل شعرها كتل جامدة من التبن الأشقر الملبّد، والسواقي الحديدية تظهر وتختفي على مسافات متعادلة محوبة يلمع سوادها بنشع الماء، وأعمدة الكهرباء تتباعد بانحراف مستقيم مرسوم، مخروطية، من المعدن الأبيض اللامع مفرغة رشيقة الأضلاع، تحمل الأسلاك الرقيقة المتهدلة، مترابطة على البعد، لها لغتها الخاصة وشفرتها غير المحلولة، ترتفع من خضرة الغيطان الواطئة المستذلة، بينها الفلاحون صغار الأجسام لا صوت لهم منحنين بفؤوسهم التي لا تكاد تُرى ينبشون أرضهم بصبر الأبد، محاصرين تهددهم باستمرار هذه الصحراء القريبة المحتضنة كل شيء الغائرة في جوف زمن ثابت نقي لا ينال منه شيء.

على حافة الصحراء حشرجات الجرارات المعدنية الكبيرة بعجلاتها الضخمة تقرض الرمل وتقلب التربة بأسنانها المحدبة السوداء، بجانب الترع الهندسية التي ترقرق في جدرانها الاسمنتية المصقولة، ماؤها أزرق رصاصي يلمع تحت العشب الهش في ظل أشجار الجزورينا الجديدة.

الساحرة القديمة السمراء الوجه بعينيها الخضراوين توقف سيارتها الفولكس المتربة برمل الصحراء الدقيق وقد صمت طنين المحرك الذي ظل يعلو ويخفت منذ ساعات وارتطام العجلات بأحجار الطريق الرملي المدكوك أطفالُ صحراء الجنوب بجلاليبهم البيضاء الخفيفة على اللحم الأسود الجاف الغض الجلد معاً وعيونهم الذكية اليقظة ووجوههم الرقيقة والرجال بقاماتهم الفارعة في نحولهم صلابة أعمدة النخيل المشققة ولهجتهم السريعة فيها رقة غير مفهومة تستثير حركة حميمة داخلية في رحمها وهي تنزع مفتاح الكونتاكت بحركة حاسمة ورشيقة ومتملكة وتفتح باب الفولكس الساخنة والمقاعد تزاح إلى الأمام لتنزل جماعة المسافرين الكلمات القلاقل المختلطة بلهجتها الحوشية سرب ذباب خفيف ومتموج ومتطاير أين

مقر المركز هنا يا فندم من وراء الجامع ماذا؟ إلى اليمين هل ترين هذه المئذنة يا سيدتي جنب الاتحاد الاشتراكي اتفضلوا شرفتونا النبي زارنا والله يا فندي عيون الأولاد متوقدة بالمتعة والفضول والاستغراب الميدان الرملي الصغير بشجيراته الصغيرة الصفراء الخُضرة المروية بعناية واستمرار الجدران البيضاء المقفلة تحت النخيل والغرفة المفروشة بسرير عسكري مفرد وحصير ومرآة صغيرة معلقة بمسمار مغروز في المونة الجافة بين الأحجار العارية وتفرق الجماعة في الغرفتين المتجاورتين وهي تنحدر إلى نومها القلق بالقميص الخفيف الأبيض ينحسر عن فخذيها القمحيتين الممتلئتين حتى تخمد وقدة الحر من وراء خشب النافذة المفتوح في غسق اليقظة بضوئه العميق الاحمرار في طراوة هواء الصحراء المسائي المسكر الذي لا يُحتمل بصفائه ورقته ينبثق من الرمل قرص القمر الذهبي متوهجاً بناره الناعمة السطح واسع الاستدارة كاملاً يدفعها فجأة إلى الصحو الكامل والسكوت.

الوجوه الجائعة المحجّبة تثقبها العيون المحترقة الأذرع والسيقان العارية الصلبة القوام تُطوّق وتتقبض وتستسلم عصارة تسيل من قلب الجفاف ليس هناك على الأرض الرملية المغطاة بالحصير بذاءة الفم المفتوح المبتل وإنما طهارة الرحم المعبود أصل كل شيء ومصبه هنالك نقاء انتفاضة الموت الأخيرة المحتدمة صمْت الندى البكر المتكبر في شموخه ومقاومة لدونته صمْتٌ لا ينحل السقوط في وهدة البطن السمراء العميقة.

نحو أمواج الخضرة الداكنة الظلال السوداء تحت جدران الطين الانفاسُ الحيوانية النائمة وتتابع حركة الأشداق تجتر علف الآباء والأجداد في كِنّ يحميها من الاحتراق الفضي الساطع الدسم طوفان المياه القديمة وعطن البرك الخامدة وحفيف الزرع الكثيف وهواء الرمال وتدفقُ الخوف في السيقان التي تجري وتتدافع وصرخات الدم المكتومة ودقات الهراوات والتماع الخوذات المعدنية والدروع الكابية المغبرة وخبطات رضوض العظام

الخشنة ونداءات الحرية واندفاعات الذراعين تحتضن صخورَ الصدر تعتصر المحبةَ والشجن والعمودَ الضخم المستدير محمراً بشع الملاسة عاري الرأس.

جرانيتيّ القهر والرعب تموج من حوله دوامات تتباعد ثم تتكشف ثم تنفرط ثم تنعقد في حلقات عنيدة صغيرة وحدها تحت السماء البعيدة نداؤها ثاقب الصوت يبدو خاوياً لا صدى له يصطدم بالأحجار والنجوم القليلة اللامعة وعواءُ مطاط العجلات يكحت الأرض وصرخات الفرامل وانطلاق المحركات الثقيلة بحمولتها الساقطة ودروعها الهشة التي لا جدوى فيها والتواءات الساقين المكسورتين وارتخاؤهما فجأة تحت اليدين المتوترتين القابضتين في فعل الاختراق والتملك والتمزق والالتئام وانبثاق العجين الأبيض السائل على عطش الأرض الأبدية الخصب الأبدية الاجداب.

وتلاحم الأجسام الفتية دماؤها عارمة بطين المرارة الدمث الخالص من كل شائبة فوارة يجتذبها المد الذي لا يقاوَم نحو القمر نحو الاشتعال الأبيض الذي يسطع مرة واحدة في العمر وينطفىء إلى الأبد عتامةُ القامات الضاوية الناحلة الرثة بملابسها الخشنة الصفراء الجديدة وجفاء ظلمة جوفها الذي يغص بالنتن دمى وحشية تصدع بأوامر مكتومة تنفجر فجأة وتصمت فجأة فتندفع في عمىً بربري تضرب على غير هدى في ذعر مقلوب الوجه التطامُ الصرخات والأنين وشتائم الحب المعذب ونداءات المقت العميق.

وصبوات الثأر ونشوات كسر سلاسل السنين المغروسة في صلبِ اللحم ونخاع العظام الانقلاب بالجسم الأنثوي المطاوع المتقزز انكشاف باطن القدمين ما تزال عالقة بهما لوثات الطين الخصب وذرات الرمل الخفيفة وارتفاع حصون تلال الجسد الليّنة باستدارتها المنيعة الارتماءُ في حميا الهجوم ونبضات المقاومة التي تتطلب وتشتهي وانفتاح الاستسلام ابتهالات العبادة بالرقية الأزلية.. حبيبتي.. حبيبتي.. حريقي وأنين صلاة الجسد في المحراب المفتوح المنتَهك أي أرضي المستباحة المقدسة لن يغتصبك بشَنَس

إلهك المُقَرْن القاسي أبداً. . أبداً النشوة الأنثوية بالاغتصاب والرضى بالضربة وارتعادة الجسد المتمرد ينتفض ويشب ويرتخي عذباً طرياً كأنه يتلاشى لكنه يتهاسك ويتصلب ويتحدى من جديد همس العشق الذي ينطق بحكمة الاحشاء العميقة المزعة وينهمر بوحشيتها وعذابها ويتلوى بأشواقها الحارة لن يصمت أبداً يا حبي. . يا حبي. . يا ضياعي ونوري الوحيد والطين الطري ينفتح ليتلقى الساقين تغوصان والجذع والصدر ويطوي الذراعين تحت موجته الكثيفة ويهبط فيه الرأس ببطءٍ مفتوح العينين يعرف أنها لحظته الأخيرة ويقبلها وتنطبق شفتا الموجة اللدنتان المكتنزتان وتنفثىء الفقاعة الأخيرة على سطح الطين الذي يرتعش ثم تعود إليه ملاسته الخبيثة الرائقة المتهاسكة والنور الهمجي الأبيض كتلة قاطعة الحدود تجرح الأجساد المتلاطمة تتلاصق وتتباعد لكي ترتطم من جديد وتتلمس في النعومة المتقلبة حساً بالولادة والبعث في غضب مياه الفيضان زئير الذكورة المتفجر المكتوم بينها تتحدر الجسور الترابية وتنهار والقمر يتحطم شظايا متطايرة تغوص في البطن الداكن الذي يرتفع وينخفض في حمى الشهوة والظمأ الجديد وقد سقط الاله القاسي تعال يا أوزير الصارم المحبة والقطرات المدورة الكثيفة تنضح على جلدها الأسمر الوثير الذي ينبض بالنداء والاستمتاع في رائحة الخمير الحلوة ثقيلة بعبق التراب المُسْقِيّ إذ ينثال الماء الأخير بين شقوقه بعد يبوسة الظمأ والتحاريق.

هذه كانت رؤيا ميخائيل.

رامة نائمة إلى جواره في غرفتها المطلة على الشارع الضيق المنسرب تحت أمواج الشجر الكثيف، بعد وصوله إليها عبر متاهاته وتقلبات مفازعه المعتادة، والقمر ينصبّ في الغرفة بضوئه النحيل من وراء زجاج النافذة المسدلة عليه ستارة بيضاء خفيفة النسيج، والنور الكهربائي الصغير (الذي سوف تقول له، عندما يذهب عنها وسط الليل: لا تطفئه يا حبيبي) مضيئاً

باستدارته المحددة الرثة. حقائبها البيضاء الجديدة، عليها الحروف الأولى من اسمها، بين السرير والحائط المغطى بورق عليه رسوم أزهار انجليزية باهتة الألوان قليلاً. والسيارات في أول الليل تجري بسرعة يسمع من علو ثلاثة طوابق دوران عجلاتها على اسفلت الشارع. وقد تيقظ ميخائيل فجأة متوتر الحس مستغرباً في مرقده الجديدة بجوارها، بعد السفر والانتظار والدوران وصنمات البحث وتوجسات الفقدان، وبعد النزول إلى المدينة بوجودها الجديد غير المألوف والمطر الهين والعشاء الخفيف في مطعم مضيء بالخشب الموجني اللامع والألومنيوم التافه الملمس والجيلاتي الذي انقلب فجأة على كرافتته بعد العشاء وهو يحكي حكاية متعثرة متحمسة يداري بها تطلعاً إلى الليل وهياجاً يتيقظ فيه ويجعله يتوتر، ثم العودة عبر الشوارع العريضة السوداء بأنوارها الساهرة وصعود السلم الليلي والدخول إلى الغرفة بلا حديث والغرق مباشرة في حفرة العشق المضطربة على السرير الضيق في نصف نوم نصف يقظة من التعب والاستثارة والشوق والتحقق والحنان السريع الانكسار، والنوم، كطفلين في حضن أحدهما الآخر، ذراعها البضة السمراء الحلوة على كتفه.

وجودها، هذه المرأة، هذه المرأة الطفلة الآن، بجانبك نائمة نائمة تحت القمر، رائحتها وملمس جلدها، جسدها المستريح المسترخي، شعرها الخشن الكثيف القوي العبق برائحة نباتات حوشية، وقد برىءَ الآن من عسفه وسكنت سطوته، قميصُها الأبيض المنحسر عن ردفيها العريضين الممتلئين قشرة متفتحة عن ثمرة بربرية استوائية ضخمة أحنت رأسها ودارت أوراقها على نفسها في غير توتر، هادئة الآن، رخية، وجودها كله، آمناً إليك، في حضنك، مستسلماً لحبك وحنوك، راضياً بقلقك وهواجسك التي لا ترويض لها أبداً، هذا الحنان الذي لا يُعوض، على السرير، جسده يملأ ذراعيك، وقد أوت إليك أنت، ولو ليلة واحدة، اختارتك أنت، على

أي حال، وبأي تفسير، احتمت بك، واستراحت من عذاباتها التي لا صوت لها، أنفاسها تتردد في ساعة ليل لا حلم فيها، كنزٌ لا يقدر بثمن، لا شيء يلغيه، لن يضيع حتى وإن مضت لحظته، وسوف تمضي، سوف تمضي حتماً، بلا شك، ما من شيء يعدل الآن، وإلى الأبد، هذا الحضور الأنثوي الذي سكن إليك أنت، بغناه وخصبه العظيم، ورأسها النائم الشعر ووجهها الساكن الصفحة الذي لا تمر به موجة واحدة وقد تركت نفسها إليك، في دعة كاملة، نامت في حضنك، لحظة من الأمن نادرة، ما أعزها لكنها تمضي، تنحسر، لحظة في خارج كل زمن، لكنها تتباعد سريعاً، وتخرج من زمنك، إلى غير عودة، فهي لن تعود وأنت تعرف.

قال لنفسه: أنت تعرف. هذه ليست إلا ليلة، ليست إلا لحظة. ماذا يحمل الغد إليك، إلينا؟

قال لنفسه: أنوثتها الخصيبة هي سرها الوحيد. الذي يبقى أبداً. نعومتها وقد سكنت إليك، قاع الموجة إليّ جاشت بعنف العشق وضراعته لحظة، ثم هدأت، وسوف تعلو بالزبد من جديد، وتنخفض، وتعلو من جديد، أبد الدهر.

قال لها مرة: أنت لن تموتي أبداً.

فبهتت، وكان في إنكارها ما يشبه القبول والتوكيد.

عندما خرج ميخائيل من عندها، في وسط الليل، ينزل الدرجات القليلة المكسوة بالبساط الأحمر الداكن، بين غرفته وغرفتها، وقد رد الباب بحرص حتى لا يخدش الصمت، ولا يوقظها، وخطا خطواته الأولى كالمتلصص، انفتح الباب المجاور فجأة وخرجت منه بنت في نحو الخامسة عشرة، رقيقة العود، وجهها، في النور الخافت المتسلل من سقف عال، أبيض مغسول ممسوح من كل أثر المكياج، نظافته تكاد تكون طفلية.

وعندما فوجىء بها قليلاً، ابتسمت له ابتسامة قريبة من التواطؤ والمؤامرة، وهي تنظر إلى الباب المردود نظرة خاطفة، كأنها تفهم وتشوقها المغامرة المجاورة، وحيته بإيماءة لا تكاد تُحسّ، فابتسم ميخائيل وقد خلا قلبه، ورد التحية مسرعاً يصعد من جديد إلى غرفته، ونام ـ إحدى المرات القليلة في حياته فيما يذكر ـ وهو يبتسم.

فيما بعد، في زمن آخر، وهما ينزلان على سلم واسع عريض مكسو بسجاد أحمر آخر، في بذخ ناصل اللون قليلاً، قديم الطراز قليلاً، ومركبها يغرق دون أن يغوص تماماً، سوف يقول لها: ننزل السلم، بدلاً من المصعد، كما ينزل أورفيوس إلى العالم تحت الأرضي.

فتقول له: لم يكن أمام أورفيوس سلم ببساط أحمر. ولن يقول لها إن أورفيوس كان ينزل وحده، على أي حال، وأنه في النهاية سيرجع وحده.

وفي الصباح ذهبا يتناولان الافطار. والمطعم تحت في الدور الأرضي. وميخائيل يتلمس طريقه، وهو ينزل السلم الدائري الضيق، كعادته، في تخوف من كل مكان غير مألوف: أما هي فتنزل بخطاها الواثقة التي تبدو دائماً كأنها تعرف أين تذهب، خفيفة وإن كانت تملأ بوجودها الحاشد حيز هذا العالم السفلي النظيف، في أول النهار. المرايا المرسوم عليها اعلانات الويسكي والسجائر وشركات الطيران. والمصابيح الموقدة بشحنات طاقتها الصغيرة المحصورة في أناقتها الميكانيكية السريعة العطب. والموائد المخدومة جيداً بكل أدوات الأكل التجارية المغسولة المجففة جيداً. وقال لنفسه: نحن لسنا في هاديس القديمة الطيبة؟ أم أننا حقاً لسنا في. . .

رائحة البيض تصل إليهما وقد خففتها واختلطت بها الروائح الكيمائية النظيفة في الهواء المحبوس الحسن التدفئة. وللصنابير والمواقد أصوات كفء فعالة تتدفق وتنقطع وتشهق وتنفثىء بقوة وتمكن محسوب دقيق تمتلىء الفوهات. الثمار المصنوعة والمزروعة قد اقتُطعت شرائح صغيرة حادة أو

اعتُصِرت سوائل ملونة أو نسقت بعد أن غُسِلت والتمعت وعليها بطاقات التصدير والاستيراد الصغيرة الأنيقة كأنها تُحلّي طعمها وتضعها في موضعها رقماً في جداول الميزان الحسابي الراجح الكفة.

ها نحن الآن في هاديس الأكل المنظم والتمزيق المتحضر بالأدوات المطلية بمعادن الأرض المزوقة والنهش المهذب والمضغ المغلق الفم من غير أن تدنّس أصابعك، بل كأنك لا تمس حتى فمك ولا أحشاءك يا عم ميخائيل يا بن قلدس الآتي من طين بلدك الأسود الأحمر الغاص ببدائية القرون الطوال وعراقتها معاً. ورامة تدعوه بإيماءة إلى مائدة منعزلة قليلاً بجانب الجدار، وتنتقي التوست المحمص الرقيق تفرش عليه طبقة الزبدة الصفراء بسكينتها، وفي حنو تقدم له حبزه، بحركة بيتية شرقية كأنها زوجة انقضى عليها للتو، شهر العسل، ودخلت، بعده، منطقة الدفء الهادىء.

ثم هي تحكي له حكاياتها التي لا ينحبس لها مسار، في انتظار وصول الافطار وفي أثنائه وبعده، وتقول له نعم يا سيدي شهريار، في جعبة جاريتك شهرزاد حكايات لا تنقضي. أحكي لك قصة جارتنا التي وقعت في حبي. كنا في مصر الجديدة وكانت مدرّسة رقص وكانت أصولها ترجع إلى أسرة نبلاء روسية بيضاء وكانت دائماً ترتدي روب دي شامبر من الحرير الأسود له قصاقيص ودلاديل موشاة بالأصفر الذهبي والأحمر الأرجواني ونقوش أزهار ضخمة متوحشة الألوان وعندما عانقتني والتصق جسدها بجسمي وبكت وهي تحتضنني في شهوة لا تقاوم قلت لها انني أحبها حقاً وأقدر لها حقاً هذه العاطفة ولكنني آسف.وظللنا أصدقاء كأحسن ما يكون الأصدقاء على أن هناك أيضاً حكاية صديقنا حفيد رئيس الوزراء السابق وكان صاحب اقطاعيات قبل الثورة وكان يحب مدرب المصارعة اليابانية في النادي وكان هذا رجلاً ضخماً من بولاق هل تعرف أنني وأنا صغيرة جداً أكلت على مائدة واحدة مع فاروق نعم كان يزور بيتنا وكان في أوائل

سنواته وكان رشيقاً ولطيفاً ولكن في عينيه نظرة مجنونة خفية ومكتومة وعندما كنت أسكن في حجرة واحدة وأنا أرضع بنتي في شبرا الخيمة كنت أضع ماكينة الرونيو تحت السرير وكان عندي ماكينة خياطة اشتغل عليها بالليل حتى يغطي صوتها على صوت ماكينة الرونيو بينما الزملاء يطبعون المنشورات السرية وكانت الرجل لا تنقطع عن الدخول والخروج في أية ساعة من ساعات الليل والنهار وكان الجيران بالطبع يظنون بي الظنون ولكن لا يجرؤ أحد على مواجهتي بشيء وكان الصعايدة والفلاحون جيراني طيبين حقاً وكانت لي ضفيرة طويلة لا أحلها أبداً ولا أضع أبداً الماكياج على وجهي وكنت شيئاً صارماً وجاداً ونحيلة جداً لا تتصور.

وتستمر شهرزاد الصباحية في حكاياتها وهما يسران عبر الشوارع الأنيقة المتحضرة وفي المقهى الذي على ناصية المتحف اليوناني الروماني، بحثاً عن قهوة الصباح الثانية، وفي الاتوبيس وأمام واجهات المحلات الفنية وفي خلال عملية شراء حذاء جديد لميخائيل، فقد كان حذاؤه قديماً وبه مسامير وضيقاً يوجع قدمه.

ولكنه عَبْر هذه الحكايات يتكشف عالمها في ظلال الأوهام والذكريات والوقائع وحرارة الرغبات والأمنيات التي تتحول جميعاً إلى شيء وحدث وكلمة وتعويذة، عالمها الذي لن يعرف أبداً موقع الخرافة من أرضه وشوارعه وساحاته الواسعة وظلماته الخاصة وأسئلته التي لا جواب لها، حتى في فترة البراءة الأولى، كانت هناك مهاميز رفيعة مسنّنة الحافة تحز جلدة الخرافات ولا تنفذ إلى لحمها الغض بل تخط حزاً وراء حز؛ فتتورم كأنها آثار سكين وترتفع على سطحها المتفخ بعصاراتها الثقيلة المتخثرة.

يا قمري الأسمر الأخضر العينين معتماً بنور لا يموت متحركاً في مدارك الخاص معنا ولست معنا بين المحركات التي تئز وتدور وطنين النفاثات ودقات الآلات في المكاتب المكيفة الهواء وتحت أحجار العصور العريضة

المتهاسكة تحت أنوار النيون قـرصـك الإلهي في عنـاق الثعبان النـاشر الصـاحي أبـد الآبدين تحت انـدفاقـات الـ ٢٢٠ فولت والـ ١٠٠٠ حصـان البـدائيـة المحبـوسة وخـطفات المغنـسيـوم المتحلل إلى ترابـه الأبيض صاحبـة السحـر الـذي يُؤتي أثـره المميت عـلى امتـدادات الأسـلاك العـاريـة والمـدفـونـة في الاسمنت لفائف الكتان الأبيض تحتضن ردفيـك الغنيين بلدونـة الصلصال المتمـوج المحبوك عـبر وشيش الـترانـزستـور ودوران الأشرطــة الممغنـطة وضحكـات الكاسيت المثيرة المجفّفة معاً في علب مـوسيقـاهـا في صخبهـا الموزون ورقصات الصور بلا توقف تتماوج خـطوطها بـأشكالهـا العفويـة في هوى اللحظات المتقلب الـذي لا ضابط لـه تحت دفعة الأزرار الالكـترونية المستـترة بلطف مخـادع تحت ومض الكـروم والبـلاستيـك والنيكـل المتـألق حكيت لـك عن الجنيـة الغـريبـة في أيـام طفـولتي وقلت لـك كيف كـانت تعاسات هذه الطفولة التي لا تندثر أبداً توقظني ليلاً في دموع الحس بالـظلم والقهر فأعرف في الظلام أن أمي قد خطفتها جنيةٌ شريرة وتقمصت شكلها وخـرجت إليّ من تحت الأرض من فتحات المـراحيض المـظلمـة الغـامضـة المرهوبة وعن عذاباتي على يدي هذه البديلة المشعثة الشعر العارية الذراعين المتـدفقة بـالقسوة والصـارخة أبـداً في ملابسـهـا الخفيفة القصيرة المبتلة بمياه المـطبخ تهجم عـليّ بـساقيهـا البيضاوين الحـافيتين في حُمَيّـا الاذلال الجسدي الـذي يدمّـر حساسيتي الـطفلية إلى شـظايا رفيعـة حـادة النصـال وتضييـع خيالاتي في حلم الليل مع البنت الطيبة التي مسختها السـاحرة العجـوز إلى بقرة ناعمة مليئة البطن تتحدث إليّ كما تتحدث في الحواديث تطلب النجدة وتشير إلى الطريق بصوتٍ نسـائيٍ رقيقٍ وشاكٍ تحت شجرة الجميـز الضخمة على رأس البئر في آخر الغيط هاتور على حرف فوهـة «بي» وأشتاق شـوقاً لا برء له إلى أمي الحقيقية المحبوسة تحت الأرض في أسر الجنية الشريرة وأنتظر بلا أمل عـودتها بعـد أن تطرد تلك التي اغتصبت جسمهـا واحتلت مكانـة السطوة في بيتنا وعـاشت بيني وإخوتي ودخلت إلى سرير أبي حكيت لـك

خطواتي النازلة إلى سيرابيوم الاسكندرية في رحلة المدرسة اقتحاماً بهيجاً لأرض الأسرار الأشعة التي تنبثق من وجه إيزيس كشفٌ بجعل الحائط الصخري الدائري تحت عمود دقلديانوس سماءً ليلية مشرقة الفجوات المنقورة التي تضم رماد الأجسام والعظام الفانية في القوارير الرخامية بعد أن جففتها محارق المدفن الوثني عيونٌ متيقظة نجوم غائرة تحت مصابيح الصوديوم الأصفر الوهج وفي الهواء الرطب البليل تحت الأرض إذ يهب من مسارب المقبرة العميقة كنت كمن يجد طرق الخلاص المبهم الذي لا تُعرف له حدود وما زالت البئر الرئيسية الدائرية المنحوتة في الصخر عميقة مظلمة لا قرار لها نلقي إليها بحجرة فلا نسمع أبداً صوت اصطدامها بالماء الغائر في جوف الأرض ويحذروننا من الخطو على العوارض الخشبية الموضوعة عليها فأنطلق في هجمة طفولةٍ لا راد لها أعبرها جرياً من طرف إلى طرف أتأرجح على شفا عالم آخر واجتاز خطوط الحياة والموت في خفةٍ ومقامرةٍ بالحياة والموت وأنتصر وأنا أنزل على الضفة الأخرى وتأسرني الساحرة ـ القمر المتسمة أبداً بفهم خاص يتجاوز كل شيء ولا يمكن إدراكه فتنظرين إليّ أنت لحظة نظرة التبعيد والغربة ليس في نظرتك حب ولا بغض ولا فهم ولا ادانة ولا استغراب ولا شيء بل مجرد انقطاع لكل صلة ونفي حتى للنفي نفسه نظرة كائن من عالم آخر ليس علوياً ولا سفلياً ولا يحاذيني ولا يتجاوزني ولا يضمني ولا ينفيني فأعرف أنه النفي إلى أبد الأبدين لحظة مع ذلك ما كادت تومض حتى خبت.

كان ميخائيل قد أتى معه بزجاجة كونياك ريمي مارتان، وفي الليلة التي انتقلت فيها إلى غرفته فتح خزانة الملابس المشتركة الضيقة غير الأليفة حيث علّقت ملابسها إلى يمين ملابسه، فساتينها الماكسي، وجيباتها القصيرة التي ارتدتها كثيراً فاكتسبت طيات جسمها في نسيجها نفسه، وبلوزاتها وبلوفراتها الخفيفة، رغم الشتاء، وبنطلوناتها، تنفث كلها رائحة باهتة من

عطرها الخاص وعرقها القديم وتراب رحلاتٍ لم يضع بعد رغم الغسيل والمكْوَى، وأخرج الزجاجة من تحت الأطراف السفلية للملابس المعلقة في الضيق المؤقت المستغرَب، وبعد الصعوبة المتعثرة المعتادة في نزع غطاء الزجاجة اكتشفت أنه ليس عنده أكواب فقام وأسقط فرشاتي الأسنان وأنبوبتيْ معجون الأسنان والحلاقة على الحوض وغسل الكوب الزجاجي الكامل الاستدارة ـ مع كوب آخر بلاستيك شفاف قصير ـ بالماء الساخن من الحنفية التي نفثت صوتها الأجش فجأة وهو يفكر أن الماء الساخن قد يعوج البلاستيك ويفسده وصب السائل الأحمر الرقراق.

قالت له: تحب تشرب كثيراً؟

قال: لا، لا أشرب إلا عندما أكون سعيداً. في أيام القلق والكرب تنقلب الخمر عليّ.

ثم قال أنه في أيام مثل هذه عندما كنت أمر بمحنة الحب القديمة الطويلة التي حكيت لك عنها، كنت كمن يعاني مرضاً مستعصياً لا يبرأ ولا يميت، كان كياني كله يلفظ كل ما أشرب، الكونياك والويسكي أو حتى النبيذ، على الأخص النبيذ، كنت أشرب مع أصدقاء الشباب الأول ـ الذين تساقطت أوراقهم في عواصم العالم ولم يُبقِ الزمن على أحد منهم ـ ولكن شقاء الحب وأوهام الأحباط وعذابات الصمت تظل نواة حجرية في القلب لا يذيبها شيء.

قالت: لا أحب الشرب الآن، تعرف أنني كنت أشرب كل ليلة في وقت ما، أوشكت أن أصبح مدمنة.. ولكن الله سلّم.

زجاجة الحريمي مارتان على مائدة التواليت الموجني المغطاة بلوح من الزجاج يعكس صدى زجاجات الكولونيا والبارفان وأدوات الزينة والفُرَش والأمشاط وأصبع الروج الاسطواني الذي تدحرج واستقر بجانب حقيبة

يدها المفتوحة المتضخمة ومنفضة السجائر ورواية أجاثا كريستي وتذاكر المترو والمسرح وعلبة الكلينيكس وحزمة المفاتيح وزحمة الأشياء المألوفة المعكوسة كلها على المرآة وقد علّقت على ركنها من فوق منديلاً أبيض صغيراً مطرّز الحواف، يبكيه بنفس اللون مغسولاً يجفّ ببطء.

يده على فخذها الكبيرة المستديرة النائمة وهي تنظر إليه.

في الصباح الغائم الذي يحدث على مهل كانت تمر بالمشط الكبير في شعرها الداكن القوي وكانت يدها الرخوة المتوترة متقبضة كأن كل أصبع من أصابعها القصيرة الممتلئة كائنٌ حيّ بحياة خاصة به - مستقلّ. كانت لها هذه الدفقات من الحيوية، وفي لحظات الحب كان يعرف هذه الاندفاعات والتوترات في كل عضو من أعضائها وكل طرف. الامتدادت والتقلصات والالتفاف والارتخاء أو انطلاقة لسانها في داخل فمه فجأة أفعى ممتلئة من اللذة تتلوى وتنتصب وتجوس ببطء في الفجوة المُبتلة المفتوحة وارتفاع جسر الفخذ الترابي المندى بالعرق يهضب تحته الفيضان بطينه الحبشيّ واستدارة الذراعين حوله منبثقتين من بؤرة العصب المتوفزة الكثيفة بكهربائها المشحونة - وهي عندئذ، وربما دائماً، كائن واحد ومتعدد في وقت واحد معاً - حتى تصل كلّ منها إلى مرفأ رخيّ.

قالت له، كأنما تحدث نفسها، وإنما تقصده: لا أعرف حتى أن أسوي شعري.

عندما يحدث هذا فلا بد أنني في حالة سيئة فعلاً.

كانت التصادمات الصغيرة بينهما في تلك الغرفة الصغيرة المشمسة تتراكم ولا يَسمح لها بالانفجار، كأنما يرد عنه نذيراً مثقلاً بأحمال وتهديدات. تصادمات الحب والشهوة والغيرة المكتومة والشك المنكور والقلق الشائع غير المحدد والتعويق والفشل في الوصول. والسعي إلى التجاوز والتسامح

والسقوط في حُفَر نصف الصمت وأنصاف الكلمات وتحميل النظرة والإيماءة بأثقال لا تطاق.

رامة تستعد للنزول بينما يضع أشياءه في جيوبه ويدور على نفسه دون قصد محدد، خلعت قميص نومها بحركتها السريعة وألقته على السرير بشيء من الحدة تحركاتها القليلة العصبية وهي تشد الكولان على ساقيها وتسوي صدرها في السوتيان وتغلق مجبسه على ظهرها المشدود العريض بأصبعين مدربين حساسين، كانت كلها تحديداً واضحاً وبسيطاً لكل انحيازات مسبقة عن رومانسية الجسم الانثوي وخجله ومنعته واستعصائه على المسّ. كانت تقف وتنحرك. هناك. جسمُها واقعةٌ يومية حسية صريحة مباشرة ليس فيها شاعرية ولا شبقية ولا دغدغة للأوهام ولا ايحاءات أخرى غير مجرد قيامه عارياً في صرامته الأنثوية الغريبة تماماً والعادية تماماً، بلا انفصال ولا اندماج.

وكان ذلك يعطيه حساً بالحرية والتخفف من كل جهد أو مؤونة. لم يكن يلغي حضوره معها بل يثبته على نحو خاص مستقل على مستوى فسيح مليء بالاحتمالات.

قالت له وهي تعطيه ظهرها المفتوح وشريط السوتيان الأسود يشده، بنبرة كأنها مبتورة، ومعادية:

ـ تسمح تزرر لي الفستان، من فوق السوستة؟

ابتسم واقترب منها، لم يستطع أن يحتضنها من الخلف، أن يضم إلى ذكورته المتوترة ثروة ردفيها، أن يلتصق بها، لأنها كانت عملية جداً، ومستعجلة.

تعثرت أصابعه في العروتين والزرارين. لم تجد طريقها في النسيج الناعم الملفوف خلف عنقها. وصبرت عليه، والتوتر كله، كأنه المجافاة، في وقفتها

المنتظرة الجامدة، وبفح شعرها الحريف وندى العرق الخفيف تحت التقاء آخر خطوط الشعر بمؤخرة العنق المستدير المكين.

قالت له: ميخائيل، ميخائيل، الزرارين فوق، ضعهما في العروتين على جنب وحياتك، خلصني.

كان نفاد صبرها يوشك أن يشق قشرة هشة ومشدودة على أي حال.

وكانت أصابعه متراكبة على بعضها البعض والزرار يفلت منها، كل مرة، وقد أحس بنفسه، ابتسامته الساخرة بنفسه وبالموقف كله، وقد بهتت وباخت.

قالت: طيب.. طيب دعني أنا أحاول.

قال بصوت سمعه خافتاً، مكبوحاً: الله.. لحظة.. انتظري.. لحظة واحدة.

وبعد أكثر من شهر من أيامها العصبية، عندما جاءته لأول مرة بعد التردد وتلمس الطريق الذي كان في الواقع قد بدأ منذ ذلك الحين يتشعب بها ويحيد، كانت ترتدي هذا الفستان دون غيره. قال لنفسه: ماذا تقصد؟ وماذا كانت تريد أن تقول؟ ماذا كانت تريد أن تقول؟ ماذا كانت تعني؟

أما أنا فقد تكلمت كثيراً - أو أقل مما ينبغي - ولم أقل شيئاً. مددت ذراعيّ إليها بكل ما تحملان من حب، لكن الثقل كله ظل مدفوناً، وهي ترفضه. كيف يتم الحب أمام كل قوة التبعيد والغرابة التي تشحن نظرتها إليّ، لا تعرفني، كل طيب جسدها يقف حاجزاً بين حبي وبينها. تعطيه لي، جسدها، أو بعض جسدها، ولكن لا تعطي شيئاً، أرضي السوداء الممدودة الشفتين.

ترتد يدي من على فخذها لا أدري ماذا أصنع بالعطية المرفوضة إلا أنها تفسد وينالها العطب بين أصابعي المشدودة بالعطاء. هل ثمرة هذا الحب

فجة أم هي عطنة النضوج؟ أريد أن أعطيك يا رامة وكأنما لا تفهمين عني. اسمك العذب يتقطر في فمي بالمرارة، ولا ألفظه، أعض عليه. نواة لا تنكسر. يا أحلى اسم في الوجود. يا اسماً خلق للخلود. رامة.. رامة..

حرارةٌ تحمش حياةً حرَوناً، تحرِد حيناً، وتصوَّح في رياح الحُرور. وحوحةٌ فحيح. يُبرِّح بي حنينٌ إلى الحرز الحريز يجزُّ في اللحم الحيّ. تحريضٌ على حرب محطومة الرماح في أحراش الحيوانات المحرومة، تحتدم في فَحْمة وحشيتها الحميمة، تقتحم الحصون تحض على المحارم الحرمات وتتحدى، حوافرها جريحة، بحل في حَوْمة كفاحي قحط البحار، انحدر في حفرة الصباح.. الأحجار تتحلق بي بلا حراك، الاحجار تتحلل تستحيل حشاشات مذبوحة. بُحّت حمحمةُ الحسرات الكسيحة. أرزح تحت الحيطان على ساحتي الحمراء الجارحة حيث أحلامي ضحايا مسفوحة. حوريس يحلق ويحط ويحوم ويحط ويحلق في حقول القمح المحروثة. ويحمىَ بي حَمْضُ المِلح. سبَحاتي سلاح، تطوّح بالصروح تجتاح الحُبوس تفوح منها رائحة الحُمم. أحتضن الوحوش في حُمّيا سحاب حاد الحواف. تحدق بي حشود من غير حدود. أحشائي تحترق بالصيحة اللافحة الحرية حقيقتي الوحيدة حبي الحرية حريق.

كأصغر المراهقين سناً وأعظمهم سذاجة أكتب اسمك رامة.. رامة.. وأريد أن أهتف أن أنادي، وأسمع صوتي يرتجف رغماً عني ويمتلىء بالدموع، مرة أخرى، وأخرى. ما أشد عبث هذا كله. أريد أن أقول أحبك هل تسمعينني أسألك هل تنادينني أنت أيضاً أضحك أسخر من براءة هذا كله هل هذه عاطفية نيئة ما أرخصها وما أشد هوانها وابتذالها هل هذا الشوق هذا الحب هذا النداء هذه الرغبة اللاعجة في رؤيتك مرة أخرى في احتضانك في الغوص في أرضك هذا التوق المحرق إلى أن اجمعك بين ذراعي أن أُغرق وجهي في نهديك هذا الحسّ دائماً بالاستحالة

استحالةٌ اجتماعية وعاطفية وربما فيزيقية أيضاً ـ هذا عنصر جديد وغريب عليّ ومشكولٌ أيضاً ودائماً، ومشكوكٌ فيه وأمره معذّب مع الوعي الحاد بل وسطوعه من الخارج في ضوء قاطع ـ هل هذا كله عاطفية رخيصة رخصة طرية القوام أليس هذا جنون مراهقة أم هو جنون المراهقة الثانية كيف لا أقاوم ولماذا أقاوم أصلاً لماذا أيضاً هذا العذاب الذي يشتعل بنارٍ ثابتةٍ لا تهتز مكتومة متقداً له حريق الثلج الأبيض نقطة ساطعة بؤرية صلبة لا تنشرخ مدفونة في الأرض من غير اشعاع لا تطيق العين أن تراها من توهجها المحبوس المقفل على حدوده عذابٌ يطوح بكل شيء في أركان العالم الأربعة لا يطيق الصمت صارخاً يجأر في النهاية بملء صوته يتخبط في أجسام النجوم يسد فوهات المحيطات الفاغرة يشد على نفسه أعمدة العالم فتتشقق وتقرقع وتتهاوى في زلزال عاصفة من التراب يختنق وجسمه صخور تتحاتّ تتندى بقطرات مالحة تتيقظ حوله الضباع الراقدة ذات سيقان النعام وتحفر التراب لترمي بعيداً عنها الأصابع المفتوحة الحادة المفاصل التي لم تقبض على شيء أبداً السمكُ بمنقاره الأحمر الوديع يَلقُط ثم يُسْقِط حبوب السماء الكواكب المشعة التي أصابها العطن وتفسّخ لحمُها المسرف النضوج اللبوءة العاقلة العينين يتقطر ثدياها المنتفخان باللبن والعسل والدم الحلو الطعم الذي يخط جداول رفيعة قليلة الشفافية على التراب الهش الوثير تحلّق النمرة بجناحيها الرقيقين يتساقط منهما الزغب الهفهاف على تسابيح الشاروبيم والصاروفيم بأجنحتها الستين في خفْق رفرفةٍ مدوية تملأ السماوات والأرضين وتمتصها البئر فيها وراء جبال الواق الواق بدرجاتها الرخامية المصقولة المتآكلة النعومة حتى تصل إلى سرة الأرض المشقوقة الطويلة ما زال يتدلى منها حبل اللحم الشفاف الجاف الذي سوف يسقط وشيكاً وألف ألف وجهِ انساني معذب شاحب انحسرت عنه الدماء شاخصة كلها لا تنبس في حلمها الذي بلا صوت وأنت نائمة في حضني تحت القمر وجهك يطفو بين حطام العالم المتكسر من حولي على مياه حبي

القائمة المتكدرة الصفو وجهك يطفو بعينيه المفتوحتين الثابتتين عيناك تراودانني في هذا الليل الذي لا ينتهي شمسين ساطعتي السواد.

عندما رفع سماعة التليفون في قلب الليل جاءه صوتها حاراً مشدوداً يكاد ينكسر:

- أريدك.. نعم أريدك أن تأخذني.. تعال الآن.

لم يقل شيئاً.

- أريد أن أنام.. اجعلني أنم.. أرجوك..

كان قد انحبس صوته، توقفت مياه قلبه وجسده عن الجريان. هل كانت تبكي من الشهوة، والغُلْمة؟ أم بحثاً عن عون، ونجدة؟

قال كأنما لا يعرف ما يقول: ليس الليلة. ليس الليلة.

دون تفسير.

حرارتها الملهوفة الجافة الرياح كالخماسين تصوّح ليلته، فتنشرخ شرخاً لا يلتئم. أصراعٌ بين ارادتين، سوقي، أم حفاظٌ على الهبة والنعمة والعطية، وتحوّط عليها، وضنٌ بها أن تسقط مسفوحة هدراً؟

لكنه أوى إلى سريره الخاوي، ونام، هادئة أعضاؤه المستريحة المستعدة الواثقة، هل كانت ابتسامته لنفسه في الظلام ابتسامة انتصار سهل أم طقساً من طقوس الجسد الخفية غير المفهومة.

قالت له، فيما بعد: لو أنك تحبني حقاً، لما ترددت أن تأخذني، كل مرة على الفور.

ولم تكن تنتظر منه إجابة.

وعندما صنعا الحب لأول مرة بعد غيبة طويلة، نامت، أيضاً، دقائق، في حضنه، في حرارة الليل، تحت قمر شبه استوائي ممدود من وراء زجاج

كثيف كانت أنفاسها المسترخية تصعد بانتظام طفلي من صدرها المرخي تحت ذراعيه، وهو يحرص ألا يحرك ذراعه من تحت كتفها. نائمة إلى جانبه قوية البدن رابية الردفين زاكية الثديين ممتلئة العروق بالدم الحلو واللبن. حُشْرات الأرض وهوامها تئز وتطن في ضجيج شهواتها وتحققاتها، والوحوش في القمر الخارجي قد شبعت من فرائسها. كان وجهها حمرة صافية تحت الشعر الوحف، ثم استيقظت فجأة، يقظة كاملة ومرة واحدة، كأنما كانت، طول الوقت، في عنصرها نفسه لم يتغير، دون انتقال وقالت له بهدوء، دون ابتسام ودون اعتذار:

- يبدو أنني اعتدت أن أفعل ذلك معك. أن أنام بين ذراعيك.

ابتسم لها بحنان رواقي.

قالت له وهي تتفحصه بنور عينيها الكبيرتين:

- أعرف أنني طاغية، قليلاً. ولكنك أنت أيضاً طاغية، قليلاً، يا حبيبي.

حبيبتي ستبرئين من جوعك. ستطهرين من إثمك. وسوف يتقدس اسمك.

في نور ما بعد منتصف الليل تسكبه سماء الشمال الصيفية المقلقة، في نصف صحوة من نوم كثيف بمواجسه المضطربة كانت قد قالت له: صباح الخير يا حبيبي، تعال كما أنت، بسرعة. ولكنه طش المياه الباردة على وجهه ومشط شعره في لهوجة، وجاءها يسترق الخطى، واستند إلى السرير الضيق. قالت له وهي تنظر إليه نظرتها المستديرة الواسعة الخضراء في الفجر، فيها سؤال لا ينحل أبداً، لا يُفهم ولا ينطلق ولا يصمت، وهو يقبّل أصابع يدها العصبية المفاصل المكتنزة المشدودة الجلد، ويمد ذراعه من وراء رأسها المشعث الشعر برائحته الترابية المثيرة، يحس ثقل رأسها على

ساعده، ويقبل هذا الثقل، ويلتصق بكيان جسمها الراسخ الملقى على السرير تحت ملاءة خفيفة، يميل نحوها، يده تذهب إلى الساقين المليئتين وتقبض على كتلة الفخذ المدورة التي لا تهتز له. هو صامت، جامد، يده ممزقة عنه، منفصلة، عظامه هامدة، شفتاه مترددتان لا تجري فيهما المياه، تجوسان تحت العنق الناعم، تهبطان، مفتوحتين واجفتين. إلى ارتخاء الثديين النائمين. يده قد استقرت وصمتت، يائسة، على انحدار التربة الهادئة الملساء تحت زرْعة النبات الأسود الهش. والفجر المحبوس المغلق عليه في الغرفة ضيق ثقيل الأنفاس، ورامة الآن في حضنه، نائمة.. نائمة.

تنامين بين ذراعي أحبائك يا رامة، في فجرك السجين الذي لا يأتي على حافة النور الكثيف، بينما تفيض وتنحسر اليقظة القلقة على عتبة رحمك، دون توقف.

قالت له: لماذا أستيقظ؟ ما الذي يدعوني إلى أن أستيقظ؟

عيناها تلمعان باللوم والنداء الذي لا يرجو استجابة.

المرارة التي في عينيها هل هي ترسبات أيام وليال من الاحباطات، هل هي الطموح الذي التوى جناحاه والتف أحدهما على الآخر في حلقة الرفض غير المغلقة تماماً، هل هي النفرة مني، لا أفعل شيئاً، ملقى بي على سريرها الضيّق الطويل بين الصخر المرتفع والرمال، إذ تنصبّ ذراعاها نحو البحر المنير، ولا تصلان؟

قالت له: لماذا تنظر إليّ؟

قال: دعيني أنظر إليك.

قالت: لماذا؟ لماذا تنظر لي؟

قال: أتزود بذخيرتي للأيام العجاف.

وبالطبع، ما زلت أتضور جوعاً، أحدّق من غير ري إلى البحيرة الخضراء الملحة المياه.

ما زلت أناديك رامة.. أنيها.. ماندالا.. امرأتي.. ميناتي.. مغارتي.. كيمي.. منامي يا منت الرؤوم يا مؤوت زوجة آمون رع. يا معت مرآتي.. كرامتي.. مريم المملوءة بالنعمة.. ديميتر المدفونة يمطر فمها المبلول بالمنّ والرحمة.. رحمها المنهوم إلى المنيّ والمحكوم عليه بمدار الموت ومباهج الاحتدام.. يا أم الصقر.. أم الصبر.. أم الياسمينة الذهبية المهتزة على المياه.. رامة.

عندما تيقظت نظرت في عينيه بتساؤل.

قال لها: كنت معي.

قالت له: تعودت أنا أيضاً أن آخذك معي، حيث أكون.

لم يقل لها: يا كاذبة..

لكنها عرفت، وقبلت، ساكنة.

مال عليها يقبّلها بملء شفتيه. قبلتها محايدة تخفي الكثير وتعرف الكثير وتصمت عن الكثير. في نظرتها إليه، وهو يقبلها، ثقل الارتداد إلى نفسها. عيناها هاتان اللتان ما تزالان تسحرانه، طلسماً أخضر غير محلول الشفرة، قريبتان إلى عينيه جداً مفتوحتان، لا تطرفان. ثدياها ينبسطان تحت ثقل صدره، وينحرفان إلى الجانبين قليلاً، يلمسها بيديه فلا تبتسم ولا تشهق ولا تحس أنفاسها تسقط يداه الثديين وترتفعان، يتلمّس بأصابعه مؤخّرة عنقها، منبت الأجمة الخشنة من شعرها ويطبق على العنق المدور المليء. تنظر إليه لا تطرف ولا تتساءل. عضلات العنق تحت كفيه ناعمة تنبض وتهتز أهون اهتزاز كأنها موجات لها صلابة تترقرق بأنفاس هادئة. يحس أنه يبتسم ابتسامة شاردة قليلاً بينما تشتدّ قبضته على الجسم الذي أخذ يكتسب منذ الآن وجوداً خاصاً كأنه منفصل. ذراعاها مرميتان إلى جانبها لا تتحركان.

بطنها تحته قوي متماسك. ويزداد ضغط يديه المحبوكتين، قليلاً، ويعرف أنه لا يتم الآن ويحس إليها همسة حارة يحتشد بها العالم: هل أخنقك يا رامة؟

قالت له: اخنقني يا حبيبي.

دون تحدٍّ ودون استسلام، كأنها تقرر له أمراً واقعاً، ليس خطيراً ولكنه لا يخلو من أهمية. لا تقبل، ولا ترفض. عظام رقبتها يحسها الآن، صخرية وطيعة معاً، بين يديه اللتين لا تنفكان، لهما ارادتهما الخاصة. وفي جمع عضلات يديه وعظام أصابعه نبض مياه الحياة في قنوات العنق ومجاريه الدقيقة. واللحم اللين يبض ويرتفع قليلاً من على جوانب أصابعه. ضغطة أخرى حاسمة تتجه إليها ارادة يديه، حتمية، محكوم بها، الفعل النهائي الذي لا ردة فيه. تتولد الأجنة والنباتات وتتخلق الصخور والحيوانات وتنبجس مياه الينابيع وتتفتح غيرانُ الأرض لكي تغوص اليدان في حمأتها ويتمرغ الوجه في الطين العذب المعجون بالعبق البري. الأشلاء الممزقة بذوّر مزروعة في التربة، شلواً شلواً، واللحم الحيّ المعطاء يرف ويترعرع بالخضرة، يا سيدة الخضرة أقطفُ بيدي ثدييك الناضجين وأنحني أغرق فمي في الشفتين النديتين المفتوحتين ويتقلب وجهي على آثار الأصابع المحمرة الخفيفة تمسحها قبلاتي الملحية. ذراعك تلتف حول رأسي المدفون في عنقك ليس ثم غفران لأنه لم يكن هناك اثم، وليس هناك رضى ولا غضب بل هي طقوس حب جنائزية من غير شموع ولا ترانيم، جادة وصارمة ورقيقة وحانية ولعلها في النهاية لا تعني شيئاً.

ميخائيل ينزل الدرجات الأخيرة المنحوتة في الأرض، والحيطان المصنوعة من الطين النيليّ تحيط بالواحة المهجورة منذ آلاف السنين، اللون الأبيض الغض على تيجان الأعمدة البعيدة المخروطية، نضارته الصخرية لا تحول. هامات الرجال المنحوتة، بلا عدد، تشق جِلد السماء الساخنة وتتنفس بثقة

في مياهها النقية القائمة الزرقة. دخان مشاعل الحب التي احترقت في العصور الغابرة ما يزال أسود باهتاً على الحيطان، والكوة المفتوحة في الحائط ساطعة يغرقها القمر في هذه الغرفة التي نامت فيها الكاهنات البغايا القدامى وتردد فيها هنين العشق المذبوح واحتضاراته وزئير الذكورة الذي يهجم مرة بعد مرة باختناقات الدفن المتوتر في الجسد الحيّ، أنفاسُ تراب القرون الهينة تجرح صدره. شعرها الغزير غابة لم تمسه سكين. فديتها وقربانها طوال أيام ستة على الباب المرصود. وجهها أمامه تشعله عيناها الخضراوان نصفه فضي ناعم غض الأهاب ونصفه مجدور ممزق محمر باهت الحمرة، محترق، جفت حروقه وتركت الجلد تجري به بقع وعروق داكنة كابيةً أرضية اللون تحدق به عيناها في كبرياء وضراعة بلا انتهاء.

٥- شرخ فى الرخام القديم

أيقظه حفيف الأحلام والفجر المضطرب.

كانت الغرفة حاشدة بنومها إلى جانبه، عارية تحت الملاءة الخفيفة، أنفاسها ثقيلة. أحس نداوة العرق على ساقها بجانبه. وتخايلت له ضخامة فخذها الناعمة السمراء، فابتسم.

داهمته موجة الحب عالية، فجأة، على غير انتظار، فانقلب على السرير ووضع ذراعه بحرص وحنو على كتفها. لم تتململ ولكن مَنْ يقول له إنها لم تحس به، وإنها لم تعرف، حتى في نومها، في حركة أحشائها المعتمة، هذا الوهجَ الدافئ الداكن في قلبه من الرقة والقربى. استمرت أنفاسها تصعد وتهبط منتظمة، شعرها ملتصق بجانب جبهتها الضيقة، وقميص نومها مفتوح وقد تزحزحت فتحته الواسعة على جانب من ثديها المسكوب. اقترب بوجهه تحت عنقها وتعرف مرة أخرى على رائحة نومها وحرافة جسدها الدسم. واندفع في جسمه حس لاسع من المحبة والتمزق والرضى في وقت معاً.

لن تعرفي أبداً يا حبيبتي، في هذه اللحظه التي لم يشتبه عليك أنها حدثت لنا، كم كان حبي كاملاً، وموهوباً لك دون أن يُقتطع منه شيء ودون أن يكون في صفوه أدنى أمل، ولا مشاركة. خالصاً لا أنانية فيه، مطلقاً لكِ أنتِ وحدك، دون أن يكون جامحاً. ومكتوماً بلا حرج. ويأسه

غير ملوث وغير جريح. لن تعرفي أبداً أنني تركت نفسي تغمرني المياه الثقيلة، مبتسماً أو لما أكد أبتسم، في هذا اليم من الحب القاتم الزرقة، لا موج فيه، وأن الفجر عندئذ كان هذا البحر، ضفافُه في أسوار العالم وأنا أغوص فيه، سماؤه بلا قرار.

كشف عنها الغطاء الأبيض المغضّن من ليلتها، ونزل بوجهه من على المخدة، ورمى بذراعه حول ردفيها، وهو يثني ركبتيه قليلاً حتى لا يسقط من طرف السرير. أراح عظام خده على صفحة فخذها العريضة، خشونة ذقنه على طراوتها التي نزلت قليلاً تحته وتماسكت. وجاءته أنفاس الجسم النائم المليء تمتزج به نفثات الفتحة المكتومة المغلقة لها طعم ثقيل.

في هذه الراحة قلق أجنبي عنها، يأتي من اللحظة القادمة، من خطر لم يحل أوانه بعد ولم يتكون بعد ولكنه يحمل تهديداً ما، في البدايات الأولى من يومه انحسرت اللحظة الراهنة بالفعل وهو ما زال فيها. لم تأت اللحظة القادمة وهو لا يعرفها بعد. وعندما أسقط وجهه برفق على فَرْش لحمها الطيب الخصيب الذي يتلقاه الآن هيّناً، مطواعاً تحت صلابته، سقط أيضاً في حفرة بين زمانين كلاهما غير موجود. تردّى في فراغ ليس فيه تحقق بينما هو يغرق في عجين الجسد الساكن.

لم تلحق به، في نومها. لم تمد إليه يداً. لم ينقذه شيء. لم يجد ما يتعلق به في سقوطه، حتى عندما استدارت إليه، بين الوسن والصحوة تئن أنّة واحدة خفيفة من الراحة وطيب الحس بأنه هناك، وجهه عليها، والتفّت بذراعها حول رأسه تضغطه إليها ضغطة حنان، وقالت: صباح الخير يا حبيبي، تعال عندي، قال وفمه يكاد يكون مسدوداً بحشوها الدمث: أنا عندك يا حبيبتي، أين أنا؟ ثم أستدرك: صباح الخير. ورفع وجهه من الحمأة العذبة المحتشدة وذراعها تشدّه إلى حضنها شدة رفيقة. وهو يسقط فجأة وباحتدام على فمها المتفوح.

يا حبيبتي ما الذي يفصل بيننا، ، مع ذلك؟ ما الهوة الفاغرة بين جسدينا الملتصقين في عَرَق شهوة الفجر الأولى؟ ما الغربة الضاربة في عَظْم العتاق؟ بينما صدرك مدفون مضغوط في حضني، فخذاك ملتفتان بساقي، عيناك تحت جفنيها المدورين حَجَران لامعان لا يذوبان أبداً، تسيل على صفحتها مياه الرغبة وطلب اللذة أجسادنا أحجار ندية سخنة لا تندمج، منفصلة حتى في تماسها الوثيق.

في مركز هذا الكون، في القلب المتقفض الذي يميد، في نقطةٍ ما على المحور النابض الدفين، هناك عين متيقظة أبداً، موحشة، متقدة بنار صلبة، نداؤها لا تأتيه اجابة. ليس الموت الذي يفصل بيننا، أنت لا تموتين أبداً. وليس الحب. أنت دائماً تحبين، وأنتِ ما أحب. أهي اللذة؟ سيف خبيث يقطر بالدم والمني واللبن المتخثر الرائحة. يقطع ما بيننا. لسانك الممتلىء يعلق حدُّه الباتر المحرق، وصرختك المكتومة أنين من المتعة والتحقق والألم. لساني جِلْدة جافة تحترق، وتتقبض كالرقّ القديم، وتسقط. فلا أجد الكلمة المُحيية بعد أن أموت في طعنة المتعة وجسمي كله تلفحه رياح مصوّحة.

كانت رعشتها الأخيرة موجة تصل من بعيد، وتَرقرَق قلبهُ أيضاً ثم جمد. وابتسامتها غائبة وسعيدة ومكتفية، بين نوم وآخر.

عندما استيقظ من مِيتته الصغيرة كانت النافذة فتحةً مثقوبةً في السماء. محجوزة، بستارتها البيضاء المتهدلة قليلاً، عن الهواء الذي يحسه في الخارج بارداً ومعادياً. ومن وراء الزجاج الفاصل كانت السقوف المنحدرة في خطوط حجرية حادة الزوايا، قديمة ومسودة من الدخان، ومتجمدة، تطل على فناء عار. وجهها الأسمر المدور هو وحده الذي يبدو من الملاءة التي تلفّها، مرتاح وقانع في نور الصبح الضعيف المثقل برائحة شهوات قديمة منقضية.

كانت عظام جسمه خفيفة وهو يطوح بنفسه يثب من على السرير. عندما نظر إلى الفناء المربع الضيق الغائر بين الحيطان المسدودة كانت أحجار الأرضية الرمادية مكسورة ونظيفة كالرخام، بين شقوقها تراب أسود متحجر، لم ينبت فيه اخضرار. كان خالياً تماماً، وبجانب الجدران الحجرية الصُمّ، من غير طلاء، صفائح مستديرة ضخمة سوداء مغلقة بأغطيتها المقببة المبلولة بندى الصباح، مرصوصة بانتظام. الشجرة الوحيدة تنبثق من الحجر بخشبها النحيل القوي اللافح القتامة، معوجّة محنية ولكن لا تنكسر. تحمّلت كم شتاء من الوحدة؟ وتصدت لكم عاصفة؟ وتلوّث أمام صدمات الرياح. ولكن لم تنكسر. أحس أيضاً في داخله مشقة الخشب، وتشققه.

قال لها وهما يستعدان للنزول:

- كل ورقة، على كل غصن، بشرايينها البيضاء الباهتة الدقيقة في اللحم الأخضر الرقيق، أليست معجزة؟ هذه الكثافة المشغولة بدانتلا رقيقة الجسم، الملتفة حول جذوع قوية ناعمة العضلات، هذه الخضرة الموسيقية بظلال لا نهاية لها، مطفأة ويانعة وخافتة هامسة وساطعة وغضة وداكنة وقديمة ومرتجفة، أليست معجزة؟ والطيور الهشة الصغيرة تتطاير في رحاب هذا الغنى الخطِر، شُهُباً حية في مجرات أفلاك سوداء شاسعة. أليست معجزة؟ مئات، آلاف، ما لا حصر له من المعجزات يتكرر بإهمال، دون عناء حوالينا، دون أدنى ضجيج. ما أشد كرم هذا، ما أكثر سرفه، هذا الاغراق، بلامبالاة، في المعجزة التي تحدث بلا انقطاع. الاعجاز هو هذا الذي لا وصف له، نسيج اليوم والليل الصامتين أبداً بلا انقطاع.

قالت: هذا ما أجده كل يوم في الصبح عندما أفتح نافذتي. أنا أيضاً أحب الشجر، كما تعرف.

أدرك أن في تعجبه شيئاً من السذاجة، ودهشة ابن الأزقة والحواري المحرومة من الخضرة، وأيضاً، روح المأخوذ بثروة فادحة، ولكنها دائماً في متناول اليدين، ولا تُطال مهما غَرَف ملء الراحتين والعينين، مهما ضم عليها الذراعين والساقين في شبق يتجدد دون توقف، وتظل الثروة كاملة لا تمس، تنبض بصمتٍ في ازدياد جسدها الذي ينمو ويتدفق ويسيل على الجانبين. أما في نبرتها فثقة بأن العالم معطى والحياة مسلّم بها، ميراثها وملكها، مأخوذة مأخذ الشيء المفروض أصلاً، ولا اهتمام به.

قال لنفسه: متى تنتهي من تفلسفك هذا الذي لا يساوي مليمين؟

كانت تنظر إليه بعينين صافيتين. بحيرتين ما مدى عمقهما؟ القاع تحت السطح مباشرة لا تكاد تمسه القدمان؟ أم غور بلا قرار؟ رمال صحرائه الداخلية قاحلة تحت شمس العيون الصخرية اللامعة القسوة.

لا نكن قساة يا رامة، على أحدنا الآخر أقصد. ألا ترين أن العالم كله من حولنا يطفح بالقسوة: بمبرر أو من غير مبرر، سواء. والجدران والناس التي لفحها لهيب الشهوات والاخفاق وضربتها الرياح واللامبالاة، جافة، محروقة. نحن أيضاً نستطيع أن نكون - أقصد أننا أيضاً بالفعل - قساة. هذه القسوة درع هشة وإن كانت مروعة الشكل، أنيابها زرق مشعثة وفمها فاغر غائر الشدقين، عيناها لا تطرفان. ألم نتعلم كيف نصمد للقسوة إلا بالقسوة؟ دعينا على الأقل لا نقسو على أحدنا الآخر إذا استطعنا، كلما استطعنا. لأن ضرباتنا موجعة، تقع على مقتل. وقد عرفنا - أليس كذلك؟ - أين منا مواضع الجراح القاتلة. مهما أخفيناها تظل مفتوحة نازفة تهضب أحياناً بالدم السخن وتظل دائماً تنضح بقطرات منه قاتمة لا تجف ولا ينقطع نزُّها

قال لنفسه: نسيج حياتنا نفسه هو هذه الميتات الصغيرة، متعاقبة بل

متصلة مستمرة كل يوم، كل لحظة. ها نحن نموت إذن إذ نعب الحياة في كل نَفَس.

قال لنفسه: متى تنتهي من فلسفة المليمين هذه؟

قال لنفسه: أنت تأخذ صوتها لنفسك مرة أخرى. هذا أيضاً من خطوط دفاعك القديمة. متى تتعلم أن تقف وحدك، كافياً لنفسك من غير تبرير من غير حاجة إلى هجوم ولا دفاع؟

الدفاع عن الشيء الصغير الناعم الحي الهش النابض بخوف وتهور وعناد معاً، القطعة الوحيدة من الجسد التي لو أصيبت لتحول جسم العالم كله إلى جثة يصعد نتنها إلى عنان الأفلاك الشاسعة، ويزخمها.

قال لها: كان هناك الكثير جداً في الميزان. بل كل شيء. قامرت بكل شيء كان الرهان عالياً جداً. على كل شيء.

وهما يُقبلان معاً على أنوار المولد وزحامه وضجيجه - يمسك بذراعها فتتركها له، لحظة ثم تتعثر في حفرة على الرصيف وتتماسك وتعتدل وتسبقه خطوة.

ولكني خسرت، خسرت حتى قبل أن تبدأ اللعبة، لم تكن لعبتي. رميت بكل شيء، كل شيء، في الميزان. وخسرت. كان لا بد أن أخسر. ليس هناك من يراهن بكل شيء ويكسب.

بل لا يوجد هنا مكان للمكسب أو الخسارة، فإن اللعبة لا تدور، أصلاً. وتصبح المقامرة كلها خارج الحلبة، في الظلام، غير مرئية وغير مفهومة.

جانب وجهها، بين أمواج الناس الكثيفة، منارة ملساء الجانب، مدورة، هادئة، وهما يتركان، في هذا الدفء من الأجسام والأحجار، مخازن الخشب الواسعة الضخمة الأبواب، وجراجات السيارات تعلوها

اعلانات توكيلات فورد وشيفروليه ونصر بالحروف الانجليزية والعربية العريضة الممدودة، وسور الاصطبل الخديويّ الحجري الطويل وعلى بابه رأس حصان منحوت من الحجر، والشرفة الرقيقة الأعمدة بخشبها الأسود المشغول يطل على رخام فترينات الكبدة والكباب عليها أكوام حمراء قاتمة متهدلة من اللحم المقطوع، ودكاكين الفسيخ والسمك فيها الصفائح اللامعة المليئة ترتفع في أعمدة مرصوصة.

كل شيء هنا والآن موضع السؤال. ليس الحب فقط بل وجودي نفسه، ومشروعيته كانسان. كرجل. الحقيقة والخداع. الأمانة والخيانة. كل شيء. الحرية والقهر الإنساني والالهي معاً. أنت معي الآن، لا تنظرين إليّ، كأنك لست معي. ولكنك هنا ـ كالكون كله ـ فيك حقاً قبس من كيان متعدد متسام الهي. هناك بيننا حكاية كونية، الهية.

وهما يزاحمان الناس ويمران بين عربات الترمس بقراطيسها المصنوعة من ورق كراريس التلاميذ وشعلاتها الصفراء التي لا تكاد نارها تُرى تحت الأنور الساطعة الساقطة من الجامع القديم إلا من دخانها الذي ينشت في ذؤابات مستدقة متطايرة ووشيش الكلوبات بنوره القوي الثابت على أكوام الحمّص الأصفر والأبيض الملبّس بالحلوى المتشققة وعرايس المولد الحمراء قليلة وأوراقها المفضضة متكسرة قليلاً وأصفاط حَبّ العزيز الصغيرة المسحوبة المزوقة.

قال لنفسه تتوهم، دون أن تُشفى، إن هذه الحكاية بينك وبينها شيء صوفي. ألا تخلص من هذا الهوس. أنت معها هنا، بفتنتها وقبحها، أليست امرأة يا أخي؟ شيء آخر في هذا الغمر الذي لا ينتهي من الناس. عظيمة كانسان وامرأة ومسكينة أيضاً. شقية وطموح، مرحة ولها أسرارها الصغيرة والكبيرة ـ ككل الناس أليس كذلك؟ ـ لها عيوب جسمها وجاذبيته التي لا تقاوَم. نعم. أحبها الكثيرون وأحبت الكثيرين، وماذا في ذلك؟

أخطأت وضحّت وتعبت وأدت واجباتها وأكثر وأوت أيضاً إلى أحضان عشاقها، لم تعنِ كثيراً بمصطلحات خلقية واجتماعية ولكنها راعتها دائماً في ذكاء وانتباه، رحمتها، وشهوتها، تسع كل شيء، أنت لا تعرف، على كل حال، إلا أنها معك، امرأة تعرف كيف تتمتع وتمتعك. وأنت تحبها. فليكن، ألا تستطيع أن تقبل ذلك، في حدوده؟

المئذنة الضامرة السامقة، نحيلة ورشيقة ومعزولة وحدها مع السماء تتدلى منها سلاسل الأنوار الكهربية الملونة، نقط من الحلوى الكزة الكثيفة الضوء، تهتز بلا تلاصق على الأحجار الألفية التي تَعرَّي لحمُها القديم تحت الخطوط العريضة الأفقية البيضاء المغبرة والباهتة الحمرة.

وهي تسير بثقة إلى جانبه ولكنها ليست معه، كأنها ولد ولكن برشاقة أنثوية من نوع جريء ومتمكن، بحذائها المنخفض الغالي الثمن الذي بهت جلده من التراب وتغضن، وجيبتها الواسعة على جسمها المستحكم الأركان وبلوزتها المفتوحة الممتلئة بصدرها وقد تندى بعرق خفيف يلمع في الليل المنير. لا يكاد ينظر إليهما الناس في الزحام، وهي غائبة عنه، أحسها قد انسحبت مرة أخرى عنه إلى عالمها الخاص.

القبّة العريقة يعلوها هلال صغير يبدو وكأنه صدىء، في الاشعاع القوي الذي يأتي من تحت، على جلد السماء الباهت الزرقة. العتبات المباركة تحت الباب الضيق العميق تضيئها القناديل الكهربية وتفضي إلى سلام داخلي يبدو بعيداً ومنفصلاً.

كان حسه جامداً في هذا البذخ الحسي الغليظ الحواف. كانت وحيدة إلى جانبه وسعيدة. مليئة بالطاقة بعد ساعات الخمول والركود التي لم تكد تبدو لها نهاية. نشطة متوفزة بالضيق والاندفاع. مرتبطة بالكثير والكثيرين ومنعزلة متفردة. صنعت أشياء مجيدة مجهولة لا يدري بها أحد ولم تفعل شيئاً في النهاية مما تريد حقاً أن تفعل.

من الناحية الأخرى شرفات البيوت الخشبية المشغولة على طراز المشربيات ولافتة ضخمة باسم الاتحاد الاشتراكي العربي وأبواب من الحديد الرقيق الدائرية النقوش أحجارها الجديدة المقرنصة في تقليد بارع للطراز القديم تغطيها طبقة من تراب دسم باهت القتامة وكراسي البار الافرنجي المطل على النيل ما زال فيه عِزّ العشرينات والاعلانات على المرايا المصنوعة من الزجاج البلجيكي تآكلت أطراف زئبقها الفضي. والشارع الفسيح - وقد اصطفت في وسطه عربات الفاكهة والخضار والعيش البلدي والشامي والمحمص بأرغفته الصغيرة الهشة المحموشة بالسمسم والفجل والخس الطري والكرّات المتهدل الشواشي - يغص ويفيض بالجلاليب والقباقيب والملايات والبنطلونات والعمم الصعيدي والكلاكسات وأنوار النيون وطشيش الزيت ورائحة السمك المقلي النفاذة الثقيلة في هواء الليل.

اقترب منها وأخذ بذراعها الغضة مرة أخرى. كم من أشواقك أحبطت يا رامة وكم من سعادات تحققت لك. أنت محدودة ومحدودة ولا نهائية. دائبة البحث عن كمالٍ ما، مفقود، وكأنك كاملة، وكأنك خالدة لا تموتين. الرقة الروع معاً في قلبه المهتز. لكن الحب فيه قاطع الحدود ليس فيه تَميُّع السوائل، بل حاد له نتوءات تجرح وتحز في اللحم الحي خطوطَها الغائرة.

كانت سيارتها الصغيرة المعتمة تشق الآن طريق النيل في أول ليل القاهرة، تحت أنوار كوبري أمبابة، وكانت فيها رائحة مقلقة لحواسه، مزيج من رائحة الجلد والصفيح ولزوجة لبن قديم وحرارة احتراق البنزين.

كانت قد بكت، وهي تقود السيارة، بدموع متدفقة سهلة وصامتة، وكان يحس احباطاً عميقاً وجارحاً ولا يعرف بالضبط مرجعه. وكان جامداً ينظر إلى دموعها بعينين صاحيتين ويقول لنفسه: ما الذي يوجعها؟ ماذا يمكن أن نعزيها؟

كانت قد قالت: لا يحدث لي أبداً شيء مفرح.

وكان يقول لنفسه، في قسوة: ماذا تريد؟ هل هي تريد الرجل؟ الرجل أياً كان الرجل؟ أم تريدني أنا؟ ولماذا هذا العكوف الآن على نفسي؟ هل يجب أن تظل دائماً منفصلاً مغلق الحدود؟ ألا يمكن أن تندمج، أنت، في هذا التيار العريض المتدفق بالدماء والمنيّ والمياه الطينية؟ وتذوب فيه، وتعبّ فيه متعتك، غفلاً مجهول الاسم مفقود الهوية؟ كأنها، هي، تريد أن تغرق - كما تريد كل ليلة - في أمواج هذا النهر التي لا تنتهي، سوداء خصيبة، طين جسدها نهباً مستباحاً، لتصحو مغتسلة ومشرقة، اللوتس اليانعة بسمرتها المصفرة المتوهجة منبثقة عن الطين من بين فخذي حابي القديم الذي ليس له ضفاف يأتي من بحر العالم السفلي ويصب فيه بلا انتهاء. أما الآن فجزيرة رملية صلبة القوام.

قالت له فجأة وقد توقفت العربة في ميدان ساحل روض الفرج، وعلى البعد عربة تين شوكي يئز فوقها المصباح الغازي بشعلته الوحشية، في غيامة متقطّعة الذيول من بعوض الليل الصغير المتطاير، والبائع بجلابيته الطويلة قامة غامضة في الظل، وصندوق الكوكا كولا وقد بهت لونه الأحمر وتساقط طلاؤه وامّحت الحروف العربية والانجليزية من على صفيحه المرضوض، وسيارات تاكسي واقفة على رصيف الكورنيش تحت الشجر، قديمة الزرقة، منخفضة السوق، جعارين نائمة متربة، والشارع يصب إلى خرابات مكشوفة لا تكاد تتبين فيها الحُفَر بين أكوام الطوب والحجارة، والمقاهي ساطعة خالية، خطوط لافتاتها كبيرة ملونة متعرجة، والقرآن ينطلق منها بقوة، في تلاوة راسخة، وبيوت متطامنة خفيضة وضيقة، وعسكري المرور أسود وصغير على البعد، يقف كأنه تائه في وسط الميدان، قالت له فجأة: ميخائيل، إذا طلبت منك فهل تترك كل شيء وتأتي معي؟

كانت عيناها مجنونتين، أما هي - بعد البكاء - فهادئة ساكنة لا حراك بها

صافية الوجنتين في ضوء مصابيح الشارع المتقطر من خلال ضبابة غاز دقيق لا يُرى. كانت يداها المكتنزتان مرميتين على فخذيها بلا حياة على الجيب القصيرة الزرقاء القاتمة القديمة اللون. كل شيء يتقد في نقطة حميمة داخلية، مدفونة عميقاً بعناية في هذا الجسد الذي يبدو مفتوحاً ومكتوماً.

قال: إذا طلبتِ ذلك مني حقاً. نعم.

كان صوته سريعاً، لا تفكير فيه، متهدج الأطراف.

لم يقل نعم مطلقة من غير شروط بسيطة فورية مباشرة. لأنها لم تقل له: أترك كل شيء وتعال معي، مطْلقةً، بكل اليقين، بكل اليأس. لم يقل لها: نعم، نعم الآن وفي أية لحظة. لم يقل لها حتى: نعم عندما تطلبين مني، في اللحظة التي تطلبين مني. كان يعرف أن السؤال معلق بأشياء كثيرة، بل كان يعرف أن السؤال لا يتعلق به، هو، لا يقصد به أن يترك كل شيء ويذهب معها، كان يعرف أنها تطلب شيئاً آخر، عرضياً ووقتياً زائلاً، أنها كانت، بهذا السؤال الذي يضرب الصميم، تطلب منه ليلة فقط ربما، أو بعض ليلة حتى، لغاية الصباح، وأنها تلعب بالمستحيل، وتقامر بالضروري ضرورة الحياة والموت نفسها.

قالت: نعم، أفترض أنك تحبني، بطريقة ما.

فلم يقل لها: سل أنت، أنت التي تحبينني بطريقة ما. أم هذا يوازي قولك: «أنا لا أحبك» لا أدري. لن يكون ما بيننا حكاية. فما هذا؟ ما هذا الذي بيننا؟ الزلزال الاعصار السماء الساقطة. أما أنا فأحبك، من غير حدود، من غير تحديد، من غير تحفظ، حباً كاملاً يريدك كلك كاملة. الكمال أيضاً مستحيل. والاستحالة كاملة.

قالت له: لقد كنتُ، معك، نفسي. معك وحدك حاولت بقدر ما وسعني، بكل ما وسعني، أن أكون نفسي، صادقة إلى آخر ما أعرف

الصدق. بمزاجي المتقلب، بشرودي وسرحاني إذا شئت، حزينة أحياناً وبعيدة، مرحة بالطبع إذا جاءني المزاج ومملوءة حيوية وإقبالاً، أليس كذلك؟ لكنك تقول انني لا أحبك. لا أعرف ماذا تريد أن تقول.

بعد البكاء كان وجهها صحواً، ناعماً. عاد قناعاً، من جديد.

قال لها: أنت غير عاطفية بالمرة.

كان مريراً.

لم يقل لها: هل معنى هذا أنك لا تعرفين ما العاطفة؟

لم أرك عاطفية أبداً، وتعصف بك العواطف، إلا عندما كنت تقولين - نادراً ما كنت تقولين - عن ذات نفسك الخبيئة وتدافعين عنها. يا ذات الأقنعة.

قال لها أيضاً: أنت صارمة، ولا تعرفين الهوادة.

نظرتك الاكلينيكية الصامتة المتفكرة التي تحسب حساب أشياء كثيرة، وتتخذ القرارات، وحدها، لذتك الخاصة في التشخيص والمعرفة والتملك. لحظة ثم تنصرفين، دون اهتمام إلا باشباع حافز قاس محايد نحو القبض ثم الراحة. خوفاً من رعب المشاركة وعقابيل المشاطرة في التجربة، حرصاً دون التخلي عن ذات نفسك. أنت تتخلين عن ذات جسدك، عن طواعية، نعم، تتركين هذا الجسد، عندما تريدين، كأنما بالرغم منك، مستباحاً بلا أسوار ولا حيطة، حتى تحتفظي بنفسك دون خدش، دون مساس.

قالت له: ما هذا، هل نحن نُجري الآن تشريحاً على الجثة بعد الموت؟ ليست أمامنا بعد، فيما آمل، جثة هذه العلاقة بيننا. لم نضعها على رخام المشرحة بعد. ما زال بيننا شيء حيّ، فيما أرجو. ما زلت أعرف كيف أكون صديقة حقاً، صدقني أعرف كيف أكون صديقة، وأعتز جداً بالصداقة.

ستقول له، فيما بعد: إن ما بيننا، ربما، كان صداقة غرامية.

قال هادئاً، بصوت مكتوم: لا أريد صداقة. لا أريدك صديقة.

وفيما بعد كان يردد لنفسه اجابته، لم ينزل عنها أبداً، لم يكن يـريد هـذه الصداقة. بل شيئاً آخر وأكبر إلى ما لا نهاية. ويقـول لنفسـه: أنت طمـوح جداً، أليس كذلك، وصفر اليدين. وكانت دموعه صعبة جداً كـأنها تسقط واحدة بعد الأخرى، ثقيلة، وتأخـذ معها شيئاً من ضلع الجدار الـداخلي للقلب. مع تقدّم السنوات تصبح الـدموع جـافّة وصلبـة ويصبح العـذاب صخريّاً، بدلاً من عواصف الشباب التي تهزّ وتُدوّم وتهمي بمياه الألم. يصبح الألم حجارة لا تذوب ولا تتفتّت، فإذا تكسّرت تحت وطء القسوة كانت شظايا مثلومة غير حادّة، كاتمة وضاغطة لا تنزاح.

كـان يعرف أنها سـوف تستخدم كـل شيء في سبيـل الحصـول عـلى مـا تـريد، كـل شيء: الأفكار الـلامعة المصقـولة التي تعـرف كيف تلعب بهـا وتقلّبهـا على وجـوهها، القيم الجـديدة أو التقـاليد العـريقة عـلى السـواء، تسيّرها وتحـرك كوامنهـا وتزيـح الغطاء عن شحنـاتها. سـوف تعرف كيف ترجى وتتوسل وتبكي وتداعب أرصـدة الغرور وتهـدهد المخـاوف وتستنفر النعـرات وتربت عـلى تورمـات الكبريـاء السهلة والزهـو بالـذات. سـوف تستكين وتتطامن أو تتنمر وتتحرش، كل شيء تفعل. تطوّع، من جسدهـا وعقلها وتركيبتها الغنية المليئة، مادةً حيـة متدفقـة تهجم عليك، وتحـاصرك من كـل جانب. ولكن بـأمانـة مطلقـة. ليس عندهـا من سـلاح إلا هي: أنت وهي فقط، العلاقة بينكما فقط. علاقـة تلخص العالم كله حقـاً ولكن لا تتجاوز نفسـها إليه ولا تستمد منه زاداً خارجياً. هي، جسمها وروحها، رحمها وذكاؤها، هي كلها وحدها، هي نفسـها أداتها وسـلاحها. وأنت مهما كانت الطرائق والأساليب فهي كل الأمـانة وكـل الصدق. الأمـر كله بينك

وبينها، فقط. لا شأن به لأحد أو لشيء في خارج هذا الـذي يدور بينكـما، أنتما فقط. هنا تفرّدها وصدقها الفذّ. أنتما وحدكما تقرّران ماذا تريدان بهذه المادة المطواع القوية القوام التي تلتصق بكلٍّ منكما، تلتفّ به وتغرقه وتطبق عليه الخناق في حصارها الناعم الذي لا يطاق.

قالت له: لا معنى أن تبقى معي في الغرفة. أنا أنتظر التليفـون، يمكنك أن تخرج. ألا تريد أن ترى المتحف؟ أو تمر على الدكاكين. لا تشتر شيئاً يا أخي إذا كنت لا تـريد، تفرج على الـواجهـات، صحيح، لا أريـدك أن تحبس نفسـك معي.

قال: إي ي؟ هل هذا ممكن؟ لا، سأبقى معك.

وقـالت بضيق وهي ترمقـه بنظرة سريعـة حاسبـة: أبداً، لا أريـدك أن تضيق بي وبنفسـك، في هذه الغرفة المقفلة.

قـال. يا ستي لكن أنـا أريـد. أريـد أن أضيق بـك وبنفسي. مـا دمت معك.

كان الحبس في الغرفـة كثيفاً وغـائماً، لا تقـطعه إلا النـافذة، كجـرح لا يندمل، كأن وجودها معه ـ لحمها وجسدها وتوتـرها وقميص نـومها الـذي لبسـت عليه «جيب» قديمة واسعة حائلة اللون ـ يملأ الحبس بعجين حاشـد القوام لا يكاد يلتقط فيه أنفاسه.

قالت له، بعد ذلك: سأخرج قليلاً، عندي ميعاد.

قال: من؟

قالت: أنت تعرف، قلت لك.

كانت قد حكت له عن صداقتهـا مع رئيـس الـوزراء السـوداني السـابق، العجوز الطيـب القلـب الحـاد الذكـاء الواسـع المعرفـة، ما زال يحتفظ ببقيـة

وسامة قديمة عربية زنجية، نفى نفسه خارج السودان للعلاج والسياسة معاً. قالت له هذا الرجل شهد مولد كل أطفالنا، في العائلة. كانت أول هدايا يحملها إلى مصر في زياراته هي هداياهم. كانت سهراته في بيتنا هي الوقت الوحيد الذي يعرف كيف يستمتع به.

كان الرجل قد جاء منذ يومين وسلم على ميخائيل بيد باردة راحتها باهتة اللون، وعين باردة عاقلة النظرة فيها حدة مكتومة قديمة، وشهدوا معاً مباراة تنس في التليفزيون في الردهة الخاوية المعتمة التي تتناثر فيها مقاعد مشققة الجلد، موحشة، غير مستعملة. وتحدث الرجل، بحذق الديبلوماسي الأديب العريق العجوز الملول، عن ضربات التنس وضربات القدر، ودخل في تفاصيل تكنيكية طويلة عن لعبة التنس ولعبة السياسة، وهي تبادله براعة الحديث ببراعة، وميخائيل لا ينتهي عجبه من صنعتها في الحديث عن موضوع لا تعرف فيه شيئاً كثيراً ولكنها تلتقط أطرافه من محدثها نفسه، بأيدٍ مدرَّبة سريعة، بذهن رشيق الخطى خفيف الحركة. ودائماً يسيل الجنس من كل مسام جسدها وعقلها ويفيض من عينيها. ماذا بينها وبين هؤلاء الشيوخ هذه الحطام الباقية من أجسام وعقول كانت فتية وباهرة وتركت بصمات أقدامها على أحجار التاريخ. وهي دائماً هناك، في الظل ولكن مؤثرة. حنانها الجنسيّ اللين الناعم يغلف هذه الركام الحادة الجافة الجسيمة الماثلة بعد عز رجولي قديم.

كانت قد قالت له: يا روحي على دون كيشوت. أحبه، أحب كل شيء فيه.

الشيخ الذي لا يريد أن يُسقط رمحاً تركه في يده عصرٌ غابر.

تجمع صوره وتماثيله الخشبية والحديدية والشارات المعدنية البيضاء المنقوشة عليها ملامحه الحادة. وتجمع أيضاً تجسداته، وأحلامه المهدورة.

سأل نفسه قلقاً: هل أحارب أنا أيضاً طواحين الهواء؟ نعم، العدل مستحيل، الحب مستحيل. فهل يمكن أن أقبل؟ هل يمكن أن أسلّم؟

وعندما عادت طرقت عليه الباب فجأة، على غير انتظار، جاءت مبكرة، وكان في أعقاب نوم الظهر القصير المضطرب، كان يتحدث في نصف النوم إلى ناس الحلم، لا يعرف من هم ولكنه يعرفهم، وقام بسرعة على طرق الباب، يفتح، نصف عار لا يدري تماماً أين الباب وهو يفتحه. قالت له، بنظرة صلبة سريعة: ماذا؟ هل تقوم باستعراض ستريب تيز أم ماذا؟

كانت قد قالت: ماذا تظن؟ هل تظن أنه سوف تكون لي معك علاقة غرامية؟ وانني سأكون عشيقتك؟ هذا مثير للسخرية. لست عشيقتك. لن أكون عشيقتك. لن تكون بيننا علاقة غرامية. هناك بلا شك صيغة أخرى، نعم نحن صديقان، هذا كل شيء، علينا أن نجد هذه الصيغة. صداقة غرامية، ربما..

قالت: إلى أين سوف يُفضي بنا كل ذلك؟ إلى لا شيء، ربما.

كان صمته، عندئذ، خيانة أخرى.

هل أنا مجرد رقم في اقتصاديات حسّيتك، يا رامة المحبوبة البعيدة، معادلة موضوعة بين قوسين في حسابات شهواتك وتطلبات جسمك الملحّة؟ لا، لست أنا حاصل العملية الحسابية. لن يكون لها أبداً حل ضروري ومحتوم.

فليكن. أليست هبتك لنفسك، لجسمك المبذول، حتى في داخل رياضيات الحس المعقدة، عطية، لا تعوض ولا يقارن بها شيء؟ لماذا تقف مكتوف اليدين أمام العطية؟ كانت رائعة في بذلها. نعم، هو مبذول أيضاً،

هذا الجسد الطيع المفتوح، لآخرين، للآخرين، مبذول كلما أتى الليل، تغمره وتعمّده ذكورة العالم في نهرها العريض الجاري المتغير الأمواج.

كان رفضه صبيانياً، في نهاية الأمر. كان وما زال يطلب المتفرد والمطلق والوحيد. ليس هذا هنا، على ساحل هذا العالم الذي تشرق الشمس فيه وتغيب. لا لواحد ولا للكل، لا لشيء ولا لأحد. الشمس ليست قرصاً محرقاً منحوتاً بلا حَوْل في حجر السماء. والليل الأسود يرين وينجاب عن هذا الغمر المجهّل أبداً من وحدات لا عداد لها بلا نهاية ولا تميُّز.

كانت السيارة قد غرقت، لا تكاد تتحرك، في سيل ميكانيكي بشري ينحدر ببطء في شارع فؤاد، دخان العادم وصرخات الأبواق المتقطعة والملحاح، أوكسيد الكربون والشتائم المكتومة من وراء الزجاج، صفارة سيارة النجدة اليك آب المحملة بالجنود متصلة، لا تكاد تتوقف، ولا تعرف مع ذلك كيف تشق طريقها في كتلة المرور المتراصة الزاحفة ببطء، ولا تصمت. قال لها: ماذا يحدث؟ فلم تجب. كانت تقود السيارة الصغيرة، تدفعها خطوة خطوة، تنقل السرعة وتفتح وتغلق وترفع قدمها وتضغط، وساقاها، تحت الجيب المرفوعة قليلاً عن ركبتيها، على الدواسة السوداء المتربة المنزوعة قليلاً عن أرضية السيارة وعليها بقايا علبة كبريت وورقة سلوفان مطبقة وممزقة ورماد سجاير وشريط قماش ناصل بلا لون: ساقها التي إلى جانبه قصيرة سمانتها ملفوفة محكمة والساق الأخرى تبدو له باطن ركبتها، تحت الكولان الشفاف الفيراني اللون؛ أكثر بياضاً بانعكاس نور خلفي متقطر من نافذة السيارة، ساقاها عمودان قصيران مكتنزان في مبنى سريّ منخفض السقف، لهما مع ذلك نعومة خاصة ليست من صنع النحات بل من مس أيدي أجيال من المتعبدين. كانت في السيارة تلك الرائحة من البنزين المحترق واللبن المحترق والتوتر.

قالت له: ميخائيل، تفتح الزجاج قليلاً؟

ضجيج المدينة يتدفق دفعة واحدة مختلط النبرات والطبقات والإيقاعات كالمعتاد؟ أم لعله أكثر قليلاً؟ وعندما وصلا إلى ما قبيل الاسعاف ازداد حجم الضجة فجأة، وأقبلت تجري نحوهما، كأنما تهاجم مقدمة السيارة ثم تنحرف، مجموعة متفرقة من الصبية بجلاليب وبيجامات وبنطلونات مفكوكة تتواثب بين السيارات المتلاصقة الزاحفة وتتفادى عجلات الترولِلي باص الذي رفع كتلة جسمه الضخم ثم توقف مائلاً يسد نصف الشارع. ثم اندفعت إليهما سيارات تأتي من منطقةِ فراغٍ غريبة غير معتادة في المرور، تلف وتدور بسرعة في الاتجاه العكسي وتكاد تصطدم بالزحف البطيء السيل للمرور المنتظم، وفرقعات حادة من غير بعيد، وصرخات رجال تبدو ضعيفة في الضجيج الميكانيكي المختلط الأصوات، مظاهرة بعد الاسعاف ارجع.. ارجعي يا مدام.. مظاهرة.. العساكر تضرب بالرصاص. وأيد تشوّر وتلوّح وتختفي، اثنان من أمناء الشرطة يجريان بصمت وانعزال، كأنهما في تمرين رياضي، ناحية الأصوات، ارتطام زجاج ينفجر ويتطاير وهتافات غير واضحة المعالم، وفي لمح البصر، وبسرعة غير معتادة وخارقة كانت سيارتها ترجع إلى الوراء في حيِّز ضيق لا يُصدَّق ومستحيل. وتدور وتمرق من بين سيارات تندفع في كل اتجاه، متعاكسة ومتوازية ومتقاطعة، على السواء، بين أنين الفرامل وعويل الأبواق، إلى شارع جانبي مترب ضيق الفتحة يتسع أمامها ويدور بين الدكاكين والمقاهي المفتوحة، والناس تشرب الجوزة على الرصيف، والتراب فيه بقع من مياه راكدة قديمة، والأبواب الخشبية الضيقة عليها طبقات جلدية الشكل من التراب القديم، والشرفات الحديدية المدورة المائلة التي تكاد تتلاصق، عليها غسيل منشور في الظلام من أمام الكراكيب المألوفة علب كرتون وصفائح وأخشاب ونفايات البيوت التي لا يهون الخلاص منها، تتخايل فوق برك النور من مصابيح الشوارع، عربات النقل الهائلة القديمة تزحف ببطء طالعة من

شارع جانبي تكاد تطبق عليها حيطانه، وأمام دكان ميكانيكي أرضيته من التراب تملؤها عدد ومفاتيح وعجلات تقف سيارة مفتوحة الأحشاء تمتد من تحتها، ولا تكاد تبين من تراب الطريق، ساقان نحيلتان سوداوان لصبي الميكانيكي وجهه مدفون أسفل السيارة، وهي تحيد عنها بسرعة وتتفادى سيارة النقل الوحشية التي تغلق عليها الشارع، وإذا هما بعيدان عن دفء الزحام والضجيج الودود وأنوار البقالين والميكانيكية ومحلات المانيفاتورة وعربات الخضار، وإذا هو يشم رائحة مياه النيل في العتمة الفسيحة وأعمدة من الخرسانة نصف مبنية تنبت لها فروع شائكة مدببة من أسياخ الحديد الملتوي وأكوام مصفوفة من الخشب تعلو باهتة عارية العظام وقضبان المترو المهجورة تلمع مبلولة في مستنقعات مملوءة بالزلط وبقايا متصلبة من الاسمنت الداكن، وبناء التليفزيون الغامض يبدو شاهقاً، من زاوية غير مألوفة، غير بعيد، سماء ليل الشتاء مشتعلة بوهج غريب، فيه غيوم حمراء مصفرة من انعكاس مصابيح الصوديوم وإيحاء احتراق. وقد اختلطت عليها الاتجاهات ووقع في سحر هذا الخراب المفاجيء الذي يجري فيه بناء غير مفهوم ومتروك لا يدري أين موقعه. وتوقفت قليلاً، مأخوذة هي أيضاً، وغامضة، ووجهها في العتمة يضيء بنور مكتوم. قال: نرجع للزمالك من هنا، كوبري أبو العلا قريب. قالت: لا. قال: مصر الجديدة إذن، على طول، من على كورنيش النيل، ثم شبرا. لا أظن أن هناك شيئاً في هذا الطريق.

النافذة أيضاً جرح في الحائط الأصم، لا يندمل. ومن وراء الجراح تضرب دماء المدينة وتتقلب، بينما هو منفي في الداخل. أوتار مقطوعة بين الجراح في نفسه وهذه النافذة. لا شيء يصل بينهما. حائط أبيض مصمت، عليه نور الصباح، ملاءة ساطعة حارة مشدودة كأنها على سرير موت أو رخامة تشريح. الجسم الخصيب الحي الجسم الواحد المتعدد بالآلاف

متضخم مكظوظ مملوء بالأكل الشحت غليظ جاف هنا، وهنا خاسف منحوف، عظامه صفراء مكشوفة مرمية على تراب الجوع والصمت، يمور ويندفع في شرايين القاهرة القديمة الشهيدة الملوثة الصابرة الفاجرة البذيئة الصاخبة المتبرجة القاتمة الوجه المكتومة الأنفاس بعينيها المحترقتين أبداً، يتمدد وينشج وينشنج ويتهدل ويتورم وينفجر وتتفكك عراه يشتعل فجأة ويصرخ السيارات تدور بسرعة وصمت.. «ممنوع.. ارجع.. ارجع.. خذ طريق صلاح سالم. من هنا ممنوع». أحجار متناثرة وقطع طوب مكسورة في وسط الاسفلت وبلورات الزجاج الدقيقة تلمع شظاياها الدقيقة حادة الأطراف مبثورة على السواد واعلانات معووجة مقلوبة مبتورة وأعمدة النور مائلة أظلمت رؤوسها المفتوحة المشعثة الأسلاك.

في الصباح كانت الأجسام الفتية تتلاصق ببعضها البعض ملهمة بحماسة طفلية وبراءة. وقد لفوا حول أنفسهم حبلاً يجمعهم ويحددهم في اندفاع التمرد المنظم المحكوم بآمال غامضة وهتفات مبحوحة قديمة. الأذرع الممدودة المرفوعة سيقان نبات عنيد غض تهتز بها رياح الشباب والأمل. والفلاحة التي ما زالت ترتدي ملابس القرية الطويلة طرحتها الرقيقة النسيج تلف رأسها المعتز الرفيع العنق، وجلابيتها السوداء ذات السفرة العريضة فيها شق جانبي طويل يكشف عن قميص داخلي خشن باهت الزرقة من كثرة الغسيل، تسير وحدها بلا اهتمام، تدعو الله بصوت مرتفع أن يحفظهم لشبابهم وينجيهم من كل ردئ، وهي ماضية في طريقها مشغولة بهمومها كأنها على شط الترعة في البلد.

وفي آخر الليل كانت الشوارع صامتة انحسرت عنها الضجة وانقطعت عنها أجسام السيارات المتدافعة المرتجفة في طنينها الميكانيكي الخشن تنفح بغازات عادمها الخانقة وقد ظهرت كأنما لأول مرة الأشجار تحت الأنوار الكهربائية التي لم تتكسر، ضخمة مورقة لها حياتها الليلية الكثيفة، والبيوت

قد صمتت وأقفلت على أهلها الخائفين قليلاً وراء البيبان الموصدة تتخايل من خلف خصاص نوافذها أنوار واهنة.

من عبر النيل الحاضر أبداً في العتمة غير مرئي وغير مسموع خيل إليه أنه يسمع ارتطامات مياه أخرى طال بها الحبس، هدير الجماهير أمواج متلاحقة بعيدة في هدأة الليل، يأتي من الشط الآخر، يعلو ويهبط في إيقاع يلقي الروع في قلبه، لا يميز على البعد ما يهدر به ليل الجماهير ما ينفحه البركان المكتوم في نفثات مليئة حاشدة مترددة باصرار، الصوت العميق الأجش من مئات الحناجر يهدد الليل والسماء وحيطان البيوت المسدودة، وله صدى مرهوب محبوب تغرورق له على رغمه عيناه ويعود به الصدى إلى أمجاد شباب منقضٍ واحباطاته الراقدة في آخر طبقات قلبه الموحلة بالألم والندم.

جرانيت الجسم الشامخ شبابٌ يتحدى، في أول الظهر، الذبول والموت، ولا عورة فيه، يبتسم ابتسامته الغامضة الدائمة. قويّ أمام الآلهة لأنه منها، منزوع من بين أعمدته العملاقة النائية في صعيده الحار، من بين عتمة الشموع ورهبة السكون في زمانه السحيق، لكي يقوم، بكبرياء لا ينال منها شيء، في ساحته المزدحمة الرثة الريفية الشكل بين قواقع طويلة مغبرة من القطارات التي تتلوى زاحفة محبوسة بين قضبانها أو تركن إلى موت صدىء، مهجورة. وهو مع ذلك وسط أهله وناسه، وفوقهم. تدور حوله بلا انقطاع تيارات المرور بأسلاكها وعجلاتها وصريرها كأنها لعبة سخيفة وغائرة في مستوى الحضيض وتنطلق صفارات مقطوعة الأنفاس وتنطفىء أنوار حمراء وخضراء مبتذلة الألوان في النور الغامر. الجسم الصخري دائم الشباب صولجانه لا ينقضي. أما العالم فينقضي وتبقى ندوب الجروح ندباً فوق ندب يتصلب بها لحم القلب وتنبض الدماء في قشرته بعذاب لا ينتهي.

أجسام رهبانية ممزقة مخذولة جافة لا تعرف توهج الحيوية إلا في سورات خدر الحشيش ولوثات الأجساد النسائية السريعة الانطفاء، ولا تنصب عليها المياه. رمال الصحراء القذرة فتات من حبوب الصخور. والقداسة ليست من الجسم ولا من الرمال. في داخل هذا الجسم الذي تثخنه الطعنات، ولا يموت، أحزان هؤلاء الرهبان عبر صحراوات الأجيال يقهرون شهواتهم العظيمة ويطأون فتوة أجسادهم بأقدام الروح العنيد. خشنة متشققة، الأطراف المشوقة الحية محاصرة تتوفز من داخل الجرانيت الوردي الصلب الذي لا يقوى عليه الزمن، وعلى صدورهم صلبان رسفن ذات أهلّة وأشرعة من الذهب والفضة مشغولة منمنمة كأنها المسارج التي تسبّح بحمد الله وتضيء بنور الزيتون في محاريب مطرزة بأسماء العزة من الرخام تنمو وتترعرع كأنها أزهار وأعشاب.

جسم المدينة تنفصل عنه تجمعات حائرة مزعزعة القلب تنتظر وتتطلع في فضول قلق مكتوم الفوران. عيون كابية منتفخة من نوم سيء تلمع تحت غشاوتها أحلام وتمردات غير مفسّرة، في الوجوه المكدودة الضاوية التي تقابل الشمس الشتوية بهمومها الداخلية. والشمس عين مفتوحة، غير محرقة، لا تستجيب. نظرتها ثابتة. والخوذات المعدنية المطفأة اللون تلمع في الشمس والصفوف الصفراء المضطربة السيئة الهندام تسقط من عربات الشحن بصدمات مكتومة على أقدام نحيلة مدعومة بجلد الأحذية الغليظ الجديد الذي تفوح رائحته. صرخة امرء واحدة ضئيلة مقطوعة: «ارجع.. ارجع» عجلات المطاط الضخمة تدور ثم تقف، عالية. في دسامتها السوداء تصميم بهيميّ. سحابات بيضاء من انفجارات صغيرة الصوت تنطلق من أمامها التجمعات مشتتةً بذعر غير محكوم. حوافر الخيل تغوص في الأسفلت الطري. الصدور العريضة الشامخة، تحت الوجوه المسحوبة التي لا تفهم إلا هيجان الدماء واضطراب الناس وصمتهم المشحون وصياحهم

المتناوب، عليها قامات متوترة ووحيدة وموحشة فوق الرؤوس المتقاربة والتجمعات التي تجري بألف قدم وتدوس الأحجار وتتعثر بالأجسام وتذوب في الحواري الأمينة المتساندة المحطّمة الأرضيات بين أبواب البيوت المفتوحة أبداً لأنها بلا أقفال وسلالمها الضيقة المعتمة مخابىء أمينة لا تطولها القرقعات القاتلة. أغطية القماش الغليظ من المشمع الأصفر الباهت القذر اللون متهدلة على هياكل القضبان الحديدية الرفيعة، خانقة فيها رائحة الخشب وجلد الأحذية والحديد وزيت البنادق الزخم. رشات رصاص لها صدى في السكون المفاجىء وحفيف الأقدام الكثيرة التي تجري مسموع في شوارع فرغت تماما من ضجيج المرور اليومي الليليّ الذي لا ينقطع. عيون مفتوحة لا تفهم ماذا جرى ولن تعرف أبداً، وأنين وأجراس من بعيد. النيران في نور الظهر الشتوي حرارتها ضارية ومُبرئة ونورها في لون عبّاد الشمس غير مرئي لها فحيح ممتلىء الخلق بثأر لا تسوية له بنذر لا وفاء له تلعق المباني الحكومية الصفراء المصنوعة على الطراز البريطاني القديم بحيطانها الجرداء والقضبان الحديدية المتشابكة المربعات في نوافذها المحطومة الزجاج. الحريق يسري في حطب القطن ويمسك بجذور الحلفاء على القنوات والمصارف ويندلع في الأجران ويصعد له دخان أسود ثقيل. خوار الموت من فحل الجاموس المذبوح دماء عنقه العريضة تسيل لا يوقفها شيء بصمت وكثافة داكنة الاحمرار على التراب المفتت بحبوبه الناعمة نصف السوداء نصف الصفراء. أعمدة الدخان السوداء سامقة ثابتة حريفة الطعم في الأفواه الجافة الريق تتصاعد وتتلوى من بينها ألسنة متطايرة حارة لها وشيش ووهج شرير الفصد لا لون لها في الشمس. سقوط الأبواب وشروخ وانشقاق الجدران والجري بالغنائم الرثة الهزيلة ونداءات لا أحد يسمعها. حوافر الخيل تصطفق على البازلت الأسود بإيقاع له أصداء متكررة في الشارع الذي خلا من زحمة السيارات وضجيجها المألوف. تتكون في الجسم الذي يمور عقدٌ جديدة صلبة عنيدة ما تلبث أن تسيل وتذوب في

غيامات الغاز المسيل للدموع. أمام الصفوف الرفيعة بدروعها وعصيّها وخوذاتها، عقدٌ صغيرة أخرى سرعان ما تتكون وتتضخم رويداً وتمتلىء بصيحات كأنها انفجارات مرض موجع قديم تدفقات مياه عكرة محبوسة تحت القهر والمعاناة وآلام كل يوم التي لا تفسير ولا حل لها. نباح الرشاشات المتقطع الصدى الذي يبدو لا أهمية له يترك أمامه أجساماً صغيرة تسقط فجأة كأنها أكوام قليلة الشأن من الحزن والهدوم الفقيرة تنقلها الأيدي بسرعة إلى الرصيف في انتظار رحمة قد تجيء أو لا تجيء. أعشاب رفيعة القامة تنحني تحت الضربة وتسقط. أزهار العشب التي لا تتفتح إلا سحابة يوم ثم تتقصف هل تترك وراءها البذور المتجددة؟ أزهار النار والمرارة التي سرعان ما تنطفىء.

وكأنما ميخائيل يحس الجراح والشروخ والحريق في جسمه الضئيل المحدود، في جسمه الآخر الممدود المدفون بين أمواج الصحراء وبطن الطين الوثير. التنين يتململ من وخزات الوقع الحاد الذي تتركه سنان الطعنات لو أنه نهض برأسه المشتعل العينين وفمه الفاغر ذي الألف سن الذي ينفث ألسنة من نار لو أنه ارتفع بظهره المكين الوطيد مستنداً إلى الذيل الشاسع الأطراف المدجج بالحراشف المفتول العضل لاهتزت أعمدة السماء وتزلزل العالم السفلي الراسخ الذي ترتكز عليه الأرض السوداء.

هنالك، بين هذه الأجسام التي تستمد من تقاربها دفئاً وإلهاماً ينسكب ويفيض عن ضيق مجرى حياتها الرتيب المزدحم، هنالك، بين هذه الأجسام التي تجمعت وتتجمع وسوف تتجمع أبداً في دفعات متراصة لا نهاية لها تهتف بصوت ليس هو مجرد تجميع أصواتها بل يأتي من نطاق آخر، وتثور بأيد أكثر بكثير من مجرد عدد أيديها، ترفع إلى سمائها فرعوناً قديماً واحداً متجدد الوجه تفديه بالروح بالدم تتشوف خلاصها تقدم قربانها صانع المجد مفجر الدماء داعي دعاء السلام تجأر أمام آمون الكليّ القوة الكليّ العزة

مانح الخبز والحب والمغفرة من الذنوب هذه الأجسام التي تشق طريقها نحو الحرية نحو الشمس ذات الأصابع الرحيمة القادرة وتعرف بغموض ولكن بتأكيد أن شمسها في داخل قلبها المكنون، هناك معهم، مكانه وحريته، هناك معهم عرف هذه النشوة هذه الخمر التي ليست من الأرض، وهي منها، هذه الحرارة تتدفق في دمائه كأنها البعث من الموات، هناك لم يدرك أن صوته قد بح تماماً وأن هذا الهتاف الذي تهتز له ضلوعه إنما هو هتافهم الواحد وأنه وحده لا صوت له، هناك في ٤٦ كانت اليد التي ألقت بالقنبلة بعيدة عنه وهي يده أيضاً. وهو لا يسمع صوت الانفجار والسيارة العسكرية الانجليزية التي تنقلب فجأة، حدأة مضروبة، غير بعيد عن التمثال البرونزي الداكن الصارم الوجه، ويقفز منها عسكريان بالشورت الأصفر المضحك قليلاً النازل تحت الركبة، وبأيديهما «التومي جن» القصيرة الفوهة، مشرعة لا تنطلق، ويجريان إلى داخل الكشك الخشبي المحاصر قبل أن يلحقهما الهدير العميق. أما في صمت الليل الموحش بعد ذلك فقد كان لطلقات الرصاص أصداء متضخمة لها رنين أجوف غائر الصدر. هذه الأجسام التي تسقط تحت العجلات من ضربات غير مرئية لا يعرف أحد من أين تجيء كأنها فجأة أجسام الرهبان الصحراوية، ذاوية وضامرة، مهدرة. مخذولة، منسية، ليست لها الجنة، متى يأتي الملكوت؟ من غير مجد، مرمية على الحصى والرمال تحوم فوقها الحدأ قليلاً ثم تنقض فجأة من قلب السماء البيضاء المحترقة.

نعم أحبك. ولكن في حبي أيضاً خيانة محتومة.

قالت لنفسه: هذا الاحتراق الداخلي لا معنى له، في الحقيقة، هذا الصمت أيضاً خيانة. أنتَ، وحدك لا صوت لك، لا حب لك. نعم، احبك، وفي بؤرة هذا الحب، هذا الصمت، نواة الخيانة المحتومة. ليس شيء محتوماً. الجرائم تُنسى وتنقضي، ولعلها تُغتفر. تمضي على أي حال ولا

يبقى لها أثر. وحتى عظام الضحايا والشهداء تتحلل بلا ثأر ولا عدالة وتذوب في الرمل والتراب الجاف.

لكن أزهار الثائرين تظلّ مفتوحة المخالب.

كان قد قال لها: نحن لا نكاد نعرف أحدنا الآخر يا رامة. هناك مناطق كاملة في حياتك، وفي نفسك، لا أعرف عنها شيئاً، لن أعرفها أبداً، ومع ذلك، هناك نوع من الألفة خفي وعميق ومستقر كأنه من قبل بداية الزمن، يغلب كل غربة، ولا يحتاج لمعرفة.

عند عودتهما في أول الصبح وقفت السيارة أمام إشارة المرور والساحة الصغيرة فيها التمثال المسطح، القطة الكبيرة ملساء الجوانب وجهها خاو ممسوح واليد على رأسها كأنها بلا ثقل كأنها ليست هناك، تقعي بحركة فيها شبهة بذاءة. عسكري المرور العجوز يقف شبه نائم في ملل، وأمين الشرطة بخوذته البلاستيك الشفافة وثيابه الداكنة المحبوكة، بين السيارات، يدور برأسه ببطء وتعال. الرجل ينادي على خِرَقِه الصفراء بلا ملل ولا حرارة ولا إيقاع: «فُوَط بعشرة: بعشرة يا فوط» وفي يده فوطة نظيفة مفرودة يهزها برتابة، لا ينظر إلى أحد.

ومن على الرصيف بجوار عمود النور العالي، بعد الأشجار الكثة الخضراء الغنية، ترتفع فجأة إلى جانبه هذه الشجرة، جافة، عارية، انحسرت عنها الحياة ولا تنتظر الربيع، نصباً من الخشب الداكن بشرايينه السوداء، تلتف أطرافه على بعضها البعض في تصلب، كأنها نَسيت، من زمن طويل، الألمَ الذي مزقها وعقدها وعوجها وطواها، صراخُها جامد أخرس متقلص الأذرع، يطعن السماء بأصابع طويلة مسحوبة رفيعة متلوية، بلا أمل ولا يأس.

٦- حمامة تحت الأعمدة مكسورة القدم

كانت قد فتحت عينيها في راحة، وتمطت في لذة نصف اليقظة نصف النوم. كان الصباح المحبوس في الغرفة وحشاً مكتوماً مستكناً شبعان. وند عن الجسد المتراخي أنين من الاستمتاع بتمدد الأوصال الراضية العريانة. قالت: أم م. . صباح الخير يا حبيبي، مرة ثانية. في قبلة خطوفة، وقعة خفيفة من شفتين هفهافتين في رقة طائر ناعم المنقار يلقط حبة هو في غير حاجة إليها لا يدفعه إليها جوع بل ترف. وهي تمد ذراعيها حواليها ويبدأ توتر جسمها مع ارتفاع مد اليقظة.

كانت العينان البحيرتان صخرتين لامعتين من جديد فيهما هذا التساؤل المفتوح أبداً الذي لا إجابة له، لا يقر ولا يسلم بشيء، لا يعرف شيئاً ولا يستسلم لشيء وقالت، تميل بجنبها عليه، وهي تجمع الملاءة باهتة البياض قليلاً حول جسمها:

- ميخائيل، تركت النافذة مفتوحة. انظر ماذا فعلت؟
- ماذا؟
- هواء الصبح دخل إلى كتفي. . . الله يجازيك يا حبيبي.

كانت يدها الملينة تمر على صفحة خده الخشنة ببطء وفي عينيها الآن ما يشبه ابتسامة، كل شيء مسترخ هادىء في جسمها.

قالت له: هل تدعك لي ظهري قليلاً؟

وانقلبت على السرير تمطيه ظهرها، وهبط وادي خصرها فجأة إذ ارتفعت ربوة ردفيها الناعمة وارتسم خط شقهما الدائري تحت القماش الأبيض الخفيف المغضن.

هذا الجسد كله، أيضاً، قناع. في جماله وغرابته وامتداده النائم الذي لا يحتوي على شيء ولا ينقل رسالة. ويبدو لا حرارة فيه. حرارته ملساء كأنما من وراء سطح معدني صقيل لا تمسك اليد منه شيئاً. استدارته هندسية محسوبة أجنبية لا يعرف لغتها.

دوران كتفيها العاريتين صخرتان لدنتان متماسكتان على حواف هضبة ظهرها الممدود مستسلمة ليديه وهو يمر على الوهدة الناعمة في بطء، يداه لهما معرفتهما الخاصة، لهما عشقهما الخاص. القطة الكبيرة يحسها مفتوحة العينين في عتمة الجبّانة العتيقة المدفونة في الجبل. أنين المتعة العميق النضر يأتي عبر أزمان لا تنقضي تحت شمس وادي الملكات المحرقة. يداه تذهبان وتجيئان على إيقاع أفراح جنائزية وانية. يميل بوجهه في غير تسرع ولا حدة ينشق حرافة شعرها الخشن في مؤخرة رأسها، وهو يعرف أن ابتسامتها التي لا يراها، من تحت جانب وجهها الملتصق بالمخدة، تتسع على مهل وتغيب وحدها. تحت كتفها، من اليمين ندبة صغيرة طولية: أثر جرح قديم، سقطة طفولية، أم شق من مخلب حفرته معركة شهوية قديمة؟

قال لها من وراء رأسها: في ظهرك أثر جرح قديم.

ولم يكمل، بل هبط وجهه، تمس شفتاه ندبة الجرح الرفيعة كأنما يحاول أن يبرئه، أو يمحوه، متأخراً عما ينبغي، جداً.

قالت له وفمها مكتوم في المخدة: ميخائيل ماذا تفعل؟ هل تدعك ظهري أم تتحسسه؟ احترس.

كانت ضحكتها الصغيرة، متوترة، بلا صوت تقريباً. ويداه يتسارع

إيقاعهما وتضغطان بصفحتي الراحتين المفتوحتي الأصابع، تعرفان أنهما لن تمتلئا أبداً. انقلبت دفعة واحدة على ظهرها، وتفتحت له، نهداها ينسكبان وجسمها يكشف له عن وجهه الآخر المتطلّب فجأة العريض الغني. وهي تشهق شهقتها الخفيفة اللاارادية. التحامة الجسدين والتصاق الشفتين مفاجىء أيضاً، وذكورته في ملء يقظتها. أحس في عينيه وفي توتر قامته، ضراوة المهاجمة.

قالت له، شاكية، متضرعة، راغبة: ميخائيل، لا تؤذني.

فانهار صخر العالم، وانكسر العمود، وسقط. وتراجع كل شيء.

كانت التقلصات بعد ذلك إيذاناً بالخيبة. والتصاق وجهه بجانب كتفها ضغط الاخفاق والحبوط ليس فيه طلب مغفرة بل كبرياء جريحة لا تعتذر ولا تطلب شيئاً.

نداؤها: لا تؤذني، سمعه صيحة قديمة محترفة، تخشى إيذاء متكرراً مألوفاً، صيحة ترددت، بنفس الاتقان، كم مرة من قبل؟ خطفت في عينيه أضواء بيضاء من رسالة جاءتها بالأمس، تلاحقها، أخفتها عنه بحركة سرية حميمة. كم هناك غيره آذاها أيضاً؟ فعَل التكرار ألغى وجوده معها، جعل منه نكِرة، رقماً في عملية جمع حسابية لا يعرف موقعه منها، وضَعَهَ في صف الذين لا اسم لهم. لم يعد، هو، ميخائيل، الذي تناديه، بل عنصراً من عناصر شفرة معادة تعقدت رموزها وحُلت ألف مرة من قبل. فانكسر، وعرف لأول مرة معها كيف ينشق الرخام القديم. وفوجئت بالفشل الأول، صامتة، عيناها غاضبتان قاسيتان، تتعاملان مع رمز مع وجود لاشخصي. لأنه - هو - ليس هناك وإنما الذي هنك هو فقط ما يفعله، ما لم يفعله.

قال لنفسه: المفاجأة نفسها ليست جديدة عليها. هي خبيرة بهذا أيضاً. لازَمَتْ أبواب عشتروت وأعمدة الراميسوم التي لا تتهدم أبداً. وجود

الآخـرين، وجود الآخـر، فيها، هنـاك، دائماً، معهـا، هنـاك، دائـماً، من هم، من هـو؟ إنها واعية، حـاسـبة، صـاحية العينـين حتى في شهقة تـوقع المتعة لنهتية. هذا الحس يعزلني وينفيني. يجعلني، أنا أيضـاً، آخر.

إن الله ليحُول بين لمرء وقلبه. لماذا القسوة منك، ومنها؟

رقد صامتاً، مغلقاً، برهة. ثم قام وجلس أمام النافذة، شجرتها الجـافة الشتوية بـلا أزهار ولا ورق، والغـرفة حـولها معـادية، والصبـح قاتم مـرة اخرى. ما زال شق صغير طولي من النافذة مفتوحاً على الهواء البارد.

قـالت له: سـأتصـل بـك بالتليفـون، على أي حـال، السا-ـة الخامسـة والنصف. فان لم أتصـل أراك في النادي.

كان قد قال لها: أفتقدك كثيراً، أوحشتني فعـلاً. لم أرك، فيما يبـدو لي، منذ زمن سحيق.

فقالت: شيء بديع أن أسمع منـك هذا. شيء يـرفع الـروح المعنويـة، صحيح.

قال: أما أنا فلا أسمع منك أبداً شيئاً من هذا القبيل.

قـالت: لا أقول هـذه الأشياء، أنت تعـرف هذا. ولكني افـترض أنـك تعرفها مع ذلك.

كان صوتها جافاً، خشية الانكسـار فجأة.

قال: لا يوجد أبداً، أبداً، شيء مفترض في هذه الحالات.

قالت: آمل أن تلبـس البلوفر الأبيض. حتى تذكرني.

قال: لا أحتاج ذلك لكي أذكرك. أنت لا تفارقيني.

قال لنفسه: ألم يكن هذا شيئاً جيلاً قالته له ذات مرة، رغم دعواها.

عاد إلى فكرته القديمة المكرورة حتى الملل: رومانسية الحب هذه جهمة،

صارمة، وجدّيتها لا تصدّق، لا أصدقها، حتى الآن. كأنها قوالب جاهزة من رواية شائعة سيئة الصنع. هذا الكلام كله هل يعني شيئاً ما؟

صراع مع الكلمات، أليس كذلك؟ مرهق إلى آخر حدود الارهاق، ليس فيه انتصار ولا هزيمة. هل تتحقق فيه الوحدة والاندماج. . أصراع يعقوب مع الملاك على سلّم لا يصل إلى السماء؟ هاملت متعثر مرتبك بلا مأساة، على غير مسرح؟ هل فكرتَ في حياتك أبداً باعتبار الهزائم أو الانتصارات؟ أبداً. . كم من الهزائم حاقت بالروح والجسد؟ كم من الانتصارات؟ نوايا مجهضة، أحلام محترقة، شموس سوداء.

قال: لماذا هذه النظارة الزرقاء؟ ليست الشمس بمثل هذه الحرارة.

قالت: ألا تناسبني؛ انظر. . هل هي كبيرة جداً على وجهي؟ ولونها؟ أكثر قتامة قليلاً عما ينبغي؟

قال: لا، ليس الأمر كذلك. تناسبك جداً طبعاً. كل شيء تضعينه يكتسب منك أنت جماله.

قالت: باركك الله يا حبيبي. أنت دائماً تجاملني.

قال: لا. صحيح. لكن لماذا النظارة بعد الظهر؟

قالت: أضع بيني والعالم جداراً.

قال: لا، دعي هذا، أرجوك. أي جدار؟ لا يمكن أن يقوم بينك والعالم جدار. أنت؟ أنت نفسك قوة كونية.

قال لنفسه: هذا الكليشيه مناسب جداً.

قال: اصفحي عني. أنا اليوم سعيد، سعادة غير منطقية، تفتّح غريب بلا سبب، توفز واقبال على كل شيء، طول النهار، بعد حديثك بالتليفون في الصباح. إيقاع اليوم، إيقاع الحياة نفسها اليوم، أنشط، أكثر رشاقة، أملأ وأعرض، عندما عرفت أنني سألقاك.

كان قرطها النحاسي المستدير الكبير يتأرجح تحت أذنيها. بإيماءة غجرية، ذراعاها، عليهما زغب خفيف لا يكاد يُرى في الشمس، تنتهيان إليه بأسورة فضية عريضة تمسك بالرسغين في نوع من الحبس القوي مثير لشبق طفيف.

نظرت إليه نظرة التفحص، فيها شيء من الرضى وشيء آخر. كأنها تتمنى أن يكون أوضح وأسهل وأمتع وأبسط مما هو عليه. وتعرف بالطبع أنها تتعامل معه، هو، كما هو، وأن هذه التمنيات عقيمة وخفيفة جداً. كأنها تقول: ألا يذهب بعيداً في جدية الحب هذه، ألا يذهب بعيداً في هذا الالتياع، وهذا التأبي، وهذا الرفض، وهذا التفاني؟ دون أن يتحرك حقاً، مع ذلك، في أي الاتجاهين؟

كان التمزق والشقاء الطويل قد نال منه، وجاء الآن اندفاع الفرح والحيوية يهز جسمه كله بعد نضوب شاق وعسير.

قال لها، في نفسه، وهو ينظر إليها كأنه لا يراها: لا بأس، لا بأس، هذا كله كنت أتوقعه، أو نصف أتوقعه، أصبح النمط الآن مألوفاً تماماً. لا، لا، دعيني أنهي ما يجب أن أقول، وما لا أقوله مع ذلك في الحقيقة، عليّ أن أقول إنني قد جعلت من نفسي صورة كاملة للأحمق المعتاد في مثل هذه الأمور، لا آسف مع ذلك، لكني أرجو الآن أن تكوني قد رضيت، أياً كان السبب الذي يحدوك. لا، لا تعطيني الحجج والأسباب المعقولة الصالحة المشروعة تماماً. هذا أيضاً ممكن، بل سهل. أريد السبب الحقيقي - إذا كان يوجد حقاً مثل هذا الشيء - إذا كنت حقاً مستعدة أن تعطيه. نحن الآن قد وصلنا إلى ما يشبه الاتفاق الضمني على أن نتفادى الموضوع القضية المشكلة الجوهر الحقيقي - الحقيقي؟ هل هناك أبداً شيء حقيقي؟ - على الأقل هناك عندي شيء، وعندك أيضاً بالتأكيد، ولكني أعرف أنهما حقيقتان مختلفتان بل متنافيتان، إحداهما تلغي الأخرى. ماذا

أعرف؟ هل أنا أعرف؟ الاتفاق ضمناً على ألا نجيب على الأسئلة الهامة حقاً. ولا نسألها. هذا هو الأمر إذن. ها نحن الآن هنا. هل أحبك؟ سألت نفسي هذا السؤال ألف مرة وأجبت عنه لنفسي بالنفي ألف مرة.. لا، لا، لا، ومع ذلك فأنا أحبك. حتى الآن أحبك. هذه صخرة لا تتزعزع.

في نور الغروب هذا الذي يحمل معه غموضاً دائماً لا حل له، لذعة الشوق إلى حضنك تهجم عليّ فجأة. الوحشة تزداد في الحب، ولا تطاق. تعذّبني رغبة في الالتقاء بالناس، في اغراق الوحدة بالكلام، باللجاج، بالسخرية، بكأس من الويسكي والماء المثلوج.. حلول سهلة.. لا.. ليس هناك حلول. بالجنس أيضاً، عابراً، مفرغاً للتوتر، آلياً وعضوياً وعميق التواصل الجسدي. وأنا في سيارة تزحف ببطء في زحام الشوارع وضجيجها، بلا حَوْل، من غير دفاع، نور سيارة قادمة في الطريق المعاكس، صامت، له قوة خفية غير مفهومة، طعنة في المغرب الشاحب.

قال لنفسه: آلام الطفولة عند الكبار موجعة جداً.

نفثة عطرك تأتيني فجأة، من لا مكان، وأنا وحدي في التاكسي، من سماء النيل المحترقة في المساء، من فوق تيجان النخل الموحشة على أرض الجزيرة في الشاطىء الآخر، بين العمارات والأبنية والأسلاك والأشجار والأعمدةوالمسلة القديمة والمئذنة، تنبثق من أرض ظننت أنني تركتها ونسيتها. القمر الباهت يتقطر دماً على السماء. لسقوط الدم على الأرض وقع مكتوم. التراب الجاف والعشب الأخضر يتشرب بالدم. لحم السماء المطعون ما زال يسقط منه الدم. أحبك لعَنتك وأبغضتك ألف مرة وألف مرة انثنى إليك قلبي، وأسديت لك العبادة. نعم، نعم، هذه أغنيتكَ القديمة.

هذه النفحة من عطر جسمها عندما انحنى عليها، في غرفته. كان قد صنع القهوة لهما. وشربها بسرعة وهو ينظر إليها، يبتسم لمجرد أنها معه. وتركت قهوتها تبرد. كانت جلستها على الفوتيّ، مفتوحة الساقين، ثابتة على حذائها القصير الكعب يبدو قديماً مترباً طرياً وواضحٌ أنه من الجلد الغالي ولكنه ملبوس دون عناية ولا حرص كأنه جزء من جلد قدميها القويتين. كانت عيناها ثقيلتين وجسدها ممتلئاً بموسيقى الشهوة.

ما أجملها اليوم، بعد غيبة طويلة: شهر واحد فقط، تقريباً؟ غير ممكن غير معقول. هذا الليل الطويل من الكبرياء الجريحة والوحشة المطمورة ومرض الحب المعتاد، كان يبدو لا برء له. برئ الآن وصحا وترعرع قلبه. ما أكثر وداعة نظرتها مع ذلك، وما أغربها عنه.

هذا الحس اللدن الرُّخاء - ملمس التين الذي رق جلده وأوشك أن يتقطع ويسقط في نهاية النضوج ولكنه حلو، في آخر لحظات تماسكه - بين رفيقين قديمين في منتصف العمر. قال لنفسه: كأنني لم أعرفها إلا بالأمس وكأنني أعرفها طول العمر. حدة الشهوة ترتعش وتومض قليلاً وتتوهج توهجاً ثابتاً بنار هادئة. التسامح وهو يقترب منها، ويلتصقان، ويغمض عينيه عما تركته أصابع الزمن الخفيفة من آثار - وقع عصافير على رمال الشاطىء - في جلد الوجه، وثقل اليدين قليلاً ونعومتهما المثيرة، والرد الأليف بين الجسمين المتعانقين، دون تعقيدات، والتوق الجنسي ينبع الآن منه دون اندلاع أهوج، وينثال في انسياب من الحنو. كانت ملابسها متناثرة على الفوتيي والمشجب وطرف السرير والمائدة الصغيرة أيضاً: السوتيان الأسود المنقوش بالدانتيلا متهدل الأطراف يلمع مشبكه الفضي اللون الرقيق المعدن وبين كاسيه زهرة قماش دقيقة جداً وحمراء ذابلة مغضنة قليلاً وحائلة اللون قليلاً، والكولان البيج الطويل الشفاف على الفوتيّ إحدى ساقيه مدلاة تتأرجح ولا تصل إلى الأرض، والجيبة مفرودة على

خشب السرير تبدو واسعة وغريبة ومفرغة ولكن نسيجها المتماسك دفيء، كأن به بقعة حميمة داكنة من العرق الذي يكاد أن يجف ـ هذا الحضور الأنثوي الذي يحيط به الآن وقد اطمأن وركن إليه كأنه علامات أمامه على طريق غامض غير معروف النهاية، وهو إذ يحتضنها في لحظة العشق الهادئة ويتلمس هذا الجسم الذي يعرفه كأنه جسمه، يعرف مرة أخرى رائحة المرأة نفسها، هذا العبق النسائي الحادّ الغنيّ للمرأة ـ كل امرأة ـ نفح البودرة والعرق ونكهة الحلاوة السكرية في الريق وأرج البارفان المتطاير القديم، ودفء العصارات القليلة التدفق. تفغمه هذه النفثات الخفيفة الحريفة، روائح الحب، من الجسم الانثوي الواحد إذ يدفن وجهه في طواياه، في حناياه، ثناياه. الجسم الذي يتكرر بلا انتهاء ويتجدد دائماً مفاجئاً كل مرة وقديماً جداً. ويحس فجأة أن شيئاً غريباً ـ هذا الشيء الغريب الأجنبي ـ يحتويه وأنها، في لحظة الاندماج الحميم، ليست هناك، بل هذا الكيان الناعم المتماسك الذي لا اسم له، ليس شخصياً وإن كان محدد المعالم ويداه تعرفانه وتغوصان فيه بلا صعوبة ولا بحث، مألوف ولا هوية له، وهو يملأ به ذراعيه الآن، وقد لانت حدة الجفاف وجاءت طراوة البلولة المطمئنة. والقبلة الصامتة الأخيرة، وهي تنظر إليه راضية ساكنة تفترّ شفتاها عن أسنانها البيضاء الصغيرة المتباعدة الأطراف، وذؤابة رفيعة من شعرها الخشن قد التصقت بجبينها الضيق كأنها ما تزال تنتظر، هما في شبه النوم الدمث هذا لا يكادان يعرفان أحدهما الآخر. وهو يسخر من نفسه قليلاً، بارتياح، لحسه بالاعتداد والاشتداد، والانتصار الذكوريّ المعتاد، وجسدها الخاضع الطيّع جلدُه مضيء وفي لون التراب يتموج مرة أخيرة وترتمي مياهه على الشاطىء في جهد الانهاك والوفاء النهائي. هذه الهبة التي لا تتكرر أبداً، هي في كل مرة شيء فذ ووحيد، فما الذي يُعنّيه ويمضّه؟

كانت قد قالت له: أنا أحبك نعم، ألم تنقض علينا ستة أيام معاً، أليس هذا تعبيراً عن الإعزاز؟

قال لنفسه: كأنها تكره الكلمة، سرعان ما تسحبها. أليست محقة، مع ذلك؟

كانت قد قالت له: أضحّي بنفسي إذا لزم الأمر من أجل من أحبهم.

قالت له: أنت.. أنت لم تصل بعد إلى هذه الدرجة.

وكانت تتأمله، دون استفزاز، دون عجلة من أمرها.

كان على حائط النافذة من الداخل حجاب مربع مطويّ من الجلد الداكن القديم، معلقٌ بخيط مثلث من مسمار صغير، عمل معمول ليرد العكوس ويجلب المحبة، وبجانبه جنين تمساح صغير محنط صُفرته صلبة، عينه مفتوحة سوداء.

أحمل على كتفي أحلامي حزمة بوص هش ولكنه ثقيل. سوف أغني لك يا رامة أغاني أجدادي القدامى. وأنا سائر إلى منف، تحت أحمالي، تحت أحلامي الجافة. هذا النيل خمري والقاهرة منف صحفةٌ عليها حبات طرية ناضجة من التين، أشفق عليها من قبضة يدي. في بوص النهر سوف أجد بتاح الحقيقة. مسيري على الحافة بين البوص والخمر لا ينتهي. بيني وبينك الماء القديم. والأمواج صلبة ثابتة تحت قدمي. أحسّ جسدك تعويذة وحجاباً. أنفاسك لافحة وصحراوية مرة، مبلولة برائحة لتراب والخضرة المسقية مرة، تبعثني من موت بعيد، فيترعرع جسمي. تفتحين لي شفتيك فأنتشي. تقولين: ألا تريد أن تمر بيديك على ساقي؟ أقول: عطشان أنا يا حبيبتي. فتقولين: هاك ثديي فاشرب يا حبيبي. عيناك يا رامة طائران سقطا وليس في يدي أن أخلّصهما من الشرك.

عندما وصلا إلى بيتها، بعد منتصف الليل بكثير، وتركا وراءهما كوبري امبابه الضخم الذي بدا له مُركبّاً، يطوح بأقواسه الضخمة الدائرية، طبقة بعد طبقة، في حركة جامدة من غير زمن، توقفت السيارة في رحبة من الأرض بجانب طريق ترابي، غامضة كلها في الليل. وفتحت بوابة خشبية

صغيرة في سور منخفض مبنيّ بالطوب النيء ومطلي بجير باهت في العتمة. بين الحقول والطرقات الضيقة وسط الزرع بنايات صغيرة مضطربة مكسورة الأطراف بين الشجر. نبحت الكلاب الأربعة في هيجان ترحيبها ثم ناحت نواحاً ليس فيه ترحيب فقط بل شوق عضوي جثماني وهي تتمرغ على الأرض وتتواثب عليها، ترمي بنفسها على ساقيها، وهي تنحني، فتعض الكلاب يديها في رفق وتلحسها وتموء في حب يتجاوز الترحيب، والشوق إلى نوع من التلاصق والاندماج وألسنتها تندفع وتنسحب ومخالبها المسحوبة تحسس وتتلمس وتتلبث على يديها وساقيها ووجهها، وهي تناغيها، كأنما بلُغتِها، بأصوات ناعمة فيها نفس الهواء والنواح الخفيض كأن كتلة الأجسام الخمسة كلها واحدة متعددة الأطراف تتمدد وتتقلص في نشوة عشق متبادل للذات متعدد اللذّات.

قالت له وهي ترفع إليه رأسها، لحظة، من الدوامة الحسية التي لا بذاءة فيها مع ذلك:

- هي تنتظرني. أنا وحدي أعطيها طعامها، مهما تأخرت عنها. وأنا وحدي التي أدربها وأربيها.. يا مبروكة.. مبروكة..

وجاءها الرد: نعم يا ستي، حاضر.. وتقول لأحد ما في الداخل: ست رامة جات.. من وراء لعتمة المبهمة مع نور مصباح كهربي ٢٥ شمعة شاحب أصفر الضوء يشتعل فجأة، هاتي أكل الكلاب..

الغيطان في الليل صامتة حارة وكظيمة النَفَس من وراء الرحبة التي تبدو فاتحة اللون بين المساحات الداكنة، فيها أجسام آلية قديمة ومعوجة، جرارت قليلة الحجم ومكنات زراعية أسنانها ضخمة وواسعة ومثلومة، مخططة الحدود مدغمة الكتل في نصف العتمة المتشربة الآن بنور شحيح. الأشجار العتيقة بجذوعها المتلوية الضخمة وحشْد أغصانها الأثيت المتكاثف

خرس طيب القلب مفتول العضل يتنفس بعمق في يقظته الليلية، للأشجار قوة حيوانية. وقد أخذت الكلاب الآن تتنابح وتهرّ وتهجم على بعضها البعض وعليها وعلى الأكل معاً - وقد وُضعت أمامها عظام ولحم وشغت مسلوق ومتهافت ومترب في طواجن مكسورة الأطراف داكنة اللمعان - تنزع أفواهها عن يديها كأنما على مضض ثم تعود، مدفوعة بجوع لا يقل عضوية عن جوعها إليها، وقرقعة العظم بين أسنانها تمتزج بصوت المضغ اللدن والتمطق الطري والبلع المسموع.

ثم يدخلان الطرقة المبلطة تحت سقفها الحجري غير المدهون، وعلى اليمين كنبة طويلة استامبولي مغطاة بقماش فلاحي منقوش وشِلّت صغيرة مهوشة الحشو، وفوتييات أسيوطي بمساندها الخشب الطويلة السوداء والحصيرة التي يعطيها نور الصباح الصغير لمعة نحاسية باهتة مضفورة وهي لصيقة بالأرض كأنما تنبت منها مباشرة بضراوة وتمكن، متماسكة القوام.

اليدان المتوفزتان المدرّبتان على ضرع الجاموسة المليء المتورم باللبن المؤلم تتحسه بضغط هين مريح يفرغه من عناء اللذة المعطاء واللبن يخر خريراً متقطعاً ويرتطم، في رشاش خفيف، بجدران الطاجن الفخاري الأسود المبطن برغوة لها رائحة الدسم السخن الطازج. اليدان لهما حنكتهما الخاصة القديمة في افراغ اللذة تتلمسان العمود المتوتر وتضغطان على مؤخرة العنق تحيطان بسيقان الجرجير الرفيعة الخضراء من فوق جذورها وتنتزعانها، بطينها المبلول، من على حافة القناة الصغيرة تحت عيدان الكتّان القائمة الصلبة المحمرة اللون.

كانت قد قالت له: تعرف يا ميخائيل، أنا لست صعبة أبداً. هذا عندي تماماً مثل رشفة ماء بعد عطش، لقمة عيش طري حاف. أجيء بعد أقل من دقيقة، وأعرف كيف أستمتع، ببساطة، مباشرة.

اسمنت القاهرة وحجرها القديم وضجيج الاسفلت وأزرار المصاعد تئز وزحير السيارات المعدنية المبحوحة الصوت ليست فيها رشاقة الطاجن الفخار ولا نضارة الزروع التي تُقتلع بجذورها من تراب الأرض الداكن بنداوته وحبّات ترابه المعقودة التي تكاد تنفرط، حبة حبة، من على السيقان الخضراء، لا أرى نفسي إلاّ تحت النور الحجريّ الساطع المميت. أشواقي قد دفنتُها في تراب الأرض القديمة أكاد أنساها. حقلٌ أنت، تملؤه أزهار البرسيم وأعواد الكتّان وعلى صدرك ثمار الحب. هل تسمعين صياح طيري معطّراً بأريج المر الحريف، صيحة الوز بين البوص في ليل طفولتي الذي لا تطلع عليه شمس أبداً. لم يعد يشوقني العيش الشمسي الذي ينضج مباشرة، بلا خميرة ولا فرن، على ألواحه الخشبية تحت شمس أخميم في سطوح البيت القديم العالي الذي ترتفع سلالمه في عتمة الظهر المسقوفة وطراوته. قشرة الخبز الكثيفة الصلبة البيضاء تغلّف لب العجين الناضج الذي يذوب في الفم برائحة جنسية خصبية. جفّت عندي استجابات النباتات الأرضية الحنون الوحشية معاً، ما عادت توقظني إلا هفهفة النسيج النسائي الشفاف على حنيات الجسد المضيء والتلوينات البارعة الذكاء وتوشية الموسيقى الحاذقة المتموّجة بمكر على السطوح المعدنيّة والبلاستيك الصقيلة تنعكس في استداراتها وخطوطها الحادة أصداء صور لامعة قاطعة. عندما تقولين لي حبك يخترق جسدي كالرمح المصوّب المشدود يتخبط طائري بين الرياح، وعندما تأتين إليّ فأنت الفرح، والحدأة ثابتة الجناحين في قلب السماء لا تنقض ولا ترتفع. أحمر الشفتين القاني في المرايا الصغيرة المفوّفة باطارات الالمنيوم الفضي وزواياه الجاهزة التصنيع ماكياج العينين الأزرق الفيروزي على جفنين مدورين ممتلئين باللبن المؤلم الحار عندما أمرغ وجهي في جذوة العشب الباردة القريبة من تربة الأرض، وأمام ناظري مياه الترعة بلون البُنّ الفاتح فيها دوّامات صغيرة من الماء الثقيل تحمل معها بسرعة قبضات صغيرة مشعثة الأطراف من الحشيش والنفايات الصغيرة

البريئة الشكل نحو فتحات القنوات المائية المحفورة باليد إلى الغيطان التي لها لون جسمك وعريه الطري، لا أحس إلا شوقاً هيناً نحو ميخائيل الآخر كأنه مكتمل الرجولة في عالم طفليّ سحيق أمد إليه يدي فلا تصل إلى شيء. نحن غريبان، أنا وأنا الآخر، نعرفُ أحدنا الآخر معرفة كاملة وتضرب بيننا حواجز غربة غير مرئية ولا عبور لها.

قالت له، تحكي:

- بيني وبينه علاقة خاصة جداً. ليس بالمعنى الذي قد يتبادر إلى ذهنك (ظل تصديقه لها معلّقاً) سوف أحكي عليك حكايته معي، ولكن عدني ألا تقولها لأحد، أبداً، هل تعد؟ المسألة لا تتعلق بي، بل به. سلامته وربما حياته أيضاً. صحيح، لا أبالغ. لا تقل. «رامتك وحكاياتها» هذه قصة لا يعرفها في العالم الواسع إلا ثلاثة، منهم أنا، أنا الوحيد الذي لم يشارك فيها بالفعل، والذي سوف يعرف منها شيئاً. كان هذا في آخر ليلة من ١٩٥٩، عندما اعتقلهم جمال عبد الناصر جميعاً، في ليلة واحدة، هل تذكر؟

قال: كيف لا أذكر. ما أغرب هذا حقاً، كم هذا العالم صغير. في صباح نفس هذا اليوم شربت معه قهوة كابوتشينو، كنت في سيموندس، ودخل، وقلت له كل سنة وأنت طيب، وتحدثنا قليلاً، على القهوة.

أشعل سيجارتين، وقدم لها سيجارة، فتناولتها بأصابعها المتوترة اليقظة.

- هل كنتما صديقين؟

- أعرفه بالطبع. صداقة؟ لا. لا، أصدقائي قليلون جداً. كنت أتابع كتاباته وأحترمها. كان فيه، وفيها، نوع من الحيوية وسعة الأفق والتوفز. هل انقلبت الآن شططاً؟ لا أعرف.

وبالتأكيد، شطحاته الآن لا نهاية لها، ولا منطق، بالطبع.

- كنتما صديقين، من ناحية، وكنا صديقين، أو تقريباً، من ناحية

أخرى. وتمضي السنوات الطويلة، ونحن لا نعرف. . هذا هو برهانك على أن العالم صغير. .

كأنما لم تستمع لا لهذا العجب الطفولي، ولا لنبرة السخرية من هذا العجب نفسه. وكأنما لم تهتم بأنه يجد في هذه التشابكات سراً ومغزى ودلالة لا يكاد يستوضحها، وتقبل منه، بلا عناء، هذا المرض الخفيف الملازم: أن يجد الروابط والعلاقات والمعاني.

- جاءني ليلتها في أول المساء. واتخذنا قراراً حاسماً. المناقشة استمرت طول الليل، ولكن بفضل هذا القرار كان واحداً من ثلاثة أو أربعة لم تمتد إليهم يد الاعتقال أبداً.

قال: صحيح، هاشم هو الذي سافر عن طريق ليبيا، أليس كذلك، على جمل؟ وعبد الغني. .

قالت بُنفاد صبر: طبعاً. عندك القليل من النقود، والقليل من الاتصالات، لا تحتاج إلى جواز أو تأشيرة.

فاكتشف سذاجته، مرة أخرى، وأحس أنه على انبهاره، قديماً، في هذا العالم من الثوريين، أيام بكارتهم الأولى، فقد ظل دائماً بعد ذلك على هامشه، وأن التفاصيل العملية - هي أهم شيء - كانت دائماً غريبة عليه، وأن خبراته بهذا كله كانت قديمة جداً، ومنسية بعناية، كأنها خبرات شخص آخر سمع عنه، كم شخصاً آخر يعيش، أو مات، داخل جلده؟

قالت: ثلاثة أشهر تقريباً لم يخرج من شقة استأجرتها له، في سيدي بشر، على البحر، كان مع حسن، وكنت أحمل إليهما، مرة كل أسبوع، ما يحتاجان إليه، وأغسل وأطبخ وأسليهما أيضاً. حسن قُبض عليه بعد ذلك، كما تعرف، لم يكن من الممكن أن يسافر، لم يرض. جعل من ذلك موقفاً سياسياً. هل كان من أجلي؟ ربما.

ـ كيف سافر؟

ـ سافرت معه حتى بور سعيد. من ١٩٥٦ كان لي أصدقاء في الميناء: رجال البحر أولاد البلد الجدعان كانوا ما زالوا يذكرونني منذ أن مررنا معاً تحت رصاص الانجليز. كان هو بالجلابية البلدية وأنا بالمدورة والفستان الكستور أبو سفرة على الصدر، في قطار الاسماعيلية. هو بالطبع لم يكن يستطيع أبداً أن يتعامل مع المراكبية والبمبوطية. ولكنك تعرف كيف أحب الناس ويحبونني. وشهامتهم، هؤلاء الناس، فوق كل شيء. الفلوس نعم، ضروري. ولكن المروءة والجدعنة والشرف هي الشيء الحاسم، صحيح.. . وهم لم ينسوا فاطمة أبداً، من أيام ٥٦. الفدائية الصحفية التي عبرت معهم من المنزلة.. ميخائيل، أين هذه الأيام؟

قال بصوت خافت فيه خجل: هذه الأمجاد، تُنسى، ولكن بشكل ما، تظل أبداً باقية.

قالت، عملية، تحكي قصتها كأنما تريد أن تنتهي منها الآن: ومن المركب عند بور سعيد، خارج البحر، كانت مركب الشحن الإيطالية سهلة..

قال: هو مدين لك بحريته، بتغير مسار حياته كلها.

قالت: ميخائيل، دعك من هذا. لماذا الميلودراما؟ من يعرف بم يدين أيٌّ منا للآخر؟ وماذا كان يمكن أن تسير عليه حياة أي منا؟

لم يقل لها: هذه القصص كلها ـ نسيج روايات المطاردة والمغامرة التقليدية التي لا يتصورها المرء إلا في الروايات والأفلام ـ حدثت بالأمس، هنا. صديق طيب الوجه يتمتم بكلام ـ كعادته ـ غير مبين وغير مهم، يتحدث معي وسط زحام آخر السنة بتوتراته الفرحة على منصة سيموندس، ونحن نرشف الكابوتشينو المحرق للشفتين برغوته الفاتحة

اللون، ونتبادل تهنئة السنة الجديدة. . كل سنة وأنت طيب، وأنت طيب. بقلق نعم، بأمل وتحسب، ربما، لكن دون أن نعرف مدى الضربة التي ستنزل به، وبنا، ليلتها.

أي تفاصيل هناك في الاختباء والترقب والتنكر والمساومات، ركوب القطارات بالدرجة الثالثة ودخول المواني وعبور الحدود والمراكب الصغيرة على الموج العريض. قال لنفسه: أبداً، ليس في هذا كله غرابة أو توتر يزيد عما تجده في طريقك، كل يوم، في كل خطوة، في الشارع والمحطة والمطار. الخطوة الأولى، أو الاتجاه، أو القصد أو الغرض الخبيء، هذا لا يعرفه أحد، هذا شأنك أنت، ولا يهتم به أحد. هذا هو وحده الدراما. وهو شيء بينك وبين نفسك. توتره لا يعرفه غيرك. الحياة العملية الطبيعية السائرة أبداً لا تنقطع تغرقك على أي حال في تيارها المزدحم. من يعرف أو يهتم هل أنت ثوريّ عالي الثقافة مطارَد من الدولة أم مسافر غلبان يكدح في طلب عيشه وأمور عياله، بوجهه المدور والجاكتة على الجلابية البلدي؟ وهل هذه المرأة بالمدورة أم أويه والبالطو القديم على الفستان، عشيقة مناضلة أو صديقة رؤوم أو ست بيت تسافر إلى أهلها في بور سعيد؟ في خضم الناس يدورون حول بعضهم البعض يصطدمون، لحظة، اصطدامات محسوبة محددة لها تقاليدها وطقوسها المتعارف عليها لا يكاد أحد يلقي إلى الآخر بالاً، والالتقاءات كلها عملية وواضحة ومألوفة القوالب. المهم أن يكون معك فلوس التذكرة وأن تقف في الصف مع الناس وأن تعرف الباب الذي تطرقه، والرجل الذي تسلّم عليه، والقهوة التي تجده فيها وتشرب معه الشيشة أو الشاي، أما خطوط السير فهي مطروقة ومفتوحة ومزدحمة بالأقدام ومفاتيحها معروفة.

قال، كأنما يكمل حواره مع نفسه: صحيح، يا رامة، هل تعرفين أن الموت والحب والحرية كلها تجريدات وأوهام وهواجس لا يراها أحد ولا

يعرفها أحد. انقباضة عضلة القلب وانفساح الصدر وسطوع الذهن هذا لا يعرفه أحد إلا في داخله، تجربته وحده. كل ما يعرفه الآخرون عني هو تجريد وتقريب وتسطيح.. المهم هو اليد الثابتة، أو على الأقل غير واضحة الهزة، ما دامت مليئة بما يلزم، والقدم التي تعرف أين تضع خطوتها، ولو كانت من الداخل متخلخلة الساق، ونبرة الصوت المألوفة التي تعرف ما المطلوب وتؤدي ثمنه. وهذا ليس بالقليل.

قالت: أنت تذهب بسرعة من النقيض إلى النقيض.. الحرية والحب والخوف ليست تجريداً بالتأكيد. أنت مثله صعيدي وقبطي وتعرف هذا.

قال: ماذا؟ هل هو قبطي؟ لم أكن أعرف. لم يكن يبدو عليه.

قالت: طبعاً. ماذا تعني لم يكن يبدو عليه؟

قال: قبطي؟ أم من أصل شامي؟

قالت: قبطي قبطي من الصعيد.

قال: بلدياتي إذن؟

وضحك مستمتعاً بوجه قرابة آخر بينه وبين الثوري القديم الذي نفى نفسه.

قالت: أمه لها أثر غريب وحاسم في حياته، طبعاً.. ما زال طفل أمه حتى الآن. تزوج وخلّف وطلق وما زال يموت فيها حباً. فشل زواجه مرتين. لأنه لا يعرف المرأة إلا عاهرة مبذولة. هذا ما أعرفه. أما الزوجة فهي في كل مرة، دائماً، أمٌ يقدسها ويعنو لها. وتنقلب الدنيا في بيته، على رأسه، دائماً. شقي جداً في دخيلة حياته، لا يعرف السعادة حقاً إلا مع امرأة ليلة واحدة. سعادته عابرة وعرضية في كل مرة وممزقة جد في النهاية.

خطف بذهنه، فجأة، تساؤل، ومضى: عمن تتحدث؟ من تقصد؟

قالت له، فيما بعد: ميخائيل، أعتقد أنك كنت تنظر إليّ باعتباري

الجانب الشرير في حياتك، جانب الانحلال، والفساد، والمتعة اللاأخلاقية. كان هذا يدفعني للجنون، وأكتمه إياك.

ودهش. للمرة الأولى معها تدهشه دهشة حقيقية. بل ارتاع. لم يكن قد خطر له قط أنها كانت تراه على هذا لنحو، أنها لم تكن تعرفه، إلى هذا الحد. ترى فيه البيوريتاني المتطهر الذي معها يتحلل من زمّت الأخلاق القويمة ويستسلم للحظةٍ شريرةِ المتعة.

فهتف: ماذا؟ أهذا ممكن؟ غريب.. غريب جداً. مستحيل. غير صحيح.

فسكتت، ولم تقتنع. كان صادقاً، لكنه غير مقْنِع. الصدق في أحيان كثيرة لا يُقنع. فيم كان ارتياعه؟

هجس بنفسه: هل كانت تعرف كيف تكون المرأة التي يحس معها أنه في غير حَرَم؟

كان يعرف أنها، هي، لم تكن مقتنعة بالمؤسسات الجنسية جميعاً، لا الزواج ولا العلاقات الخاصة الثابتة بين رجل وامرأة ولا المؤسسات المالية الجنسية الأخرى، بأنواعها.

قال لها: أنت تعرفين بالطبع أنه ليس من المهم، إطلاقاً، ماذا تحكين، وما القصة التي تروين. المهم، ربما، هو أنك أنت التي تحكينها.

قال: لا أدري ماذا تعني.

وفي عينيها نظرة فهم ودراية، مع ذلك.

فلم يعقب.

كانا قد سارا طويلاً، في الشوارع الواسعة الأنيقة، يبحثان عن فنجان قهوة، من غير نجاح، حتى يئس واستسلم وجلسا أمام المتحف، على مقعد

خشبي متين مدور الظهر، في آخر المساء البطيء يتلبث ضؤوه الكابي على حافة السماء التي تطعنها روافع برجية متقاربة ممدودة الأذرع، وسقوف مثلثة يبهت لون قرميدها الأحمر الداكن. السلالم الرخامية العريضة شاهقة ولكنها مبرية قليلاً وعاجيّة البياض، ترتفع أمام أعينهما، بمهابة راسخة وثابتة وناعمة معاً، تحت الأعمدة اليونانية المتقنة الرشيقة، تيجانها مسودة النقوش، وفي مواجهتها صف البيوت الوقور العجوز الراضية بنفسها نوافذها المتمثلة الطولية مسدلة الستائر، الشارع خاو تمر به سيارات صامتة قليلة، والنور الكثيب يهبط عليه. عصافير آخر النهار تتواثب كبيرة ثقيلة رمادية الصدور على السلالم الرخام وعلى تيجان الأعمدة، والحمام ينقض فجأة من على سقوف البيوت ليلقط في أول العتمة حبوباً غير مرئية تحت أشجار الساحة الصغيرة الكثيفة المورقة.

وقد صمتا، كلاهما، فلم يعد هناك الآن ما يقال. لكنهما كانا معاً في داخل هذا السحر الصموت. نور آخر المساء يبعث فيه مرة أخرى هذه الأشواق الغريبة التي لا يفهمها. نوستالجيا الصبا وسنوات أحلام المراهقة داخل غرفته الضيقة ببيتهم القديم في راغب باشا، ضجيج الحارة المزدحمة الحية قد خَفَتَ الآن ونافذته تطل على منور داخلي يقتنص قطعة من سماء الاسكندرية التي يزداد عمق زرقتها في نور هذا الغسق الذي سرعان ما ينتهي. كان عندئذ يقول لنفسه أشعار الشباب رتيبة الإيقاع حزنها طفليّ عذب مهدهد للجراح الأولى البريئة الساطعة. وكانت الدموع حلوة ومُرضية. أشواق هذا المراهق الذي لا يعرف أبداً كيف يبلغ سن الرشد تحيط قلبه بنفس قبضتها القديمة، حنون وتعتصر أحزاناً صعبة. تأتيه من عبر مسافات السنوات صرخة كروان الغروب المفاجئة الثاقبة تشق السماء غير المرئية كأنها سكين. بلا اجابة. وهو يرى حمامة رصاصية اللون منتفخة الصدر بطيئة تثب بقدمها الواحدة المفلطحة التي ينبت لها ريش أبيض

صغير، على رخام السلالم، وترفع من على الأرض قدمها الأخرى التي بلا جدوى، مكسورة، وهي تعرف بلا شكّ الى أين تسير بخطاها المتقطعة الصبور العنيدة. وقال لنفسه: لا تراعي من هذه العاطفية. هذا سهل جداً. حمامة مكسورة القدم؟ وما في ذلك؟ أظنك ترى في ذلك اليجورية ساذجة ما؟ ألا تنتهي من الاستعارة والتشبيه؟ انقطعت عن كتابة الشعر من زمان، أليس كذلك؟

العصافير والحمام تدور في حلقات متجمعة وتدِفّ فجأة ثم تطير كالسهام إلى رؤوس الأعمدة، ولفائف ورق الشجر. لم يعد يرى، من بينها، حمامته الثقيلة المليئة الصدر.

كانت رامة تغني بصوت خفيض مبحوح ليس فيه جمال ولا موسيقى، ولكنه مليء بجاذبية غامضة. الكلمات لها إيقاع مكتوم بين الأعمدة الرخام تحت السماء الصيفية حمامة بيضا متين أجيبها، يا نينه طارت، مع صاحبها، حمامة بيضا، فمها الصغير لا يكاد يتفتح في غنائها، تهمس به، كأنها وحدها، أصله يا نينه يعرف لُغاها، ويخيل إليه أنه لا يعرف ولا يريد أن يفك عبارات هذه اللغة كلها، الأعمدة السامقة والحمامة التي تغني بهمس مبحوح وحيد وحيد بلا أمل والسماء الرخامية ورامة تمد إليه يدها دون أن ترجو نجدة. وقاما يبحثان عن فنجان قهوة، أو ابرتيف، قبل العشاء، تحت سحاب الشفق الذي يظلم الآن وتزول حمرته الداكنة.

دوت صرخة عربة الاسعاف تنوح في الليل، فتذكّر في نومته القلقة صرخة الكروان الوحيدة. تقلبت على سريرها وقالت بصوت قادم من سحابة النوم:

ـ يا ساتر... هذا الصوت بالليل يقبض قلبي.

قال لنفسه: يا لها من امرأة. هي أيضاً تتشاءم وينقبض قلبها من نذر

غير مفهومة. هي التي تستخدم العقل، والمنطق، وسعة الحيلة أدواتٍ بارعةَ الذكاء في يديه

مد يده ومسح على شعرها، فنفرت منه لحظة ثم ضغطت برأسها على جانب صدره.

عندما نزلا إلى المطعم، من على السلالم الضيقة المستديرة، كانت في الدفء وبخار الماء المغلي في المطبخ وشيش آلاته، فجوةٌ من الوحشة لا يعرفان كيف يصعدان منها.

قال لها: هل تلومين نفسك على شيء؟ لعلك لم تصفحي عن نفسك.
قالت، ببساطة وودّ: ميخائيل، لا تكن أبله أرجوك.

قال: لا أطلب منك أن تصفحي عن نفسك.. أريد.. كم أريد أن أزيل السبب الأول الذي يثقلك. أن أزيل عنك ثقل الآخرين.

قالت: لا أعرف ماذا تريد أن تقول، وماذا تريد. ألا تتصور مع ذلك أنه لا يمكنني أن أعيش، ربما، من غير هذا الوزن. عليك أن تأخذني، كما أنا.

قال: نعم لا أتصور كيف يمكن أن تتغيري.
قالت: نحن جميعاً نريد أشياء كثيرة في وقت واحد.

كانت تبسط الزبد على التوست، أمامها منفصلة لا تنظر إليه. لم تمد يدها إلى خبزه تفرش زبده عليه.

أكملت: أليس هذا طبيعياً وعادياً، ويجب أن نقبله.

قال: لا أعرف كيف أقبل. لا معنى لهذا بالطبع. لكني لا أعرف، صدقيني. وأصل إلى طريق مسدود

قالت: نعم، أنت كثير الشكوك. من غير حاجة.

قال: أظن تلك أكثر جوانبي ظلمة. لا أفعل هذا مع أحد، أبداً. كنت آمل - من غير منطق - أن تستمري مع ذلك تعنين بي، كما تقولين، فلعلني عندئذ أبرر نفسي، أبرر وجودي. نعم، إلى هذا الحد. صبيانية لا أبرأ منه.

قالت: لا، ليست صبيانية. لا تحمل على نفسك. أتستعذب هذا؟

قال: كنت أعرف أنك توقفت عن هذا، حتى من قبل.

قالت: ميخائيل...

قال: لست أدري لماذا فعلت ذلك من الأول، من الأصل. أكان ذلك ترفاً منك، نزوة، كرماً، أم مجرد الفضول؟ أم استكمالاً لحلقة ما في سلسلة ما.

قالت: أنت ظالم، وقاس، بلا ضرورة. ليس عليّ فقط. على نفسك. ألا ترى أنه ليس هناك ما يدعوني أن أقبل الاستماع إلى كل هذا منك.. لولا.. ألا ترى هذا؟

قال: نعم.. نعم. أرى، وأنا ممتنّ شاكر.

قالت: لا تقل هذه الكلمة أبداً.

قال: أنت معقدة جداً.. ومع ذلك بدائية جداً، بسيطة بساطة العناصر الأولى، أليس كذلك؟ لا أدري. لا أعرفك.

قالت: ليس هناك من يعرفني خيراً منك. ألا تعرف مع ذلك أن تتكلم ببساطة، في أي شيء، ألا نتوقف عن هذا التشريح؟

قال: لا أعرف كيف أتحدث. أنا لا أتحدث. لا ألعب بالكلمات، ولا أنتقيها ولا أنمقها. أنا أمام شيء معقد جداً وعار وبسيط جداً، وصارم. أحاول أن أصل إلى هذا الشيء فيك، غريب وأجنبي وحميم وثيق القربى بي جداً. في وقت واحد.

قالت: لن أقول إنني أصفح عنك. ليس هناك ما يُغفر، أو يُنسى، كما يقال.

قالت له فجأة: ميخائيل، كم يبلغ عمر أمك؟

فبهت، وقال لها.

قالت له: أراك يوم الأربعاء.

ولم تأت، ولكنها تكلمت وقالت: أراك اليوم.

ولم تأت، ولم تتكلم.

كان صديقهما الهيبي قد سبقهما مع صاحبته، إلى المائدة المجاورة، وعلى صدره سلاسل معدنية تصلصل، وشارات «اصنعوا الحب لا تصنعوا الحرب» ولحيته الهائشة تنفرج عن ابتسامة كابتسامات الأطفال بشفتين رطبتين قانيتين وجاكتته السوداء الهندية المطرزة مفتوحة الجانبين على صديري جلدي مشقق طري وسميك فوق بنطلونه البلوجينز الباهت الزرقة المتين القماش، وحزامه العريض المثقوب بزخافات والمدعم بالمسامير المدورة الفضية اللون. قال لها: صباح الخير.

٧- ايزيس فى أرض غريبة

اتفقا في التليفون على اللقاء بعد عشر دقائق، على الباب. كان صوتها مرحاً فيه بهجة بنت صغيرة مغامرة.

وكان يستخفه النشاط والتفتح بعد أن أخرج أدوات الحلاقة والغيار النظيف وحلق ذقنه وغسل وجهه ووضع شعره تحت صنبور الماء البارد، ثم غير رأيه فخلع ملابسه بلهوجة واندفاع يرميها هنا وهناك، على غير عادته، في الحمّام غير المألوف، ووضع نفسه تحت الدوش وانصبّ الماء يضربه كثيفاً وحاداً وسريعاً وهو يشهق وخرج يتوهّج بالحيوية ويندفع فيه تيّارُ شباب جديد.

بعد عشر دقائق بالضبط كان على الباب، فقد جاء المصعد دون تأخير فاستبشر به، وسعد، ولاحظ بتسامح مع نفسه أنه ما زال يتفاءل أو يتشاءم بالأشياء الصغيرة اليومية ويجد فيها دلالات أو نذُراً.

وعندما خرجت ببطء ونعومة، كطير كبير وثقيل، من الباب الزجاجي المزدوج ابتسم لها ابتسامة صافية.

وسعدا معاً بالبنايات العريقة والأسوار الضخمة المتهدّمة الجوانب تحتضنها أشجار ملتفّة ملتوية الجذوع متكاثفة وداكنة الخضرة متهاوية وطرية القوام، وبالترام القديم اللامع يصطك بقضبانه بين بلاط البازلت الأسود في الشوارع القليلة المارة، بالواجهات الزجاجية المنيرة للمكتبات والمحلات

المغلقة، وبأرصفة المقاهي بمقاعدها الألومنيوم الجلدية تحت المظلات القماشية الملونة العريضة المائلة تحت شعلات ثابتة من النيون، وبالسلالم والأعمدة الرخامية القديمة المتألقة تحت أضواء فيها ذكاء ساطع، وضحكا من طيبة وجوه السيدات العجائز في أجسامهن الضئيلة واستدارا معاً نحو استدارة السيقان الملفوفة العارية تحت الميني جيب الرشيق الخطى، واسترعتهما، ببساطتها المؤثرة، الكنيسة النازلة تحت مستوى الشارع بطرازها الوسطي العتيق المجرد من الزخارف، واستلفتت أنظارهما إعلانات الأفلام الشبقية الفاضحة غير المثيرة وردهات مداخلها الغامضة الأنوار. أقدامهما خفيفة وهما يدخلان في ساحات فسيحة بها نوافير تبث الماء صافياً تحت أشجار سامقة، وينحدران، إلى شوارع ضيقة مقفرة بين جدران عالية مصمتة ليس فيها فتحات، وأوقفتهما إشارات المرور الحمراء في جادّات واسعة مزدحمة بالمحلات العريضة الشاهقة وجماهير أول الليل تختلط، بنظام محسوب، بجماهير السيارات المتلاحقة واندفاعات المحرّكات التي تقوم فجأة في زئير متصاعد أجش سرعان ما يسقط إلى هرير منتظم، وأخذ بيدها البضة التي أحسها صغيرة في يده في مفارق الطرق وهما يعبران إلى الرصيف المقابل ووضعت ذراعها في ذراعه، باطمئنان وعفوية وهما ينظران إلى الواجهات المحتشدة والمنمقة، المعتمة أو ذات الأضواء الدوارة الملونة الماكرة، ويتحدثان بطلاقة وتحرر في الفرحة باكتشاف مدينة جديدة وصداقة جديدة، وعيناه تتأملان باعجاب وود صفحة وجهها الناعمة الاستدارة ونظراتها تقتنص عينيه في تأمّل لا يحمل بادرة خطر ولا تهديد.

قال لنفسه: كانت البداية شيئاً بريئاً، كأنه طفليّ، كأنه غير واعٍ حتى. نزلا بضع درجات إلى كافيتريا ومطعم مرصع بالرخام والصفيح ومتقد بالنور الرخيص يغص بروائح ساخنة من الأكل والقهوة وله وشيش ونشيش قوي من مواقد وآلات لامعة لها سطوة، وأكلا في أطباق صغيرة مدورة

تحتها مفارش الورق الهش المطوي بعناية بلونه البني الفاتح وعليه رسم تخطيطي للكوليزيوم شعاراً للمطعم وشربا الاكسبريسو وأحس في فمه بلذتها غير العادية تمسح دهن الطعام، وبنكهتها الفواحة، وصعدا إلى الأرض وسارا تحت أقواس معتمة تحمل بنايات راسخة الاكتاف، وبين أعمدة ضخمة ملصق عليها اعلانات تدور بها ولا تترك فراغاً على لحم رخامها الأسود الصاعد في نصف الظلمة، وصفقت بيديها وهي تجري تصعد سلالم أخرى لا تكاد تبدو لها نهاية وما أن جلست على البسطة العلوية الرخامية الفسيحة حتى وثبت من جديد وهي تضحك وتهتف فقد كان الرخام بارداً جداً وهي تجلس عليه بالجيبة الخفيفة ولسعتها ببرودته وحلقت فوقهما فرسان الرؤيا الأربعة من الحجر الأبيض الذي يبدو في أنوار الليل متآكلاً قليلاً متسايل الحواف وتشاورا هل يدخلان هذا الشارع الضيق الذي يصعد فجأة صعوداً وعراً إلى سور ضخم يقفل نهايته وهل هو مسدود أم يستدير إلى نهاية مفاجئة غير معروفة وقررا أن يغامرا بالصعود وقال لها: ألم تتعبي؟ هل يزعجك الصعود؟ قالت: وأنت؟ قال: أنا مستعد للسير والصعود والنزول في هذه المدينة الغريبة حتى الصباح قالت: وأنا. وكان حسبهما بالمغامرة المشتركة يقرب بينهما في ساعات الليل التي تتقدم في مدينة مسحورة مضيئة أنفاسها تبترد وتتفتح لهما مساربها عن أسوار مغلقة ولكن حنون واقية وأعمدة هادئة لا رشاقة فيها ولكن راسخة الأقدام وبنايات عريضة حائلة اللون تتشبث بها أنوار الاعلانات التي تغمض وتفتح عيونها الكهربائية في تتابع آليّ فتكشف عن رثاثة تتسلل إلى أطراف جلالها القديم.

وعندما خرجا إلى ميدان المحطة، فجأة، الشاسع الاتساع، كان الهواء يهب بهما بارداً وعنيفاً ويتطاير بأطراف جيبتها على ساقيها المتلئتين ويحسه ينفذ إلى صدره منعشاً ولاذعاً في الوقت نفسه فاقتربا وتلاصق ذراعاهما

المتشابكتان وهما ينزلان بسرعة إلى الشارع العريض المستقيم وسألها: نأخذ تاكسي؟ قالت: لا، يا خبر، هل أنت نعسان؟ قال: أبداً وضحك بسعادة وقال: لم أكن يقظاً أبداً مثل يقظتي الآن، قال: وليست القهوة هي السبب، على الأقل ليست وحدها. فتأملته مرة أخرى، كأنما باعجاب ودهشة، من غير رفض ولا إنكار، وقالت: هل أنت دائماً تضع شروطاً وتحديدات وتدقيقات، في كل كلمة؟ فقال: الصحبة اللطيفة في المحل الأول هي التي توقظ كل شيء فيّ. فضحكت ضحكة صغيرة جداً ولم تعلّق ولكنه أحس ذراعها تضغط عليه، أقل ضغط، علامة تلقّي الرسالة، أو الشكر على المجاملة، على الأقل، إن لم تكن بادرةً للاستجابة.

وهي لا تتوقف عن الحديث وهما ينحدران في الشارع بخطى واسعة وتحكي حكايات وقالت له كيف كانوا ثلاثة من شباب الحي في المنيرة يحبونها جميعاً في وقت معاً وتذهب معهم إلى السينما وإلى نادي الجزيرة في عز مجده القديم: كنت صغيرة جداً في العاشرة، يمكن أو الحادية عشرة يعني عيّلة ما أزال، وليس هناك شيء، وهي تمر بيدها الأخرى، بخفة، على صدرها الناهض المستدير الذي يبدو متوهجاً في الليل المنير تحت البلوزة الخفيفة في الهواء البارد، وتضحك ضحكة قصيرة خافتة. قالت: عندما ذهبت للمدرسة الداخلية هنا في اسكندرية كانوا يرسلون لي الخطابات، ثلاثتهم، سراً، عن طريق صديقة مشتركة تسافر للقاهرة كل أسبوع، لم أكن أنا أسافر للقاهرة إلا كل شهرين أو ثلاثة، تعرف أبي كان مشغولاً بحكاياته ومسؤولياته المتعددة ومغامراته التي لا تنتهي، مع القصر والجيش والسياسة والفن والنساء ورجال الأعمال.

قالت، فجأة، في سياق خاص بها: أنا على استعداد لأن أعطي حياتي نفسها لمن أحبهم حقاً.

كانت تنظر إليه بنوع من التساؤل وكان حسه بها كله حنوّ ومودة واعجاب وهو يبتسم لحكاياتها ويتعرف إلى عالمها.

قالت له: أليس في طفولتك قصص حب من هذا النوع؟ كل الشبان في هذه السن لهم قصص.

قال: لم أعرف أبداً معنى الطفولة.

فضحكت وقالت: دعك من هذا. لا تكن خيالياً.

سوف تقول له، في زمن آخر: أنت طفل، من نوع ما، حتى الآن.

قال: صحيح. هناك بالطبع أشياء كأنها قصص حب. لكنها ليست قصصاً. ليست فيها الدراما الخارجية ولا الأحداث. على الأصح أوهام حب، وأحلام حب، سبحات وعذابات هيام طفليّ ومراهق في وقت واحد، خفيّ وكظيم. كنت خجولاً جداً ومنطوياً أعيش مع نفسي على الأكثر، ولعلني لا أزال.

قالت: صحيح، إلى حدّ ما، ولكن لا يمكن أن نقول منطوياً على نفسك، أبداً، ربما متحفظ، ووقور.

وضحكا معاً. فقالت: ولكني أحب في الرجال هذا التحفظ والهدوء. عندهم تكون للأشياء والكلمات قيمة، لأنها نادرة.

قال: أنا أيضاً لي شطحات جنوني!

قالت: صحيح؟ وهي تتساءل، كأنها لا تصدق.

لم يخطر له ببال عندئذ أنه كان يطرق عتبات أرض الحب التي سوف تفتح له عن ساعات سعادة لم يكن يتصوّر أنها ممكنة التحقيق. قليلة جداً ولكنها تملأ الحياة كلها بوهج لا ينطفىء، وسوف يتردى منها، في أهوال عذابات كان يظن أنه لن يعرفها أبداً، متطاولة ملحّة لا تنزاح تبدو لا نهاية

لها ولا أمل في عبور متاهاتها الشاسعة المشعثة الشائكة الأطراف. لم يخطر بباله لحظة واحدة في هذه الساعات الأولى أنه كان قد بدأ يحبها بالفعل.

لم يكن في المدينة الفسيحة عسكري واحد، وكانت بهيجة منيرة خاوية مفتوحة الذراعين واسعة الصدر كأنما هي لهما وحدهما: ايثيل وجريفيث، بنت السلطان والشاطر حسن، في أرض الحكايات الخرافية لا يعرفان أنه على مفارق الطريق أمنا الغولة، وأسئلتها التي لا تُجاب، بين سكة الندامة وسكة الذي يذهب ولا يعود. كانت خطواتها تصعد الآن في فرح التكشف والانطلاق نحو فجر الصيف.

قالت في غمار حديثها وهما ينزلان سلالم ضيقة، مسرعين، تأخذ بيده إلى ساحة صغيرة قديمة بها باب فندق صغير مغلق وعليه نور مصباح واحد معلق يهتز في الهواء، وفي وسطها تمثال صبيّ أبيض عار ورشيق حوله حوض من الأزهار الكثة الخضراء الجليد: تعرف، أنا يمكن أن أقول مليون كذبة بيضاء، ونصف مليون كذبة بمبي، صحيح، ولكن في المُلمّات لن تجد من يُعتمد عليه أكثر مني، جربني!

فابتسم ولم يعط الأمر كله، عندئذ، أهمية، وكان حرياً به أن ينساه. كان ذهنها، مثل جسمها، خفيف الحركة جداً، متوثباً باستمرار، بقوة داخلية، وكان دأبها أن تصوغ لفّات في الحديث بارعة الذكاء تقصد بها أن تثير دهشة السامعين. وكان حريصاً على ألا يبدي لها دهشة، لأنه في الواقع لم يكن ليدهش، ولم يكن يريد أن يستجيب للعبتها فيتظاهر بالدهشة. لم يكن يشوقه حذق الكلمات ومهارة الأداء بل ما وراء ذلك من خبرات بدت له غير معتادة وأحياناً خارقة.

قالت له: هل تعرف الساعة كم الآن؟ قال: نعم، من غير دهشة ولا تعجُّب تقترب من الثالثة. قالت: انظر، انظر ميخائيل...

كانت السماء من فوق أنوار المدينة الليلية الصاحية العينين قد أخذت أطرافها تشحب قليلاً، لا تستضيء بعد لكنه يحس نسيجها يخف، ويشف، شيئاً ما، كأن في الأشجار حساً يقلق الطيور التي يمسها من بعيد إيحاء الفجر، لم تصحُ بعد ولم تنفجر في انبثاق ضجيج زقزقتها الصخوب، بل ثم حركة هنا وهناك، من فوق، تململ ما قبل اليقظة، رفرفةً وحيدة قصيرة تسكت على الفور، رفرفة، أم حفيف الورق في الهواء الذي بدأ يبرد حقاً، وهما يكادان يجريان، في غير لهفة للعودة بل التماساً لدفء لا شأن له بالقلب، فالقلب دفيء. كانت السيارات الصغيرة المطفأة متزاحمة على الارصفة، مركونة تحت جوانب العمارات العريقة العريضة الداكنة الحمرة، وإذا بها فجأة تسل ذراعها منه برفق، وتتلبث وراءه خطوة، وتنحني على ارض الشارع المضطرب الاتساع مرصوفاً ببلاط البازلت الأسود غير المستوى الحواف، الذي نعّمته ولّمعته أجيالٌ عديدة متعاقبة من الأقدام والعجلات. وكانت رامة تموء لنفسها بصوت خفيض: أووه.. القطة الصغيرة.. وهي ترفع من على الأرض قطيطة رمادية اللون تضطرب سيقانها الصغيرة المعوجة في ضعف وتموء رداً عليها، تحتضنها إلى صدرها الذي يرتفع ويهبط في عنف الحنان المكتوم، وعندما استدار لها دهش حقاً هذه المرة وأحس بقلق ما. فقالت له: انظر يا ميخائيل، القطة الصغيرة.. ماذا تفعل هنا، وحدها في الشارع. قال: لا شك أنها تبحث عن أمها، في مخبأ قريب، رامة، اتركيها تَعُد. قالت: لا يطاوعني قلبي يا ميخائيل كم هي حلوة وصغيرة قالت: اتركني أحضنها قليلاً. فابتسم لها ولم يزايله القلق. وعندما وضعت القطة على الأرض، برفق، كأنما على الرغم منها، كأن يديها لا تريدان أن تفلتاها، هبطت على الأرض، وجلست بجانب القطة، على عقبيها، وقد انحسرت الجيب من أعلى فخذيها المستديرتين المتينتين تضيئان بلمعة خمرية في آخر الليل، وجرت القطة بأرجل مهتزة وهي تموء بشوق وفرحة الخلاص وما خيل إليه أنه حزن أيضاً، وراء صف السيارات المركونة، نحو نافذة

مظلمة عليها قضبان حديدية تفتح بلا شك على فجوة قبو أو بدروم سفلي ما تحت البناية الضخمة القديمة.

في المصعد، وعلى باب غرفتها، لم يمر بذهنه أن يقبّلها، تصافحا، كانت يدها البضة الممتلئة الندية قليلاً من العرق، في الدفء الداخلي المفاجىء بعد هواء الفجر البارد. مسترخية في يده، لا قوام لها، دون ضغط، ولم ير في عينيها الواسعتين اليقظتين إلا وداً وحنواً ورضى، قال لها: مساء الخير على الأصح. وضحكت. وعاد فنام على الفور، خليّ البال حقاً، وفي جسمه كله إحساس بالرخاء والراحة والطِيب.

في الصبح كانت تلبس فستاناً به أزرار كثيرة وتضع على رأسها باروكة صغيرة في نفس لون شعرها. قالت له: الباروكة من شعري أنا. فلم يفهم لأول وهلة ونظر إليها بحيرة، قالت: كنت قد قصصت ضفائري الطويلة، وصنعت منها الباروكة. ألا ترى؟ نفس اللون ونفس نسيج الشعر. هتف: صحيح. وكانت تضع حول عنقها عدة عقود متوالية من الأحجبة الصغيرة الفضية والجلدية، بالتناوب، والأجراس الصغيرة، تصلصل وتشخشخ في صوت رقيق. قالت: هذه أحجبة فعلاً. من عمل قسيس عجوز في بلدنا في الشرقية مكتوبة بالقبطية والعربية والسريانية، قال: أحجبة؟ من ماذا؟ ماذا فيها؟ قالت. لم أفتحها قط. أوصاني القسيس ألاّ أفتحها أبداً. هل يدهشك هذا مني، أنا المادية العلمية، الماركسية القديمة، المؤمنة بالاشتراكية؟ قال: لا، لا يدهشني. أنا أعرف. قالت: احتاجها استجلاباً للحظ. أنا فعلاً بحاجة إلى الحظ.

بعد شهور كانت قد لبست نفس الفستان ونفس العقود والأحجبة. خطر بذهنه أن لهذا معنى ما. قال لها: ارفعي هذه النظارة البشعة.. فضحكت، ضحكة استسلام نادرة، وقالت: آه. أنت لم توافق على هذه النظارة أبداً. ولكنها لم ترفعها. قال لها: رامة، ارفعي النظارة، اخلعيها.

فرفعتها بصمت، ووضعتها في حقيبتها الواسعة الضخمة المفتوحة أبداً. ولم تلبسها بعد ذلك.

قالت له ذات مرة: فرضت ارادتي مرة. أليس كذلك؟ أنا طاغية، قليلاً. قلت لي ذلك، أعرف، لكنك أنت أيضاً طاغية قليلاً، يا حبيبي.

قال لها: أنت تتنقلين، بحرية، من نزوة إلى نزوة.

قالت بغضب سريع: لا، لم أقل من نزوة إلى نزوة. قلت انني أحب حريتي في التنقل. التنقل من ساعة إلى ساعة، صحيح، ولكني لا أنتقل من نزوة إلى نزوة، بل أنتقل ومعي في كل نقلة، مَن أحبهم.

قالت: تعودت الآن أن آخذك معي حيثما أذهب.. هذا عندي هو الصدى.. هو الحب..

بعد أن قالتها أبدلت بها كلمة الحب، بسرعة، الصداقة؟ فقال لنفسه: هذا ما يقولون عنه السقطة الفرويدية الشهيرة؟ زلة اللسان التقليدية؟ هذه هي إذن كل الحكاية؟ صداقة قالت؟

قالت فيما بعد: الصداقة شيء ثمين حقاً، لو عرفت.

قال لنفسه فيما بعد، في سبحات عذاباته المضطربة: شيء أحمق، غير مجد، مجرد حلقة في سلسلة علاقات وصداقات ومحبات ومعاشق. ثم ماذا؟ أنا المسؤول طبعاً. أولاً بالرفض، ثم الدخول في لعبة لها قواعد لم ألتزم بها، ثم الاخفاق طبعاً. ثم تحويل المسألة إلى آفاق ميتافيزيقية لا شأن لها بها، ثم بالتزامي بالأصول الاجتماعية أيضاً والنصح بالتزامه. أما كان ينبغي أن أدخل في اللعبة كما تُلعَب؟ الالتزامات والأصول هذه أمور يمكن الالتفاف حولها ضمناً، دون تحديد، دون اختراق، دون مكاشفة. ثم بقِلّة الحيلة وضيق الباع والضنّ بالوقت - هذا بخل وشحّ بالنفس أيضاً - ثم بالنكوص أمام تخيّلات الدمار والتدمير. المغامرة بالهلاك، من قواعد

اللعب. لماذا الهزيمة قبل الاقتحام حتى؟ ألم يكن هذا هو كل المطلوب؟ التزام قواعد اللعبة المبتذلة العارية الرثة الممتعة؟ ألم يكن في اللعبة ترويح وتخليص للنفس من ضيقتها، على أي حال؟ ألم يكن يلزم لها على الأقل شيء من المبادرة والذكاء والكرم وحسن التصرف؟ والسماحة أيضاً؟

قال لها: ليس بخبز الأحلام يعيش الانسان، بل به يموت.

قال لنفسه: الانسان؟ يا للغرور. ليس بخبز الأحلام أعيش أنا، هذا كل شيء. بل به لا أعيش، ولا أموت.

كان الصالون وثيراً، المقاعد رخية تغوص براحةٍ شبه جنسية تحت الجسم، والمساند تعيد المرفقين إلى علاقة وثيقة غير مزعزعة، بالجسم. والحيطان مكفّتة بالرخام المشغول والحديد المدور بأزهاره المفرغة وأغصانه الرفيعة المشدودة، حول حوض سمك الزينة الزجاجي الضخم الذي تونع فيه نباتات الماء الحوشية تمرق بينها أسماك سوداء ورقطاء شريرة الشكل، وعمود أثريّ من رخام عتيق يخرق السقف وقد بثت الجدران وسياج السلالم، بحرص، من حواليه، وثريات الكريستال القديم ساطعة وبعيدة وعالية.

طلبوا «كامپاري»، وجاء الجرسون، الرشيق الصموت اللامع الشعر، بالسائل الأحمر تترقرق فيه قطع الثلج البلورية التي تحمل معها، وهي تذوب، خيوطاً ملتفة متلوية متسايلة من لون أحمر داكن.

كان قد دخل فوجدها مع الفنلندي الذي يتعرف إليهما على مائدة الغداء، شعره أشقر فاتح كثيف على كتفيه، وقميصه ملون ويبدو غالي الثمن، ووجههُ به بلادة أهل الشمال الهادئة، ممتلىء وقد احمر قليلاً من الكامپاري أو الحر أو مشروع مغازلته الذؤوب، وعيناه ضيقتان بزرقتها اللامعة الذكية في الوجه الثقيل الصفحة، فيهما نوع من الجسارة واللامبالاة، والعكوف مع ذلك على مشروع المداعبة الخفية التي تشجعها -

أو على الأقل لا تصدها ـ بجلستها وقد انحسرت جيبتها من أعلى وركيها السمراوين الناعمتين في النور، وقذفت بحذائها ـ بفردة من الحذاء ـ بعيداً عنها قليلاً، فبانت أصابع قدمها القريبة من بعضها البعض القصيرة المكتنزة الملونة الأظافر بأحمر قاتم، تضغط وتغوص في لحم السجاد الكثيف.

نظر ميخائيل إلى الدراما الصغيرة المألوفة في غير كبير اهتمام بل في شيء من الحرج يريد به أن يخرج عن هذا السياق فلم يكن يعرف شيئاً كثيراً عن هذه السيدة أو يعنى بما قد تكون في سبيله من مغامرة، من نوع أو آخر. كانت جولتها في المدينة حتى فجر هذا الصبح مصداق صداقة وزمالة مؤنسة، لا أكثر صحيح، ولكن لا اقل أيضاً، لذلك لم يكن بوسعه أن يستأذن على الفور ويتصرف قبل انقضاء وقت لائق أياً كان معيار هذه اللياقة، وهو لا يعرفه على أي حال، هذا المعيار. ورأى أن الكامباري قد صعد بوهج حمرة خفيفة على وجهها، وباعتباره شرقياً وصعيدياً في نهاية الأمر أحس أن عليه ثم واجباً ـ لم يطالبه به أحد ـ في رعايتها، ولو من بعيد.

كان الفنلندي يقول: سحرتني دائماً حكايات المصريين، هذه الاهرامات، ما هي؟ أليسوا هم الذين يقدسون البقر؟

فلم يرد ميخائيل. كان الأوروبيون بصفة عامة، مثقفين أو غير مثقفين على السواء، يُضجرونه قليلاً، ولم يحس ضرورة للدخول في محاضرة، أو تحد، أو تبرير.

قال لنفسه: ليس عالمنا واحداً، وإن كانت معالمه واحدة.

قال لنفسه: ما عالمي؟

قالت رامة: السيد فلدس هنا أجدر مَن يقول لنا هذه الحكاية. هؤلاء الناس أجدادهم المباشرون.

كانت تستمتع بالموقف كله. وغضب ميخائيل قليلاً، لم يكن في نيته اقتحام مغامرة أو الحصول على جائزة، وكان يأنف هذا النوع من التزاحم على استرضاء امرأة، كأنه يرى الجائزة من حقه، سلفاً وقضية مسلمة، أو ينزل عنها، من البداية، تعففاً، أو صلفاً بهزيمة يختارها بنفسه كأنها نصر مقلوب على وجهه.

قال ميخائيل، يخاطبها بالانجليزية مع ذلك حتى يسمع الغريب أيضاً: صحيح وليس هناك مع ذلك أجداد مباشرون. فينا أيضاً عرق من اليونانيين القدامى، وربما الرومان لا أدري. على الأرجح لا، الرومان كانوا عساكر وسادة. الشيء المؤكد الوحيد أنه ليس في عروقنا دماء العرب.

قالت: وحضارة هؤلاء العرب كلها، ولغتهم؟ الا تغير من صلب تكوين الانسان، وتشكله من جديد؟

قال محتدماً: نعم. اختلطت هذه بدمائنا. لا أعرف. أنا أعرف لغتهم، أما حضارتهم فهذه حكاية أخرى. نسيت لغتي، أو أسقطتها. عشقي للغتهم أيضاً هو عشق الخونة، مضطرماً. كمن يعشق خانقته. ولكنها تصبح لغتي أنا، وأنت، لغتنا نحن. أنت وأنا نطقنا بلغة أجدادنا، أول ما نطقنا، هذا تعرفينه، أليس كذلك؟ وما زلنا حتى الآن نتكلم الهيروغيليفية المقدسة، في ثوب آخر ربما، وتحت قناع جديد. هذا هو سحر المصريين. يحوّلون كل شيء، كل شيء إلى تبرهم هم الخاص طينهم هم الخاص. بنائهم هم الخاص. يبدو لي هذا بدائياً، وساذجاً لكنه عندي يقين، إيمان ليس بحاجة إلى أدلة وبراهين. شيء كأنه صوفيّ.

قالت: أما أنا فتجري حكايات العائلة أننا جئنا من اسبانيا، وعبرنا الدلتا، واختلطنا ببدو الشرقية، أنا إذن كما ترى بزرميط.

قال: أنت مصرية مائة في المائة، مهما زعمت من حكايات، ليس هناك من يحمل هذا الوجه إلا مصرية، ايزيس أيضاً جاءت إلى الشرقية.

فضحكت بسرعة وخفوت، ولكن ميخائيل كان قد استثاره الاستفزاز:

- دماؤنا في مصر هي الأقوى دائماً. لست عرقياً ولا أقول بسيادة جنس على جنس. ولكن أقول بتفرد مصر هذه التي تسمينها بزرميط، وأقول إنها بوتقة لا مثيل لنقاء لهبها وقوة اضطرامه، حتى آلهة القدامى هم قديسو الأمس وأولياء اليوم. أهلنا يعرفون للدين عمقاً ونكهة وخصائص لا يشاركهم فيها بلد آخر، أياً كان اسم دينهم. حوريس قد يكون اسمه مار جرجس أو سيدنا الحسين. وايزيس لها أسماؤها التي تعيش معنا، في كل بيت في مصر، حتى اليوم وغداً وإلى أبد الأبدين.

رفعت رامة ساقها التي من غير حذاء، كأنما دون أن تحس، ووضعتها على المقعد الوثير تحت فخذها الأخرى، في وضع مستريح، وبان أسفل فخذها بطياته الخفية اللطيفة الإيحاء.

كان الفنلندي قد عُزل لحظة عن مجرى الحديث، وإن كان تتبعه في شغف، محاولاً أن يفهم هذين المصريين، وقد اختلطت عليه الأمور. فيما هو واضح على وجهه، قال:

- إيزيس؟ أليست هذه آلهة الحب التي صعدت من البحر في محارة مفتوحة؟

قالت له رامة بشيء من السخرية والحنان في وقت واحد: لا. تقصد أفروديت. أظن إيزيس أيضاً كانت الاهة حب؟ هل نطلب من السيد فلدس أن يشرح لنا؟

قال الفنلندي، بمكر وسذاجة معاً: هل تعرف قصتها؟

قال ميخائيل: نسيت بالطبع التفاصيل.

قالت رامة: أرجوك يا ميخائيل قل لنا.

أشعل سيجارة ثم استدرك فقدم للفنلندي سيجارة اعتذر عنها.

وسيجارة لرامة قبلتها وأشعلهـا لها ووضعت يـدها عـلى يده تحتـاط باللهب الصغير وتسحب الدخان باستمتاع بشفتين مدورتين بينما الجرسون الأنيق يمر وذيـل جاكتـه الأسود يهتز بإيقـاع رشيق وبيديـه كؤوس الكـونيـاك، وهي تتمكن في جلستهـا، ساقهـا من غير حذاء تحت فخذهـا، كأنها عـلى كنبة اسطمبولي أو شلتة مريحة.

قـال: ايزيس نعم الاهـة الحب القديمـة والأولى والدائمـة. العـذراء أم حوريس أم المسيح وستنا الطاهرة. عشتروت برسيفون هيرا ديميتر أفروديت جُماع المريمات الجوهر غير الفاني الزاهية الألوان المتلقية المخصاب.

سأل الفنلندي: ولكن كيف؟ ماذا حدث؟

كان ميخائيل قد نسي الحكـاية، خيـل إليه أنـه لن يعرف كيف يـرويها، ولكنه أحب أن يرويها. وعلى كأس الكامباري الثانية كأنما كان يحكي قصـة عائلية سمعها من جدتـه، أو قرأ أوراقهـا المُصفرَّة من أحـد ادراج البوريـة الرخامي القـديم في فسحة بيتهم عندما كـان صبياً يـستطلع أوراق العائلة المخبوءة تحت الإيصالات والفواتير والصـور الحائلة اللون والكتـاب المقدس الكبير الثقيل الوزن الأسود الجلدة.

وقد استكملت إيزيس المنكوبة المحلولة الشعر استجماع أشلاء أوزيـريس الشهيـد ولم يبق إلا القضيب فإن لم تجـده فسوف يحـل المَحْـل والخـراب في أرض خيمي الخصيبة السمراء قلب العالم الدفء الـطيب الحبيس في جانبـه الأيسر. الصندوق السرير الكَفن المصنوع على قـد الاله العـظيم والمصبوب عليه الرصاص المصهور في قفط مدينة الحرمان والحداد قد حملتـه مياه النيـل الشحيحة الآن الصاعـدة من وهاد العـالم السفلي المنيرة بشمـس لا تنطفىء دفعته إلى البحر الوسيط الخماسينُ الجامحة التي لا عقل لهـا عاصفـةُ الجفاف والرمال الدقيقة ينخسف لها القمر ويسْوَدُّ وجه الشمس يمجّها من فيه قـابيل الأول بقوته الحيوانية العارمة سليـل أمراء الـظلام العمالقـة القدامى حلف

ملكة أثيوبيا السوداء وها هي ذي إيزيس المجنحة ترفرف على القوقعة الرصاصية المصمتة عنقاء الزمن من الألفي تهب من أجنحتها عطور التوابل وعبق البهارات ويتضوع منها العنبر والطيب العجيب جناحاها شراعان مفرودان على وجه الشبح مقنّنة الموت والحياة وربة البحر والأرض والسماء وصاحبة كل السفين حتى ترمي به الأمواج إلى قلب الجذع المقطوع من شجرة الأرز الفينيقية العجوز عمود الأساس في بيت ملك بيبلوس فتنمو عليه الشجرة من جديد وتونع وتحتاطه بجسمها المنيع تحميه من القهر والجفاف وسخف الروح إيزيس أخته وحبيبته عشق أحدهما الآخر من قبل ولادتها واقترنا وهما في رحم أمهما أوزيريس ذي العيون التي لا عداد لها المنير الواحد الضوء الحبيس المولود في اليوم الأول من أيام الخليقة والحي حتى اليوم التاسع والأخير الذي لا نهاية له ما زلت أراه لا طعام له حتى اليوم إلا فحل البصل وأعواد خضراء من السريس على وجه الصبح ملفوف الرأس الجريح بالمنديل الكبير الذي حالت خضرته من التراب العتيق قد سُجِنَتْ معه في قبره الرصاصيّ الطافي الموسيقى والخبرات والزروع والقوانين أما إيزيس فتُرضع ابن ملك بيبلوس باصبعها في فمه وتضع الأمير الصغير كل ليلة في عرس النار المتلظية بمعموديتها تقهر الموت وتدخله مداخل الخالدين فتجن أمه الملكة جنوناً وهي ترى ألسنة اللهب تلعق جسم ابنها وعندئذ تكشف إيزيس الساحرة الالهية عن مجدها فتشق الأرزة العتيقة التي تتحدث عن سرها بلسان مبين وتسلم وديعتها الغالية إلى المصرية العائدة دوماً بالخير العميم بعد التحاريق البقرة الحنون الولود ذات الضروع التي لن يمسها الجفاف ما زلت أراها حتى اليوم رابية الردفين في جلابيتها السوداء السابغة تحمل جرتها على رأسها ممشوقة قدها يتموج بين الغيطان تُرضع ألف ألف حوريس بلا نهاية بلبن الكبرياء الذي لا يغيض رغم القحط وجوع الأزمان الأرض السمراء تحت طين الوادي المشقق الحواف يغمرها الماء فاذا هو جسم إيزيس المعطاء الأبدي الشباب والشمس تنبثق

من زهرة البشنين والثور الأسود أبيس متجددٌ مع الدهر لامع الجلد وحوريس الصقر الباشق قد انشق عنه شعاع لقمر الخصيب وسوف يتربى ويقوم سوف يهزم جحافل العقارب في منافي المستنقعات الشرقية بين أعواد البوص الهشة بقوة تمائم أمه الكلية القدرة ثم يشتد عوده ويطعن فرس النهر الشرير ويوزع لحمه على المحرومين فقد أخذ إذن بثأر أبيه الممزق الشهيد العظيم المدفون في بوزير ولكل شلو من جسمه القُدُّوس ضريح ومزار على طول الترع والقنوات وشطي النيل الحاكم الآن مملكة الأموات الأحياء الباقية في ثيابه البيض ووجهه الأبنوسي الجميل المفتوح العين أبد الأبدين يقيم ميزان معت العدالة وإلى جانبه الوحش عمعم رب العقاب الذي ينهش قلوب الخطاة غير التوابين.

فرغت الكأس وعندما عاد إلى غرفته كان إحساسه بالغربة غير ممض.

لم تكن إيزيس أسطورة من أساطير القدامى بل في مستوى من مستويات حياته كانت ماثلة لا تقبل لا الانكار ولا الاثبات قبولهُ لها - هل يقول إيمانه بها - أوّليٌّ ليس موضع سؤال ولا جواب كأنه سابق وشرط له هو، لما هو أكثر وأسبق من وجوده.

هزه رنين التليفون فأسرع يرفع السماعة ملهوفاً من المفاجأة فجاءه صوتها: هل تستطيع أن تنزل الآن؟ فأجاب بغباء وعدم فهم: الآن؟ الساعة كم الآن؟ قالت: ماذا يهم كم الساعة؟ هل أنت مشغول؟ قال بتردد: أبداً. قالت بنعومة ومحايلة: أنا ألجأ إليك لانقاذي من ورطة. قال: ورطة؟ لم يزايله الغباء. فضحكت: صاحبنا بيتر. فتحير قليلاً ثم قال: آه. الفنلندي ماله؟ وصعد الدم قليلاً إلى رأسه. قالت: يلح عليّ بالتليفون، يدعوني للخروج لنتفرج الآن على كنيسة القديس بطرس، يقول انها رائعة بالليل. قال: كنيسة بعد الثانية عشرَة ليلاً؟ قالت: أنا عارفة؟ يقول إنها كنيسة سميّه وشفيعه وانها مفتوحة طول الليل. قال: وأنت تريدين

الزوغان؟ قالت: عليك نور! هل يمكن أن تستعد في عشر دقائق؟ قال: في دقيقتين مسافة السكة! وفي حسه شهامة الصعيدي وبهجة المغامرة الصغيرة. قالت: إذن على الفور، سأنتظرك على الباب الخارجي، من الخارج، في الشارع.

وخرجا إلى المدينة المسحورة بالليل، يتكشفانها من جديد، ويعيدان خلقها.

سلالم رخاميّة قديمة وساحات بها بنايات معتمة الأبواب وأسورا عتيقة ونوافير يضيء فيها الماء وينحت بانثياله الذي لا يتوقف حواف الأجسام الحجرية وعضلاتها الجميلة المتفجرة بحيوية محبوسة وأبواب المطاعم الصغيرة عليها فوانيس قديمة الطراز وشبابيكها الطولية الكلاسيكية مسدلة الستائر وأشجار لبلاب غريبة الخضرة في النور، في ميدان المنشية الصغيرة.

قال، فيما بعد: هذه كانت البداية. طويلة وفرحة وبريئة. لا نعرف أنها البداية.

ما حدث ليس في الماضي ولا في المستقبل بل تحمله خفة اللحظة كأنه زغب صغير ينفصل من ريش عصفور وتطير به نسمة ليل مضيء ضوؤه موزع بالتساوي من غ ر حدة ولا وهن عبر البنايات الهادئة الجدران وسمائها التي لا عمق فيها.

قال: حتى معنى ما حدث موضع سؤال. مجرد ما حدث على المستوى الحسي العياني الفيزيقي أقصد، من غير بحث عن حافز أو سبب أو غاية. مجرد ما حدث هو وحده الحقيقي. أما معناه، فما معناه؟

كانت قد قالت له: أمقت الرثاء للنفس. وأمقت خيانة الأمانة. وأمقت عدم الكفاءة.

قال: حقيقتك بألف لون. ولكنها حقيقتك.

قالت، بنظرة غامضة كأنها تجس أرضاً غير مسبورة: أنت مهموم. وغير متأكد. ليس في هذا غرابة على أي حال. هذه طبيعة الأشياء في مثل هذه الحالات.

ولم تواصل ما كانت بسبيلها أن تقول.

مهما قلتَ لنفسك أن في أوهامك نواة الحقيقة، خصبة ومحملة بالمستقبل، فأنت لن تبرأ من حلمك السيء. أيامي ولياليَّ مثقلة بخمر اسمك، رامة، رامة، تشع بوهج قاتم الحمرة من شوقي إليك الذي لا ينحسر. عاد اسمك مرة أخرى كلمة سحرية. تريد أن تُمسك بالشمس بين كفيك؟ وتحضن الريح؟ لا، ليس هذا صحيحاً ولا دقيقاً. أنت لا تعرف أن تقول.

لأنكِ أنتِ في الحقيقة صورة كل الأشياء التي تسطع في القلب. دعوة تحيك تأتيهم منك في المنام فلا يملكون لها رداً. أنت المراد وقدس أقداس العالم. ولكن العالم غير مقدس. العالم ملوث. مياه النيل تأتي إليكِ من العالم السفلي وتصعد على صدرك فالصخور تلين وتلك حسب مشيئتك يا عرّافة يا صاحبة القلادة الهلالية والحَلَق القمريّ الشكل وأسورة الثعبان الفضية.

قالت له: أنت تسمي نفسك أخلاقياً، بيوريتانياً، متطهراً.

قال: لا.

قال: الاكذوبة. مناخ الاكذوبة الشائع المُسكِر، ما الذي جرّني إلى هذا المناخ الخانق، أنا «الاخلاقي»؟

اشترى لها عروسة. كانت عيناها خضراوين وفي وجهها نفس الاستدارة والنعومة وكان ثوبها سابغاً في مقاييسه الصغيرة من قطيفة حمراء في دكنة النبيذ الثقيل الحار وفيه شريط أصفر مزوّق مشرشر الحواف بأناقة حادة،

وذراعاها القصيرتان ممتدتان أمامها بلا حَوْل في حركة ثابتة لم تصل أبداً إلى العناق الذي تريد، ولا إلى مبتغاها، وحذاؤها رقيق حاذق الصنعة جداً، يثير الحنان. فرحت بها جداً. واحتضنتها إلى صدرها الكبير كما لو كانت أكثر قرباً إليها من بنتها وقالت: أوه. ما أجملها، ما أصغر فمها! ومسحت بيدها على شعرها الأصفر الباهت خيوط النايلون فيه وثيقة الفَتْل تخدع العين والقلب لحظة وتستدعي مسة اليد برقة.

قال لها: ليس عندك حاجز بين العالمين عالم الواقع وعالم الطفولة. هذا مما يسحرني فيك. على أنك واقعية جداً، وعملية جداً.

قالت، بعين خاضعة: عالم الحقيقة وعالم الوهم تقصد؟ أنت تعرف أن الاكذوبة أحياناً هي الحقيقة الوحيدة.

أقنعة إيزيس السبعة تجسيم للحقيقة؟ طريق الوصول، مرحلة بعد مرحلة؟ مناسك الحج إلى العنصر الباقي الذي لا يزول؟ أم هي الأحجية والتمائم التي تُخْفَى - وتتنكر تحتها - الحقيقةُ الحية المتغيرة النابضة المتقلبة التي حتى إن نالها الفناء فهي متجددة أبداً بلا انتهاء؟

عندما رأى مجموعة العرايس في غرفة نومها، بحث عن عروسته فلم يجدها. ولم يتكلم. كان يتوقع هذا، أو يعرفه وينكره في وقت معاً. فأصمته المعرفة.

قال لها: رامة، أليس من ألفباء الحب أن يخرج المحب من همومه، أن يتحرر من عدم التأكد؟

قالت: لا أعرف يا ميخائيل. أنت أثرت هذا السؤال. عليك أنت باجابته.

قال: ما دمت غير متأكد؟.. وضحك.

قال: هل نحن على استعداد لمواجهة لحظة الصدق؟ كل منا، من جانبه؟

قالت: لقد قلت لك، بقدر ما أستطيع، كل ما بنفسي.

قال: كل ما يحدث بنفسك؟ كل ما يحدث؟ رامة، إن كل شيء نصف نصف، كل شيء فيه تردد، نصفه في الصمت، أليس كذلك؟ لا مفر من ذلك. هذا حتمي. كل شيء فيه نصف مغامرة، فيه نصف خطوة إلى الوراء.

قالت: تعبت. لولا أنك ترهق نفسك بأنصاف الحقائق هذه. أليس هذا أيضاً نصف حقيقة - هذا الطّلب للحقيقة الكاملة؟ ميخائيل، اللحظة التي نحن فيها، لحظة وراء لحظة، قد تتجدد أو لا تتجدد، طالما نعيشها بأمانة، وكفاءة، هي كل ما أعرف، وكل ما أحتاج أن أعرف من حقيقة.

طلبَها في التليفون، مغامراً، على غير موعد وعلى غير انتظار، دون أن يعرف على وجه اليقين أنها هناك، فجاءه صوتها غائباً، خلياً، بسعادة وراحة وثقة: هاللو!

طَعَنَتْهُ هذه السعادة، هذا النسيان له، كان واضحاً أنها لم تعرف صوته ولم تكن تنتظره.

قالت بسرعة مستدركة، وقد تعرفت عليه: أوه، ميخائيل. سوف أتصل بك بعد الغداء مباشرة.

قال: أظنك عندما تكلمت بهذه اللهجة القاطعة كنت تعنين أن تقولي شيئاً ما. على سبيل أننا ناضجان، راشدان، عارفان بحقائق الحياة. وأننا نتناول، في هذه العلاقة، قضية مسلماً بها معروفة منتهية لها حدودها. يعني أن العاطفة لا محل لها هنا.

قالت: نعم.

دار بنفسه: صحيح. لماذا كنت تحب أن تكون هناك الرقة والمحبة والحنان، معلناً عنها، في كل لحظة؟ أهذا ممكن؟ أهذا صادق؟ لا يمكن أن تكون صادقة، كلها، في كل لحظة..

قال لنفسه، يناجيها في سبحة من سبحاته: هذه النغمة الناعمة ألا يمكن أن تعرفيها إلا في فعل العشق؟ وانتبه على الفور إلى أنه يخدع نفسه. كانت لحظات النعومة والحنان الانثوي في صوتها غير قليلة. لم تكن كثيرة، صحيح. وكانت السماء نفسها عندئذ، تكتسي بنسيج مخملي الوبرة، يضع عليه وجهه.

قالت: كيف أنت؟ كيف الحياة معك؟

قال: أجالدها.

قالت: تعالجها؟

قال: لا. لا أعالجها. أجالدها.

في المحطة الطويلة التي تغص بزحام أنيق منخفض النبرة كان يحث خطاه، متلفتاً، نبضُ قلبه سريع متلهف. كانا قد سلما على أحدهما الآخر في التاكسي الذي انطلق به بعد أن نزلت ومعها حقيبتها الصغيرة، وعلى رأسها قبعتها الزرقاء الفاتحة البارعة التصميم الهادئة الانيقة. أسرعا معاً، في أول الصبح، قبل قيام القطار، يذهبان للمحل المتزوي المطل، من جنب، على ميدان جياش الحركة بالسيارات المتلاحقة، واشترى لها القبعة التي قالت عنها إنها تحبها لأنها بالضبط شيء لا فائدة منه، مجرد لعبة حلوة لا جدوى فيها لشيء - أليس هذا هو ملح الحياة؟ أليس هذا ما يصنع اليوم، ويجعل منه شيئاً، وينقذه من الضياع؟ - عندما رأتها في الواجهة الزجاجية بالليل تحت نور مصباح واحد.

وهي اليوم تسافر عنه. بعد أن اكتملت الدورة. يخفيان ما حدث عن

أنفسهما - أو كأنهما - لأنه شيء ثمين وغني ومعقد يُفحص فيما بعد، على مهل. يحتاطان عليه، لأنه شيء رقيق وهام حقاً. ويغلّفان عليه بالصمت. لكن هناك، منذ الآن، صلة مستمرة ولا تنقطع بين جسديهما، حتى بانقطاع المكان، في الصحو والنوم في الوحدة وفي الشارع ومع الناس. العينان، منذ الآن، فيهما رقة وفهم خاص لا يعرفه إلا الجسدان اللذان تعانقا، لأول مرة، وارتبطا بتلك اللحظة الجنية التي تقع خارج سياق الزمن.

عاد إلى المحطة مع ذلك، جرياً. كسر الاتفاق الذي عقداه أن يدعها تسافر وحدها، وأن يوفرا على أنفسهما حَرَجَ التوديع في المحطات، وتكرارَ قوالب العبارات التي لا يجد القلب المزدحم متنفساً إلا من خلال مسالكها المطروقة التي حفيت عليها الأقدام، وتَوَتُّر اللحظات الأخيرة في انتظار قيام القطار كأنه حَرَجٌ تعجُّلِ قيامه حتى ينتهي الأمر والرغبة مع ذلك ألا يقوم، أن يتأخر على الأقل بضع دقائق أخرى. فعاد بالتاكسي، على أعقابه. يريد أن يلتقي بها، على باب السفر.

رأى القبعة الزرقاء من بعيد، وأسرع يُغِذّ السير نحو هذه البقعة التي لم يعد يرى غيرها في غيامة قائمة من تشابك الناس وعربات نقل الحقائب، بين الأرصفة المتعددة والاشجار من بعيد وأكشاك بيع الصحف ومقاعد الكافيتريا والساعات المستديرة الكبيرة البيضاء الصفحة.

عندما التقطته عيناها شهقت من غير صوت، ظلّ وجهها كأنها لم تتعرّف عليه، لحظة. أمسكت يده بيديها معاً. قالت: ميخائيل. كنت أكتب لك، في ذهني، رسالة، سأبعث لك بها، بمجرّد وصولي.

لم تصله الرسالة قط.

قبة الكنيسة، من فوق سطوح البيوت، تؤكد نفسها من النافذة الجانبية،

مسطحة شيئاً ما، ليست كاملة الاستدارة، جاثمة باستقرار ووزن هادىء، وقد تساقط عنها الطلاء وبان حجرها بلونه الجيري الضارب إلى الرمادي الخفيف، والأجراس معلّقة وصامتة، في البرج، خضرتها في الظل برونزية صدئة داكنة، تطير حولها النوارس بأجنحة بيضاء مفرودة مبسوطة في الزرقة الباهتة، تميل وتعتدل كتلة واحدة لا تهتز لا رفرفة ولا اصطفاق.

كان في حلمه إلى جانب وجهها الناعم قد سمع رنين الأجراس.

سوف يأتي إلى هذه الغرفة، فيما بعد، وينظر من النافذة الجانبية إلى هذا المشهد مرة أخرى، وفي داخله هو هذه السماء الخاوية الساكنة بعد أن يخرج منها حضورها المزدحم وتفرغ من حشد وجودها معه وامتلاء الجدران بها، سيطوح الورق المنقوش بأزهار صغيرة تبدو رقيقة دافئة ضيقة ولكن لا تضيق بها الأنفاس، بعد أن تركد تحركات النفس المضطربة المتراكبة الأعضاء.

كانت في بلوزتها الزرقاء الناصعة الزرقة. تلف رأسها بعصابة زرقاء، مؤلمة الوضوح والجمال.

قال لنفسه: هذا مستحيل. كل صورة وكل حلم؛ كل كلمة حب عابرة وسط الموسيقى التي تسيل كالماء العكر بلا توقف، كل صرخة غناء مصنوعة جيّدة الصنع تهتف بكلمة الحب التي لم يعد لها وزن، كل نغمة حادة ومبتذلة في شجنها الآلي عبر الترانزستور والميكروفون، كلها تسفع نفسي وتشعل طرفاً من نسيجها بنار لا يُطاق حريقها. أهذا معقول؟ أن أجد نفسي مشغوفاً محترقاً تنهار جوانب قلبي دون مقاومة في وسط سوق الأحزان الجاهزة التي تُباع وتُشترى وتُدفع في سيل لا ينقطع من الاستديوهات المكيفة الهواء إلى ألف ألف جهاز رائجة التجارة شائعة مرمية في كل مكان!

قالت له، بلهجتها الاكلينيكية المنفصلة: أنت يا ميخائيل، مما حكيت لي

على الأقل، لم تكن لك طفولة قلقة كما تقول. على العكس كانت لك طفولة لقيت فيها حماية مفرطة. كانت الوقاية حولها أكثر مما ينبغي.

فوجئ. فقد كان يظن نفسه في طفولته مهملاً ووحيداً وشقياً. كان يقول لنفسه إن طفولته لم تكن سعيدة. بل لم يعرف حقاً ما الطفولة التي يقولون عن براءتها. ولكنه لم يستطع، لحظتها، أن ينفي ولا يُثبت شيئاً.

قالت: ولكني سعيدة. سعيدة لك. أنك وصلت حقاً إلى نضوج ملحوظ. حتى خلال الفترة التي عرفتك فيها. نادراً ما يصل الناس إلى النضوج، بعد هذا العمر.

خففت قضيتها فقالت: أما أنا فلن أصل أبداً إلى النضوج.

وكان هذا كله جديداً عليه، ومخالفاً لكل ما يظن عن نفسه، فسكت.

٨- الأمازونة على الرمال البيضاء

قالت له: كانت عركة حامية، أوشكت أن تكون، بين اثنين من المراكبية، على الرسوة في المنزلة. كل منهما في مركبة، والمركبان متلاصقان تقريباً، وكل منهما يمسك بالمجداف الطويل له شكل السلاح وتهديده. وكل منهما يصر على أن ينقلني وحده، هو، إلى بور سعيد. ويريد أن يخدم ست فاطمة، بعينيه. كنت أدخل بور سعيد بهذا الاسم، ست فاطمة، مرة معي بطة ومرة زوج فراخ، مع العيش الفلاحي والبيض والبرتقال، بانتظام، من البلد إلى بور سعيد، من بيت أمي المفروضة إلى بيت زوجي المفروض. ومعي أيضاً بالطبع رسائل، بالشفرة، ومرة واحدة نقلت معي، في البقجة المعمولة من منديل محلاوي، تحت البيض والعيش، شحنة صغيرة من المسدسات المفكوكة وذخيرتها. وكان المركز في المنزلة وراء قهوة اسمها قهوة مصطفى شاهين.

كنت مقنعة جداً، بالملس والمدورة والشبشب الزنوبة والجلابية الكستور الفلاحي. حتى اعتادني السرجنت الايرلندي عند نقطة التفتيش، ووثق بي، وأصبحنا شبه أصدقاء، دون كلام.

كان البرد قد أخذ يشتد فعلاً، لا تنس أننا كنا في ديسمبر ١٩٥٦. والمراكب تهتز على مياه الرصيف القليلة الغور، كأنها توشك على الانقلاب في الماء. وأنا واقفة على خشب الرسوة أغلي من الغيظ وأحاول أن أصلح

ما بينهما وأن نبدأ الرحلة، فقد كان المغرب قد راح. وقد تجمع المراكبية الآخرون وتدخلوا في الحكاية. الموقف يتأزم بسرعة، والليل ينزل والوقت يفوت. كان المراكبية كلهم يعرفون الست فاطمة، وأصدقاء بمعنى من المعاني. قلت لنفسي: لو تركت المعركة تمضي على سنتها فلن أصل الليلة بالرسالة. وكنت أعرف أنها مهمة. لا فائدة من أن تفقد رأسك في مثل هذه المواقف. واضح أن أحدهما لن يتغلب على الآخر وأن أحدهما لن ينزل للآخر. رجلان في عنفوان القوة وقد عصفت بهما اللجاجة وركبهما العناد. لم تكن المسألة حكاية فلوس. كان المراكبية قد عرفوني، أنا متأكدة. وعرفوا ماذا أفعل. كانوا يظنون أنني صحفية. فلم يكونوا ليقبلوا أي مبلغ. هذه هي بلدنا. كنت أحمل لهم أشياء صغيرة أقول إنها من البيت، والنبي قبل الهدية، فيأخذونها بعد تمنع. سبت برتقال، بيض، زوج حمام، على ما قسم. وكانت الرحلة تستغرق الليل بطوله، ونصل عند شط القواطي مع شقشقة الفجر. نجتاز منطقة الغاب والبوص ونباتات البحر، في هذه الأحراش مسالك يعرفها هؤلاء المراكبية الذين يعيشون حياتهم كلها، تقريباً، في الماء، والرحلة في النهار كانت خطيرة، على كل حال. كان الفرنسيون يلقون القنابل على البحيرة.

قاطعها: تقضين الليل في البحيرة، بين الغاب، في قارب صغير، أنت والمراكبي؟

نظرت إليه بسرعة، وقد فهمت، وقالت بحسم: نعم واستطردت: كان لا بد أن أتصرف، وأنت تعرف شهامة أهل البلد. فقلت لهما بغضب: يصح أن تتركوا ولية وحيدة هنا على الرصيف، والليل داخل؟ واتجهت إلى أكبرهما سناً وحلفت له: وديني وإيماني ما أنا راجعة إلا معاك. مبسوط يا ريس؟

ومرة دخل الانجليز يفتشون البيت. كان البيت في حارة مقفلة صحيح،

ولكنهم جاءوا في أول الليل، بعد ميعاد حظر التجول. ولو لم أكن موجودة لضاع الضباط الصغار. أنت تعرف كيف كانوا، شباناً صغاراً كلهم حماسة، وفي غاية الأدب والتهذيب، والشجاعة طبعاً. لكن خبرتهم قليلة في نهاية الأمر. وكانوا يحتفظون بملابسهم العسكرية في البيت، تعليمات، أو تقاليد، لا أدري. وهم في البيت بالجلاليب. وعندما خبطوا على الباب، كنت امرأة بالبيت، بقميص النوم البيتي. ووابور الجاز مشتعل أقلي عليه طبخة فلفل أخضر. طلبت من أحد الضباط أن ينام بسرعة على السرير، وفتحت لهم وأنا انظر إليهم كما يجب أن تنظر فاطمة، عجبة، وأتبعهم يتحدثون بالكوكني. كانوا هم والسارجنت الذي يقودهم، شاهراً مسدسه، من جنوب لندن بالتأكيد. ولكني كنت فاطمة البورسعيدية، الخالق الناطق، لطمت بيدي على صدري، وسحبت الطرحة على شعري المنكوش، وأنا بقميص النوم، وزوجي نائم في السرير على المرتبة التي ليست عليها ملاءة، ولكن بقية الضباط كانوا تحت السلم، بالمسدسات، كان من الممكن أن تحدث كارثة في أية لحظة. وصرخت في البمبوطي الذي كان معهم، يترجم لهم، بانجليزية الميناء: قل لهم يا خويا اسم النبي حارسك. قال ايه يا دار م دخلك شر. ما تقول لهم وحياة النبي. ما لنا احنا ومال البلاوي اللي بتحدف علينا. وانخرطتُ في بكاء لم أدرك مدى حرارته إلا بعد أن ذهبوا. وعندما رأى السارجنت الكوكني هذه العائلة شتم صاحب البلاغ الذي زعم أن في البيت ضباطاً مصريين، كما يعرف أن يشتم الكوكني. وانسحبت الحملة الصغيرة على خير، بعد تفتيش صوري سريع، فقد كان السارجنت قد اقتنع تماماً بالديكور.

وصمتت لحظة.

- أما البمبوطي الذي كان معهم فلم يُعثر له على أثر بعد تلك الليلة. كانت الجثث تظهر في مياه القنال، أو في الميناء، كل يوم تقريباً. يستحيل

أن تعرف مَنْ أصحابها. أُوه.. كان ذلك بشعاً صحيح، ولكنه ضروري. أليس هذا منطق الحرب في النهاية؟ لا يمكن أن تغمض عنه عينيك، مهما كان قلبك ممزقاً ومتناقضاً.

قال لنفسه:

- الخيانة، ما ثمنها؟ ومع ذلك فهذا الذي يسقط هو إنسان أيضاً. والقتل، في كل الأحوال - حتى في هذه الحالات - لا يُعوّض ولا يغتفر، هو قتل، لكنه حتميّ، ضروريّ. الاحجام عنه، بأي سبب، هو أيضاً خيانة، وقتل آخر، لا يُبرر.

قال: نعم. منطق لا فكاك منه. القتل الضروريّ الذي لا مفر منه، أينما كان الاتجاه. كل شيء له قبضته التي لا تنفك.

قال لنفسه: القارب الليلي وأنتِ والمراكبي في عنفوان الرجولة، بين أحراش البوص. طول الليل، أنتِ وضباط المخابرات الشباب في المنزل البعيد على حافة المدينة، أنت والبمبوطي المقتول بطريقة لا يعرفها أحد، ولا تريدين أن تقولي عنها شيئاً. ثمن الخيانة؟ وما ثمن الكفاح من أجل الوطن؟ ما ثمن الفدائية؟

كانت قد قالت له: هل تعرف أنني أكتب رواية؟

قال: لا..! ورواية أيضاً؟ ألا تنتهي مواهبك؟ أنت ممثلة عظيمة، وممرضة، وأثرية تقرأين اللُغات القديمة، وثورية قديمة، وأيضاً مؤلفة روايات؟

قالت: ثورية، فقط، من فضلك. يقولون هذا هو البحث عن النفس. لا أجد نفسي. وحدث لي أيضاً أنني أسقطت كل شيء. توقفت عن البحث. سقطت في غيبوبة اللامبالاة. كاملة. لا أتحدث، لا آكل، لا أحس. ورقدت هنا، على هذه الصوفا القديمة، تسعة أشهر كاملة، لم

أبرحها. التشخيص الرسمي: اكتئاب نفسيّ شديد. كان الخطر حقيقياً ألا أخرج أبداً من منطقة اللامبالاة. ولكنني كأنني كنت حاملاً بما لا أدري. لم يسقط الحاجز الفاصل ولم تغلق الحدود نهائياً. لحسن الحظ، أو لسوئه، لا أدري.

قال. مهموماً، وطُلعةً أيضاً، نصف مصدق: لماذا؟ ومتى حدث؟

قالت: لا أريد أن أتحدث عن هذا. لا تسألني، أرجوك.

قال: نعم. لا أحد يدري حقاً مدى هذا العذاب. اللامبالاة والانفصال، ليس نعمة أبداً. لا أظن. هل منا من يعرف حقاً عذابه الذي لا يطاق؟

فلم ترد، غابت عنه وعن لحظته، كأن ذلك كله بلا معنى.

فقال يسترجعها: وما قصة الرواية التي تكتبينها؟

قالت، بحماسة الأوهام التي يعرفها فيها: قصة فتاة مصرية كانت تريد تحقيق حلمها كاملاً، عظيماً، لا يشوبه عيب. ولكنها في النهاية سترضى بما يتاح لها.

قال: على طريقة تشيكوف؟

قالت: لا، ليس في مساء تشيكوف. بل في عز الظهر، النور والشمس.

قال: وما حلمها؟

قالت: هذا هو الموضوع، المشكلة. هل هناك من يعرف حلمه؟ وهذه الفتاة بالذات، وعلى الأخص، تطرق أبواباً كثيرة، وتلتقي برجال كثيرين، تبحث أيضاً عن نفسها.

قال: وتعقد معهم علاقات كثيرة؟

قالت: بالطبع. هذه هي الطريقة الوحيدة أمام المرأة أن تعرف الرجال، وربما أن تعرف نفسها. المرأة التي تنام مع ثلاثين رجلاً - عندما يتحقق لها

هذا: تصل إلى سعادة وتحقق، غير معقول، لا يوصف. وعندما لا يحدث، هناك الاحباط المرير. ونادراً ما يحدث.

قالت له، بعد ذلك: حدث لي هذا معك، مرة واحدة. أول مرة.

قال لها: أنت اجتماعية، انبساطية كما يقول الاصطلاح. ولكن مغلقة أيضاً على نفسك، خارقة وغير مألوفة، صحيح. ليس في هذا مجاملة. أنا لا أتغزل.

قالت: أعرف يا حبيبي.

قال: أكثر من هذا. أنت تحبين الناس، تحبين الرجال، هذا في طبيعتك. أليس كذلك؟ لكن، أليس هذا مجرد حب لنفسك؟

قالت: أحب الناس. وأقع على بوزي. كم مرة أقع؟

قال: الناس؟ كل الناس؟ بلا تمييز؟

قالت: نعم. كل إنسان بالطبع له ميزته. لكني أحب الرجل الكامل - الرجل الكل. قد يكون مكسوراً من الداخل، غير مهم. بل ضروري فيما أظن. المهم أن يكون كُلّاً. كاملاً وهو يحمل في داخله شرخه. أحبه أيضاً خفيف الدم. الطراز الذي يسترعي الاهتمام بل الذي يقتضي الاهتمام، على الفور، الذي يسيطر على الانتباه بمجرد دخوله. الذي يأتي إليه الجرسون مباشرة عندما يدخل مطعماً، مثلاً. الذي له شخصيته، غامرة، آمرة. حتى ولو لم يفتح فمه بكلمة. ولكن الشيء الأول، والأخير، أن يكون أميناً، أمانة أساسية، أميناً مع نفسه.

قال لنفسه: أي أن كل هذا هو ما ليس أنا. تريد أن تقول لا أحبك، في النهاية. ثم تنبه لسخافته.

كانت قد قالت له: أنا أضحي بنفسي لو لزم الأمر. كما تعرف، من أجل من أحبهم. ونظرت إليه وقالت: أنت لم تصل إلى هذه الدرجة.

أم هي تـريد أن تقـول: سوف تصـل. أم هي تـريـد أن تقـول، عـلى العكس: أنت هذا! على الرغم من الشروخ. كان قد قال لها: أنت تعرفين أنني لسـت اجتماعياً ولا خفيف الدم. فقالت على الفور: بالعكس، تستطيع أن تلمع لمعاناً، إذا أردت.

قال لها: أتمنى أن أرى ما تكتبين.

قالت تطرد الفكرة بسرعة: فيـما بعد، ربمـا، عندمـا أنتهي. هذا يقتـل عمل الكتابة نفسه.

قال: أو يئدها، قبل أن تولد.

قالت، بلهجة من يقرّر واقعة مفروغاً منها، من غير تهدج نبرة الاعتراف: أنا أحب فيك ميزات إنسانية معينة، لأنك كانسان، كرجـل، فيك ميـزات انسانية معينة.

قـال، بلهجة من يفلسف الأمور، في موضـوعية، ولكن الجرح ينز في صوته: المرء لا يحب الآخر لأن فيه ميزات إنسانية معينة. لعله يحبه لأن فيه ضعفاً، حتى. ويحب فيه هـذا الضعف. يحبـه لهـذا الضعف، والقصـور، والخذلان، لأنه يحبه، أولاً، لأنه هو. لا، ليس هذا قبـولاً، ولا حتى نوعـاً من الأمومة. الأسـاس هو التوحد، ألا يكون هنـاك الأنا والآخر، ألا يكـون هناك اثنان. بل واحد. عطاء متبادل كامل وأخذ متبادل كامل.

قالت: هذا خطر جداً، حتى لو أمكن. يتطلب أكثر مما يطاق.

مسح بيده على شعرها العسلي بحنان. كأنـه عاشق أبـويّ. أجمة نـاعمة مسرحة من نباتات نامية فيها قوة من الحياة البدائية، طويل، متشـابك دون أن يتعقـد كأنـه مضفور وحـده دون تدخـل ضفـراً متينـاً ورقيق الخيـوط في الوقت نفسه. شعـر حيوان جميـل فيه مستـودع قُوى غـير عاقلة. رأسهـا على ركبتيه وبقية من مياه الدموع على وجههـا الصافي، ليس فيـه موجة واحدة

بعد العاصفة التي مزقت صفحة تقاطيعه الوسيمة. مرتخية، هدها التعب وأشواق الروح المجهدة. رموش عينيها الوارفة كأنها تظلل واحتين في هذه الصحراء الهادئة الشمس، ولحم الجفنين عجين متخمر، وعيناها منتفختان قليلاً كأنها بعد صحو النوم، فيها اغراء جديد. البلوزة الشفافة مفتوحة العنق عند منبت نهديها، والسوتيان الأسود الحابك من تحتها ممتلىء يتفجر ويفيض بحشوه الوثير، حيّ الملمس من وراء النسيج المحكم الدفء. وهي ترفع ذراعيها فيشب صدرها إليه، وتجتذب رأسه إليهابرفق، ليقع فمه على شفتيها المفتوحتين النديتين. قبلاته سريعة تتخطف شفتيها وخديها وعنقها وذقنها دون تمييز، لكن عينيه المغمضتين فيها تردد. كان القرط الصغير فضياً به أحجار ماسية الشكل تتوهج في نصف النور بأشعة متقلبة الألوان نفاذة ومحبوسة، وهو يمس حلمة أذنها بفمه، في رفق شبقي. وامتدت يده تفتح أزرار البلوزة، وتفك مشبك السوتيان، بثقة، وكان لانفتاحه صوت انفجار معدني رقيق وصغير جداً في سكوت غرفته. وقد تحرر ظهرها العريض، ويده تمتد مفتوحة واسعة على امتداده القوي الناعم الانحدار. فمه ما زال يجوس في بحثه، على وجهها المستلم، دون هدف. أنين القطة الصغيرة التي تموت خافت جداً ووهنان كأنه يأتي من بعيد ولكنه شديد الوضوح، متطلباً دون أمل.

قالت فجأة: بصوت خشن قليلاً، أجش بعد السكوت والبكاء وحُمّى الالتصاق الجسدي الوجيز:

- دعني الآن. دعني. ماذا تفعل؟

وهي تذهب لترفع القطة الذابلة التي تموت بهدوء إلى صدرها الرحيب.

قالت له: أنت لا تحبني.

قال: أحبك. ببساطة. هذا كل شيء.

قالت من غير حماسة، من غير قبول ولا رفض: عارفة.

كـان قد ضجر من هذه الكلمة التي لم تعد تعني شيئاً. كانت حواجز الكلمات قد سدت عليه المنافذ، وضاق قلبه بها.

انقطع الحوار.
قطعتِه أنتِ يا رامة.

لم يعد هناك إلا صرخة شوق واحدة، متصلة، ترتفع موجتها باستمرار إلى السماء وتفور وتتقلب ويغرقني صمتُ أمواجها، وزَبَدها.

قال لنفسه: دعك من شِبْه الشعر، قد يكون مسلياً، وفيه شبه راحة، لكنه صفيح لا وزن له.

هناك فقط هذا الرعب من الفقدان، لا يزنه أي ثقل من الكلمات، كلما تأخرت عن ميعادها، كلما أخلفته فلم تجيء، كلما استمر صمت التليفون ولم يصلصل الجرس المفزع البهيج.

فقدتُها، بالفعل فقدتها. انتهى الأمر. وتطبق من حولي صناجات النهاية، قرقعة الطبل الكبير المدوّي، أخيرة، ونهائية.

يحارب الرعب في الليل، وللخوف أذرعة كبيرة مسطحة الحواف ناعمة، تمتح من بئر مظلمة عميقة فاغرة فاها، متربصة، لا يراها في الظلام. وهو يقلب رأسه على المخدة ويقول لنفسه: ما هذا الفزع الطفليّ؟ كبرت أنت جداً على هذا الخوف. طقطقة شيء ما في السكوت تقفز بأعصابه، ويتوفز في رقدته، وصوت رفيع باك ينتحب غير متميز المعالم، عويل بنت مقتولة منذ سنين في الشارع، تحت النافذة، تطلب ثأراً لن يجيء. قال لنفسه بهمس: عفاريت؟ تظن أنه شبح البنت المقتولة؟ يدور بذهنك هذا فعلاً؟ وهو يريد أن ينهض ليضيء النور، ويقول لنفسه: عيب. ويحبس نفسه عن الحركة ويتلمس نسيان النوم، والبيت فسيح وخاو، به هواء، كأنه مفتوح على الخلاء المعتم، مكشوف للتهديد.

يناديها وفمه مسدود: رامة، رامة. وفي صدى ندائه ما يخيف. النور القليل يأتيه من النافذة الزجاجية في باب الحمام، كأنه يأتي من عالم خارجي وأجنبي ولا سبيل إليه، ولكنه مألوف جداً، شريحة باهتة مشعة في الفتحة، حدودها لا تستبين، كأن فيها طاقة حياة من نوع نباتي زاحف ومتسلل، مستكين الآن، مطروح على بلاط الردهة خارج باب غرفته المفتوح، كأنه ينتظر. الآن قد خفَتت تماماً صوت التساؤلات العاقلة واستأثرت به مفازع الكابوس الصاحي المفتوح العينين. وقد ارتمى على السرير العريض، وحده الآن، في قبضة الرعب. جسده كله ينشج بلا صوت ولا دموع، كأنه يغرق ويتلوى، مكتوماً يختنق، كأنه يضرب بذراعيه ورجليه على أرض نصف صلبة نصف مستجيبة للضربات، كأنما ترد عليه بمجرد وجودها تحته، لا تتوخ به ولا تهبط. أوصاله ممزعة أربعة عشر شلواً مطروحة في العراء، أنين الميراج والفانتوم يتصاعد ويتضخم وينفجر وهي تطبق على الرمال، دمدمة النار المتلاحقة مطر صلب حاد السنان يخترق الأحشاء التي لا تجد حماية، يدفن رأسه فيما يجده تحته، بعنف اليأس من الخلاص وعنف البحث عنه في الوقت نفسه، يستميت في تلمسه النجاة ولا نجاة له. قد أُغلق عليه غطاء الكابوس ورُصِد عليه ختم الرصاص المصهور، وينطبق الظلام المحكم الوثاق، جسمه المحبوس المتفجر لا يمكن أن يأتي بأدنى حركة، التوفز والتخلص والتمرغ والتقلب الشرس في وثاق مصبوب على قده يشل كل نأمة وكل رعدة شللاً نهائياً لا نفَس فيه. لا شيء يطيع هذا الجسم المتقبض بروح شريرة من الهلع الحيواني الذي لا أمل ولا عقل فيه. يهزه البكاء الجاف المقتول، من غير نداوة الدموع الحارة المنقذة. بكاء وحشي كالجنون: رامة، رامة، رامة.

قالت له: كان المعسكر في الصحراء وراء الهرم. وكنا نذهب إليه بسيارة قديمة ونعود، كل يوم. ثم أقمنا فيه ثلاثة أسابيع. ورفضت رفضاً قاطعاً

أي اعتراض على التحاقي بالمعسكر بحجة أنني امرأة، وأن هذا المعسكر للمتطوعين الرجال، برغم أنني كنت المرأة الوحيدة في المعسكر. ورفضت أي حديث عن التدريب على التمريض وأشغال الابرة والتريكو والصوف للعساكر وكل الكلام النسائي الذي لا يؤدي ولا يجيب عن تدريبات ما وراء الميدان، كما يقال. شاركت في التدريب على قدم المساواة مع الجميع. بالعفريتة الصفراء كنت أقوى احتمالاً وأسرع تعلماً من أي متطوع، زحفت على ركبتيّ، تعلمت زحفة الفهد، وزحفة القرد، كما يسمونها، ونُطت فوق الموانع وصعدت سلالم الحبال وحفظت أجزاء الموزر والكلاشينكوف، أحسن من أي عسكري قديم. وسرعان ما اختفت نظرات التساؤل والسخرية وعبارات التلقيح، لتأتي عبارات وحركات الزمالة والتكافؤ. لم أسمع بأية كلمة تشجيع، حتى.. أو اعجاب. طلبت المساواة المطلقة وحصلت عليها، وتجاوزتها. كنت أقوى يداً وأسدّ مرمى وأحدّ نظراً وأشدّ احتمالاً وأسرع خطوة وأثبت قدماً من أي متطوع من الرجال. حتى الحرس من عساكر الجيش النظاميين، من خارج الأسوار، لم يكن يعرف من أنا، ولم يكن يفرقني عن الباقين.

قال: من كان معكم بالمعسكر؟

قالت: كلهم. من ضباط الاحتياط إلى المخابرات، من الشيوعيين على اختلاف نحلهم ومللهم، إلى الاخوان المسلمين، من الحرس الوطني إلى المقاومة الشعبية، من مصر الفتاة والوفد القديم إلى التروتسكيين والمستقلين والمهاويس المعتادين. الذين ماتوا بعد ذلك في بور سعيد والذين جرحوا وتشوهوا برصاص وقنابل الانجليز والفرنسيين، والذين ماتوا وضربوا وامتهنوا في سجون الثورة ومعتقلاتها والواحات. كلهم روح البلد وصفوتها. أين هي؟

قال: موجودة، لا تموت. منذ آلاف السنين. وحتى الأبد.

قالت: دعك والنبي من هذه الرومانتيكية.

قال: من يصدق؟ كانت تلك هي الأيام التي عصفت بقلوبنا من الفرح، ونشوة الفداء. وسرعان ما عدنا إلى الصمت الطويل، والحيرة.

قالت: كانت ثلاثة أسابيع، اتصل فيها الليل بالنهار. لم أعرف أشق منها، ولا أمتع، وأنا بين الرجال. كان الرمل الناعم الدقيق لا يملأ فقط شعري المقصوص تحت الكاب الكاكي القماش، بل يتعلق حتى برموش عيني، ولا يخرج من بين أصابع قدمي. ومع ذلك فقد ابتكرت أدوات الدوش، من ماء الشرب القليل. جردل معلق على خشبتين، يرتفع بحبل على بكرة، وحبل آخر يجذب فتحته إلى أسفل، ويندلق الماء، فيه رائحة صدأ ولكن منعشة، في دفقات نزرة حريصة شحيحة ثم تنصب دفعة واحدة ثقيلة، فأشهق من المفاجأة، وأنا عارية من وراء ستارة من ناحية واحدة، على أعمدة خشب، معمولة من قماش الخيام، وشمس الشتاء من الناحية الأخرى، مفتوحة

قال: كنت أمازونة حقيقية؟ بل أظن فيك هذا الجانب من الأمازونة، كامن دائماً من وراء كل أنوثتك.

قالت: الامازونة أنثى أولاً، قبل أن تكون مقاتلة.

قال: لحسن الحظ امازونات اليوم ليس عليهم رمي السهم بالقوس.

نظرت إليه وضحكت في نفس الوقت الذي ضحك فيه، لم يتأخر لحظة واحدة، ومع ذلك كانت ضحكة مشدودة.

قال: حتى لا يبترن أحد الثديين!

قالت، لا، كلاهما هنا، في الحفظ والصون.

قال: تقولين لي؟ أعرف أنا أنهما هنا، مسّاهما الله بالخير!

قالت: نفعني هذا التدريب الشاق عندما ذهبت بعد ذلك إلى بور سعيد. تحت الاحتلال، وكان اسمي ست فاطمة من المنزلة.

قال: أتصور مدى اقبالك على التدريبات. أنت قوية الاحتمال، بالرغم من كل رهافتك.

قالت: كان التدريب الأساسي مع ذلك رمي النار. ولكن هناك تمرينات الاحتمال. العطش والجوع ساعات محسوبة، والتعامل مع العقارب والثعابين. كتمرينات الصاعقة، على خفيف، والمصارعة اليابانية أيضاً. لم يستطع أحد أبداً أن يلقيني على الأرض. كانت أمتع تمرينات.

الامازونة التي تقتحم الرجال، وتتحطم أمامها أسوار قلاعهم، تصارعهم في عناق مجالدة لا تنتهي، في كوابيس ساطعة النور، تمتطي جياداً تجري نحو آفاق لا وصول إليها أبداً، منزع قوسها لا يفرغ أبداً من السهام.

قالت: ماذا كنت تعمل في ذلك الوقت؟

قال: كانت معركتي قد انتهت مبكراً، قبل ذلك. خرجت من المعتقل، ونفضت يدي من العمل الثوري والسياسي معاً. وخرجت من هوة سنوات اليأس الذي شل القلب طويلاً. عرفت شوارع القاهرة في الاظلام. كنا نبني عمارات للمساكن الشعبية. وتوقف وصول الحديد والاسمنت. ووقفت العمارات أطلالاً قائمة قبل أن تنبني. بعضها استخدم مراكز لتجميع شباب الحرس الوطني، والمقاومة الشعبية، وزعت عليهم البنادق أمامي، والذخيرة الحية، حتى دون أن يعرفوا كيف يستخدمونها. كنت الوحيد الذي جاء للموقع مبكراً في صباح يوم نزول الانجليز واليهود في بور سعيد. أنا والصعايدة. ثم جاء الأخرون في المساء.

قالت: كان ينبغي أن ألتقي بك، هناك، منذ خمسة عشر عاماً، تصور أي تغير كان يمكن أن يحدث في حياتنا! لو كنا معاً، في ذلك المعسكر!

قال: كنت جميلة جداً بلا شك، حتى في العفرية الصفراء. وشعرك تحت الكاب القماش الكاكي.

قالت: أساساً كانت الحياة جميلة جداً. جديدة. والأمل لا حدود له.

قال: أما الآن..

قالت: ومع ذلك، فانني سعيدة بما حدث بيننا.

قال: هو أروع شيء حدث لي، بذاته، مهما كانت أسبابه، أو تبريراته.

ولكن بذرة فاجعة من العطب كانت في صلب هذا الذي حدث، أياً كانت نتائجه، ومساراته.

المأساة تحدث وتمضي. ماذا يعني حدوثها؟ وقد حدثت بالفعل.

قالت له: لم لا؟ فلأجعل الناس سعداء. وما داموا يريدون ذلك ـ أيا كان ـ فلأعطه لهم، ماذا أفقد؟ وحتى إن لم تكن في ذلك سعادة حقيقية لي ـ ما هي السعادة؟ وترددت لحظة وقالت: أيا كان، فانه شيء طيب.

قال لنفسه، مرة أخرى، متكررة، بلا نهاية: وهذا بالضبط مالا أعرفه، ولا أفهمه. هذا ما يلغيني، يدرجني في سلك قاعدة عامة مجهّلة، ليست متجهة إلى هدف متفرد وحيد لا يتكرر. هذا ما يُدخِل الشيء العنصري البدائي من غير تحدد. هنا، لا وجود لي. بل لعنصر فيَّ أحسه شائعاً وموزعاً حتى في أدق لحظات خصوصيته الحميمة. لا. ليس في هذا كله الخصوصية المتوهجة بحدتها الفذة الفريدة.

وسأل لنفسه: ما أشد حمقنا. وتعاستنا أيضاً. أهناك حقاً هذا التفرد الصميمي أبداً، في هذه اللحظة التي ننزل فيها جميعاً عن ذاتنا، ونصبح أدوات، نعم أدوات، تقوم بوظيفة، وإن كانت مهدرة، في قبضة حمى كونية؟

قالت له: أنت وصلت إلى مرحلة من النضوج نادراً ما يصل إليها الرجل بعد هذه السنّ.

قال: تقصدين أن المنافسة والتكالب والتقاتل على الجائزة، لم تعد تعني عندي شيئاً كثيراً؟ تعنين نوعاً من التحرر الداخلي أنت سعيدة لي به، أن الكون، في ظني، لم يعد من الممكن أن يدخل في قبضتي - كما كنت أتصور قديماً - لم يعد ممكناً أن أستحوذ عليه وأعيد تشكيله؟

قالت: ومع ذلك، فما زالت ردود أفعالك للناس جافة.

قال: أنا؟

قالت: لا تحتمل عشرتهم. أنت في النهاية ساخر ومتهكم.

قال: ليس هذا حقيقياً. مَنْ أنا حتى أسخر بالناس. أنا أعرف - فيما أظن - عذاباتهم. حتى شهواتهم، حتى جرائمهم، لا أدينها، دعك من أن أسخر منها. حتى الممتلئين بذواتهم صلفاً، فقط يسلّونني أحياناً، وأستمتع بهم!

قالت: لماذا هذه الابتسامة الصغيرة التي لا تفتح، صراحة؟ طبعاً لك نوع من القهقهة، أعرفها، ولكن..

قال: ألم يخطر ببالك أنها حيلة صغيرة للدفاع عن النفس؟ طبعاً خطر لك هذا، أو كنوع من القرار الاخلاقي، ربما.

قالت، في تبرم: هناك شيء آخر. لم أضع يدي عليه.

قال: نعم، أنا أخلاقي، هذا ما تقولين دائماً. أُقبل على الناس، وأعمالهم، بناء على أحكام أخلاقية مسبقة، ربما، وبعد ذلك، وفي سياق هذا الحكم الأخلاقي أقبلهم، صحيح، باعتبارهم هذا، ناس، يخطئون ويصيبون، ولكنهم يتعذبون دائماً، ويبحثون، رغماً عنهم، عن متعتهم، وسرورهم، أياً كان، أليس كذلك؟

ثم قال: أبداً، ليس هذا كله صحيحاً. من ذا الذي يزعم لنفسه حق الحكم الأخلاقي. ما أشقى الناس، وما أشد ضراوتهم، معاً. على العكس. لا أستطيع أن أحكم على أحد.

قالت: بالضبط. هناك دائماً في ذلك خَلْفِيَّة أنت تستند إليها حتى وأنت تخرج على قوانينها. الحكم الأخلاقي موضوع، مطروح، أولاً. ثم أنت ترفضه بعد ذلك، أو لا ترفضه، هذا شيء آخر. حتى عندما ترفضه فانه هناك يظلل عليك كل سلوكك، وحياتك. ولهذا أنت تستمتع به، وتبتسم، بسخرية، للناس.

قال: ربما. أما أنت، فلحسن حظك ليس هذا عندك موجوداً، من الأصل. أنت تقبلين الناس قبولاً يكاد أن يكون حسياً، تدخلين معهم في صلة مباشرة، عضوية حتى، تلقائية، دون أن تمر بداخلك شبهة أن يكون هناك حكم أخلاقي، أو لا يكون. دون أن تكون هناك، أصلاً، أخلاقية ما. وليس في هذا كله ما يدان أو يعاب حتى. كأن للناس وللرجال - امتداداً في نفسك أنتِ!

قانون إيمانها هو الحياة المليئة، في كل لحظة.

قالت له، بنوع من الحسد: سفيتلانا ستالين تزوجت ست مرات. يا لها من امرأة، إعصار. وجورج ساند لم يعرف أحد عدد عشاقها.

قال: وكان عندنا نحن أيضاً أساطير، أمينة وسامية وتحية!

قالت له: أنا بنت أبي. حياته عاشها بالطول والعرض، كما يقولون، فعلاً. ملاها بكل شيء، بالحب والمغامرة والسياسة والنساء والثروة والافلاس والجهال والرصاص والناس من كل نوع والأمجاد والاحباطات. كان كاملاً.

قال متأملاً: بنت أبيك، بلا شك.

في حديقة الأوبرج كانت تجول طول الصباح بين موائد الآخرين، كانت مياه البركة الشاسعة الداكنة اللون تذوب في الرمل بين الأحجار تحت سور الاسمنت الذي يبدو قلقاً على الرمال المبلولة. وكانت الظلال المهتزة تحت

الشمسيات تعطي وجهها وضاءة خاصة. ضحكتها الخافتة الناعمة وهي ترفع قدح البيرة الفوّار، وتجري وراء الكرة الكبيرة الملوّنة، وتهتف وتستند إلى كتف محمود حتى لا تقع.

قالت له: محمود في النهاية سخيف وتافه. اضطررت أن أضعه في مكانه، أنا آسفة، لم يكن هذا معقولاً.

قال: ماذا فعل؟ ماذا قال؟

قالت: لا شيء في الحقيقة. تفاهات. لا سبب اطلاقاً يدعوك للغيرة عليّ منه.

قال: لا سبب؟

قالت تخرج من عنده، في حرّ الظهر، وهي تغلق الباب وراءها: أنا التي أبدأ أغار عليك. شيء لم يحدث لي اطلاقاً من قبل. كنت طول النهار أحاول أن أثير غيرتك.

وردت الباب بسرعة، دون أن تنتظر رداً.

فلم يقل لها: لأنني أخاف عليك منهم. لأنني أخاف، في النهاية، من سرعة إقبالك عليهم، من حسن عشرتك لهم.

كانت قد قالت له: أنت لا يهمك معرفة الناس. انعزالك هذا، وتوحدك..

قال: ولا هذا، بل تهمني معرفة الناس، تشوقني وتسحرني. الأفكار، الأحلام، التقديرات، هي الناس عندي. من ذا الذي يزعم أنه يعرف الناس حقاً؟ في هذه السوق المضطربة التي ليس فيها إلا بيع وشراء. ليس فيها ناس. بل أدوات. مرة أخرى أدوات. هم جعلوا أنفسهم أدوات، كيف نعرفهم؟ المعرفة المحرقة هي معرفة من أحب. هذه هي المعرفة، فيم تفكرين؟ كيف تحسين؟ ماذا تقرأين؟ بم تحلمين؟ كيف تتنفسين حتى؟ ما

خطاباتك، رؤاك، هذياناتك المخبوءة، ماذا في حقيبتك؟ ليس هذا فضولاً. والمعرفة ليست الملكية ولا السيطرة. هي الحق، وحدها، هي الحب.

قالت: ألم أقل لك أنت أفلاطوني؟

فلم يقل لها: لا، هذه الغيرة هي فقط نزوع لا يقاوم نحو مِلْك الحب وحده. لا شيء غيره. لا حياتك ولا ذكرياتك ولا ماضيك ولا مستقبلك. بل هذا الحب الجنس المعرفة، يملأ كل فجوات الماضي والمستقبل ويسدها في كتلة مصمتة واحدة، مهما كانت ثقيلة خانقة ساحقة الضغط، لا تطاق.

قال لنفسه: لا، الأمر عندي ليس واضحاً، هذا لا شك فيه! ثم إن هذه هي أفكار السوق، مطروحة على كل ناصية. فلماذا تتعذب بها؟ لماذا يعذبك السوقيّ الشائع الممسوح الحواف.

كانت تهمس له بغنائها المبحوح النبرات فكأنما يطفو، في سفينة معتمة الجوف بلا شراع ولا سارية، على موج هادىء، إلى البحر الأزرق الفسيح تنسكب مياهه الخفيفة الزبد على رمال السفوح الخضر التي ترتفع فوقها أشجار الأرز السامق العتيق

قال: لم أسمعك تضحكين بصوت عال، تقهقهين، أبداً. ما صوت ضحكتك؟

قالت: لعلني أميل إلى أن أكون تراجيدية، شيئاً ما، أنا أيضاً.

قال: هناك شيء تراجيدي ما، فيك، هذا صحيح. ليس ميلودرامياً بالطبع. شيء حتمي، كأنه مقدور. بالرغم من كل مفاجآتك.

قالت: يعني، كما يقال عندنا في البلد، مكتوب على الجبين.

فأمسك بيدها، وسكت.

قال لها: حقيقة، أريد أن أعرف من أنا، في تصورك، ما صورتي عندك؟

قالت له: كما تشاء. لك عندي صورتان. صورة عقلية: صورة الرجل الذي يعيش بمجموعة من القواعد، والأصول، ما ينبغي أن يُفعل، وما ينبغي ألا يُفعل، صورة الأخلاقي، العقليّ، أو على الأصح الذي يحسب لكل شيء حساباً أخلاقياً. وهو، في ذاته، شيء حسن. وصورة عاطفية: صورة المعطاء. أنت تعرف التفرقة الشهيرة التي عندي، بين الناس. الناس عندي فريقان: فريق يأخذ، وفريق يعطي.

وتأملته برهة، قالت: أنت من الفريق الذي يعطي. طبعاً أنت تأخذ، ككل الناس. لكن العطاء عندك، فيما أتصور، هو الذي تريد.

قال، مُلحّاً: ولكن أين أنتِ هنا، في هذه الصورة ذات الجانبين، من أنا عندك؟

قالت: أنا الجانب الشرير من نفسك، هكذا أنت تراني. الجانب الذي تتحلل فيه من القواعد والأصول، مما ينبغي ويصح ويجوز، وترتفع عنه قبضة القيود الاجتماعية والنفسية. هذه أنا عندك. هذا ما يكاد يصيبني منك بالجنون، هذا ما أكرهه فيك.

فذهل. كانت المفاجأة بحيث لم يستطع الرد حقاً. فلم يكن قد خطر له ذلك كله ببال..

وقال لنفسه: أنت مفرط الوعي بذاتك، مفرط الشقشقة عن ذاتك. لذلك أنت لا تعرف نفسك، ولا تعرفها، ولا تعرف ما يطوف بخلدها، أنت في النهاية - مع كل الثرثرة - لا تقول شيئاً. ولا تقول عن ذات نفسك على الأخص.

قال لنفسه: وأيضاً القوالب الجاهزة المألوفة، المطروحة في السوق، كل ما تقول: وأيضاً أن جسمها ملكه وحدها، هي ما تملكه، ولم تبعه قط، ولم يكن أداة. قد مارست الحب معك ومع الآخرين، لكنها لم تبع جسمها،

ولم نتبدله. ولم نجعله شيئاً. هذا قالب معطى من معطيات الكلام. وهذا صحيح. هي وحدها القادرة على أن تعطيك أو تمنعك إياه، جسمها. أنت لا تستطيع أن تأخذه قضية مسلماً بها، تفعل به ما تشاء، ليس موضوعاً. بينها وبينه وحدانية كاملة. هي، على العكس منك، تبحث عن التعدد من داخل وحدانيتها النهائية، أما أنت فتنشد وحدانية مفقودة مفتتة مقسمة.

لم يقل لها: لا أحاسبك، وليس في استطاعتي - لك مطلق الحرية، وليس هذا منحة مني، أو هبة. أنا أعرف - أو يخيل إليّ - ما القهر الذي يدفعك ويحثك نحو جنونك، أو يبقيك في حصار تعقلك، على السواء. يا طفلتي الأبدية الحكيمة، يا ساحرة لا تمسك بها قبضة. لكنني أحبك، لذلك أريد أن أعرف من أنت، ما أنت. أريد أن أغور بيديّ العاريتين في عمق أحشائك الداخلية دون أن أمسها مع ذلك بجرح أو أذى. وأعرف أن ذلك مستحيل. لا تقولي هذه سادية. ما أسهل هذا. وما أصعب أن أقول لك إن طغيان هذا الحب هو أيضاً أن أفقد نفسي، أن أجده في نفس الوقت وبنفس الفعل. هذا قالب آخر. أن أعبر منطقة امتهان لا قِبَل لي بها، بكل الكرامة. قالب قالب قالب. أين أجد الكلمة المنقذة؟ أين أخلص من عذاب العيّ والتمتمة؟ لا تقولي لي مجرد رغبة في التملك. بل أنا أريد الحرية، لا حريتي بل الحرية، معك، تاجاً تحت قدميك. وما في وسعي أن أصل إلى رحابها. هل الحرية هذه الأصفاد؟ ما زلتُ أنا وأنتِ نرسف في القيود.

أريد أن أعيد صياغة وجه العالم على غرار وجهك، هذه حريتي. يا له من تطاول!

ولكنه سكت.

لماذا الصمت؟

قال: لأن الكلام بالطبع إفقار. لأنه يضع أسواراً على ما لا يُحَدّ

قال: لأن هناك الفعل. الفعل وحده هو الذي يعطي الصمت معناه.

قال: الفعل أيضاً يحمل الالتباس. بل هو غامض بذاته، هو الشيء ونقيضه. وهو أيضاً محدود، ويضع حدوداً.

قال: هذا بالضبط قيمته.

قال: أين المفر؟ الفعل الواحد أكثر من شيء، وأقل من شيء.

قال: الكلام أيضاً فعل. وفعل الكلام، سرته، حرارته، اشارته، عفويته، تدبره، تعثره، كلها ضروري، حتمي، حيوي

قالت له: دوّختني. أليس هذا كله عبثاً؟

سقط معه مصباح الجاز القديم الطراز، بزجاجاته المتفخة البطن الطويلة العنق، وهو يسقط على الأرض، دون صوت، هل هذه هي الحصيرة الصفراء القديمة التي كانت على أرض غرفته، في بيتهم في غيط العنب، في سنين طفولته؟ يداه تتشبثان بالهواء وقد انكسر بطن الزجاج، وتطايرت شظاياه، خرساء، على الحصير، وسال الكاز ببطء، واسودت بقعة متطاولة الاستدارة على فتائل الحصيرة الرفيعة المضمورة برقة والممسوحة من طول مسّ الأقدام وضغط الشلت ووسائد الجلوس الطرية. ارتطم وجهه بالألياف الناعمة المتلاصقة ألم مفاجىء يطعن صدره وهو ينتح فمه المصطدم بالأرض فلا يند عنه صوت. أجنحة متسعة المدى صلبة الريش تصطفق على جسمه لا يسمع لها حفيفاً وتدق الحيطان التي تضيق بسرعة وتطبق عليه. النار البطيئة تسري بلون أحمر فاتح به حواش مترافصة تميل إلى لون قشر البرتقال. ألمٌ لا اسم له ينفضه ويرجّه كأن أوصاله كلها تتكسر وتسقط أحجاراً حادة مشعثة الحواف وكلابات التمزق تغوص في لحمه الحيّ. يخبط بقبضتيْ يديه على الأرض خبطات لا يصدر عنها أدنى حس ولا صدى، عشواء متلاحقة في تصميم لا يجديه في شيء رجاج النافذة

يتزعزع ويصدر عنه فجأة صوت ارتجاج متصل. أول صوت يسمعه بعد الصمت الطويل، ويسقط مرة واحدة في دويّ متقاطر خارج الأصداء. الأجنحة الضخمة ترفرف بحشونة حول رأسه وتصطفق بدروع وثيقة حديدية الصليل، تقعقع. والرمح الطويل يغوص في سماء طينية أسواق النذير تتباعد في نواح يأس تسقط فيه النجوم بين يديه وتتفتت بين أصابعه ابتسامة المتعة في وجهها الجميل تتفتح في قناع نحاسيّ صدىء يتمدد وينسحق تحت الدروع. أمواج بحار العالم لا تمحو المرارة التي في فمه ولا تمسح الألم الذي تتفجر به ضلوعه. زلزلة عظيمة تطوح به، وتتقاذفه حيطان الغرفة الضيقة التي احتوت السماء والأرض وقد أصبحت كلها خراباً شاسعاً تهب فيه الريح. جدائل شعرها العسلي تتهدل من الشمس، والقمر بعيونه الخضر يتقطر دماً. أحجار الدموع تنحدر من عينيه. الأختام السبعة مغلقة لا تنفك في هدير الزلزال ولا تحطمها قبضة يده التي ما تني تخبط على مغاليقها. الفرس السوداء تشق السقف هاربة في هزيم حوافر سريعة منتظمة الإيقاع. أحشاء التنين مفتوحة تنبض وتنبثق بفيضان من الدم يتدفق في وهج النيران في الظلام وتبتلعه الأرض الخراب. والزيتونتان العظيمتان قد أسقطتا ثمارهما في هدير المياه المتدافعة. الأجنحة الستة لا تنكسر في حرب لا تنتهي بنصر ولا بهزيمة. بروج السماء تتهاوى ولكن الجسم الأنثوي اللدن في أحضانه المتقبضة نقيّ لم يمسه طوفان المياه الطافحة بالأشلاء. أزهار عبّاد الشمس الكبيرة بحوافها الدائرية وبؤرتها الداكنة تقوم وتترعرع وتهتز بين ألسنة النيران. وهو قد سقط.

يهتف بلا صوت في عجيج الزلزال: يا ميخائيل يا رئيس الملائكة يا قائد الخلاص!

ذراعاه تلتفان، باستماتة ويأس، حول أرجل مائدته القديمة التي طالما جلس إليها عبْر سنوات طفولته وشبابه يدرس ويحلم، يرى بعينين لا

تطرقان بلاطتها الرخامية البيضاوية وتتشبُّث بسيقانها المتعرّجة المشغولة من خشب أسود نخر فيه سوسٌ قديم تجويفاتٍ صغيرةً غير منتظمة، والمائدة تترنح تكاد تهوي ثم تستقيم فوق رأسه وقد ارتفعت ألسنة اللهب برشاقة ودقة تلعق الجانب السفليّ الخشن الرمادي اللون من الرخامة البيضاء. ذراعاها النّاعمتان الباردتان تحيطان بعنقه من فوق ارتطام الأجنحة الوحشية فتهب من بينها نسمة راحةٍ رُخاء كأن ليس لها ثقل يتوق لأن يمرغ وجهه المتقطع في طراوة غوايتها. ولا يقول كلمات التعويذة النهائية التي تكرس سقوطه وراحته: «يا ساحرتي أنا أستسلم لك». فلذات أحشائه لا تنتزع منها الكلمات. لهب كاو لاعج مدمر لوثة عذاب مسٌ من مسوخ الألم فقد عايشها طويلاً. لا يمكن أن يعايشها دون عقاب.

٩ - الشهوة وأعواد البوص

قطرات الماء تنهمر من على الجرح الطولي الصدىء في حجر التمثال المتحدي العريق. نغمة الماء وهي تنسال بهيجة في النور المصبوب من مصباح قوي عالي النبرة في غير تهدج، ثابت السطوع. كان الحديد الذي يحيط بالنافورة منخفضاً دائرياً، جزيرة في الشارع المتدفق بنهرين، كل منهما في اتجاه، من السيارات اللامعة المسرعة بنفث ضجيجها المتفجر المتراوح.

كان ميخائيل ورامة - صديقين جديدين - يطلان عليه من زجاج النافذة العريضة في المطعم العصري الواسع الذي يكاد يخلو من الرواد، بعد خروجهما من السينما. والمقاعد مريحة موطأة من البلاستيك المضلّع الأسود شبه الجلدي، بمساندها الفورمايكا المجزعة تجزيعاً بارع المكر في تقليد الخشب، والألومنيوم المدور المجوف كأنه شبه فضة تافهة يُحدث صدى مكتوماً عندما تصطدم به قدمه بالصدفة صدمة خفيفة.

كانا قد ذهبا للسينما وكانت وشوشتها له بهمس خفيض حار أثناء دوران صور غامضة لها ملامح جنسية واضحة مما يقرب إلى عينيه صفحة وجهها المشعة بجاذبية آسرة يراها بطرف نظرته كأنها قد اندرجت في سياق الفيلم نفسه، وذراعه في قميصه بنصف كم ملتصق بذراعها العارية الغضة التي زادت استدارتها بضغطها على المسند الخشن الوبرة، بينهما، في نوع من الود الجسدي والتفاهم الحسي الدفىء غير المعلن.

بعد انحسار آخر اندفاعات المرور في معاقد الازدحام الليلي وانفراط حلقات الخارجين من آخر السينمات، كانت المدينة المنيرة ملك أيديهما وكأن شوارعها الفسيحة الخاوية النظيفة مسالك رحبة، في داخل النفس، لهواء الليل الرطيب الواعد بأشياء طيبة كثيرة غير محدودة. كانا يمران بلا انتهاء بسلسلة من بحيرات النور الباهرة الخطرة في فراغها، الهادئة، إلى جزر الظلال الساكنة التي ترف فيها أوراق الأشجار بألفة.

قال لها: عرفت شوارع مدن كثيرة في كل ساعات الليل والنهار تقريباً. ليس أجمل من شوارع الليل الخالية ومصابيح المدينة متوقدة بنور لا فائدة منه عملياً، والبنايات تقع عليها بقع الأضواء المشاعة والاسفلت الأسود واسع ولامع وحرٌ يمكن للمرء أن يقطعه طولاً وعرضاً بلا عقاب، وعلى الرغم من أنفاس الخطر والمجهول فكأنما المدينة قد برئت أخيراً وللأبد من الشر والعنف الخبيء وقتال القطيع المدرع بصفائحه الميكانيكية الكهربية المندفعة دون توقف. ما أجمل هذه المدينة.

كانا قد طلبا هامبرجر وبيرة ـ قالت إنها تحب البيرة. وأكلا بشهية مفتوحة إلى كل شيء. وتحدثت بانطلاق وحرارة عن خوفها من الموت، لا موتها هي: قالت إن هذا مروع وغير متصور وقال إن أحداً أبداً لا يقتنع في قرارته أنه سيموت. وقال إن الموت مجرد تجريد، وشيء يحدث للآخرين، ولا يحدث لي أنا، أبداً. قال إنه الشيء الوحيد الذي لا يعرفه أحد. لأنني أتصور أنه حتى لحظة انطفاء الوعي الدقيقة وغير المتصورة لا يعرف أحد ولا يقتنع أنه سيموت ولا يعرف ما معنى هذا حتى إذا عرف واقتنع، يظل دائماً حتى تخطو قدمه على الحدود على يقين أولي ما أنه يعيش، وهو صحيح، لأنه، حتى هذه الخطوة، يعيش، وبعدها، لا وعي، لا شيء. قال إن الموت هو الشيء الذي لا يُعرف أبداً، لا قبله ولا بعده، وما يُعرف هو أشياء عنه، حواليه، تسبقه وتحيط به، وليس هو. قال إن الموت لا يوجد، ببساطة.

قالت في سورة من حماسة غريبة إن هذا بالضبط ما كانت تفكر فيه دائماً ولا تقوله لأنه لا يصدقها أحد ولا يقتنع بها أحد. وقالت إن المفزع هو موت من يحبه المرء. وسألت كيف يمكن أن يعيش المرء إذا مات أحد ممن يحبهم حباً حقاً؟ وقالت إن هذا هو الموت الذي يحسه ويعرفه المرء في صميمه، بفقدانه الذي لا يمكن، لا يمكن تعويضه. وإن هذا هو العذاب، مشاعاً، بلا ثمن، يملأ أرجاء الأرض والسماء. وسألت: لماذا؟ لماذا؟ وقالت: إن هذا العذاب أزهاره شائكة.

وترقرقت عيناها وقد جرفها التصور المخيف الذي تسنده وتُقيمه حقيقة أن أحباءها يعيشون فعلاً وأنهم لم يموتوا. وكانت، عندئذ، قد قالت إنها على استعداد لأن تموت في سبيل من تحبهم فعلاً وقالت إنها لا تصلي ولا تعرف إذا كانت مؤمنة، حقاً، الإيمان التقليدي، لكنها تدعو بغموض وكل يوم قوة إلهية ما أن تحفظ عليها من تحبهم وأن تبقيهم.

قال لها: كأنك تتحدثين بصوتي وتقولين عما أهجس به دون أن أعطيه شكلاً ولا تحديداً.

وكانت سعادتها، في هذه اللقيا النادرة المفصّح عنها، لا يشوبها شيء، كاملة، في الوهج الخفيف المنعش الذي ينبعث عن قدحين من البيرة وأكلة غير ثقيلة ودفء التقارب الحسي في هواء الليل البارد الذي يهب من النافذة العريضة المفتوحة على التمثال المبلل ونافورته المتدفقة بمياهها ذات المسارات المركّبة الهندسية الجريان يشع رذاذها على عضل جسم رجولي مفتول يتحدى ويُثبت بالأرض ساقيه المتفجرتين كجذعي شجرة من الحجر لا ينالها البلى.

كان على ذراعها العارية، من ناحيته، أثر ضغط مسند كرسي السينما بوبره الخشن كأنه منقوش على جلدها.

قالت له: أنا أحتاج دائماً إلى الدفء الإنساني، إلى العلاقات الإنسانية لا أطيق عنها تعويضاً، لا أعرف أن أعيش في غرفة مفروشة يوماً بعد يوم وحدي أطبخ طبيخ الأسبوع يوم الجمعة وأغسل شرابي يوم السبت وأذهب للكوافير يوم الأحد. لست هذا الطراز. أريد أن أرى الناس، أكلمهم، أعيش معهم، أن أخرج إلى العالم، وأتعرف بأنماط جديدة من الرجال. لهذا تراني أسعى وراء رحلات التفتيش في المصلحة، وأذهب إلى أي مكان دون تردد.

قال دون احتجاج ودون استياء: أما أنا فمتوحد. يمكنني، بل أحب أحياناً، أن الزم غرفتي أسبوعاً لا أرى نور الشارع.

قالت بتأمل: نعم. هذا ممكن لك. أتصور هذا. ولكن مقطوعاً عن الناس؟

قال: لا، لا. يلزمني ـ كالمرض ـ أن أحس الناس، وخصوصاً من أحب، ولو من بعيد، المهم أن يكونوا هناك. الانقطاع، كالرهبان، يؤرقني ويجففني.

قال لنفسه، ذات يوم: هل كان اهتمامها بي، في الأول، لمجرد التقاط نموذج جديد من الرجال؟ نمط جديد، ساذج، يبدو غير ملوث، لمجرد هواية التجميع. ما هي الوسيلة المثلى عندها لكي تعرف أنماط الرجال؛ قال: أفي هذا كله شبهة ابتذال؟

قال لنفسه: لماذا يضغط عليك نمط رد الفعل التقليدي عند الرجل الشرقي، الصعيدي؟ حسه وسيطيّ وعتيق مهما كانت أفكاره وتجريداته عصرية ومتفلسفة وقريبة من الماركسية أو الوجودية، حتى؟

وبالطبع لم ترد على ذهنه إجابة لسؤال هو في النهاية عملية تقرير حقيقة والشك فيها وتقريرها من جديد في دور بلا نهاية.

قال لها: الحاجة إلى الدفء الإنساني إذن هو الحافز على صداقاتك الكثيرة؟

وهي تنحني عليه، في حُمّيا المكاشفة والمصارحة وفتْح مغاليق النفس بين صديقين جديدين، كان ضغط ثديها على السوتيان، من داخل البلوزة الخفيفة، واضحاً. واقتربت بوجهها منه، دون أن تحس، وأراحت صدرها على فورمايكا المائدة بجانب كوب البيرة الفارغ الذي علِقت بحافته رغوة بيضاء طفيفة، والصندوق الصفيح اللامع الذي تخرج من فتحته مناديل ورق بيضاء، وطبق الهامبورجر الصغير بلونه البنيّ الخزفي عليه آثار الصلصة الحمراء الداكنة الجافة.

قالت: لا أعرف كيف أقيم علاقات بالنساء. لا شيء مشتركاً بيننا. لا أستطيع، لا أستطيع حقاً، أن أدخل في حديث عن الموضة ووصفات الأكل وأنواع الكريمات ومشاكل الخدامين والفساتين وسيرة الأخريات والآخرين، لا أعرف كيف أضع كل يوم نصف طورناطة من المساحيق والمعاجين ألطخ بها وجهي أو أزوقه. أنت ترى، لا أضع الروج على شفتي. طول عمري لا أستريح مع النساء. فيّ شيء مترجل قليلاً. يقولون عني إنني غفير. وحرس قديم.

ضحك وقال: أنت أنوثة خالصة.

قالت: باركك الله. أنت تجاملني.

قال: بل أعني ما أقول.

بعد العشاء، على القهوة، قالت له: عندي ميعاد مع صديق من السودان، منفي، في زيارة لهذا البلد، طلبني بالتليفون بعد الظهر ودعاني إلى سهرة ديبلوماسية، غير رسمية. تضجرني هذه الدعوات عادة، لكنني لم أستطع أن أرفض. لم أره من مدة. وهو صديق عزيز. عجوز وعظيم.

سأطلب منك خدمة، سوف أرجوك أن توصلني بالتاكسي حتى ميدان الساعة. أنت غير مرتبط، يخجلني هذا الطلب لكني أعترف: لا أجرؤ أن أستقل التاكسي وحدي، بالليل.

قال: أهذا كل شيء؟ حاضر يا ستي. من عيني. سأعتذر وأؤخر ميعادي نصف ساعة.

قالت: يا خبر. عندك ميعاد؟ لا داعي إذن.

قال: إني. . لا يمكن. بسيطة جداً.

ما أن تحرك التاكسي بهما، في العتمة الخاصة الحميمة التي تتأتى في الحيز الضيق إذ يُحْدَق به زجاج النوافذ والمدينة تنسل من ورائه، بناسها وأنوارها من غير صوت، وهدير المحرك الخافت وقوته الداخلية الميكانيكية المكتومة، حتى امتدت يده إليها، من تلقائها، وكانت يدها تتحرك نحوه، في نفس الحركة الواحدة الثنائية الاتجاه دون عمد وتشابكت اليدان بقوة، والأصابع المتقبضة تتماس وتتماسك، والدماء يحسها تتدفق إلى وجهه، لأول مرة في صداقتهما. صوتها يتهدج، تناديه بتوتر ورجاء: ميخائيل. قال: رامة، ماذا يحدث لنا؟ قالت: ميخائيل ميخائيل، لا أدري ماذا يحدث. وكان هذا هو كل الاعتراف المتبادل الأول والأخير. ووقع الصمت بينهما، مشحوناً، مثقلاً بالاحتمالات.

حاولت أن تدفع أجرة التاكسي فرفض وهو يضحك. وتردد السائق لحظة أمام اليدين المختلفتين الممدودتين كلتيهما بمبلغ كبير. ثم حسم بسرعة فقبل منه على سبيل تضامن الذكور. قالت له: تعود بنفس التاكسي حتى تلحق ميعادك؟ قال: لا، أوصلك قليلاً وأشم الهواء. قالت: وميعادك؟ قال: ما زال لدينا وقت.

ونزلا. وسارا معاً، وتأبطت ذراعه بألفة جديدة، وتلقائية. قالت:

سأطلبك بالتليفون عندما أعود، أحكي لك، وأقول لك، على الأقل، تصبح على خير. وضغط على يدها ضغطة صامتة وهو يسلّم عليها. ووقف يرقبها وهي تدخل عمارة سكنية مزدحمة بالنوافذ الهادئة، وسار في غير اتجاه، ذاهلاً قليلاً، مختلطة الأمور عليه، في الشوارع التي يحسّها تحت قدميه كالأمواج، يبحر فيها بأشرعة مبسوطة ممتلئة بريح رخاء.

قال لنفسه: لا، لعلها نسيت أو تأخرت جداً. لن تتحدث الليلة. غداً إذن أسمع حكايتها.

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل عندما دخل بين ملاءات السرير. مرهقاً ولكن متيقظ الحواس، كانت في نفسه خفة، ورفرفة بهيجة، لم يعرفها منذ زمن طويل، غير واضحة المعالم، من غير موضوع.

وعندما رن جرس التليفون عالياً فجأة في السكون العميق المغلق عليه، ومد يده مروعاً ومتلهفاً وغير واع تماماً من نومه، كان يعرف أنها هي. واكتشف أن النور كان مضاء وقوياً، وبجهد غير متصور ردّ بصوت صاح يقظ: هاللو. وجاءه صوتها خفيضاً، أنثوياً، غير مستقر: هاللو يا ميخائيل، أيقظتك؟ قال: أبداً، كنت أنتظر مكالمتك، كيف كانت سهرتك؟ قالت: بشعة. دعنا لا نتكلم عنها. أوحشتني. قال: أنت أيضاً أوحشتني. نظر إلى ساعته، كانت بعد منتصف الثانية صباحاً. قالت: ميخائيل، انني بحاجة إليك، لا أستطيع النوم أريد أن نتحدث. قال: الآن؟ قالت: نعم الآن بالطبع. ماذا تعني؟ أنا في حالة توتر لا يطاق. أقترح أن نتحدث. قال وقد أفاقت منه دقة الأمور: كيف؟ هل تعرفين الساعة كم؟ بعد الثانية والنصف؟ قالت: نعم. ماذا يهم الساعة كم طالما انني ألجأ إليك. قال: لا أدري. هناك مع ذلك أشياء تُراعى. نحن مصريان. سنتحدث كما تشائين، بالطبع، غداً صباحاً. كأن لم يعد يفهم تماماً ماذا يحدث. وكان خائفاً جداً. قالت: كل ما أريد أن نتحدث.

نتحـدث. نون تـاء حاء دال ثـاء نتحدث. كـانـسـانـين راشـدين عـاقلين، أحدهما بحـاجة لـلآخر. أنـا بحاجـة إليك. هـذا كل شيء. كـان صوتهـا مهتزاً، وعرف أنها شربت أكثر مما ينبغي قليلاً وأحس العرق يتقـطر من كل مسام جسمه غزيراً، ووجهه حارّ فيه صهْد. وصمت، لم يقل شيئاً.

قالت: نعم أنا أفهم إذن. أنت على حق، بلا شك. أنا مخطئة.

وبدأ صوتها يتكسر، انهياره لا يمكن مقاومته. قالت: أرجو أن تعذرني. والدموع تسـلل، وتتضخم، وتتفجر، في التليفون. اعذرني، أنا لا أقصد ـ والكلمات تضيع وتنطمس في نوبة اجهاش لا تطاق، في ألم وحس بـالرفض والضيـاع، من الليل والـوحدة التي لا أمـل يمكن أن يخفف وطأتها. وكان العرق ينفصد منه، بلا مقاومة، لا يُـرد. قال: لا تبكي. أرجـوك. أرجوك. يا رامة. لا تبكي. قالت، متقطعـة الكلمات: أنا لا أبكي. لا أبكي. قـال: سأكون معك بعد دقائق. أرجوك. سآتي. لم تستطع أن تـرقأ دمـوعها وهي تقول، ولكن بصوت شـاكر ممتن مستسلم ومجهـد: لا، لا داعي أن تزعـج نفسـك. إنني أفهم. أنا الآن أحسن حـالاً. قال: خـلاص يا رامـة. سآتي إليـك. فوراً. أريـد أن آتي. طول الـوقت كنت أريـد أن آتي. قـالت ومـا زالت آخر الشهقات الخافتة تعطي لصوتها حضوراً في غرفته، أنثوية تغلفـه وتحتضه في عناق ناعم ومميت: أنتظرك.

غـيّر الفانلة فقـد كانت ابتلت بـالعرق، ولبس في دقـائق ظنها مع ذلك سـاعات، وعنـدما خـرج التبس عليه الأمـر، مـرة أخـرى، فنـزل أولاً إلى الـردهة المـظلمة، كـان قد خيـل إليه في اضـطرابه أن الميعـاد هناك، وأنـه سيجدها تحت، وفوجىء بالكراسي النائمة والمصابيح المطفأة والفراغ الليْـلي المحبوس، وعاد متحيراً يسائل نفسـه.

عندما دخل غرفتها فتحت له الباب بسـرعة ولم تغلقـه. قالت لـه: أغلق

الباب وراءك يا ميخائيل. كانت النافذة الجانبية هي السماء الوحيدة. وعشيت عيناه قليلاً وهو مضطرب الحركة، في العتمة. قالت له: لا، لا تشعل النور، لا أريد النور الآن، لا أحتمله.

كان الحمام مضيئاً من وراء زجاج الباب المردود، والنور يتسرب كأنه ماء خفيف.

قالت له: تعال. اجلس بجانبي على السرير.

وهي تمهد له مكاناً، بيديها، على حافة الفراش. كانت تحت الملاءة البيضاء، يحدس سمرة ذراعيها العاريتين في العتمة الخافتة التي تتبين له الأشياء فيها، شيئاً فشيئاً، وقبة الكنيسة تبدو له، مسطحة، ثقيلة، في اطار النافذة.

وجهها ما زال فيه توتر عاصفة الدمع التي انجابت، خدّاها وجفناها تبدو مدورة كأن فيها انتفاخاً طفيفاً يزيدها جاذبية.

قالت: سنتكلم الآن. لا شيء إلا أن نتكلم.

ولحقتها شهقة دموع متأخرة فانحنى وقبلها تحت عينيها، ومسح بيديه خدها، وجفنيها، في حركة تهدئة صامتة. فرفعت ذراعيها، وخلعت النظارة ببطء من على عينيه، بحركة متمهلة حريصة عليه، ووضعتها بجانب المفاتيح، وعلبة السجاير، تحت الاباجورة المطفأة.

قالت: تعال نتحدث. نتحدث. لو أننا حللنا هذه المسألة، تحليلاً منطقياً، موضوعياً، فإننا. . .

وضع يده على شفتيها، وقال: لا، لا يا رامة. لا داعي للتحليلات المنطقية، الموضوعية أو غير المنطقية، غير الموضوعية.

قـالت: ومن النـاحيـة الديـاليكتيكية، فـان الوضـع يمكن أن تنـظر إليـه باعتباره . . .

قـال بابتـسـامة خفيفـة، حانيـة: لا أريـد أن نـنـظر إلى الـوضـع، بـأي اعتبار . .

تعلّقت به شفتاها، وكانت استثارته مفاجئة وفورية، من ريح خمر خفيفة عطرية في فمه. كانت قبلتها الأولى مفاجئة، على غير انتظار. عرفت شفتاه طـراوة الفم المفتوح المتشبث البـطيء الحـركـة. كـان في فمها طعم سكّري خفيف، حلاوة الثمرة الناضجة التي تُقتطف من على بز الشجرة.

ومال يحتضنها بين ذراعيه وأحس عـلى صدره ثقـل نهديها العـاريين تحت قميص النـوم الأبيض النايلون الخفيف. كـانت موسيقى الأفـلاك جليلة في دمائه، والسـاوات تدوي بنغمات سامقة مجيدة. كان تلاصق الصدرين تحققاً ووفـاءً لمطلب أوليّ عميق لا يمكن أن يـوضع مـوضع الـسؤال، ذراعـه وراء كتفها تضـم روعةً ما لم يكن يعرف أن العالم يحتويها.

قالت له: تعال جنبي.
كانت حركته سريعة وتلقائية ولا تفكير فيها.
قالت له: ضع يدك على صدري.

وأحس بكـارة الصـدر الناهد وعذريتـه الغريبـة، وهي تنظر إليه بعينين فيهما نشوة رقيقة. لا حاضر، لا مـستقبل، لا ماضي هناك. اللحظة التي لا تنتهي هي كل شيء. لم يكن هناك تكشُف ولا لهوجة تعرُف جديـد. كانت المعرفة بينهما قديمة قدم الزمن، راسخة، لها قانـونها كأنـه شيء أبدي. هـذا النهم المصمم، هـذا السعـار المنير، هـذا الشبق الصـافي، ليس فيـه الآن ضعف الحنان الانساني. ارتفع بهما قارب الشهوة على أمواج عميقة، ساكنة الصفحة، بين أعواد البوص، يـداه تعزفـان طريقهـما بين الاحـراش الغنية

المبتلة وهو يُبحر، في غير زمن، بين الساقين الناعمتين الممتلئتين اللتين لا يراهما، وجهه بين نهديها.

قالت: غداً سوف تعود فنتحدث بلهجة رسمية، كما تقضي الأصول، أما الآن فلدينا هذه اللحظات معاً.

قالت: سوف ننتظر متعتنا معاً، متعة بعد متعة، كُلاًّ بدورها، لا نتعجل.

لم يكن هناك بينهما الا فرح ثابت الموسيقى، عربدته محكومة بإيقاع صارم وتلقائي غير محسوب.

قالت: انتظِر، حتى نأتي معاً.

الأمواج تصطفق بين جسميهما المتعانقين، وفخذها العريضة على ساقه شراع مبسوط ثقيل النسيج يملأه هبوب رياح البهجة. كان يسمع مع ذلك، من بعيد، رفرفة جناحين شاسعين يملآن السماء المحبوسة في إطار من نار خافتة وضّاءة فوق فرح الأجراس التي تجلجل في بشارة تفجّر البعث الجديد، أيها الموت أين ظلمتك؟ ثم تحطمت السدود بعد أن ظلت صخورها الناعمة ترتعش تحت توتر متعته التي لا تطاق وانبجس هدير الموج الأخير وكانت صرختها الوجيزة حادة مكتومة من ألم اللذة واهتز القارب الذي يحملهما معاً، هزته النهائية بين الأحراش، وترنح، وغرق في البركة الدفيئة التي ترقرقت مياهها وسكنت فوقها الريح، بين سيقان البوص الرقيقة الجوانب محترقة جففتها الشمس.

كانا مرة يسافران بالقطار، عندما قالت له، على غير انتظار: كنت قد اغويتك. لو لم أبك، وأنا أطلبك في التليفون، ما كنت قد جئت.

قال له إبراهيم، مرة: آه، رامة، هذه المرأة عجيبة. كل شيء عندها يمر من هناك، من تحت، كل شيء، خسارة. هذا الذكاء والثقافة والتوقد،

والفداء بالنفس، كلها تمر من هناك. عقلها كله، عملها، ولعبها. علمها الواسع في الآثار، وثوريتها، كلها في خدمة نصفها السفلي. وقال: كانت جميلة جداً، صحيح، فيما مضى. وعندما ذهبت إلى بور سعيد، كانت شيئاً حرفياً، ولكنها الآن. من ينظر إليها الآن؟

قال ميخائيل لنفسه. كل شيء يمكن أن يتحول عند الكلبيين إلى قالب مكرور. كلبي. أهذه حكاية امرأة نيمفيه مثل غيرها؟ إن شيئاً حياً. رقيقاً. نعم. هو جسم الحقيقة. لا تمكن أن يكون صيغة كلية، لا يمكن أن يكون قالباً من قوالب الحُكْم، جاهزاً، تبتذله الأيدي ويلغو به الناس.

قال لنفسه أنا، أنا، أنظر إليها، وأراها. أعرف فيها جمالاً لا يتصوره أحد، رقة توجع القلب، ضعفاً طفولياً وقوة صخرية، وجوعاً ليس من هذه الأرض. أعرف فيها جسد المرأة يسيل بين ذراعي، وحائطاً حجرياً قاسياً لا يُسار. الحنان الذي لا يوصف، واللامبالاة المطلقة التي لا تحس حتى بنفسها. ماذا يهم إن كانت أقدام جحافل الغزاة قد وطئت لحم حقيقتك الطري، في أزمنة لا نهاية لها؟ الصخر باق، وخصب اللحم متجدد. من أحراش مستنقعات الدلتا حتى الجنادل الغارقة، أفراس النهر الجشعة الأفواه تلتقم أطناناً من عنب النجوم الساقطة الجافة، تنزاح مياه النيل من وراء السد العظيم وتتشقق الأرض وتنفتح فيها خطوط الجراح المتشابكة من غير دماء. الأشباح والعيلات والمسوخ من حواليّ، من حواليك يا نيمفيّة، يا حورية النهر الأسمر. الظلال في حدائق كيريكي تتلاشى في شمس الظهر المحرقة، عند جبل أسوان، جذوع أشجار متلوية، سوداء الخشب عارية من الورق، ليست تلك خطاياها، ليسوا هم خطاياها. ليس عندها خطيئة. خطيئتي أنا أنني لم أعرف كيف أعلّمها حقيقتي. ظللت عندها بلا حقيقة، بين الظل والنور. ما حقيقتي؟ أثَمَّ لي حقيقة؟ لماذا أريد أن أراها، فقط، في مرآتها الخضراء؟.

قالت له: أحبك، على هذا النحو، عندما تكون عذباً، رقيقاً، لا أحب وحشيتك.

قال لها: أريدك أن تفتحي لي حياتك الداخلية كلها، حتى بكل ما فيها مما يصدم ويعذّب ويخيف. سوف أحياها معك. أشاركك هذاء الجنون، إن كل هذا اسمه. قد يجرحني هذا جرحاً غائراً، نعم، الجراح مفتوحة من الآن، على كل حال، وقد لا تندمل أبداً. أنا على استعداد أن أحيا معك، بهذه الجراح. أنا قادر عليها. قد يكون في ذلك بروزنا المشترك. لا أعرف. ما أعرفه أن بقاءك وحدك، في داخل وحدتك، وحدة بعد وحدة، بلا هوادة، كل منها لها قسوتها الخاصة المختلفة، انعزالك على نفسك، بيديك، من داخل نجم مقفل على ذاته. . هذا إلام ينتهي؟ أهذا ما تريدين؟ أم أن هذا ما لا تملكين إلاه؟ ليست هذه، لا يمكن أن تكون، ارادتك. ولا شيء مضروب علينا، من خارجنا، أنت تعرفين هذا. لا حاجة بي أن أقول لك.

قال: أنت تشاركينني كل لحظات حياتي. أريد المشاركة الكاملة.

قالت، دون أن تقْبَل، لحظة واحدة: المشاركة الكاملة أمر يتطلب الكثير جداً

قال. نعم

قالت: ألم نتفق على أن الكمال ليس من هذا العالم؟ يكفي جداً أننا ننال ما نستطيع، إذا استطعنا.

كان في وهمه أنه من الممكن، في داخل سجن المواضعات التي أقمناها لحياتنا، أن يصل إلى هذا المطلق في حبه، يريده في قلب المستحيل، أن يصل إليها كلها، وأن يعطيها نفسه، كلها.

قال: المعرفة عندي هي الحب.

قالت: لا شيء. ماذا تريد أن تعرف؟ لا شيء. الخواء. الفراغ.

قال: أنتِ؟ في وسط هذه الزحمة؟

قالت: أسوأ أنواع الخواء. وسط الزحمة. الناس والمشاغل الملحة والمشاكل المتلاحقة. وكل شيء مفرغ من الداخل.

قال: ليس الفراغ إذن. بل الفرار.

قالت: أريد أن أفر منك.

قال: أليس هناك نوع من الفرار إلى الأمام، بالمواجهة؟

قالت: لم أنم بالأمس، من الحر.

قال: قلت لي إنك نمت جيداً.

قالت: نمت جيداً، نعم، ولكن قليلاً.

تثاءبت، ووضعت يدها على فمها، ونظرت إليه نظرة نصف اعتذار.

سأل نفسه، لا يعرف كم مرة سأل نفسه: أكان ذلك فعلاً من أفعال تدمير الذات، أم من أفعال تحرير الذات من بين أنقاض تدمير سابق، متكرر، لا ينتهي؟

قالت: أنا أترك الأمور تمضي على سجيتها، آخذها كما تأتي. معظم الأشياء لا تنتهي أبداً إلى تمامها. كم من حولنا، وفي داخلنا، من أشياء نصف مصنوعة، نصف كاملة، أي نصف ناقصة أيضاً، بالضرورة.

لم يقل لها، بالطبع، هل تعرفين شيئاً عن الساعات الطويلة الطويلة التي تمضي بي، أفكر فيك، لك، منك، أتحدث إليك بهذه النجوى الطويلة والمريرة والممضة، وأخجل من سذاجتها، من أن هذا كله شيء نصف مطبوخ، نصف نيء، نصف خام. ومهدر، لا يهم أحداً في شيء.

قال لنفسه: تعذبني الموسيقى هذه الأيام. تغزوني من غير مقاومة. غزواً حسياً، على مستوى الحشا والدماء. وتتملكني على الفور، تفتح كل الأقفال

وتنصبّ في شراييني ثقيلة، كأنها سم من نوع مستحوذ تتشربه كل خلية في كبدي، مرحبة، متطلبة، لغتها غير المحددة هي صرخة متجاوبة. أين موسيقى العقل وسحر هندستها الصافية خطوطها؟

قال لها: من حسن حظك على الأقل أنك غير رومانتيكية اطلاقاً. لا أعرف هل هناك عندك نوع من الفرار من الرومانتيكية؟

وكان يقصد الفرار إلى الحسية، إلى البحث المستمر الدؤوب عن انفراج لتوتر عضوي لا ينفرج أبداً، في نوع من الإغراق، والغرق، كان يدهشه ويفاجئه أحياناً هذا الهدوء عندها، والقبول، والاستسلام للركود، في الصبح الذي يمتد عندئذ أمامه إيقاعه بطيء، موحش، كأنه لن ينحسر قط. حتى قبلتها يتغير طعمها ولا يجد فيها حدة ولا استجابة ولا ريق الحلاوة الخفيف. ومع انعدام اليقين يتسلل الخدر إليه، ويسقط على ذهنه صمت رازح الوطأة، وحتى قلبه يسكت عن الحديث.

قالت له: عندما يحب المرء، عادة، تتدفق الحيوية، وتحدث في كل لحظة انبثاقات الخلق، والابداع، والكشف، حتى وأنت تشرب فنجان قهوة، كأنك تصنع العالم من جديد.

فلم يقل شيئاً عن تخبطه بين موجات الحيرة والتساؤلات التي لا رد عليها. موجات صغيرة، عكرة تسد الأفق، بلا أمل في الوصول إلى صفحة البحر الشاسعة الممتدة إلى غير حدود المتمدة لتمتزج بالسماء المفتوحة.

في عينيك كآبة، وفي سماء نوفمبر اشراق أزرق صاف وبرد الهدوء. المدينة البحرية، مدينتي، تنسرب في ظهر طريقها المرصوف. طعنة عينيك ثقيل يشق صفحة نفسي، حتى القرار. وأنا على خطوة منك، في ظهر الطريق. وأنت، يا حبي، ما أبعدك، أوهم من أوهام حبي، ما أرقبه في نظرتك؟ أهذه النظرة وعمق ما فيها من غربة، أهذه النظرة منك أم من

وهمي، وهذا الحب، يشقيني ويملكني ويرديني، أهـذا الحب من وهمي؟ وما في نفسك يا رامة، أحزن مرهف كاب، أم فراغ؟ فراغ ظهر نوفمبر؟ لست أدري لست أدري عنك شيئاً يا حبي الملغز. لست أعـرف معنى نظرتـك، لست أعرف من أنا عندك. لست أعرف من أنت، يـا حبي. فراغ الشتـاء في ظهري المكتوم. مدينتي تهرب مني. الناس والأوهام وسياراتها، شـارات المرور والأبواق صلصلة الترام وعيون النـاس مدفـونة في أسرار همـومهم، صامتة كلها في الطريق. كلها تختفي في صفاء نـوفمبر، في سحـابه الأبيض البعيد معلقاً على سقف المدينة. في محطة الرمل، لم تبق إلا نـظرتك سـرّاً لن أعرفه.

كـانت النافـذة العريضـة في الأوبرج مسـدلة الستـائر، والغـرفة غـائمة الضوء، كأنما هي داخل حوض زجاجي مائي نزح ماؤه ولكن الهواء ما زال رطباً رازحاً، وقـارون السـاكنـة الثقيلة من وراء النافـذة لها حضـورٌ مـا في الغرفة الصامتة، أنفـاسها الملحية تهب من وراء الخشب، وصرخة نـورس ثاقبة تصل إليهما من بعيد، ثابتة في السماء المحجوزة لا تـسقط.

فتحت له الباب، ووقفت بجانب السرير، جسمها الفارغ تحت بلوزة هندية خضراء باهتة الخضرة بهـا نقوش وأزهـار ذهبية داكنـة، تنزل إلى مـا فوق ركبتيها، وتترك ساقيها عاريتين. وقد نهد ثـدياهـا تحت البلوزة، ورفعت حافتها قليلاً، من الأمام. شعـرها مفكـوك يترقـرق في حفيف جاف، سـاتاً مدارياً فيه غضوضة محتشدة العصارات.

قـالت بعد نـزولي من القطار في المحطة اصطدم الشيـال وهـو يحمـل الحقيبـة بظهري والظاهـر، والله أعلم، أن قفل الحقيبـة كـان مفتـوحـاً، تعرف، اللسـان المعدني الصغير الحاد، أحسـته يخدش ظهري. هناك جرح هنا، لا أستطيع أن أصل إليه

واستدارت فجأة عنه، ورفعت بلوزتها بكلتا يديها.

كانت عارية تماماً تحت البلوزة، وفوجىء بظهرها الأسمر البديع رخامياً داكناً ولكنه غض زلق ناعم الانسياب متين التكوين. وبه خدش فعلاً رفيع حاد لا يكاد يبين. ولأول مرة يرى ردفيها وهي واقفة، مسبوكين، ثابتين، ممتلئي الانحناءات.

قالت بصوت المحادثة الهادىء كأنها في غرفة استقبال مليئة بالناس: انظر، هل ترى الجرح؟ هل به دم؟ ضع يدك عليه.

الحوت يعوم في أعماق المحيط الساكنة المعتمة الضوء، خطوط جسمه الهائل فيها سلاسة الانحدار. وظل يونان صائماً حتى مغرب الشمس.

وضع أصبعه بحرص على أثر الجرح، كان خدشاً رفيعاً في لحم ظهرها الرقيق لا يزيد عن نصف أصبع في طوله، تحت عظمة الكتف. أحس كأنما كان يشم رائحة رعشة كهربية، تندلع، تسري في جلده، من التوتر، والترقب. كانت دماؤه تضرب، ولكن الهواء الداخلي يشل يقظته ويبقيه في خدر لا يفهمه. وكان صوته محتبساً، وخشي أن يتكلم فيتحشرج، كأنما نظرته فقط هي كل ما بقي فيه حياً.

قال أخيراً، دون أن يتحرك: نعم، بسيطة. لا شيء حقيقة.

أسدلت البلوزة على نفسها. كان لنزول النسيج الحريري على جسمها وانتهائه فجأة على منتصف فخذيها، صوت الاحباط.

وقالت له وهي تستدير إليه: أنت متعب من القطار. كان السفر مرهقاً. تفضل اجلس قليلاً.

واستدارت بحركة سريعة، تنحني لتسوي المخدة على السرير، وتجذب مقعداً إليها، وفي لمحة سريعة كانت وهدة ردفيها المشقوقة، مثيرة. لكن

اللحظة كانت قد مضت. كأن جسمها قد اتخذ قراراً، بالالتفاف على نفسه، مقفلاً، يصدّ كل تماس.

قالت له، بعد ذلك: أنت لا تحبني.

قال، وهو لا يصدق ما يسمع: أنا؟

قالت: لو كنت تحبني لأخذتني، كل مرة.

ومع ذلك فهل كنت تريدين، في صميم رغبتك، الاخفاق؟ عمداً، ومن الداخل، تفعلين ما من شأنه أن يفضي إلى عدم التحقق، لأنك تحسين خطراً، وتهديداً، لأنك لا تريدين المقامرة الأخيرة في لعبة تجاوزت حدودها؟ لأنك عرفت، ببصيرة، بدون تفكير، أن هناك في هذه العلاقة ما يتجاوز عمل الحب المتكرر المألوف، ليس مجرد حاصل جمع طعنات البحث عن نسيان لا يتم أبداً؟

قال لنفسه: ما العمل؟ كيف أتحدى - نتحدى معاً - رغبتها الأصيلة تلك التي أفترض، في الانتهاء إلى الاخفاق الحقيقي - رغم النجاحات المتكررة المألوفة - بهذه العلاقة المتحركة أبداً بلا صمود؟ كيف نفي بنزوع آخر عميق نحو تحقق نهائي، أو نحو نهائية التحقق؟

قال لنفسه: عندما كانت تتحدث إليّ، عن الحب، عن الموت، عن الحرية، وتحت ناظرينا التمثال المجروح من تدفق المياه على صدره وما فوق ساقيه، يرفع ذراعيه المفتولتين برجولة وصلت إلى قمتها وأوشكت على الانحدار، ولن تنحدر أبداً مهما تحاتّت حوافها الحجرية من انسكاب الماء، عندئذ في النيل، الخاوي المنير، كانت تعكس كلماتها، وعيناها، بصفاء عجيب ما يدور بخاطري. ذهنها أداة حادة السنان نافذة إلى الأعماق تخترق بسهولة كل طبقات التحفظ والتحوط والتكتم، لا لشيء إلا لأنها كانت تمد إليّ ذراعيها، بشباكها القوية الناعمة الحلقات، لكي تعتنقني. لم أكن أنا الصياد. فهل كانت رحلة صيدي قد بدأت من زمان؟

كانا يقفان على رأس سلم في الشارع، وسلسلة حديدية متراخية سميكة العُرى تمتد بين عمودين قديمين، فوق الدرجة الأولى الناعمة الحافة من تحدر الأقدام، ينتظران التاكسي. كانت السماء في لون اللؤلؤ الرمادي الفاتح، صافية تحت سحاب أبيض، خفيف، متساوي الشفافية في صباح الليلة التي عرفها فيها، وكان وجهها ساكناً، وكان قلبه هادئاً راضياً، في هذا النور المنطفىء تحت السحاب البطيء الساجي.

وقالت له: ميخائيل، هل هذه هي المرّة الأولى التي كسرت فيها القيود؟ وتحررتَ من الكبت؟

وفكر فيما بعد، أنها لم تقل له أن صنعته في عمل الحب كانت رومانتيكية، بل بيورتانية طهوراً، بمعنى ما، وفيها حنو وعكوف حميّ لكنه كأنه تعبد طقوسيّ، لم تكن في يديه وفمه وجسمه المتوتر المشدود عربدة الاستخدام والابتذال.

قال: نعم. المرة الأولى.

قالت: يسرني هذا.

دون أن تختلجَ نبرة في صوتها، تقرر شيئاً له أهمية ولا يثير انفعالاً. كأنما الأمر لم يكن، عنده كشفاً مروع الجمال، زلزالاً هدَّ جدران حياته عليه، أهال الصخور وحطمها مشققة مشروخة ولكن نظيفة نقية الحواف.

كيف يمكن أن تكون، إذا شاءت ـ أو شاء لها مزاجها ونفرتها ـ عصية على أي تواصل، تصده بمجرد وجودها. .!! حضورها وحده ينكره وينفيه، من غير صوت، من غير جهد!

بعد ستة أيام قالت له: أنت قتلتَ التنين.

وقالت له: الحمد لله أننا اليوم نسافر، ونمضي.

قال لها، معانداً: الحمد لله على كل حال. لكني أنا لا أستطيع أن

أقول، هنا والآن، ورغم كل شيء: الحمد لله، إلا أنه هو وحده الذي يقال له الحمد لله.

قالت له: أنت حر، بالطبع، فيما تقول، أو لا تقول.

إلا أنه صاحَبها حتى المحطة، وقبّلها فيما كان يظن أنه الوداع، ويعرف في صميمه أنه ليس ثم وداع.

من أسنان التنين المغروزة في قلبي تونع وترف سيقان البوص الكثة الداكنة الخضرة.

رآها على سطح بيتهم القديم في غيط العنب، كانت وهي بعيدة، فوق، في نور الصبح الخام، أمام سور السطح المنخفض بأحجاره المكشوفة من غير بياض، فيها خضوع وسمرة أخته عايدة النحيلة الرقيقة الصعيدية الملامح الداكنة العينين، لما وجدها الدفين، وفيها أيضاً خفة ريتا صديقة صباه اليونانية التي سقطت من أيامه دون أن يُلقي بالاً إليها، بشعرها الذهبي الباهت، وجرأة جارتهم اليهودية في بيت محرم بك، زمان، ودسامة جسمها المتلاحم النظيف المكشوف، بوهجه الخاص الذي أثار طفولته المبكرة النفسوج، وفرحها في الصبح وهي تدندن بأغنية متقطعة النغمات سعيدة برخاء جسمها المستريح من النوم. تجمع في نفسها شيئاً من كل نساء حياته، وهو على السلم غير المنير، منحنياً ينظر إليها، من تحت يجمع من على الدرجات، في عتمة غير واضحة، قرطاً بفردتين متناثرتين، وزراير قمصان، وخواتم من معدن لامع، ودبابيس انجليزي، وأزراراً من الصدف مدورة وكبيرة، يداه تحتكان بتراب السلالم في بحثه، وعثوره على هذه الأشياء المنفرطة كأنها انسكبت من علبة الخياطة التي كانت أصلاً علبة حلوى مدورة عليها صورة مدينة أوربية قديمة والتي كانت تحتفظ بها أمه عبر سنين طفولته، يلمها في يديه ويجد صعوبة في الإمساك بها والاحتياط عليها بين أصابعه وهي تنزل من على السطح، وليس لأقدامنا على السلالم صوت

ونحن ننـزل إلى الليل والـظلمة، مـرة واحدة، دون حـاجـة لتفسـير ودون استغراب، ودرجات السلالم تلتف بنا وسياج السلم الخشبي يلمع لمعة قاتمة من السواد والقدم.

واعرف أيضاً أن كل شيء معد لـلانتقال إلى بيت آخـر، وعربـة الكارو الكبيرة بالحصـان على البـاب، والحزم واللفف مـربوطـة بالحبـال الرفيعـة، والصناديق والأقفاص الجـريد الخشبيـة التي كانت الفـراخ والخضروات تأتي فيها قد امتلأت بكراكيب البيت وغـطيت بقطع قـديمة من مـلاءات السرير البيضـاء وربطت بـالدوبـارة، والدواليب والكـراسي والموائـد قـد رُصّت في العربة رصاً محكماً بعد أن فكت اجزاؤها ووُضِعت مسـاميرها وصـواميلها في درج مخصوص وعلى جنب.

باب الشقة مفتوح فجأة، وأعرف أن البيت منهوب، خـاو، البلاط عـار والجـدران على طـلائها بقـع داكنة قليـلاً في مكان الصـور المنزوعـة بعد أن علقت طـويلاً عـلى الجدران في الشمس والهـواء. وباب المـطبخ يصـطفق، وأرى اللص يمرق في العتمة، حضوره يحتك بي في قشعريرة خوف ومفاجـأة كأنه يأتي من عالم آخر، له قوانين أخرى. شـاب قوي طويل خفيف الحركـة، أراه من ظهره وهو ينحدر جارياً على السلم، بقميص وبنطلون، هارباً كأنه يحمـل معه كـل شيء في العالم. حسٌ بـالفقدان الكـامـل الأخـير الـذي لا يُعوض أبداً. الصرخة المجلجلة في حلقي لا تخرج، وتختنق. أريـد أن يهتز لهـا العالم وتتقـوض الجدران عـلى سماء الليـل المفتوح، صرخـة الاستغـاثـة وطلب النجـدة في اللحظة الأخـيرة من الحيـاة، لا رد عليهـا، ولا نجـدة، واليأس ضربة لا تحتمل. ولكن الصرخة لا تكتمل.

والشهقة مفتوحة، جامدة.

كان يسير في شـارع سعد زغلول، يحث الخـطى، الهواء مبلول يـأتي من البحر، والرذاذ الخفيـف يسقط عـلى رأسه ويضرب وجهـه ضربات رقيقـة،

عندما سمع اسمه من ورائه، على الرصيف: ميخائيل، ميخائيل. فلم يصدق. كأنه دائماً لا يصدق أنه يمكن أن يكون هناك من يناديه، في أي مكان، في أي وقت. كان الاسفلت يلمع، والسيارات تنزلق تبدو دافئة من الداخل، في نور بعد الظهر. والتفت كأنما على غير عمد منه، فانكشفت له رامة، تقبل عليه بسرعة، تحت مظلة مطر مفتوحة ملونة شفافة النسيج، تبتسم، وتنهج قليلاً، ويتقطر الماء من حواف المظلة على جانب كتفها. وتبادلا قبلة على الخد، مخطوفة، كأنها غير مقصودة، ولم تكن هي تتوقعها منه، في الشارع على الملأ. وقطرات المطر تنهمر على وجهه فجأة متجمعة من على طرف مظلتها، إذ مالت بها قليلاً، فينفضها عن نفسه وهو يضحك. وقالت له إنها كانت تجلس في التريانون ورأته من وراء النافذة الزجاجية. وقالت له. في تعجل، إنها قضت بالاسكندرية يومين بالفعل، وأنها مسافرة من بكرة الصبح غداً وأنها تنزل في بنسيون في الشاطىء قريباً من هنا يطل على جبّانة المسيحيين من وراء خط ترام الرمل. قالت له إن الأشجار، وخاصة عندما تستيقظ في غبشة الصبح النائم تحت السحاب الرمادي، خضراء وداكنة جداً وأن ساحة المقابر فسيحة موحشة وأن التماثيل والأحجار شديدة البياض وفي طريقها للتكسر. وكان للرذاذ وقع متظم على قماش المظلة المشدودوقد دخل معها تحته يحتمي، والناس تتدافع حولهما ولا تكاد تلقي إليهما نظرات تساؤل، بلا كبيز مبالاة. وقالت إن صديقها ألفونس هو الذي اختار لها هذا البنسيون الغريب المقبض ولكنه مثير أيضاً وقريب من البحر ومن وسط البلد في الوقت نفسه. ووجهها يلمع بوهجه الأسمر الدفء في هذه الدائرة المقتطعة من العالم، وفي قلب بؤرته التي يحس أنها خاصة بهما وحدهما، معاً. وضحك فجأة من غير سبب فنظرت إليه نظرتهاالمتسائلة المنفصلة شبه باسمة ومحتفظة بابتعادها. وقال: تعالي، سأشرب فنجان قهوة معك. تدعوني إلى فنجان قهوة؟ فقالت: أهلاً أهلاً، تعال أعرفك بمحمود بيه، هو معي في المهمة التي أتيت لها، رئيس تفتيش

الآثار الجديدة، مررنا أمس بكوم الدكة والسرابيوم والحفريات الجديدة في ماريوبوليس، ظريف جداً وعجوز جداً ومهذب جداً وغلبان جداً وأشعر أنه يعتمد عليّ ويحتاجني في كل خطوة في التفتيش وغير التفتيش. تعال.

فهبط قلبه بصمت واكتئاب فوريّ فقد عادا إذن إلى عالم الناس والأصدقاء والزملاء والمجاملات والأحاديث الاجتماعية وكأنه كان يمني النفس ـ كشأنه ـ بوحدة خاصة معها، وقد أحبطت وحدته. وشرب القهوة من غير نفس ولا حماسة، وكان الوداع فاتراً ومؤدباً وغير حاسم، كعادته.

١ - قناع من النحاس فاغر العينين

كما يحدث دائماً، كانت أوهامه تجوس حولها، يحلم بها بغموض، مفتوح العينين، ويهجس بالحديث إليها. وعندما سمع الطرقات الخفيفة على الباب، فتح بدون اهتمام فإذا بها واقفة. لم يصدق، وخطف في ذهنه أن في هذه الوقفة بالباب عنصر المعجزة. كأنها وهي هناك قد تخلقت من فعله هو، بقوة هواجسه، كأن شيئاً في النفس قد تجسد.

لكن الغرابة ما لبثت أن تأكدت عندما رأى التعبير على وجهها كأن القناع الجميل في حرج الانهيار.

قالت له: ضربت الجرس ولم أسمع صوته في الداخل.

في عينيها ضغط يهدد بأنه لن يُحتمل، وما يشبه الخجل.

انتبه إليها تحمل على ذراعها، إلى صدرها، شيئاً صغيراً وحياً ملفوفاً عدة مرات في فوطة بيضاء.

قال في حيرة، مبهوتاً: تفضلي أهلاً وسهلاً.

جلست على الاستوديو تحت النافذة المفتوحة الستائر وكانت الشمس من ورائها والصبح باشعاعه الخفيف خلف رأسها وشعرها المرفوع يجعل من سمرتها لوحة داكنة ناعمة الملمس قديمة، في هالة من الضوء المائيّ القوام، وفي هذه اللوحة كانت في عينيها نظرة مشتعلة أوقعت في قلبه، مرة أخرى،

السرّ وتعبَّدَ الاعجاب والتوجس. ورأى على الفور أن في ذراعها قطة صغيرة لا يكاد رأسها يطل من الفوطة البيضاء، رمادية اللون بخطوط صفراء، هامدة الحركة تحدق بعينين ثابتتين لا يند عنها صوت. أوشك أن يضحك لكن نظرتها أمسكته.

قالت: ميخائيل، اعذرني، لم أستطع أن أنزل من غيرها. سخنة انظر، هات يدك. نعم ضع يدك عليها. تحس بالحرارة؟ أليس كذلك. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ مريضة جداً رفضت الأكل واللبن، حتى الماء تشممته وردت أنفها عنه.

كان مأخوذاً، لم يدر ماذا يمكن أن يفعل، ماذا يمكن أن يقول هنا أن تفعل.

قالت: عندك ماء فاتر. هل يمكن أن تسخن لي كوب ماء.. لا، سأسخن أنا الماء. تسمح لي؟ سأسقيها. لا تقبل اللبن أو الطعام. حاولت أن أغريها بالأكل. كانت تدير رأسها عن كل شيء.

كان صوتها قد بدأ يتكسر. ولحقه منها هذا الجزع واللهفة.

أخذ منها القطة الملفوفة، ووضعها برفق على الفوتيّ بجانبها، تحت المسند، كأنما يحميها، وحاول أن يسقيها ماء، فلم تفتح فمها، ولم تهتز عيناها، كان جسمها الضئيل ينبض نبضات سريعة ظاهرة، ويدها الأمامية الطويلة الرفيعة مرتخية منكمشة المخالب.

فوضع ذراعه على كتفيها وحاول، بشجاعة، أن يرتفع إلى مستوى المهمة، وإن لم يستطع أن يتخلص من حسه بشيء من السخرية والمفارقة والضيق وادراكه في الوقت نفسه أن هنا شيئاً ما لا يفهمه تماماً وغير مثير للسخرية أبداً. اقترب بوجهه منها وقبلها على جانب خدها قبلة خفيفة وقال:

- لا تراعي. لا تقلقي. أليست قطة؟ والقطط بسبع أرواح. سوف تعود لسابق عهدها، كما كانت، حلوة صحيح.

تقبلت قبلة ونظرت إليه باستنجاد وعتاب معاً:

- صحيح؟ أنا خائفة. لن تموت، لا يمكن أن تموت.

وهي تربت على ظهرها لا تكاد تلمسه من الرقة.

قال: لا. لن تموت. بالطبع لن تموت

قالت: لن أقبل أن تموت. عدني أنها لن تموت. عدني. أريد وعداً منك.

وانفجرت بالبكاء فجأة، أجهشت بحرقة والتياع بصوت مكتوم. دموعها مستديرة، رائقة، قطرة بعد قطرة، منفصلة كل منها عن الأخرى، تتقطر على ملاسة صفحة خديها، وصدرها يهتز، ببكاء لا يتوقف ولا يقتنع. أخذها إلى حضنه دون كلمة، يمسح شعرها ويضغطها إليه على مهل، وهي تمضي على رسلها في سورة البكاء المختنق، ولكنها تأوي إليه في غير نفرة ولا تأب، تعنو لضمته وتسلم ثقل صدرها إليه، ترتاح عليه، ويده تضغط جانب صدرها الوفير، من الناحية الأخرى، ببطء وحنو، وأدار وجهها إليه ومسح بفمه دموعها من غير شهوة ولا تعجل، وأحس على شفتيه مذاقاً حلواً ممتزجاً بالطعم الملحي الخفيف وخطر بباله، في محبة، أن هذا الطعم السكري الباهت غريب جداً، وتلمست شفتاه فمها المفتوح المبلول، في نوع من التعزية والمطايبة الشبقية الهادئة الايقاع. ثم هبطت يده من على مؤخرة عنقها، تحت الشعر، تمسه مساً ثابتاً ونزلت أصابعه بسوستة البلوزة الخلفية، وفكت مشبك السوتيان بخفة ودون تعقيد، كان ظهرها القوي هادىء العضلات تحت يده المبسوطة التي تلتف الآن بجانب صدرها تحس مَلاءته ووزنه، وتضمه إلى ناحيته، وتحت شفتيه حدة أسنانها الصغيرة

البيضاء، كان يدعك ظهرها من فوق الخصر الذي يضيق الآن وفي يده سخونة جلدها المحكم الوثيق المشدود، غضاً ودمثاً على جانب ردفها المتين المليء.

رفعت إليه وجهها الباكي وقد تعلقت به القطرات الصافية، ثابتة، لا تنفرط: ليس في قسماته المستديرة تشنّج البكاء ولا تقلص الألم، وفي عينيها تطلّع، وقد أخذ يخف ارتطام أمواج العاصفة. وجهها؟ كم قناعاً؟ وجهها الحقيقي في الدموع. دموع الشهوة والنداء إلى حنو الرجال. صفاء هذا الوجه واستدارته من غير سوء، والعينان الثابتتان الغريبتان بعد أن تقطرت منها المياه النقية في شكاة شدُّ ما توجع وتعتصر الحنان. وتبادلا القبلات وما زالت في أنفاسها بقية الاجهاش الذي يمتزج الآن بلهفة أخرى يهتز لها جسدها. ورفعت يدها، ضعيفة، أصابعها تكاد تكون غير محسوسة، تضغط وجهه إليها. وثديها العاري يملأ الآن يده، وفي هذا التقارب الحميم كله ليس هناك اندلاع رغبة في إكمال عمل حسي ما، ولا الانتهاء بشهوة. بل هي تلجأ إليه، تلوذ به من عصف شيء شرير ومتربص، كأنما تقوم بعمل سحري. وهو يتلقاها بين ذراعيه، في حضنه، بنوع من الحماية، يواجهان معاً ضربات غير مرئية، يتشاركان دون حول ولا قوة في عملية تسليم طفولي.

قال لها: لماذا لم تحدثيني بالتليفون، وتخففي عن نفسك؟ لماذا لم تقولي لي؟

قالت: أكان يرضيك أن أنفجر باكية على التليفون؟ كنت شديدة الاضطراب. لا أدري ماذا أفعل؟

ثم قالت له وهي تمسح دموعها بظهر يدها، كأنها بنت صغيرة: معذرة. كنت طفليّة. كان هذا شيئاً طفلياً. سأذهب بها الآن إلى البيطري. أعرف واحداً عيادته قريبة.

وعندما سألها في الغد: ماذا حدث؟

قالت: ماذا؟ ماذا حدث؟

قال: القطة الصغيرة.

قالت بصوت ليس فيه مبالاة، كأنها نسيت، وبلهجة نهائية لا تريد استطراداً ولا شرحاً ولا تعليقاً:

ـ ماتت.

فقال، على الرغم من ذلك: هل تعرفين عندما يموت لنا أحد في الصعيد نغسل ثيابه في النيل. ونحن أيضاً نُلقي أول حلقة من شعر الطفل في النيل.

وتساءل لنفسه: أدلك حتى نضع النهاية في مياه النيل، ونودعه سر البداية أيضاً

فلم تقل شيئاً. كأن فيما قال ما يزيد عن الحاجة، لا لزوم له.

وكأنما اشتركا في جريمة. مشاطرة الإثم هنا من معالم الحب أم من آيات التباعد والانقطاع؟ كان حسه بالذنب مما لا تفسره اطلاقاً هذه الميتة الصغيرة السخيفة التي لا يد له فيها. قال لنفسه: ليست هناك ميتة صغيرة، ليست هناك ميتة سخيفة. وقال: لا يد لي فيها؟ وقال: الآن أفهم ما معنى الذنب في الحب. وأفهم أيضاً معنى جرائم الحب. ما كنت لأتصورها قط. وهذا الحس بالأثم الذي يريد أن ينطلق في لوثة التدمير، وطلب المستحيل.

عندما دخل غرفة النوم الصغيرة، قبيل الفجر، أحس الغيطان والنيل من وراء الحيطان غير المدهونة، وكانت الكلاب ما تزال تنهنه في آخر وجبتها، على الباب. ولمح من وراء النافذة المفتوحة جذوع النخل العريضة بصفائحها الخشبية المشققة المحنية، تحت مربّع النور من المصباح الكهربائي الوحيد العاري، عليها طبقة من التراب. كانت قد قالت له: هذه غرفة منال، تنام الليلة عند إحدى صديقاتها، والحمام من هنا، تصبح على خير.

وتركته إلى غرفتها. لم تكن معه بيجامته، ولكن الصيف رحيم، وكانت الملاءة الخفيفة الزرقاء، نسائية ناعمة على جسمه، لها حاشية مشغولة، وبها نفثات من نوم بنتٍ لم تصبح امرأة تماماً، عطر خفيف جداً من جسد أنثوي لما يتفتح بعد، وعلى الحائط بوسترات كبيرة: جيفارا والقيس برسلي وحِصانان أوربيان لهما سيقان قصيرة غليظة يجريان على سيف رمال بحر ويتطاير حول أعرافهما وأفواههما المفتوحة نِثار مياه جمدتها عين الكاميرا في نسق ضوئي موسيقي وعلى الحائط مكتبة مفتوحة وبها بيك آب من طراز قديم ورصّة اسطوانات بعضها سوداء عارية وبعضها في أغلفتها الممزقة الملونة، وبين كتب المدرسة ومجلات الموضة والروايات الفرنسية المُصغرَّة والمجلدات الانجليزية والقواميس، عرائس صغيرة وكبيرة من قماش حائل وعقود خرز مرمية على الرف متلوية وعروسة بلاستيك صغيرة جداً مخلوعة الذراع مما يلعب بها الأطفال الرضّع في شهورهم الأولى، ما زالت محتفظة بها. أحس أنه يقتحم حرماً طفلياً لا حقّ لأحد في دخوله. وارتدى بنطلونه مرة أخرى ووضع قدميه الحافيتين في حذائه، من غير جورب، وسار إلى الحمام بحرص، يحس في البيت النائم عيوناً متيقظة وأنفاساً مترصدة. ونزل من الحنفية عمود صغير من الماء واهن القوة في غير تدفق، وعاد فمسح يديه في منديله وكانت في الكليم الصغير تحت باطن قدميه خشونة، وتغطى وغاص رأسه في مخدة لينة فطواها طيتين والتقط كتاباً بالانجليزية وقرأ سطوراً عن ثورة كرومويل وسمع مواء غريباً رقيقاً لم يتبينه ولم يفهمه وقام مرة أخرى ينظر حواليه والتقط من على الرف السفلي للمكتبة قطتين صغيرتين وليدتين، كأنهما ضفدعتان، والأجسام الميّتة التي لا تكاد تكون فيها عظام تتشبث بيديه وبحواف المكتبة وتموء بضعف واستغاثة وفتح الباب ووضعهما أمامه وعاد فأغلق الباب وأطفأ النور.

ودخل من ممر ضيق بين صفين من أعمدة رقيقة متتالية لا تنتهي ووضع

ذبيحته على العتبة المرهوبة وسمع صرخة الأوزة السوداء في الليل تحت سكين القسيس ودعائه: «باسم الآب والابن والروح القدس اللهم صبرك على ما بلاك، يا ملاك الرحمة يا ملاك» ورنين الفضة في طاجن فخاري بني وداكن ولامع ومدور البطن والقرابين الحية المتطايرة الريش تزعق بين الأيدي التي سوف تقيم منها محارق يتصاعد منها البخور وريح الشواء والقرفة والمسك العتيق وفي العتمة يمر الرجال من بين الأعمدة إلى هياكل الكاهنات العاريات تحت غلالاتهن البيضاء الشفافة يفين بنذورهن ويقضين حق ايزيس عشتاروت ستة أيام بلياليها، وارتفعت حواليه حيطان من الحجر الألفي الراسخ، حتى سحابات العتمة في السقف البعيد المنقور المفتوح على السماء، وأعمدة باسقة ضخمة الاستدارة لا تحيط بها أذرع عشرة رجال ولا تكاد تُرى نهاية دورانها الجسيم الكامل الامتلاء رؤوسها تيجان من اللوتس الصوان وعيدان القصب الحجرية الغامضة في ضوء نجوم يمسها ولا تلذع أصابعه. على بلاطات الأرض الرخامية العريضة المسبرية من مس الأقدام الحافية وتقلّب الأجسام في عذاب لا ينتهي، في قبضة قهر دائم لا ينقطع، بين الأعمدة المتماسكة التي لا تهتز ولا تسقط أبداً تخدشها أظافر المحتضَرين عشقاً وجوراً ومجاعة ولا تسقط أبداً تتشبث بها عيون الأطفال الثابتة التي أطفأها الحرمان وأكلها الرمد ولا تسقط أبداً. الغيطان تحت عتبات الأعمدة تغطيها مياه الدميرة الساكنة الحُمرة تتشرب عجينة الخصوبة حتى أعماق الرحم الأسود والصموت وعم تادرس تحت صف الأعمدة الخارجية الرقيقة ينحني في الليل بالفأس على القيراطين وقد لف رأسه بمنديل محلاوي كبير مخطط قاتم الحُمرة وحبات العرق قد تعلقت بعظام وجهه المشدودة الشائكة، وصفّ طويل من الرجال لا يتكلمون ولا ينظرون إلى شيء يقومون وينحنون في ايقاع محسوب حتى نهاية الغيطان تحت سفح الجبل. متى يخلُص من عذابهم؟ رامة نائمة تحت القمر بجسدها الرائع المليء الفاتح السمرة بلون حبوب القمح الذي استوى وطاب داخل

قشرته الرقيقة الملتصقة باللحم. أفواف من الحرير الموصليّ الشفاف أحمر قانياً يتطاير حول ذراعيها اللتين تخرجان، بلا مخالب بل لينة الأظافر، من أكمام واسعة هفهافة، تنهض على رُوَيْدٍ وهينة ترقص في النار التي لا يحترق فيها جسمها المتمطّى بل يترعرع ويرف ويضيء بناره الداخلية تتجاوب مع ألسنة اللهب وعناقهما طقوس على موسيقى بطيئة من بياض رخام الأرض وتضرج أطباق متراكبة شفافة من نسيج لا يُرى له سدى ولا لحمة وسمرة الثديين الناضجين تتدرَّج إلى خمرية البطن المستقيم الممتلىء حتى دكنة الربوة الصغيرة الكثة بعشبها الأثيث. جَسَدَانِيَّتُهـا الوافرة لدنة وأرضية، مطلوبة ومحبوبة، ومرمية في وسط رَبانيّة الأعمدة السامقة. ساقاها عمودان ينهاران بصمت تحت احتضان وثيق في شعائر عبادة تنسي هذا العالم الذي ذُبحت على عتباته أفعى الكوبرا المنتصبة المشدودة العضلات يسقُط رأسُها بكبرياء مهيضة وقطرات من دمها المتناثر قد جفت وتجمدت على الحجر الأبيض، ولوَّنته. وهو يمد يديه ويخلع عن جيدها القلادة العريضة المتعددة الأدوار بخرزها الكبير اللازوردي والياقوتي وسلاسل الصلبان الذهبية الحُمرة. القمر يحترق بنار صفراء محبوسة بين قرني الثور الأشمّ الذي يحمل ثقل السماء. وعيناها الكبيرتان تحدّقان إليه بخضرتهما العميقة تفي بالنذر وتؤدي الثمن، وتفحصانه في ترتيلةٍ من غير صوت، تحت ضوء مهتز من شموع طويلة متقدة داخل طاقات كثيرة عالية محفورة في أركان الجدران الحجرية، صبغة السواد الفاحم على جفنيها الكبيرين يتأكد معها لأول مرة تضرُّج حمرة الشفتين الغنيتين بدسم متموج لا يكاد يترقرق في قلبه تستدير حوله وتدفع بتوتره إلى الأمام في اندفاع سلس لا عائق أمامه ليس فيه اقتحام بل وصول إلى غاية مرسومة ممهدة وثيرة والجسدان يتقلبان في رقصة الراحة والرضوان. قناع الجمال الموجع هذا على وجهها ـ القناع النحاسي في حلمه المتكرر أبداً ـ قناع المتعة وهي ترقص وهي تعشق هو نفسه قناع المتعة وهي تتحدث وتشرب سيجارة وتكتب رسالة، في لحظة الحب الأخيرة وفي كل تقلباته

هناك ارادة خلف القناع فاغر العينين، وتصميم، لا تشكيل فيه. قناع المرأة الأزلية الخبرة في ممارسة العشق والمتعة على السواء جامد، فيه حساب وراء انتفاضة النشوة، وتَدَبُّر. ما زال يعوذ بنوع من الإيمان القدري من الأخطار المتربصة المشدودة أبداً على أغوار الطريق. لم توضع التعويذة قط موضع الامتحان، لم تسقط بعد ولم تثبت قوتها السحرية. كانت يقظته في الليل قلقة، ودخان سيجارته لا طعم له.

في الصباح الباكر جداً شرب معها القهوة السادة على سطح البيت المنخفض وقد بانت منه الرحبة رمادية اللون، والأشجار منتعشة بخضرتها الخفيفة وأكاليل النخل تتوس في هواء الصبح بأقواس سعفها الدائرية الفسيحة وبين ثديها توهج محمر دفىء من سباطات البلح الناضج المدوّر الأصابع. وتذكر في فمه مذاق البلح الأخضر - بأصابعه القصيرة المنتفخة - الذي كان يشتريه وهو طفل من عربة البيّاع الصعيدي الجاف الوجه الرقيق العينين، ويدفع فيه مليماً أحمر كبيراً، وهو يتفتت في فمه رمليّ الطعم وناعماً وله حرافة يتقبض لها لسانه. وكانت الكلاب، تحت، تدور تتشمم شيئاً حول البناء الآلي للمجرّار القديم وقد تقشّرت حمرته وانمحت الأرقام اللاتينية على صفحته الجانبية بتدويها الاولية. ونظر حواليه وأنصت. لم ير للقطط الصغيرة أثراً، ولم يسمع لها صوتاً. هل كانت شيئاً في حلمه المضطرب الطويل؟ نظرت إليه وقالت: سمعتك بالليل وأنت تفتح الباب وتخرج القطط من غرفتك. تأخرت في النوم أنا أيضاً. هل استرحت في غرفة منال؟ قال: نعم. نعم. بصوت آلي.

في زمن آخر رأيتك، رأيت تقمصاً لك، في منال، قديماً وغضاً في وقت معاً، على رمل المعمورة. وأمسكت بنفسي، فقد كان زماننا قد انقضى. الجبهة الضيقة واستدارة عظم الوجنة الدمث، الساقين العضلتين القصيرتين المدورتين، عاريتين تحت الفستان الصيفي الوجيز، بقدميها تفحصان الرمل

الساخن بحركة غائبة، تحت الشمسية المائلة، وعيني - ليسا هما عينيك، وهما هما مع ذلك - بخضرة عميقة داكنة تحفران القلب، كالمعتاد. وحدها وسط رمل الشاطىء الأبيض العكر بنفايات الصيف الذاوية الهشة المبرأة: أعواد بوص جففتها الشمس وذراها الهواء، وأكياس بلاستيك ممزقة تتطاير وتستعصي على الذُّوي والتفتُّت، وقشر بطيخ جديد مدفون نصفه الأخضر في الرمل. هذا الجسم الشاب الفتيّ في صباه الجديد لم أعرفه فيك، حدسته فقط تحت لحم الجسد الذي عَرَكْتُه وملأته وانحسرت عنه الشهوات والسنوات. وهذا الشعر القوي الوفير الخشن الملمس، تحت الشمس، أعرفه، بحرافته ووحشيته ونعومته وإثارته، وفي أصابعي وعلى شفتي بقية من ملمسه. هذه البنت التي نمَتْ ليلة في فراشها العذري الخالي الذي كان يحتفظ بشبهة من نكهة جسمها. هذا المثول الفريد يكرر مثالاً غابراً وباقياً في عالم لا يزول، تمخضني ظلمات حبه واختناقات العشق فيه. وقد انقطعت عن عالم البحر والرمل والصيف ونفايات البورجوازيين الذين يقطعون على شاطىء المعمورة ساعات نهار ضجرة ومضجرة تحت الشماسي الملونة على الكراسي القماش المبلولة بين أصوات الكاسيت من المسجلات ضائعة مبحوحة في هواء البحر ووشيشه المطّرد، والأولاد يملأون الجرادل البلاستيك بوشل قليل من ماء ملح يذوب سريعاً في حُفَر من الرمل القليلة الغور، وباعة الصحف واللب وحلوى السوداني والخبز المُسَكّر الرقيق والعقود الصَدَف وتفاهات الحاجات المنزلية للمصيفين الأكواب والأواني والمفارش البلاستيك السخيفة الألوان، وشمس الظهر القاسية على أجسام ملقاة في الرمل وفي الظل وفي الماء تبتل وتحترق ببطء وسأم من غير راحة ولا متعة، وأنت - هي، وحدك، إلى الوراء من سيف البحر وصفّ الشمسيات، بعيداً عن زحمة الشاطىء الذي تأكل رماله أمواج عكرة مزبدة ومستأنسة فقدت عرامتها وسطوتها، كأنك قد شغلت سياقاً زمنياً جديداً وأبدياً. ضُربت حولك هالة غير مرئية من شمس خفية تقطعك عن العالم

وتجعلك بؤرة العالم، لأنك هناك تقمّص عائد إلى قلبي ومنبثق منه، متجسد وحده من غير وهم، فلا يمكن أن يُنال، بل لا يمكن الوصول إليه. كم يمكن أن يكون الحب موجعاً.

قالت له: حياتي الانفعالية ليس فيها اضطراب ولا تعقيد. لم يكن في حياتي إلا رجل واحد، هو أول من عرفت. كنت تلميذته. خطبني ولم نتزوج. حكيت لك قصته بالتفصيل، أليس كذلك؟ هو الحب الحقيقي، الأول. دعك من الزواج. لم يكن هذا حباً. أما هو فشيء آخر. قضينا في السرير اسبوعاً كاملاً، لم نخرج من البيت، بل كنا نأكل في السرير. لم أعرف شيئاً مثل ذلك أبداً، في حياتي كلها.

قال لها: قال لي صديق إنك حينما كنت في بور سعيد، في أثناء الاحتلال أقصد، كان اسمك فاطمة في المقاومة، أنت حكيت لي، أليس كذلك؟ رفع الضباط المصريون المسدسات على بعضهم البعض، من أجلك!

قالت: كانوا مهذبين جداً.

قال لها: ما سر هذا الاصرار إذن؟ لماذا تصرين على الاحتفاظ بما تسمينه صداقة؟ لماذا لا ينتهي كل شيء، ببساطة؟

قالت: أهذا ما تريد؟

قال: هذا الهوس عندك في بذل كل شيء من أجل الارضاء والاستمالة والإسعاد، اعرف أنني لم أكن ولم يكن ممكناً أن أكون موضوعه الوحيد. أنت تخرجين عن مسارك لكي تُسعدي آخر، وآخر، وآخرين، أهذه التضحية تحقق لك حاجة لا تقاومينها، لا تعرفين كيف تقاومينها؟

قالت: كان في استطاعتك أن ترفض مني ما تسميه هذه التضحية. لماذا أجيء إليك، يا ميخائيل، إن لم أكن أحبك - أيا كان معنى هذه الكلمة؟

في ليلتهما الأولى قالت له: غداً سوف أناديك كما أنادي الغرباء. أما الليلة، فهذه الساعات لنا. أناديك فيها يا حبي.

قالت له: يا أعز الناس.

قال لنفسه: أهذا نداء حب؟ أم صيغة مجاملة؟

قال: أم هي نزعة عندك نحو الانتقام، التشفيّ، تسوية حسابات قديمة. أيمكن أن أطرق أرضاً قد يؤلمك الدخول فيها؟

أومأت، بجمود، متوهجة العينين، كظيمة.

قال: ألا تنتقمين لنفسك من عشيقك الأول والأخير، وأنت بعد شيء لا هو بالطفلة ولا بالمرأة، وأنت امرأة دفينة بعد في قلب طفولتك الضامرة بضفيرتها الطويلة ووجهها الهضيم النحيل وعينيها الجائعتين. العمود الأول القائم عليه صرح العالم، الذي لم تستطع ذراعاك الرفيعتان أن تحيطا باستدارته الضخمة؟

قالت، نصف معترضة: ربما.

قال لها: أنت أمضيت حياتك الأولى، نصف عمرك - وربما حتى الآن - في العمل الثوري. عالم له قوانينه، ومغامراته المحسوبة، وخفاؤه، وكتمان أسراره، وقواعد الأمن فيه هي قواعد البقاء على قيد الحياة. ومع ذلك فإن هناك عندك توقاً إلى أمان مفقود. هذه المسيرة في سراديب متاهته، بلا أمل حقيقي في العثور على الفتحة المنيرة، فتحة الخروج من عالمك الأرضيّ الدائم...

نظرت إليه بتأمل، بنصف اقتناع، وقالت: لا أعرف.

قال: هو التوحد إذن مع هذا الحضور الأول الذي لن تجدي له قريناً، أبداً. البحث الدائب الذي لا يكل بأصابع مرتعشة مشتاقة عن «كما»

مراوغة أبداً، ماثلة أبداً أمام العينين، دون وصول إلى الاندماج المنشود الذي لا تهدأ حرقة البحث عنه؟

لم تقل شيئاً. وكانت فاغرة العينين.

قال: تخيفني منك - وتثيرني - وحشية الاقبال على المتعة، وشراستها. ويوجع قلبي، ويعزلني عنك، غرقك في كآبة مقفلة مصمتة لا باب لها.

قالت: ماذا يجديك هذا التشريح؟ توقف عن تعذيب نفسك يا ميخائيل.

قال: أم هو الشوق الذي لا غلاب له نحو ريِّ عطش حسيِّ لا يرتوي أبداً؟ أم البحث عن الأمن والحماية، ولو لحظة، لحظة الالتصاق ثم الازدواج ثم التكامل، إذا سمحت لي بالقول؟ أنت محبوبة في النهاية، في لحظة التأله هذه والشمول، ومطلوبة حقاً. ووفاء هذه اللحظة هو برهانها النهائي، وإن كان يجب تكراره، بلا نهاية. أم أننا جميعاً، أداة في يديك هاتين اللتين نقبّل أطراف أصابعهما. أنت لا تدرين مرارة أن أضع نفسي - أن أجد نفسي موضوعاً - في داخل فريق، في داخل قطيع، في داخل جحفل من الرجال.

قال لنفسه: شطحاتك الفرويدية هذه لا تساوي مليمين. سهلة وساذجة وربما مخاتلة ومغشوشة. الصدق الذي تزعم لنفسك أنك تنشده نجم لن تضم عليه أبداً أصابعَك.

قالت، من غير قسوة: لا أعرف ما الذي يجعلني أسمع منك هذا. أليس فيك أيضاً عِرق من ماسوشية؟ لماذا لا تنظر إليه؟

قال: بل أنظر. أنظر بعينين صاحيتين. العين ليست سلاحاً يبتر. انقضى زمن المعجزة. ولعل النور يزيد الحرق اشتعالاً.

قالت بلهجة جافة أخيراً، وقاطعة: الأفضل ألا نتحدث في هذا الموضوع.

كانت قد حكت له، من قبل، كيف استخدمت هذه الجملة، بالتحديد، عندما ضاقت باستجواب ثقيل الظل. فسأل نفسه هل هو الآن في هذه المنطقة؟ فليكن.

قال، بعناد، طفلي: بل الأفضل أن نتحدث فيه.

قالت: طيب، منطقياً، وديالكتيكياً، أنا معك، حتى النهاية. ألم أترك كل شيء، وكل أحد، كي أكون معك، ستة أيام بلياليها، وحدنا، ما معنى هذا؟ قل لي! وتقول لي إنني لا أحبك!

فجأة أدرك عبث كل ما كان بسبيله. أنْ كان يتكلم. الكلمات، ما هي؟ كيف يمكن أن يخرج من مأزق هذه الكذبة التي لها وجه الحقيقة، ولها مع ذلك ألف وجه؟

قال لنفسه، يحس ماسوشيّته ولا يعرف كيف يفلت منها:

ـ هاملت.

وضحك بتوتر، يتلمس أبداً وقوة من داخل خذلانه وتقهقره.

ـ هاملت ألف مرة في اليوم بلا مجد ولا شبح ولا سمّ ولا سيف. هاملت الواحد الذي لا يريد أبداً أن يكون فرداً من قطيع. السمّ شائع. عرفنا كيف نتأقلم معه. شاء أم أبى يملأ فمَه التراب الذي تثيره حوافر القطيع. يخدع نفسه: إما القائد، المتفرد، المتمرد، أو لا شيء، لا أحد. وغير صحيح أنك ألقيت سلاحاً تملكه. لا يمكن إلا أن تكون واحداً من الجحفل المتقاتل المتنافس الضاري الأنياب.

قالت له: «يا أعز الناس» هذا كل شيء في يديه. كل ما يبقى. لو كان صحيحاً. لو كان صحيحاً، ولو لحظة، ولو ساعات قلائل، ولو على مدى

بضع أيام. أنحن أمام جثة هامدة على رخامة التشريح؟ عندما يصبح ما بيننا جثة فلن تكون ثمّ حاجة للتشريح. لن يحدث. لن يحدث أبداً. كأنه يسمع صوت رفيف الله على رأسه المغمور بمياه المعمودية، ليس فيه بشارة، بل نذير أبواق ملائكة اليوم الأخير.

كان يسبقها بخطوة، وهما عائدان في الشارع الهادىء القليل النور، تحت الأشجار الصامتة الثابتة كأنها شهود، توقف فجأة، واستدار، وقبّلها، دون كلمة. هذا ما يريد أن يقول لها، ليس بالكلام. استجابت لقبلته، في حنو، وقبول، وتفتحت شفتاها له، بخضوع. وهي المتوحشة التي لا تخضع لشيء ولا لأحد. كانت أجراس كنيسة، غير قريبة، تدق. وسمع دقاتها ذات الرنين الفضيّ المتطاول، ثلاث مرات، كأنه ينبىء عن جنازة، ومرت سيارة صهريج كبيرة ببطنها الضخمة المستديرة الدسمة بالزيت القديم، تحمل في العتمة شحنة من زيت السولار، صامتة، مقفلة على ذاتها.

في أول يناير بالليل، كان مسرح البالون مزدحماً، بين اصطفاق أطراف القماش الخارجي، بجمهور مختلط متدافع مشوق، بطريقته، إلى التسلية التي ألفها، ينتظر مطربيه ومغنياته وراقصاته، في الضجة والخناقات الصغيرة ونداءات التهدئة وصلّوا على النبي أمّال وزحزحة الكراسي في الصفوف الأمامية على الأرض المفروشة بنشارة الخشب، وقد جاء بعض موظفي اتحاد عمال النقابات العرب صاحب الدعوة بالكوفية الفلسطينية ونساؤهم بالملاية السوداء، والاوركسترا في حفرتها، تحت خشبة المسرح المسدلة الستار، مضطربة الأصوات والآلات والحركات يمتزج مواؤها وعواؤها ورنينها ودفقاتها النحاسية وخبطاتها على الطبلة مع دقات بياع الكوكاكولا بفتاحته على الزجاجات ونداءات بيّاع اللب والسوداني، وقد جلسا متباعدين ثم استأذن جيرانه وتخلوا لها عن مقعد بجانبه وهي تستقر بصمت إلى جانبه على خيزران الكرسي الضيق، بينما يمد بياع شطائر الفول والطعمية يده

بينهما، ببضاعته الملفوفة بورق ينز بالزيت، إلى عائلة كثيرة الأولاد والبنات من ورائهما. ويندفع صف طويل مهتز ومرح ومرتفع الصوت من الجنود جرحى حرب أكتوبر، يتبادلون الضحكات والنداءات بالأسماء يتوكأون على أحدهم الآخر بعكاكيز معدنية لامعة ويعرجون ويتساندون بأنصاف الأذرع والسيقان المبتورة، ورؤوس ما زالت تلفها الأربطة البيضاء تحت الكاب العسكري، ويدفع بعضهم ثلاث عربات مستديرة العجلات يجلس بها بلا حراك جنود يلبسون جلاليب بيضاء نظيفة وطويلة، ويزاحمون الصفوف الأولى في ثقة وبلا اهتمام ويتخذون أماكنهم وسطهم وعلى جانبي المسرح في فخر بأنفسهم وبالناس الذين يفسحون لهم مكاناً في ودٍّ وتسامح وتحمّل وقليل من الضيق الذي ليس فيه رثاء لأحد. ووثب جندي طويل رشيق ومتوفّز بالشباب على المسرح ورمى بعكازه على خشبه في خبطة صماء ومد رجله في البنطلون الكاكي المطوي تحت الركبة مباشرة، مشبوكاً بدبوس كبير مكان الساق التي لم تعد هناك، واستند إلى حائط الكواليس الجانبي، في راحة كأنه يتمطى استعداداً للتمتع بسهرة طويلة حافلة بالأخذ والعطاء.

وكانت المطربة تموء بقوامها المتطاول، تحت النور الفاحش، وعلى فستانها نقوش متلألئة من الترتر والزجاج متناوية الألوان وعلى وجهها صقال ممهد مدعوك بعناية من الماكياج وعلى عينيها السوداوين اللامعتين كحل ثقيل الوزن وهي تنوس بردفيها الثقيلين على ساقين مختفيتين تحت الماكسي المتموج وتنوح زائفة النغمة مؤثرة بزيفها الثابت مهتزة البكاء. وصفق الجندي على جانب المسرح بيديه وهتف بصوت عال واثق مستمتع: الله.. كمان يا ست.. كمان والنبي..

فأومأت إليه بابتسامتها المحترفة المحفوظة وأشارت إلى الأوركسترا من جديد فهتف سعيداً: «الله يخليك يا ست» سعيداً وفخوراً ويعرف كيف يعيش في جسد مبتور. وفي الشارع كان دائماً يلقاه عند فَرْشة بائع الصحف

والكتب، عند إشارة المرور، يدفع إليه بذراعه المقطوعة يقترب بها من وجهه عند نافذة السيارة، وقد التأم اللحم عند المرفق وتضخم مشدوداً أملس أحمر نيء اللون، ميتاً أو يكاد، يحركه، نصف ذراعه، إلى أعلى وأسفل، بمهارة، يعرف كيف يستخدمه، بلا عار، كأنه ينجز عملاً ويقوم بروتين، على الأقل لا يخجل من جسمه، إن لم يكن يفخر به.

في طوايا الجسم الصغير المهدود المرفوض مثول حي لميخائيل آخر كامن بطون جسمه ـ هو ـ المفرود بين ملامسات الأمواج الرقيقة وخشونة الصخور الصم التي تصطدم بها وتفور حولها المياه الحمراء، ويتفجر الجسم العظيم، مكتوماً ودفيناً، بالغضب ونشوة تشويه الذات يوقع بنفسه الجراح ويطعن أحشاءه بالظفر والسكين ويضغط في تصميم على شيء لا يدركه فتنبجس التورمات، بحثاً عن شفاء لن يدركه تحطيم العظام وسقوط الحجر والزجاج له إيقاع واحد وحريق القلب يشتعل فجأة في الحيطان المصبوغة بألوان عليها تراب القاهرة وفي الأخشاب الفاجرة الوقاحة. هذا التنين في داخلي يخذلني يفلت مني أحسه آخر وغريباً وقريباً لصيقاً بالكبد، كم حاولت أن أنكره. قال ميخائيل لنفسه: عند صياح الديك، ثلاث مرات. وضحك. مَن شتق نفسه؟ من بطرس؟ ومَن يهوذا؟ تجاهلته ونسيته. شفرة الموسى الحادة الرفيعة تشق أصبعه حتى يتكهرب العظم والركبة تتسلخ على حجر في التراب فلا يندمل الجرح وتتكون له قشرة ينزعها مرة بعد مرة فتتكون من جديد. قال لنفسه: هل تعرف كيف تحيا فيه، حياة امتلاء؟ الغريب الآخر لا يطيعني، هو يعرفني وأنا لا أعرفه. عود الكبريت يشتعل في باطن القدم تتعثر في حفرة أراها بوضوح وعلى مسافة كافية. لا يعرف الخضوع، في ظلمته الداخلية هو طاغية، شامخ وجرانيتيّ له ابتسامة غامضة المعنى وعيناه بلا حدقتين مفتوحتين إلى الأبد عريق وصخري وصموت جيشانه من

الداخل لا يهدأ، أحدق إليه في مرآة سوداء. الحلم مرآة سوداء. لا أرفع عنها بصري.

عرفته في السورة الجنسية وتحت التعذيب السياسي وعلى حافة الموت، وفي قبضة الحب القاسية، مجرد موضوع، مجرد أداة، مجرد شيء منفي، لا حياة فيه، وفيه نبض إصرار آليّ لا نهاية لعناده، انحسرت عنه الروح، انفصلت عنه الأخت الشقيقة وأصبح وحده ليس فيه إلا تيار العصارات الكثيفة بمدها وجزرها، خرقة ممسوحة لها من داخلها تحريك آليّ بحت، أراه بعين خارجية. لا يعود هناك توحد بل اثنينية العذاب المطرود والتسليم الذي لا أمل له في عزاء، يتحرك وينبض بإصرار لا أعرفه.

قالت له: عندي هدية لك.

قال، بشوق يستثيره في نفسه استثارة، من قاع المياه الراكدة: صحيح؟ ما هي؟ أين؟

قالت: ستكون معك دائماً، ولن يراها أحد.

لم يتلق هديتها أبداً، لم يعرف أنه تلقاها. هل أعطتها له؟

انتبه إليها، تحكي له عن نفسها: في تلك الفترة، كنت رشيقة، بل نحيلة جداً، وصنعت لي تحية كريم لوحة، عارية. كنت الموديل، نعم. على الطبيعة. لوحتها المعروضة الآن في جوجنهايم.

قال مبتسماً في غير ثقة: عندما أذهب إلى نيويورك سأذهب لأراها.

استمرت: طبعاً لا صلة لي بها الآن، تغيّر جسمي جداً.

وقالت له كيف كتب لها الشعراء قصائد حب بالفصحى والعامية، وكيف احتضنت الشاعر الشاب الذي جاء من آخر الصعيد فتياً جهولاً عنيفاً وحساساً لا يعرف كيف يدخل شقة متمدينة في القاهرة ويكسر قدح الويسكي فيسيل على البساط ويترك بقعة على الفوتي وتسقط المزة من

شوكته على المفرش وعلى حجره وتجعل منه الاذاعة والصحافة فارساً حتى وهو في المعتقل يكتب مواويل جديدة على النمط القديم.

قالت: آه - هل لاحظت هذا؟ أتتعرف عليّ فيه؟

كان التمثال النصفيّ موضوعاً في ركن الفسحة، في ضوء غير واضح، على مائدة منخفضة صغيرة جانبية بين الباب ومكتبة خشبية مفتوحة الأرفف بها كتب مهملة وأكوام جرائد ومجلات وبيبلوهات من الخزف والزجاج والمعدن التافه.

قالت: كان قد صنعه لي نحات شاب كنت أراه أحياناً، وأستقبله في بيتي، وأحتمل منه ما كان يتصوره حباً لي. حبه الوحيد. كان مرضيّ الحساسية فلم أحب أن أردّه. ومات وهو يعتقد أنه يحبني. انظر كيف صنع لي مدورة، وضعها على شعري، كبنات البلد، وكنت هزيلة الوجه عندئذ، أليس كذلك؟ مات بالسل بعد ذلك، صغير السن وغير معروف.

قال بلهفة: من: سلطان؟ جمال سلطان؟

فنظرت إليه، تتدبر، ولم ترد.

ووخزته شوكة ألم قديمة لم يتثلّم، بعد، طرفُها، هذا النحات الذي أحَبه، هو، وعرف طهارته واندفاع قلبه. التقى به آخر مرة في شارع المبتديان، في ظهر القاهرة المترب المزدحم بالضجيج حتى قبل أن تأتي الفترة التي اكتسحت فيها السيارات الشارع وأغرقته في انسكابها المتصل. كان يحمل في يده جبنة وفلافل ملفوفة في ورق «المساء»، غداءه، وقال إنه لا بد أن يذهب إلى بيته، شقة من غرفتين على سطح عمارة عالية أشار إليها، وأنه ينتظر لجنة المقتنيات الساعة الثالثة، وقال إنه يصنع شيئاً يظن أنه سيكون هاماً وأنه سيبيع على كل حال قطعة لمتحف [illegible] بالاسكندرية. وكان مستبشراً مبحوح الصوت وساخطاً ومتوتراً بالحياة، قال لنفسه: بآخر

دفقات الحياة. وناقماً على الأوضاع السياسية والفنية جميعاً ومبتهجاً في الوقت نفسه قال إن صحته تتحسن الآن وأنه خرج من المستشفى في كامل الصحة وكان وجهه حاراً وداكناً وخده البارز مندى بعرق متسايل متصل النشع لا يجف ليست فيه قطرات منفصلة. وتواعدا بلقاء لم يحدث، واحتضنه وأحس عظام صدره جافة ومجوفة تحت القميص بنصف كم غير النظيف جداً، في عناق أخوة مهدرة.

قالت له: هل كنت تعرفه؟

قال، بكلمة واحدة: نعم.

عيونك الخضراء تعني عندي الغربة والفقدان، سطح موج لا أعرف غوره. دفئي في العيون الداكنة وراحتي في العسل الكثيف المحروق، عميقة ولكني أعرف عمقها وأغوص فيه باطمئنان، كانت مذاق فمي منذ الفطام. أما العيون في القناع الناعم فتوقعني في الوحشة والنبذ، مغروسة في أرض صخرية ساخنة لا أعرف الشمس التي صوّحتها.

في آخر لقاء خاص بينهما سوف تفتح له الباب، وهي في ثوبها المنزلي الخفيف بلا أكمام ينسدل في غير عناية على جسدها الشهوي الذي طالما عرفه وعرّاه وعركه في مبارزات الجنس الناجحة والمحبطة، وسوف ترحب به في هوجة وفي غير احتفاء وتعتذر له عن مظهرها، وتسرع إلى الداخل فتغير ثوبها، كأنهما غريبان، وسوف يحس، على الرغم من كل شيء، بأهون قدر من المرارة، والسخرية بنفسه وبها وبالمسألة كلها. هذه إذن عقابيل الفقدان الخافتة الوطء. وسوف تدخل المطبخ العصري الأنيق المفتوح بأجهزته النظيفة المصقولة وموقده الصامت الشعلة وصنابيره المستقبلية الفوهات ينفجر منها الماء في صبات مندفعة مليئة قصيرة الأمد، آلية كأنها ومضات مغنسيوم ساطعة وسريعة الاختفاء. وسوف ترجوه رجاء شكلياً أن يستريح كأنه في بيته تماماً. وسوف تقول له بعد ذلك في نبرة بها خيبة أمل

هادئة: ظننتك سوف تخلع الجاكتة والحذاء مثلاً وتأخذ راحتك فعلاً. وعلى الغداء الخفيف، من الأكل الصناعي الطعم المأخوذ من العلب والمطبوخ بعناية وسظافة، في الأطباق البلاستيك الصغيرة الملونة وبجانبها المفارش الورقية الخافة القوام سوف تتحدث إليه بعبارات جاهزة أيضاً مأخوذة من الخزين العام عن الموسيقى العربية التي يُعاد تجديدها، وشعراء العامية، والسياسة، وكتب الفن التي ارتفع ثمنها جداً وأصبحت سودة وأدوات للزينة، وانتصارات أكتوبر، ومحنة مصر ومجدها، وغياب عبد الناصر وجنازته. وسوف يشرب علبتين من البيرة وسوف يحس ببطء وركود أنه لا يحب البيرة الخارجة من ثلاجتها الصغيرة البيضاء المربعة الجدران. وعندما يغادرها سوف تقبله قبلة سريعة على الخد فيأخذها إلى حضنه، لحظة، ويستعيد قلبه حناناً مفقوداً إلى غير رجعة ويحس بإزاء جفاف جسمه طراوة الجسد الأليف وصلابته أيضاً، من وراء جلابيتها السوداء السابغة الحريرية النسيج المطرزة بنقوش فضية. كأنها بين ذراعيه مهجورة حجرية ولدنة تنبض بذكرى أشواق غابرة، في صوتها اهتزاز حار مردود إلى نفسه من غير أمل الآن ومن غير حسرة، وهي تقول له: إلى اللقاء. ولن تكون بينهما بعد ذلك إلا لقاءات في تقاطعات الطرق في غمار الناس في زحمة المكاتب في محطات السفر.

تقول له: اشتغلت بالمسرح أيضاً، كنت ممثلة في الجامعة ولكن هذا غير مهم. صنعنا فرقة لم تكن على مستوى الهواية بل الاحتراف، والتكريس معاً. لديّ - إلى جوانب مواهبي الأخرى - موهبة التمثيل، طبيعية، تلقائية، ومدروسة.

يقول: لست أدري ما المسرحي في حياتك وما الذي وراء الكواليس.

تقول: وعملت بالتمريض، كما تعرف. بعد تمّرين ثلاثة أشهر، بعد بور سعيد كان الجرحى يحبون يدي في غيار الجروح ودقة العناية بتفاصيل

الوظائف الجسمية، الواقعية، من غير خواء الكلمات التي لا تعني شيئاً والتي يظنها الهواة ومن ليس لهم خبرة سر النجاح في التمريض. ليست تفاصيل أفعال الحياة والموت. وما بينهما، مما يستثير عندي حساسية، لا أعرف الاشمئزاز، أو الغثيان أو ضياع البديهة، عندما تختلّ الأجسام وتضطرب في قذفها بمحتوياتها أو لهفتها المشعوفة إلى امتصاص حاجتها، عندما تتحلل عصاراتها وتسيل أشياؤها اللزجة الثقيلة القوام. لا أجد في الجسم شيئاً مقززاً أو غير مفهوم، بل أقبله، كله، وأسلم به وأتعامل معه، بمعرفة عفوية.

يقول: لا يهمني من تكونين، ماذا تكونين، ماذا تصنعين، ولماذا.. يهمني أنتِ. أنتِ ذلك كله الذي لا يهمني سواه. لكنك أنتِ شيء آخر وراء ذلك كله، ومعه. هو أنتِ.

يا منتهى رغبتي التي لا تنتهي.

يقول: الشيء الثمين تخدشه بل تكسره الأكاذيب، ما الأكاذيب وما الشيء الثمين؟

يقول لها: نعم الكذب قوام العلاقات الانسانية كلها، كيف يمكن أن يحتك المحب وحبيبه، الرجل وامرأته، الأصدقاء والأعداء ومن لا وزن لهم، دون كذبة هنا، وكذبة هناك، بيضاء ربما أو رمادية، وردية أو سوداء؟ كيف يمكن أن نقول إنها غير مهمة، إنها ليست شيئاً يتعلق بالحقيقة؟ زيت الاحتكاك الذي بدونه ينخدش وينكسر الناس في التصاقهم وارتطامهم ومفاداتهم من أحدهم الآخر. حتى بين الانسان ونفسه. أريد التصادم البريء الصارم النزيه من كل بلل، أريد التلاصق كأنه الرصاص في طهارته. فهل أختفي بذلك أنا أيضاً كذبة فاحشة؟ تريد يدي أن تنتزع القناع ولو مزقت لحم الوجه تحته مِزَعاً.

على طول الذراعين الممدودتين طائر كاسر تقوّضت جثة مفتوحة الصدر، تحت ثقل الإثم المشترك، والأكاذيب. ما أقطع النعيّ، الكلمات المجللة بالسواد في بطاقات جافة من ورق مقوى. ختم النهائية. والفقدان الذي تعرف فجأة معرفة نهائية أنه لا يُعوض. الجثة الصامتة القلب المطعونة العينين بعد كل جيشان التمرد والكسر والضرب في السماء بجناحين واسعين يشقان صفحة السحاب ويكسران أطباق السماء: على ذراعيه الآن، بعد صدمة الوقوع على الأرض، يابسة جافة صغيرة القد. بين حدّي التحلل والتعفن وقد مضت آثاره، وتخمراته ورائحته التي لا تطاق. وانطوت آخر تفاعلات موتها. بيّضتها الشمس المحرقة حتى تصلبت وجمدت. يخال إليه أنها هشة لن تكاد تمسها الأصابع حتى تتفتت وتتطاير هباء في أثر نحاسي فسيح. لا: هي بينهما، مستقرة دائماً بينهما: جثة محنطة لا ينال منها الموت: لا اضمحلال هنا ولا دثور

١١ - عمود دقلديانوس

تدنا يجريان في المشهد الليلي، يفتحان طرقاً لم تطأها قدم، بفرح الشباب الجديد.

الشارع الضيق الممتد يشرئب إلى أعلى بقوة، مملوءاً بطاقة مكبوحة ولكن متأهبة. يتجهان ناحية البحر، يحدثان جيشان رجلاله ومناعته. تحت. أما إلى يسارهما فيقوم سور معسكر مصطفى باشا سداً مرتفعاً مصمتاً، أحجاره الضخمة مغلقة على صراما غير معروفة، على روح ثقيلة من فيالق الرومان والامبراطورية في نيكوبوليس القديمة، وعسكر بونابرت، ومدافع الانجليز ومعتقلات الأسرى الطليان وغموض ثكنات الجنود المصرية. لكنهما يجريان تحتها، نحو تفتح البحر في نور الليل، يشقان الطريق الصاعد الطويل، هواؤه مبلول، إلى نجوم قليلة ونصف قمر شديد السطوع. وإلى اليمين حدائق البيوت المقفلة بأركانها المتينة البناء وشرفاتها الحجريّة، على الطراز الفرنسي النيو كلاسيكي، بيضاء في القمر، وبرج كنيسة انجليزية الطراز مفاجيء الارتفاع من بين كثافة أشجار الكافور والنخل الهندي الملوكي بسيقانه البيض الرشيقة، ونباتات الخبّيزي الافرنجي الوارفة الغضة تترامى على الأسوار الحديدية المشغولة بأناقة تومض من الرطوبة وتتنفس عبق الخضرة الشتوية الغامضة.

انحنت فجأة وهي تنهج قليلاً، وعندما التفت إليها وراءه، وهي تحت،

لمح صدرها الوفير قد تجمّع في انحناءتها إلى الأمام واستدار لحمه الأسمر الذي يلمع وتكور قليلاً محبوساً في فتحة فستانها. خلعت حذاءها، وأمسكت الفردتين بيدها اليمنى، واستقامت صاعدة إليه، وأولجت ذراعها في ذراعه ودفعته بخفة، يجريان من جديد، وهي تضحك ضحكة خاصة حتى لكأنها بلا صوت، في سعادة لا تبرير لها، كاملة في لحظتها. كانت أصابع قدميها المكتنزة، طلاء أظافرها الداكن يلوح في نور القمر ويختفي، تتقبض على الاسفلت الأسود النظيف وتنفرد، في اندفاع الجري الخفيف الواثق.

قالت له من خلال أنفاسها المتسارعة السعيدة: لم أجر هذا الجري من سنوات.

كان صعودهما بلا جهد ولا مقاومة، يخوضان عنصراً لا مادة فيه. هدير البحر الخافت الذي لا يريانه بعد يصلهما من تحت، فيه جاذبية الدعوة والنداء والوعود التي لا صيغة لها.

عندما وصلا إلى أعلى شهقة في الطريق وبدأ ينحدر تحت أقدامهما، ظهرت أمامهما، من تحت، رؤوس أعمدة النور على الكورنيش، مصابيحها بيضاء النور، ثمرات مـ متضيئة متقاربة على أغصانها القائمة الحديدية تحيط بها هالات مدورة مشعة من الرطوبة.

جذبته إليها فجأة، وهي تجلس على الرصيف بأحجاره البازلت الأسود المحبب المندّى قليلاً، وارتفعت ركبتاها في جلستها، مدورتين عاريتين مشدودتي اللحم على عظام من جرانيت وردي حي. وهو ينظر إليها، في لحظة توقفه قبل أن يهبط إلى جانبها. كان شعرها مسرّحاً إلى الوراء، ممهداً مبسوطاً على رأسها، ملتفاً بها، وجهها ناعم، وحاجباها دقيقان، من تحت عينيها المرفوعتين إليه فيهما براءة واستغراق، تعبير أبيض مغسول طاهر، كأنهما تنظران إلى شيء ما، ينبع من داخلها، رائع وفسيح ولا وصف له،

داكنتين الآن، شديدتي الاتساع والدوران، وعظام خديها رقيقة، وجه امرأة كأنها بنت، عذري، حليبي.

وضعت ذراعها على كتفه، وقربت وجهها منه، في حركة الحب التي لا مثيل لقربها وألفتها وبساطتها.

وقالت له: تعبت من الجري؟

هز رأسه. كان الحنان والعرفان وشهوة رقيقة تحبسه عن الكلام. وقبّلها بسرعة وخفة على خدها، بشفتين جافتين حارتين. فنظرت إليه نظرتها المتأملة الطويلة الهادئة المحتفظة برؤاها وأحلامها لنفسها، تتأمله في سياق خاص بها، متملكة، كأنها ما تزال تنظر، وحدها، إلى ساحة المستقبل أمامها، فيها معرفة من غير تواصل.

وأخذت تغني له، مرة أخرى وفي داخل علاقتها به، همساً، أنفاسها ما زالت متداركة ولكن محكومة بصوتها الخشن الجريح، له بحة لدنة، يا ريّس البحر خذني معك أحسن لي، أتعلم الكار يوسع البال أحسن لي، خذني، نوتي أشد البان، أحسن لي. وكانت يداها في يديه عجينة متماسكة خمرانة، وغناؤها الغزل الخفيض قد ثبتت أنفاسه، تهدجه الآن ليس من الجري بل من شوق جسدي فوار، يفوت علينا الهوا، يحايلنا، ونميل عليه، وتطير جدايلنا، يفوت علينا قصده يميّلنا، وإن مالت الدنيا ما يقدر يميّلنا..

خرج عليهما من غير انتظار، من شارع رملي جانبي، عسكري الداورية بقامته الطويلة، ببندقيته العتيقة الطراز، نور القمر على وجهه الصعيدي اليابس يعمّق ظلال ونتوءات العظام العريقة. لم يتغير وقع خطواته الرتيبة، وهما لا يعرفان، من ظلال وجهه، هل ينظر إليهما أم أمامه مباشرة. همست في أذنه: والله وقعنا يا بطل. همس يرد: ولا يهمك. ليس هناك أطيب من عساكر الداورية، الاسكندرانية الصعايدة. وإن كانت قد هجست في

قلبه، كالعادة، مخاوف طفلية بعيدة الخُطَى. واصلت همسها: يا متعصب..! ثم واصلت، في نفس واحد، وبصوت رقيق عال فيه نغمة نصف استعطاف نصف ثقة وتعالٍ وسيادة، لا تصدر إلا عن نساء ارستقراطيةٍ ما: يا شاويش من فضلك، محطة رشدي باشا ع الشمال أو ع اليمين؟ من على البحر؟ توقف العسكري لحظة، وقال بصوت أمين، بنبرة رجل يعرف مكانه، في النهاية، من السلم الاجتماعي: ع اليمين يا فندم. وواصل طريقه بخطى هادئة غير سريعة. وهما ينظران أحدهما إلى الآخر بسرعة، ويكاتمان الضحك، ولا يطيقان حبس انبثاق المرح الذي دوى فجأة في صدريهما، لا يملكان من أمرهما شيئاً، وعيونهما تدمع من الضحك المتفجر المكتوم.

انجابت السماء من فوقه وسقطت تتقلّب أمام عينيه وتتهدم، بلا صوت.

هل حدث هذا؟ حدثت له هذه السعادة؟ وعرف هذا الفرح؟ تلك صورة لا يعرف إن كان يذكرها أم هي دراما حلم يقظة، ووهم فيه ما هو أقوى على الفناء من صب الحقيقة.

قال لنفسه وهو يعض على حقيقته الصلبة: لأول مرة منذ عشرين، خمسة وعشرين عاماً، يبدو الموت جذاباً، أراه، وأحسه، موجود معي، حضوره إلى جانبي أكاد ألمسه. يدي تمتد إليه، فأردها، تتوتر تحت ضغط، لا يقاوم، يدفعها لأن تتشبث به، وبروعه، كما تتشبث بالنجاة مما لا يطاق، لا يطاق، ولو لحظة واحدة أطول، لا يطاق. لم يمثل لي الموتَ أبداً، بهذا القرب، بهذه الدعوة، بهذا الاغراء، منذ الصبا البعيد، قريناً للحب، وجهه الآخر.

حتى في أحلك ساعات الصمت، عندما تعثرتُ أخيراً تحت أنقاض

أحلام العدالة التي سقطت، واحباطات أفول الشوق نحو فجر الطوباويات المأمولة على الأرض، حتى عندما اسودت رؤى جموع الفقراء إذ تتحرر من ذلة القرون، حتى عبر سنوات اليأس الطويلة والانعزال أمام طغيان العالم، والسكوت أمام أنياب القمع المُشرعة، والطفو، كحطام، على أمواج المجد العكرة واختلاط ضجيجه، حتى عندئذ كنت أدافع، في ركني الداخلي، في جحر ما بنفسي، باستماتة، عن حق أساسي في معاودة الهجوم. أما الآن. . !

هل قالت له، بصوت محايد: ألم نتفق على أن المواضيع الكبيرة لا نتناولها؟ الأسئلة الكبيرة لا نطرحها؟ الاجابات الحقيقية لا نقولها؟

هذه جحيمه الحميمة والسرية أُوصِدت بواباتها عليه، لن تنفتح، أبداً. أهذه خطواته الأولى في أرض الجنون، ورياح الفقدان لافحة؟ لا يعرف الآن ماذا قالت له وما لم تقل، ولا يعرف ما الذي حدث، وما خيل إليه أنه حدث. هل هو فعل التذكر ينتشل هذا المشهد من غيابات النسيان، أم هو وهم ينتزعه انتزاعاً من مخالب الواقع؟ قال لنفسه: الواقع له ظفر وناب. وتساءل: أنت مصرّ على أن تسكر نفسك بالكلمات الكلمات الكلمات ذات الحروف الكبيرة. ثم قال: نعم. دمائي تسممت. ليست معرفة هذه المنطقة الغريبة، حيث يختلط العقل والحلم، بالشيء المريح.

كانا يقفان تحت عمود دقلديانوس.

قال لها: انظري إلى هذا الجمال. كيف يمكن أن يكون الصخر وردة سامقة لا تنحني، والجرانيت فيه شبق الجسد الغض المستدير؟

قالت: أليس من السهل أن نقول إنه بديل قضيبي؟

قال: سهل ولا معنى له. حذلقة أو سفسطة إذا شئت. لا. إنما أنا أفكر في روعة وبشاعة وحتمية آلاف، مئات الألاف، من أجسام أجدادي الذين

يقوم هذا العمود على عظامهم. هذا الجمال، بكل قسوته، ذهبت أجسام الشهداء طُعماً له. هؤلاء الأقباط، بعنادهم العقيم وأقول المجيد؟ ما الجدوى؟

قالت: الاستشهاد لا يبحث عن جدوى، بطبيعته.

قال: أما نحن فنبحث. نحن الذين لم نستشهد بعد. نحن الذين شهادتنا معاناة غير مسطورة على حجر ولا مذكورة في كتاب.

كان عنف رده لطمة، ليست لها.

كانا قد ركبا التاكسي الاسكندراني الأصفر الفيات القديم، بمقاعده الصغيرة المطوية، والحاجز الزجاجي العتيق فيه ثقب دائري يصل بين مؤخرة السيارة ومقدمتها، ويغلقها إذ يجر عليها نصف الفاصل المتحرك. ووضعت يدها تحت فخذه، فأثارته. ودارت من على جانبيها أطلال كرموز وباب سدرة وكوم الشقافة، الشوارع التي كان يعرفها في صباه واسعة مورقة الشجر يجري فيها الترام مصلصلاً بجرس بهيج على الأرض المرصوفة بالبازلت اللامع النظيف، أصبحت ركاماً من البيوت الرثة المتقاربة وضوضاء المرور المتزاحم الضيّق بالسيارات وعربات الكارو واللوريّات المثقلة بالات القطن والمتجهة ببطء نحو مينا البصل والقباري، وتلاطم مواكب مختلطة من الرجال والنساء والأولاد، بالقمصان والبنطلونات والبيجامات والجلاليب والملايات اللف القليلة والفساتين وقمصان النوم الخفيفة المتغضنة، باللاسات والمدورة البلدي والعمم والطواقي، بالشباشب والقباقيب والكعب العالي والزنوبة التي تطرقع على الأرض، والقليل منهم بالسراويل الاسكندراني السوداء المتنفخة، بفخر واعتداد.

نظر إليها حارس الآثار العظميّ الوجه، بجاكتته الصفراء الحائلة وعينيه الملولتين المتسائلتين الضيقتين، من داخل ظلمة الكشك الأخضر الذي تقشّر طلاؤه عن الخشب القديم المتين ـ من أيام الانجليز ـ وسقفه الهرميّ الذي

تساقطت من جوانبه قوالب القرميد الأحمر الداكن. وأعطاهما تذكرتين، قائلاً: توريست؟ جايد، جايد، ولكام سير ولكام مام نيدْوان جايد؟

قال: لا يا عم. صلِّ على النبي. نحن أولاد بلد.

قال بخيبة أمل طفيفة، وسرور حقيقي مع ذلك: اهلاً وسهلاً. شرفتو، زارنا النبي.

كان المفروض أنها تقوم بجولة تفتيشية، دون أن تعلن عن نفسها، وستقدم تقريراً للمصلحة.

وقالت له: تعال معي.

قالت له: تتصور كان هذا العمود مسلة من جرانيت أسوان. أقامها فرعون من سلسلة الفراعنة التي لا تنتهي. أظنه سيتي الأول أو الثالث، لا أذكر الآن.

قال: كيف سوّى أجدادنا الحدود القاطعة المثلثة وصنعوا منها هذه الاستدارة الكاملة النعومة، الكاملة الرشاقة، الكاملة الجلال؟

في عاصمة العالم، مدينته المسحورة اليونانية القبطية، برهبانها وتجارها وبهلواناتها، ممثليها ومغنيها وصنّاعها، بطاركتها وبغاياها، غوغائها وغوانيها وخوذاتها، مكتبتها الواحدة الوحيدة غير المتكررة وحماماتها بالآلاف، كنائسها السرية تحت الأرض وأعمدة معابدها الرخامية الصقيلة، عذاباتها ومهرجاناتها، السيرك والمنارة والمسرح وهياكل جوبيتر زيوس آمون، المذابح في الساحات والمحارق ومعاصر النبيذ وصوامع الغلال الذهبية وأشرعة السفن المبسوطة والمربوطة بالحبال في الميناء الشرقية، والفلول الباقية المطاردة من كهنة الدين العتيق، وشهداء الهرطقة اليسوعية الجديدة، وفلاسفة اليهود وعلماء الجغرافيا والطبيعة، والشعراء ما يزالوان يرصّعون اليونانية القديمة بصياغات وزخرفات لا حياة فيها، والناس الناس الناس الذين لا اسم لهم بجموعهم الغفيرة التي لا تنتهي أبداً يأكلون ويكّدون وينسلون

ويزحفون ويمّتعون بشهوية ويتمزقون بشقاء لا يوصف ويموتـون بلا أهميـة لا يعرفهم أحد ولن يعرفهم أحد.

قال لها: في عاصمة العالم، أقاموه، على عظام الشباب والخيل في مقبرة كاركالا.

قـالت، وقـد اقـتربت منـه بجسمهـا ووجهها: يـا اسكنـدراني. . يـا منعصب. . !

قال لها: تعرفين أني، هنا، في السيرابيوم تحت، منذ أربعين عاماً ربما، وَثَبْتُ فوق بئر مستحيلة، لا قرار لها، وعـبرت، طفلاً، إلى سـاحة منـيرة، وطرقت ممرات منقورة في الصخر، وأحسست هناك بما يشبه الحرية!

قالت: نعم، حكيت لي.

قال الرجل: متأسفين والله. النزول تحت ممنوع. المياه طافحة.

قال: المجاري تاني؟

قال الرجل: الله اعلم. جاء مهندس من شهرين، ولم يرجع.

سألته: ومتى يفتح؟

قال الرجل: ربنا يـ هل.

قالت له بعـد ذلك: ليس للمصلحـة علم بهذا. لم يـأت التقريـر بعد. لعلّه في الوزارة، أو تاه في وزارة أخرى.

قال لها: ربنا يسهّل.

كان العمود أقل ضخامة، وأقصر، مما كان يتذكره. والتراب على قاعدته المربعة العريضة. وأبـو الهول الصغـير، تحته، يبـدو لا مكان لـه، أو هو في غير مكانه. كأن موقعه الصحراء العريضة المترامية الموحشة، وحدها. وكانا يـدوران حول القـاعدة، والتمثـال، على الـرخام الـواسع المكسّر القـديم، يتجنبـان الاصطدام بـأنقاض وأحجـار صغيرة متنـاثرة حـادة الأطـراف، لم ترفعها أيد منذ زمن طويل. اكليل العمود بنقوشه الرومانية والبيزنـطية غـير

الواضحة يسبح في السحاب الأبيض المهلهل النسيج، يتحرك بسرعة بين قطع السماء الزرقاء الصافية التي تأتي وتتراجع، وفي الهواء النقي المبلول رائحة تراب مقابر المسلمين الشاسعة المزدحمة.

أما جسدك فبردية ناعمة قوية النسيج، حقل تونع فيه الزهور الهيروغليفية، عظامي استراحت في طين جسمك الرخي يا إيزيس الأم العذرية وعانقت ساقاي دلتاك الخصيبة وسقطتِ عليّ في نومي المسلة المضلعة المتفجرة بالدماء المحبوسة، احترقتُ تحت شمس عينيك وسمعت تغريد كثبان رمالك الناعمة وهي تطمر أطلال هيكلي، وتناثر ريش الصقور في الهواء يا أم الأولياء، مسحتُ بشفتيّ أحجار الهرم العتيق في جدران جوامعك، ودخلتُ منف ظافراً وسقطت تحت أسوارها محسور الحول، هدّني الشوق إلى واديك الداكن العميق تموجت فيه أعواد الغاب الرشيق المترنمة بالتراتيل والقوانين السماوية وحكمة الفلاسفة وعذابات الشهداء وأدعية أولياء الله الصالحين، عفّرْتُ جبيني بتراب القبور تحت عمود دقلديانوس أنصت إلى أنين المرجومين والمذبوحين والمحروقين الذي لا رحمة فيه، احتضنتك فأحطت ذراعيّ بأعمدة البرابي الغائرة النقوش يصعد من حولها بخور القمامصة والقسس والرهبان والشمامسة تحت صوت البطريرك الأجش العميق الذي بح من الصوم والصمت الطويل، يا سيدة الرسل يا أخت أوزيريس، رميت نفسي في نهر الشَعْر القوي الذي تدفقت جدائله بأمواجك الخضراء، وجاءت المياه الحمراء من عالمك السفلي تجري آبار الدهر في شرايينك وأنت ترتعدين بتحقق الرغبة وتفور المياه في كِباح عمالقة التوربينات تصفّي الخصرة وتطفح بورد النيل الغليظ الورق، قبلتك على جبينك وحلمت بقبلاتك ودعوت الموت وأنا أتقلب في حشرجة قلبي الذبيح على رمالك الناعمة البيضاء وسمعت صوت الموت في متعتي النهائية وتركت على عتبات العمود قطرات من دمي جافة سقطت مدورة كاملة التدوير على الرخام البارد العريض.

كان الليل يأتيه فيخشاه. يتوقع في معرفة لا تهتز أنها ستجيء: هذه الهُلاسية التي تختلط فيها الأحداث ويناجي فيها أوهامه، وقد اتخذت شكل كوابيس أليفة مروّضة لها وجوه إنسانية، في حوار متصل فيه أخذ وعطاء وفعل ورد. وتثب أعصابه كلها مرة واحدة في رعدة مفاجئة من صليل جرس التليفون الذي لم يرن، في الحقيقة، ومع ذلك يسمع صداه في غرفته الساجية المزدحمة بالليل. سمكة الحلم تنزلق من بين أصابعه في موج شبه النوم شبه اليقظة الثقيل وهو يتمرغ في حضن البغي المقدسة وترده على أعقابه الساحرة العرافة التي تقرأ الغيب وتغوص بسهولة في عقدة الأحداث ولها مقدرة تتجاوز نطاق الحواس وتصمت عنه الغانية المحترفة الارستقراطية ويغرق به القارب الذي تمسك بدفته كاهنة ايزيس التي تلقي بالتعاويذ على العقارب في مستنقعات خمَّس ويفر من البوليس مع الثورية الطهور وترتفع حواليه أسياخ العمارات الحديدية العارية وأعمدتها الخرسانية المصمتة، من غير سقوف، ترفرف عليها، في سماء مفرغة، بجناحيها الهائلين، العنقاء الصاعدة بمنقارها الضاري من بين ألسنة النار.

قال لها، عرضاً، وهو واجف القلب: قابلت محمود أمس. وتحدثنا عنك.

قالت: خير. لذلك شرقت وكدت أموت

قال: أبداً. بعد الشر. كل خير. هو صديق حقيقي وأحبه. لكن فيه نوعاً من الشر والعدوان، مع ذكائه وعناده، وحبه الغريب لسامية.

قالت: الحب لا يمكن أن يكون غريباً. لا شرط له. اليس كذلك؟ محمود طيب وغلبان.

فلم يستطع أن يستجمع نفسه ليقول لها: هذا الصديق، الطيب، الذي أحبه، هو الذي قال عنك بكل حسن نية، وعلى غير معرفة بشيء ما بيننا - على غير معرفة؟ - أنك لست في النهاية إلا مجرد امرأة نيمفية مجنونة

بالجنس، وأنه عرف ذلك فوراً بمجرد أن التقى بك أول مرة وكان بوسعه، بسهولة جداً، أن ينام معك، لكنه هرب من المشاكل والتعقيدات، وأنه يعرف هذا الصنف من النساء معرفة جيدة، ولا يقربه.

وقال لنفسه: أهذا كل شيء؟ هذه قصة هوس جنسي؟ وأنا ما دوري في هذه القصة، أداة أم فريسة أم صائد وقعت له طريدة سهلة، ما أشد ما يوجع هذا. أهي قصة رجل في منتصف العمر يقول عن نفسه عبارات محفوظة مكررة كثيراً، أنه ضحية أوديبيّة، ومراهق أبدي، ومتفرد مستوحش، ومتصوف بالجنس؟ هذه الوحدات التجريدية الفرويدية والنيوفرويدية تتردد على كل الشفاه، كما تتردد أمثالها من كلمات ووحدات وقوالب، في كل عصر، قد تختلف الكلمات من زمان إلى زمان ولكن ماذا تعني حقاً؟ ما الجيشان المضطرب الذي وراءها؟ ما اسمه؟ ما الكلمات التي تفي به؟ كيف يقال؟ لا يقال.

قال لها: أبداً. تكلمنا عن ذكائك وثقافتك، وجمالك أيضاً.

قالت: باركك الله.

ليس اليأس إحدى الراحتين. بل هو تنويع على العذاب: فقدان كامل، حقاً، ولكنه مع ذلك غير مقبول، خيط الأمل المراوغ المخاتل الذي يبقى دائماً مضفوراً بيأسه. عذاب حاد متقلب محرق ليس فيه نهاية. متى، متى يفرغ منه؟ تنبت له في كل لحظة أنياب تغوص في اللحم، بلذع جديد.

قال لها: أليس عندك نوع من المكيافيلية في الحب؟

قالت: أنت تعرف أنني معك أصفح عن هذا النوع من التفكير، حتى ما كنت لتقوله، دع عنك ما تفكر فيه، لو لم تكن تعرف.

قال: لا أدري. لا أبحث عن صفح ما. عن أي شيء.

ثم قال: أنا افتقدك. توحشيني.

قالت: أنا أيضاً.

قال: لا أصدق.

قالت: لا تصدق، إذن.

بلهجتها النهائية القاطعة الباردة، بطريقتها الخاصة اللارومانتيكية، المنتهية من شيء لا معنى للّجاج فيه، كأنها تقول في الوقت نفسه إنها لن تفيض معه بتسايل العواطف السهلة. كأنها تضع قراراً أساسياً. هناك بينهما ما هو أرسخ كثيراً. مما أثلج صدره المشعوف، لحظة، وأعاد له ابتسامة داخلية.

هذا العالم الذي لا يهدأ فيه صراع الأمازونة، لا تنزل فيه أبداً من على جيادها المجنحة، تنتقم، ربما من أمجاد أبيها رع، تنتصر في عالمها الداخلي، بحقيقتها الخاصة، وحدها، ليس لأحد حساب، في غِمار عملية تعويض لا يصل أبداً إلى غاية.

كان الشيخ في داخل الواجهة الزجاجية كأنه غريب ألقت به تصاريف ظالمة، بيت العرائس التي تمد أيديها البلاستيكية في حركة مشدودة الأصابع ثابتة الابتسامة عن ثغر دقيق كحب الرمان وشعر معقوص من خيوط صفراء وفساتين دقيقة مزركشة وعينين لا تطرفان بين فتّاحات العلب وزجاجات العطر الشرقي والأقلام الجافة المصنوعة على شكل مسلات فرعونية سيئة التشكيل والأكواب الملونة والعقود الكهرمان الكبيرة الحبات والأقراط النحاسية اليدوية المقلدة ومن ورائها جلاليب كرداسة الفاحشة الألوان والأباريق المشغولة بالترتر الأزرق والبرتقالي السقيم وألف صنف وصنف من نفايات مصانع الذكريات السياحية الطفيفة الوزن والفادحة الذوق والثمن. نظر إليه الشيخ بخرزتين سوداوين لامعتين ووجهه القماش الرمادي المخسوف ولحية من فتائل قطن مغزول مشعثة، وثوبه البلدي ينسدل عليه جامد الطيات ويداه متدليتان إلى جانبيه في أكمامها الفضفاضة وطربوشه مغربي قصير له زر أسود تدور حوله عمامة بيضاء ملفوفة رشيقة.

قال لنفسه: مستفرح به كثيراً. شيخ فذ نادر المثال. جليل ووحيد ويائس في وسط هذا المولد.

قال: تضمه إلى موكب الدمى والأشباح المجسدة التافهة القوام المفككة المفاصل التي تهوى أن تضمها إلى صدرها.

كانت قد قالت له: لا يفتنني أكثر من دون كيشوته، يا حبيبي عليه..! يتعثر ويتلعثم ويفشل، وأحبه..! يخرج بكل جد، وكل سذاجة، لمقاتلة لا شيء.. لا يعرف طول الوقت أنه راحت عليه، وأيامه ولّت. هل تعرف أنني من أتباع عقيدة دون كيشوته، وطقوسه الأبدية؟.

قال لها: أنت؟ أنت من عقيدة هذه الشيخوخة والفشل؟

قالت: صحيح. عدم الكفاءة أنا أمقته، بكل أشكاله، في أي شيء. في العمل اليومي وفي العمل الثوري، في الحفائر الأثرية وفي المواصلات، في أي شيء. وأمقته أيضاً في الحب.

قال رامة، ليس الحب من قبيل الكفاءة أو عدم الكفاءة. فليس فعل الحب هو الموضوع. بل الحب نفسه.

قالت: من غير فعل يا حبيبي؟

فلم يجب، بالطبع.

قالت: لا، ولكن دون كيشوته، أموت فيه! عندي المخطوطات القديمة، أنا أتعلم الاسبانية لكي أتحدث إليه مباشرة. وأجمع صوره، وتماثيله، بكل تنويعاتها. هل رأيت عندي التمثال الحديدي الصغير، مفرغاً، متطاول الأطراف، روزنانته عجفاء بارزة العظام، والرمح الفارع ساقطاً إلى جوارها بلا ثمن ولا جدوى. وجهه المعدني الباهت الممصوص في تهدل جاف لا أمل له، يا حبيبي عليه!

لماذا خطر له فجأة أن دون كيشوته كان أيضاً رئيس وزراء سابقاً

للسودان، شيخاً قديم اللمعان ذهبت أمجاده وهو لا يدري بعد، منفياً بين طواحين الهواء، رمحه مقبض تنس يضرب كرة لا تذهب ولا تجيء؟

وكان أيضاً زميلها ألفونس المغضن الوجه الذي لوّحته شمس الصعيد وكأنما خطّت التجعيدات العميقة فيه رمال الحفائر، كأنه ثمرة دوم صلبة النواة تجري في عروقها البيضاء مياه عجوز، وهي تنهي لقاءها معه بقبلة على الخد المقدد، وكان أيضاً إبراهيم صديقها الطوال الذي كان بطل كرة القدم في الثلاثينات، محني الظهر، غائر العينين، ما زال شعره لامع السواد وإن كان قليلاً، يشرب معها على البار وهي تنخرط معه في حديث وثيق تشترك فيه بحيوية كل أوصالها اللدنة الأنثوية، تتوفز وفي يدها كأس الكونياك في حركة طفلية كأنما كل جزء من جسدها الناضج يتوثب، دون أن يدري بفرح وتشوق للجري والانطلاق في لعبة جديدة - أية طفلة كانت؟ شقية، مغامرة، مقتحاماً لا ترهب الكبار ولا تتهيب عالمهم؟ - وكان أيضاً رئيسها في شغلها، لا يني يرفع التليفون ويطلبها، كأنه يطلب الرضعة، بشكاة الشيوخ، ويحني رأسه إلى جانب رأسها يقرآن معاً نصّاً بالديموطيقية السريعة الخط، لا يشبع من حنانها الكفء وحسها الناعم بالمسؤولية.

قال لها، أنت دائماً عندك ضعف خاص وعجيب نحو الرجال الشيوخ، وشموسهم شاحبة، على حافة الأفول.

قال لها، وهو يخفي وراء ظهره العلبة الصغيرة الملفوفة بورق فضيّ منقوش وخيط مضفور الألوان:

- عندي لك هدية.

قالت: والله! أموت أنا في المفاجآت!

قال: وهذه مفاجأة لها أكثر من دلالة، أيضاً.

قالت: دمك ثقيل..!

وابتسمت ابتسامة تشوُّف وتطلع، غـائبة. كـأنه ليس هنـاك، كأنها هي ليست هناك، وهي تفك، في غـير لهفة، الخيط الـدسم الاستدارة المتعـدد الألوان.

كان الشيخ، وهي ترفعه أمام عينيها، يرد ابتسامتها بنفس النظرة الغائبة القلقة الأسيانة، وبحركـة كأنها لا ارادية مست لحيته الطويلة بحنان وهي تقول: أللهْ.. !

ورمقته بنظرة سريعة وقـالت: أشكـرك. كنت طول عمـري أتمنى أن يكون عندي.. !

ردت غـطاء العلبة بلا اهتمام، ووضعت العلبة في حقيبة يـدها الكبـيرة الغنية الجلد المكتنزة ببطنها المدورة، المفتوحة دائماً، مفكوكة السوستة دائماً.

ونسيته، دميتها الأخيرة. نسيتهما معاً.

رامة، ساقـاها صخـرتان بحـريتان مفتـوحتـان. عمـودان أشـوريـان، تصطخب من بينهما أمواج الشهوة المتلاطمة البيضاء الزبد. كلاب كـيريكي المسعورة فاغرة أفواهها مثلومة الأسنـان تنبح لا تقضم شيئـاً ولا تقبض على شيء. مـا من أحد يعـرفك خيـراً مني. قـد لا أكـون خـير عشـاقـك، ولا أكفأهم، ولا أفعلهم، ولكن ما من أحد أحبك خيراً مني. هكذا ظننت.

قال لنفسه: أهذه قصة قديمة مبتذلة مكرورة؟ قصة امرأة نيمفية حُـواذها الجنسيّ ظامىء أبداً لأمان الحب الموقوف الزائل العرضيّ الـذي لا بقاء فيـه لا تني تريده يتجدد بلا نهاية؟

قال لنفسه: لا. ذلك ما قـد يقال. نعم، ذلـك يقال. شفيق صـديقها الذي أشار بدون أكتراث:

رامة هذه نامت مع طوب الأرض، في زمانها.. !

الاستهتار، والكلّية التامة، عقلت لسانه عن الرد، وجففت قلبه وهشمته كورقة شجر محروقة.

قال لنفسه: هل آذيتها حقاً؟

قال: في لحظة ما، لا تنتهي، أردت أن اقتلها. ابغضتها كما لم ابغض شيئاً ولا أحداً في حياتي. نسيت الألم والمعاناة - أهذه تُنسى؟ - التي لا تطاق ولا اسم لها. انحسر المقت والبغض الذي تتقلب به أحشاء القلب المتوحشة - بتوق ووحشة أذكر جانب المحبة الناعمة السلسلة الانسياب.

قالت له: أنت مهندس معماري يشتغل في ترميم الآثار، ضل طريقه إلى السياسة والشعر والفلسفة؟ أم شاعر وثوري وفيلسوف ضل طريقه إلى الهندسة وترميم الآثار؟

قال باعتراف هادىء: أنا قبطي في منتصف العمر، لم أشفَ بعد من طفولتي. وعجوز جداً.

قالت: لم أقصد هذا. لا تصنع من الحكاية دراما يا أخي. ولكن ماذا أقول لك يا ميخائيل، ألا ترى مع ذلك ما يدور حولك؟ ألا ترى أن هذا الشعر أو التصوف أو ما لست أدري، هو بتر، وتشويه لنفسك وللعالم، ولمصر هذه التي يربطك بها ما يشبه المرض؟ أقصد، ألا ترى الواقع؟

قال: أرى. أرى. لا أستطيع إلا أن أرى بالطبع. وتكويني الرؤية. لا أريد.. أن أرى. ولكني برغمي مفتوح العينين.

قالت: أنتَ الذي تقول الصدق الصدقَ، ألا تجد زيفاً، وزيفاً وكذباً مقصوداً أوغير مقصود، أبيض أو غير أبيض في هذه الزخرفة الشعرية أو التصوفية أو ما لست أدري، ألا تجمّل، وتزوق، وتحلي؟ ألا ترى الجوع والتعصب والقذارة والطمع والكذب والمسكنة والخداع؟ والفوضى التي لا

شكل فيها؟ ألا ترى الوجوه الحسية الغليظة باللحم الفاسد، المحجوبة، المجوفة بالمكر والفقر والحزن والقبح؟ أليست هذه أيضاً هي الناس، هي مصر؟ أنا أحبها جداً. من لا يحبها؟ ولكنني أريدك أن ترى.

قال لها: خلّصيني، أرجوك..! هل تظنين حقاً أنني لا أرى؟ لا أظن أنني أريد أن أُناجزك. أرفع يدي، أُسلِّم..!

قالت: يا حبيبي. لا تسلم. أنت أيضاً مقاتل..!

كان ميخائيل ورامة يشوقهما حنين إلى كِنٍّ يأويان إليه وحدهما من قسوة العالم الصغير ومن جماله المتعب الذي يدور في طريقه غير آبه لهما، على أي حال، وهما يدخلان باب الفندق في شارع جانبي تظلله الأشجار الغامضة في أول المساء، وأقدامهما تحتك، تحت رصيف الباب، ببقع خفيفة متناثرة من الرمل الأصفر على الاسفلت النازل نحو البحر.

كان قد أمسك بيدها في التاكسي الذي استغرق زمناً لم تكن تبدو له نهاية، في طريقه عبر الصحراء ومديرية التحرير والقرى الجديدة والمزارع النموذجية ومحاضن الدواجن وبحيرة مربوط ومصنع تكرير البترول المنقول من السويس. وكان معهما راكب وحيد يجلس في المقدمة، بجانب السائق النوبي الذي يؤدي عمله صموتاً، صغير السن، مرهق الوجه. وعرفا على الفور أنه فلسطيني يعود من لبنان ليكمل دراسته في كلية الهندسة بالاسكندرية. وعلى عكس معظم الفلسطينيين كان بارد الصوت، ويتحدث دون انفعال عن الحرب في بيروت، وحكى دون توقف عن الحرب الاهلية في بيروت. وقال دون تأثر ظاهر كيف قُضي على عائلات بأكملها في الشياح. قال إنه كانت له قريبة وقعت في أيدي جماعة من الميليشيات، واغتصبوها، جماعة ثم قتلوها بمدفع رشاش.

وكانت أشجار الجزورينا تتتابع على جانبي الطريق، في نور العصر الخريفي المبكر الرقيق الحرارة.

وقال إن الشوارع كانت تتعفن بالجثث والأنقاض. ويغطيها دخان له رائحة رمحة تعلق بالأفواه ولا يغسلها شيء وإن الفئران تضخمت وتكاثرت حتى أصبحت مرهوبة وتهجم على البيوت وقال إنهم كانوا يجدون الرجال في الشوارع مخصيين وقد حشيت أفواههم بأعضائهم الحسية المبتورة مدفوعة بدمائها المتخثرة بين شفاههم المتورمة الزرقاء وأسنانهم المكسورة

قال كان رمسيس الثالث والأشوريون وأطباء الصليب البيزنطي والمعقوف وسلاطين ألف ليلة وليلة يفعلون ذلك أيضاً. كل على طريقته

وكانت الخضرة الجديدة المتعددة الظلال المتغيرة الكثافة في الأراضي المستصلحة تمتد إلى يمينها، منبسطة من غير تموج، وجدائل شجر الصفصاف والجميز قصيرة وداكنة على الترعة المستقيمة التي تجري في مهدها المصنوع من الاسمنت، وسرب صغير من الوز الأبيض والرمادي يطفو في بركة بلون القهوة الفاتحة اللون، كأنها من عالم مرسوم على الحجر، تفتح مناقيرها ولكنها لا يسمعان صوتاً في هدير محرك السيارة الثابت الطنين.

وقال إن القتل على الهوية هو خبز كل يوم، دون سؤال ولا نجدة بطاقتك، ولا شيء آخر، هي التي تحدد حياتك أو موتك. وإن الميليشيات والجيوش الصغيرة والجرالات والقواد والعصابات والسرايا والمجموعات المتقاتلة المتشابكة أصبحت لا يحصيها العدد تتغير صفوفها وتحالفاتها وارتباطاتها ومواجهاتها كل يوم وأحياناً كل ساعة وأن الصغار ذوي اللحى والمسدسات والقنابل والصواريخ هم أصحاب الكلمة، والفعل، وانهم حتى لم يعودوا يعرفون عمن يدافعون ومن يقتلون وماذا يقصفون ويحطمون وإلى من تتجه أفواه مدافعهم وصواريخهم ودباباتهم بين الحواري والشوارع لا تكف عن الدوران والقرقعة والتفجر ليل نهار وفي كل اتجاه. قال إن حرب الساحات الشاسعة والصحاري تدور بين السكك والأزقة.

كانت يدها، تحت يده على جلد مقعد التاكسي البلاستيك الذي تغيّر لونه من التراب والقِدم، مستسلمة، هادئة، وقد سرى الخدر الخفيف إلى أصابعه التي تشابكت عليها، ففردها وهو يعتصر أصابعها القصيرة ويمر بأصبعه السبابة على أظافرها التي تلمع بطلاء كأنه رصاصي اللون خافت النبرة. والتاكسي، فجأة، صغير جداً ويسرع بلا جدوى تحت ظل سيارة صهريج مكورة البطن هائلة البدن يشق جنبها خط صدىء عريض من أثر الجاز المسكوب المتجمد.

قال إنّ الحوامل كن يُسقطن الأجنة موتى من العطش، في تل الزعتر، وقد جفّت أجسامها، وإن المدافع الرشاشة استقبلت الصبيان الذين جُنُّوا من الجوع وفقدان النوم عند خروجهم من المخابىء المتهدمة. وقال مع ذلك إن فلسطين لن تموت.

قال ميخائيل لنفسه: تل الزعتر وأبو زعبل، ساحات الكوليزيوم ومقبرة كاراكالا وأقباء محاكم التفتيش، وخوذات الفايكنج والكلاب المدربة على نهش السود في زيمبابوي وسطوة صكوك الغفران وبيانات المكاتب السياسية واللجان المركزية، سبارتاكوس، ويسوع، وحسين بن منصور مصلوبين مع اللصوص والثوار والآبقين، زنازين الباستيل وسيوف الصليبيين وسلاسل الصلاحيين، بغايا سايجون وضحايا أيلول الأسود وحزيران الأسود وكل الشهور السود، وجزر الشيطان مهما اختلفت أسماؤها سنج سنج وطره ورويين وبحر إيجه. الجثث الطافية على النيل في أوغندا والمطعونة بسم الرماح في بورندي وروانـدا والمهروسة في شيلي والمطحونة في بنغلادش، ثلوج الأرجنتين وأفران داخاو، تربيع الأوصال وسكاكين المفاصل والضرب القاصم على النطوع، خرطوم كتشنر والمصانع الفيكتورية في مانشستر وكوميونة باريس ومزارع القصب والقطن في الميسيسبي والصعيد، والأكواخ والجراح العطنة التي تغطي وجه الأرض والجيتوات في هارليم وأوديسا

ووارسو، الأسلاك الشائكة في سيبريا وواحات الصحراء والأقطاب الكهربية في أثداء النساء وقضبان الرجال في الجزائر وهاييتي، قوافل القرامطة، وبغداد الساقطة تحت سنابك هولاكو، ومحارق الساحرات، والعساكر البيض بمدفعهم الوحيد الغليظ الفوهة يحصد الأدغال والسهوب، ومراكب العبيد من غينيا وزنجبار، والويسكي والزهري والأفيون والرصاص للهنود الحمر والسود والصفر على السواء، من بيروت إلى جيرنيكا، من برلين إلى لينينغراد، من سيناء إلى دير ياسين، من قرطاجنة إلى القسطنطينية، من أورشليم إلى شنغهاي، من بوخنفوالد إلى ميونيخ، ومن بومباي حتى دنشواي، من الهون إلى المغول، من الهكسوس إلى الماندران إلى فيتنام ومن المماليك إلى الأباطرة، أليست هذه هي حكاية كل يوم؟ من اليوم الأول حتى اليوم الأخير؟ أليست هذه القاعدة والقانون؟ أليست هذه قصة هذا القرد المفترس العاقل الفصيح القائم على قدميه الحالم الصانع الحكيم؟ الأشلاء الحية المرضوضة التي تدك وتمزق والعيون المنطفئة المختبئة وراءها الروح الجريح؟ وعذاب العقل يُجوّعه القهر ويشله الإذلال، كل البطاقات والأسماء، كل الآلهة والأنظمة، كل السباع والفرائس، كل الأبطال والمطارح، كل الأزمنة والأقنعة، كل الضحايا والمسوخ، القائمة لا تنتهي ولم تنته. والتنين واحد غير مقتول ورمح الملاك ميخائيل مثلوم ولكنه ما زال مشرعاً بين النجوم.

أقبل التاكسي على منطقة النزهة واهتز على قضبان السكة الحديد ومر بجوار شجر الموز القميء المضروب ودخل الشوارع المهدمة بين أسوار مصانع صغيرة عليها عبارات بخط سيّء مفروش، عريض تقع عليه أنوار الفوانيس وتختفي: انتخبوا. . أول من اعتقلته مراكز. . . بطل. . . وخيام عساكر الحراسة المغبرة البياض بين عشب جاف وأشجار قصيرة لن تنمو أبداً، وعبرا بسرعة من تحت أقواس كوبري مظلم اسودت عقوده الحجرية

وبعد المقابر الهادئة وحدائق الشلالات جاء البحر وأنفاسه فيها رائحة الملح والحرية ونزل الفلسطيني في سيسيل وسلّم: بخاطركم الله يعطيكم العافية. وكان رذاذ الموج يصطدم بأحجار سور الكورنيش ويسقط على البلاط الأبيض العريض المكسور الحواف، وليس هناك على الطريق إلا سيارات مسرعة تحت ربوة زيزينيا العالية المطلة على فراغ البحر المظلم تتقلب على صفحته رغوات الزبد التي تأتي في صفوف متلاحقة بلا صوت، والملاهي الليلية الشتوية تبدو مهجورةً وباردة بأنوارها النيون الزرقاء والحمراء التي ضاعت بعض حروفها ثم جاء صف طويل من بيوت متعاقبة مغلقة صامتة أكل صدأ الرطوبة حديد نوافذها الموصدة وأبوابها المسدودة كأنما يدخلان مدينة موتى خاوية موحشة الجمال.

والشارع الجانبي بأشجاره الصامتة، على أرضية الاسفلت رمال متناثرة يسف بها هواء خفيف، وقد وضع سائق التاكسي حقيبتيهما الصغيرتين وراء الباب الزجاجي. لم يكن هناك في الاستقبال أحد، والمفاتيح الكبيرة معلقة بكرات نحاسية كبيرة في خانات الغرف، وللمصباح النيون، في الصمت السائد، وشيش خافت مهتز النور. ووقفا يتلفتان قليلاً حتى جاء الأفندي الأسمر، نوبي شاب من الجيل الجديد، بقميص ناصع البياض وبابيون أسود أنيق العقدة، ونظر إليهما بسرعة واقتنع، وقال له ميخائيل: مساء الخير عندك غرفة خالية من فضلك بحمام، على البحر؟ ليلة واحدة وربما ليلتين. فقال: أهلاً وسهلاً فيه بطاقة أو باسبور؟ وأخذ جواز السفر بسرعة، وبينما هي تبحث في حقيبة يدها قال: باسبور واحد يكفي نعم غرفة فاخرة يا مُرسي شنط البيه والمدام نمرة سبعة، وأعطاه المفتاح الثقيل بكرته الصفراء اللامعة، تفضلوا الأسانسير. . . !

وكان خشب المصعد قديماً ولامعاً وغنيّ النسيج من نفس نوع خشب منصة الاستقبال، وباركيه الأرضية مصقولاً باقياً من أيام العز القديم.

والمصعد يصطفق بأصوات معدنية ترتطم في قرقعات مفاجئة ورتيبة.

وكانت قبلتها الأولى هذه الليلة بها طعم خفيف من التراب والملح والصدأ المعدني وتلمس الحنين إلى الراحة والمرفأ.

نظر من الشباك الجانبي الذي يطل، من وراء ممر صغير مزروع بأشجار عارية الأغصان بجانب حائط قصير من الطوب الأحمر، على عمارة مسكونة منيرة النوافذ، وكانت الستارة مفتوحة، هزها فلم تنزلق في حلقاتها المعدنية. جر مقعداً وتثبّت من ثبات أرجله وقيامها على حيلها وصعد عليه ودفع شقّي الستارة إلى أحدهما الآخر فانزلقا يحتكان، بصوت صدىء، بالقضيب المعدني الأبيض ولكنهما ظلا منفرجين فقال لها: رامة عندك دبوس انجليزي؟ قالت: ماذا؟ آه، الستارة. ولم تجد طلبه في حقيبتها المتفخة، بينما كان يتحسس بأصابعه ظهر ياقة جاكته فعثر على دبوس ابرة، ولفّفَ به شطري الستارة فأغلق ما بينهما وإن ظلت بأعلاهما فتحة مثلثة فاغرة متلصصة.

رفع ملاءة السرير وتحسس الحشية الناعمة ونعمت يداه بالقماش المكويّ، وخلع الجاكته وتمدد لحظة، بكسل.

وكانت النافذة الأخرى بجانب السرير مضببّة الزجاج من الرطوبة يبدو منها شق، طولي منحرف، من البحر وأنواره الشتوية وضربات الموج كأنها حفنات من ماء مرشوش دقيق الرذاذ على سور الكورنيش المنخفض وقد سقطت منه أحجار على الرصيف مائلة على جنبها تبدو صغيرة جداً وغير مهمة.

قالت له: لحظة واحدة وأعود إليك. وهمّت تتجه إلى الحمام فقال: رامة لو سمحت لي أنت لحظة، ألا تفتحين حقيبتك؟ قالت: لا، لا أريد منها شيئاً ولكنه همّ سريعاً وطشّ لماء على وجهه وفي دقائق كان قد أجرى

ماكنة الحلاقة على رغوة الصابون وفتح الدوش وشهق بالماء البارد وعاد بالبيجاما المطبّقة، طياتها ما زالت واضحة بحسها نظيفة على جسمه المغسول المتوهج، وسمع انصباب الماء وهي تحته. غابت قليلاً، وكانت الغرفة دافئة ومغلقة وفيها ترحيب وأمان فخلع جاكيتة البيجاما ودخل تحت الملاءة، ورآها أمامه، عريانة، مقبلة عليه فقال: رامة انتظري لحظة. قالت: ما زلت أخجل منك. قال: يا حبيبتي. وصدره العاري يحس ثدييها وهي في حضنه وشمّ من جسمها نفحة من عطر الصندل السوداني وسورة الحب ترتفع بهما وتهبط في الحُميًا الطيِّبة التي يعرفانها خير معرفة، ولا يفرغان مع ذلك من تكشّف عالمها الجسدي الهادىء الأعشاب الرقيق الدفء والنداوة.

سوف تقول له وهما يعودان من الغد: أتعرف يا ميخائيل. أنا امرأة، وأحتاج إلى الحب. المرأة تجف وينالها عطب، إذا لم تحب، إذا لم تصنع الحب. كان الأمس أول مرة من شهور. أُحِسُّ الآن بتوازن جسدي، ونفسي. هذا شعور طيب.

وسوف ينظر إليها ولا يرد. وسوف يخطر له، فيما بعد، في غمرات التعذيب البطيء الصموت، أنها كانت تبالغ قليلاً، وأنه ما كان ثم داع لهذه الملاحظة كلها، وأنه كان قد نسي ذلك كله، في نوع من ضباب الحب، بفعل قد يكون ارادياً ولكنه غير واضح. فلماذا تذكره به؟

قال لها: أين نتعشى؟

قالت له: أمرك يا حبيبي. لا أعرف أنا. هذه مدينتك.

كانا، في الوحشة، يعرفان ساعات صغيرة من الألفة وهدوء الحواس واستنامة مسوخ القلق، بعد عاصفة شتوية وجيزة.

ونزلا إلى الكورنيش، الفسيح السماء، المصطفق الموج. وكان المطعم خالياً، وزجاجه تغطّيه من الخارج طبقة من ضباب رطوبة البحر تلعب فيها

انعكاسات الأنوار باشاعات رقيقة زرقاء حمراء متقلّبة ومراوغة. وكان للجمبري المشوي والنبيذ الأبيض الجاف طعم جديد، وكان حديثهما قليلاً، ولكن من غير توتر ولا ترصد، وصدمات المياه بأحجار الاسمنت المربعة الضخمة تحتهما لها صدى مكتوم فيه الحاح متكرر وخدر قليلاً، وهما يتطلعان إلى أشجار صنوبر يهزها هواء الليل على الجانب الآخر ويحسان أنهما وحدهما، ولا يحتاجان لشيء: والسحب بيضاء تجري على صفحة البحر الداكنة، ونصف القمر ينزل من وراء القلعة البعيدة التي تبدو صغيرة وسوداء، كأنه قطعة صفيح مكسورة باهتة، تنقلب وتغوص.

قال: لم أعرف نشوة السعادة التي تطير بالقلب وتتجاوز الحواس إلا في أيام الكشف الأولى التي لا يمكن أن تعود. عندما تفتحت أبواب قديمة موصدة عن ساحات من الخفة والسكر المتقد الصاحي لم أكن أعرف أنها موجودة في العالم. عندما كنا نسير معاً في الشارع الخالي بالليل، ثم قبلتني على فمي فجأة ومن غير روع ولا تلهف، من تلقاء نفسك، في نزوة عفوية كلها حنان وعرفان، تختم على شيء قد اكتمل وتبدأ رحلة لا نعرف إلى أين تُفضي.

كان العمود يبدو الآن بعيداً، والشهداء شيئاً ضرورياً، عندما أمسك بيدها وقال: نعود؟

١٢ - العنقاء تولد كل يوم

كما يجري في أحلامه، الخروج والدخول من الأبواب والمصاعد والسلالم والبحث عنها، دائماً، مسار مضطرب متحير تختلط عليه الاتجاهات والأرقام فيه، وفي الليل عندما طرق بابها انفتح له عن وجه رجل متعب يقظ مشدود الجلد في ملابسه الداخلية مشعث الشعر وأمسك الباب نصف مغلق بيدين باهتتين عظميتين، وأطل عليه متفحصاً متسائلاً بعينين فيهما ابتسامة سخرية خفيفة كأنها فهم، فاعتذر له بكلمات متداغمة اللغة وأدرك أنه أخطأ الرقم. كان بابها هو التالي، ومفتوح تحت يديه ولم يعرف ذلك إلا بعد أن ضغط عليه بخفة وهو يطرقه في اللحظة نفسها التي قامت فيها إليه، في عتمة الصبح الخفيفة، بقميصها القصير الذي يرتفع عن منتصف فخذيها وذراعيها القويتين يبدو شعر ابطيها الزغبيّ في سواد ميال للشقرة على سمرة اللحم الخمري عندما احتضنت رأسه وقبلته على فمه قبلة سريعة فاستدار وأغلق الباب خلفه.

قالت له: ميخائيل هل أسقطت مفاتيحك في مكان ما؟

تلمس جيبه الصغير بحركة سريعة ومر بيديه على جيوبه كلها وانطلق ذهنه يمر على كل المظان، فلم يجدها.

قال: لا أدري. ماذا حدث؟ هل وجدتها؟

قالت: أنت تعرف، منذ ساعة، في أول الصبح الساعة السابعة تصور، سمعت طرقة واحدة على الباب. وأنا أنام كما تعرف، دون شيء، عريانة.

خطر بذهنه، بسرعة، أنه لم يكن يعرف.

قالت: والباب مفتوح. لا أحب أن أغلق على نفسي الباب أبداً.

هذا اعرفه.

قالت: لم أكد اقوم وأنا نائمة فعلاً، وأكاد أدخل في القميص عندما دخل محمود، صبّح وقال إنه يريد فكة نقدية صغيرة، على الصبح، لم يكن معه إلا ورق كبير ويريد النزول مبكراً يشتري حاجات. تصور. عندما كان في طريقه للباب انحنى على الأرض والتقط سلسلة المفاتيح، وأعطانيها دون كلام. أظنه تعرف عليها.

فعرف أنها سقطت من جيبه، ليلة الأمس، في حركته التلقائية، قبل أن يدخل معها السرير.

لم يكن قد تعلم بعد عالمها الذي تتعلق بأركانه عُقَدُ العلاقات الأخرى، لا تنفك فضحك يغطي قلقاً وعدم فهم.

سوف تجيء فيما بعد ساعات الحب التي تشبه الخيانة لا التحقيق، والغضبة الفيزيقية الباردة التي تدفعه لفعل العشق، كاذباً أمام نفسه، في مجرد التلاصق والنفاذ الجسماني الوثيق الذي يحسها فيه غريبة وكائناً أجنبياً مدفوعاً إليه بالرغم منه، بعنف لا خلاص منه. من غير رقة ولا حنان، بل التجاوبات البدنية الخام، ثورة في الجسد ينبغي قمعها، واليقظة فجأة في كابوس يتفصد فيه العرق البارد. الوعي الساطع المحرق في الظلمة، روع الاكتشاف الحتمي القاطع بأن الكذبة هناك، ماثلة، لا غفران لها، لا يمكن ان تمّحي.

كان في غمرة اندفاعه إليها، في مطعم، في قهوة، في سينما، في البيت، يقدم لها رأسه المقطوع على طبق الشمس المشتعلة، تتثاءب فجأة، فتجف الكلمات في فمه، ويبهت. أهذا الحد هي آخذته قضية مسلماً بها، بلا

اهتمام؟ وعندما رأت النظرة ـ جريحة بلا شك ـ في عينيه قالت وهي تكاد تعتذر، وتدير السكين في الجرح: ألا تقول دائماً إنك تريدني على سجيتي؟ ها أنا معك على سجيتي.

في زمن ثالث كانت تحيته لها، في آخر المطاف، تشبه تحية الوداع على غير ميعاد، في المحطة التي تغص بالناس. كان يريد نوعاً من قطع العذاب المتطاول غير المحلول، ولو كان ذلك بضربة غير محسوبة تميت القلب، فليكن، ورأى دون صعوبة أن ذلك يخيفها، وأنها أحسته. مثل ورقة عباد الشمس. قال لنفسه بسرعة: لأنها بالطبع لا تقبل أن تكون هي المرفوضة. هذا عميق فيها، وقديم. عروستها الصغيرة، مهما تعددت أشكالها، دائماً في صندوق مغلق، غير مرمية، ولا معطاة، ولا مسلم فيها. هي دائماً في ركن ما. لكن هذا كل شيء.

كانت قد قالت له إن فساتينها، وهي صغيرة، لم تكن أبداً أنيقة ولا حتى مضبوطة الهندام. قالت لها زوجة أبيها مرة: تعالي يا ختي ما هذا الهباب الذي تلبسينه؟ دعيني أصلح لك فستانك، وأمسكت بذيل الفستان وقصته لها، وهو عليها، كأنها تقص من جسمها.

أما أنا فيرعبني الرفض أيضاً. وأستشعره في كل إيماءة. لا أطيق أن أرى نفسي في وسط عراء الساحة المفتوحة. ولا أن أتلمس، مفرغ العينين، الحيطان الخشنة الخاوية والنسيج المهمل الأنثوي الناعم.

في فترة أخيرة من هذه العلاقة، عندما ظللت أُفلت الفرص المواتية وظللت أُخرج عن خطوط اللعبة الجانبية، ولا أدخل في الدور المرسوم، عندئذ لم يعد هناك حتى الاهتمام الحسي. أصبحت الترابطات كوابيس تثقل العنق، معقدة لكن واضحة النمط. الليالي الغاضبة الموحشة، الوحشية، الليالي العاصفة في قلب الصمت، واسمها يختلط بالدموع، وجسمها ملقى

في العـراء تنقضّ عليه الـذئاب من سـماء كالـرصاص المصهـور، هذا ثمن الهزيمة.

هل يسلّم بأنه خانها، بمجرد صمته، وتمزقه، ودمـوعه العقيمـة الطفليـة التي لا جـدوى حتى من الخجل منهـا؟ أم أنـه، ككـل الخـائنـين، لا يـرى الخيانة؟

قـال لنفسـه: مـاذا يهم من عذاب الآخـرين؟ من يهتم بموت الآخـرين؟ حتى أقرب أحبائهم لهم.

قـال لنفسـه: فعـل الحياة نفسـه فعل أنـانيّ. أنانيـة أساسيـة لا تنحسر، مـركزة حـول ذاتها، نـواة صلبة لا ينـال منها أبـداً شيء. هـل هنـاك أخـذ وعـطاء؟ هبة وقبـول؟ منحة واستـــلام؟ أبداً. أبـداً، هنـاك الفم المفتـوح الذي يمضغ وينهش، فقط. يأخذ ويأخذ، بـلا اهتمام بشيء آخـر، في نقاء القبض والاستيلاء الخالص، بالشفاه والأسـنان.

ورد على نفسـه: لماذا تثور ثائرتي لهذه الحقيقة البسيـطة الجوهـرية التي لا تناقش؟ نحن حقاً نعيش وحدنا، ونموت وحدنـا. نتعذب وحـدنا، ولعلنـا أيضـاً وأساسـاً نـسعد و حدنـا. الآخـرون أدوات. ليس ثَمَّ تَشـارُك. هـذه أحلام المهزومين.

قال لها: الحب هو السعي الذي ينبغي أن تذوب فيه هذه الوحـدة، أليس كذلك؟ ولكني أسألك، أنا أسألك وأريدك أن تجيبيني، يجب أن تجيبيني: هل المحب، حقيقة، يعرف ما لوعة عذاب حبيبه، وموته في داخله؟ أم أن مشاركته في هذا العذاب ـ حتى إذا افترضتها ـ إنما تدور حول نفسه أيضاً؟ أريد أن أعرف.

قالـت في أسى وادراك فات أوانه: عذبتـك كثيراً. أعـرف. ولكن هذا قد مضى الآن. وقد عرفنا معاً لحظات سعيدة، على الأقل، ألا يكفي هذا؟

لا، لا يـكفـي، لا يكـفي. حـتى لحـظة الاجـتراح الحمي نفسهـا،

والامتزاج، والنسيان في الجسد، حتى في هذه اللحظة، هل هناك إلا تأكيد للذات؟ ثنائي ومتبادل في أفضل الأحوال. ولكنه ليس واحداً أبداً. حتى هذا الاندماج، يؤكد انفصالاً أساسياً لا التحام له أبداً، أبداً، أبداً.

قالت له مرة، ببساطة خادعة: لماذا هذا الاندماج الذي تبحث عنه، بكل هذه الحميّا؟ ألسنا، كُلا منا، كائنات لها حقوق الانسان؟ لكل منها حيّزه، ومساره، ومجاله الحيوي؟.

ثم أضافت، تخفف التوتر: أم أنك قد اعتنقت التصوف، حضرتك؟ كنت أظنك عاقلاً ووقوراً.

قالت تحكي له، شفتاها مدورتان حول السيجارة التي أشعلها لها، مستمتعة بحكايتها:

ـ هذه المدينة تذكرني بالجزائر العاصمة، عقب انتهاء حرب الاستقلال. كنا في البعثة المصرية لدراسة وتقويم الآثار اليونانية الرومانية. وكان لنا صديق جزائري أعتز بصداقته. لست أدري ماذا حدث له الآن. تلقيت آخر خطاباته قبل حكاية بن بيلا. وكنا نخرج بسيارته الأوستن السوداء، صادرها ببساطة من مستوطن فرنسي مهاجر. نعم، مثل سيارة جمال عبد الناصر، لماذا تبتسم؟

قال: الثوريون في كل مكان لهم ملامح مشتركة.

قالت، في عينيها حلم كأنه شبقي: كان بنعمّار ثورياً، من النوع النقيّ. قادراً على نسيان الماضي، تماماً، والبدء من جديد، في كل مرة، بعد كل فشل، بلا أسف وخصوصاً بلا مرارة. المرارة هذا ما لا أطيق، علامة مؤكدة لا أقول على الضعف، بل على ما هو أسوأ، على التردد والاختلاط. كان يعرف كيف يكون الاقبال على الحياة، ومتعتها، يعب منها، ولكن من غير نهم، ولا تفريط، ولا زهد زائف. ويعرف أيضاً كيف يتحمل

الضربات. أُقصي بعد الاستقلال عن لجنته في الجيش، وبدأ من جديد. عُهد إليه بمهمة تخطيط في التسيير الذاتي، فعكف عليها، وغرق فيها وبذل جهده وعرقه وخياله معاً. ولكنهم أبعدوه إلى اللجنة الثقافية في جبهة التحرير. وكانت الآثار من ضمن مسؤولياته. كان يطلع معنا لصيد الدجاج البريّ، ماذا يسمى بالعربية، القَطا؟ لا أعرف، في الفجر، في مستنقعات الشمال، على بعد ساعات من العاصمة، بالقرب من البحر. بالضبط مثل المنزلة، جنب بور سعيد. البوص، والهيش، والمياه الضحلة الصافية على أرضية الرمال المتماسكة. والأوستن السوداء قوية، تعرف الطريق. كان دائماً معتدل المزاج، وطَلْقته لا تخيب. لم يكن يضفي على شيء صيغة درامية، مهما بلغت دراما الأشياء.

قال: رجل متعدد المواهب، والقدرات.

قالت، دون أن تطرف عيناها: بشكل لم أجد له مثيلاً. كان بارع الحديث. لم يكن يُحسن العربية، ولكني تعلمت منه العامية الجزائرية، في لحظات انفعال كان ينسى الفرنسية أيضاً. كان في إهابه كاتب أو قصاص مكتمل، كامن، ولم يكتب حرفاً حياته. أنا من ناحيتي لا أحب الطبيعة. لن أكذب عليك، ولن أقول لك إنني أحب الأوبرا، مثلاً أنا لا أحبها، هكذا، ببساطة، المثقفون عندنا في مصر كلهم يحبون الأوبرا، يقولون انهم يحبونها.

قال، مقاطعاً، بحس من النزاهة والواجب: أنا أحب الأوبرا.

قالت: ولن أقول لك إنني أموت إعجاباً بغروب الشمس، أو الفجر في الحقول، وإنني أجد فيها رمزاً لما لست أدري، أو تغريد الطيور. هل الطيور تغرد، أو تغني حتى؟ تصنع ضجيجاً، هذا كل شيء، أو على الأقل تزقزق أو تسقسق أو تشقشق، كما يقولون، ولكن تغني، مثل عبد الحليم حافظ؟

قال: عندك حق. الغالب أن الناس تأخذ قوالب جاهزة لها دور الأفعال. مساحات أو كتل سابقة التصنيع، إذا أمكن القول، من الشاعر والاحاسيس المعدة لهم سلفاً.

قالت: لا أنكر أن القليلين. ربما، لديهم حساسية أصيلة، بِكْر وخاصة بهم، أمام الطبيعة. أظنك منهم.

قال: هل هناك حقاً هذه «الطبيعة»؟ الناس وما يصنعون جزء مكون وعامل من عوامل صنع الطبيعة فيما أظن. لا أظن أن هناك طبيعة أخرى مفارقة يمكن أن تتصور دون تدخل الانسان أو حتى وجوده. وخاصة عندنا في مصر، هل يعرف الطبيعة من يتكلمون عنها؟ الصور الشاحبة التي اعتنقوها من ترجمات الشعر، وقوالب الأدباء المجددين. أما عندي فالطبيعة في مصر مصنوعة، كلها، بأيدي الناس. فيما عدا الصحراء طبعاً. بعد أن تتجاوزي خطوط التليفون والتلغراف وأبراج الكهرباء الجديدة، بعد هذا الخط ربما، تجدين رعب الصحراء وسحرها، وغربتها الكاملة عن كل اقتحام إنساني.

وأسعده أنها توافقه. كان يكتشف كل لحظة أنهما يلتقيان في مناطق كان يظن نفسه وحيداً فيها.

قالت: عندما كان يحكي عن غروب شمس، أو مغامرة صيد في الجبل، أو صراع سياسيّ في لجنة، كان يستطيع أن ينسيني كل شيء آخر، وأن يجعلني بالفعل أعيش معه، وأن أحب الطبيعة، والصيد وأصبح طرفاً ضالعاً في صراعه السياسي.

قالت: هو إذن في كل مشروع من مشروعاته كان وحيد الغرض، وحيد الاهتمام؟

قالت: نعم، ومع ذلك لا. مثلاً لم يكن يزعم أنه يمتنع عن انشاء

علاقات أخرى. ولم يكن بالفعل يمتنع عنها. لم يكن يريد أن يدمر زوجته، كان يبدو في الثامنة والعشرين، بينما هو في الأربعين، وكانت هي تبدو في الخمسين وإن كانت في الثلاثينات ربما. ولك أن تحسب، بعد ذلك، بكم كانت تكبره من السنين. ولكنه كان يعزها جداً، ويحرص عليها حرصه على شيء لا يعوض.

كان يغالب غيرة يحس ألا موضع لها، وعرف أنها لم تفتها نغمة السخرية الطفيفة والرفض في استجابته للحكاية وأنها اختارت أن تغض نظرها، ولو كان ذلك مؤقتاً، فسكت، ينتظر.

قالت: كان مع ذلك يعود إذا لزم الأمر لمناقشة أمرٍ ما بعد عدة أيام من انتهاء جدل عنيف حوله، لصالحه. ليقول لك إنك على حق، وأنه فكر ثانية، وفهم ما تريد أن تقول، يعني لم يكن تركيزه على ذاته ينفي الآخرين.

قال: لم يكن رجلاً مصبوباً في قالب واحد، كان يمكن أن يكون له أكثر من إله؟

قالت: قد يكون ممزقاً من الداخل، لكنه في نهاية الأمر كامل. ليس بمعنى أنه نموذج أعلى للكمال. بل بمعنى أنه متكامل الأطراف، كل شيء فيه - حتى تمزقه الداخلي - يصنع جزءاً مكملاً للجوانب الأخرى. ولست أقصد أيضاً أنه كان فاتراً، وكل شيء عنده بحساب. كان عنده التدفق والدفء الساخن بجانب التحوط وامعان النظر في الأمور. ودائماً يسمي الأشياء بأسمائها.

قال: مشاكساً: ما أصعب أن نعرف أسماء الأشياء قبل أن نسميها.

قالت: ومع ذلك يظل الشيء هو هو، مهما كان اسمه.

قال لنفسه، فيما بعد: عمن كانت تتحدث؟ اعن رجل عرفته حقاً،

معرفة حميمة إلى آخر مدى؟ أم عن تركيبة من الخبرة المعاشة والوهم المعاش؟ أليس في هذا الرجل ملامح مني أنا؟ أو كما ينبغي في حلمها أن أكون؟ ألا تتحدث إليك أنت، عن نفسك أنت، بمفهوم المخالفة؟

قال لها، بصوت جهد أن يكون صافياً: يا له من رجل. كأنه يأتي من رواية، لا من الجزائر!

قالت: صحيح. نادراً ما يكون لك الحظ أن تعرف رجلاً مثله. لست أدري كيف أشرح لك، هو في اللحظة الواحدة انسان واحد متكامل مُدَارٌ به إلى هدف واحد، تحركه حاجة واحدة. لكن هذه اللحظة ليست شيئاً جامداً وثابتاً ومفروضاً. اللحظات تتغير وكل تغير يأتي بانسان جديد، متكامل أيضاً، وموحّد أيضاً. ومع ذلك فاللحظات الأخرى التي مضت والتي ستأتي موجودة في كل لحظة، لم تنقضِ تماماً، لم تنقضِ على الاطلاق، رصيد مخبوء ومشع في عمق هذه الواحدية.

قال: هذا أفهمه.

قالت: ودون أي نوع من الدرامية، كما قلت لك. هل قلت لك، لا دراما، ولا تأخذه الشفقة بنفسه ولا على نفسه، هذا ما أحب في الرجال، أولاً وأساساً.

ولاحظ على الفور أنها لم تقل: «ما أحبيته».

قالت: الجزائر تذكرني بالاسكندرية. هل تعرف؛ سآخذك معي إلى الاسكندرية، أليست بلدتك حبيبتك؟ وأغرقك في البحر؟

ماذا تقول لحبيبتك التي سوف تغرقك في البحر؟ تقول: أغرقيني؟ بالطبع، هذه هي الأمواج التي نريد جميعاً أن نغرق فيها، دون أن تغص حلوقنا بالماء المالح، غرقاً ناعماً هادىء النبرة. أو غرقاً عاصفاً متقلباً يفقد فيه المرء نفسه وتطيش عيناه. تقول: لا لن أغرق أبداً؟ وأنت منذ الآن قد

خبطت القاع الرمليّ بالفعل، واستقر جدثك واعي العينين تحت ثقل أطباق من الموج لا تطاق.

قالت: أنا كالعنقاء التي يحكون عنها، تجدد ذاتها في مياه البحر.

قال لنفسه: في مياه البحر، في معمودية النار.

قالت: في ملح البحر، وصمته وشمسه المحرقة، ونعومة قمره.

قال لها: دائمة الشباب، تخرجين من المياه المحرقة كل مرة في غضاضة الصبا الجديد.

وقال لنفسه: هذه المرأة باقية لا تزول، هي بنفسها تضع أرقام الزمن، وفق ما تمليه حاجاتها الداخلية، بِرْكةُ الحب المشتعلة هي الينبوع الذي ترى فيه زهرة وجهها القمحية مترقرقة أبداً قريبة من سطح الماء.

وقال لنفسه: هي لا تعود أبداً إلى شيء مضى. لا تذكر أبداً. لا تقول إن شيئاً قد حدث وانقضى. كل شيء عندها في الحاضر. كل لحظة تبدأ عندها من جديد. كأن الماضي لم يحدث أبداً، وبالتالي لم يُنس ولم يُذكر، لأنه لم يكن هناك أصلاً. كل حكايتها في الحقيقة تجري بالفعل المضارع. ولا تعرف المستقبل أيضاً. لا تراه. لا يوجد.

وعرف، في زمن تال، أن الأشياء في عالمها متعددة الأسماء، وأن الاسم الواحد تعرف به أشياء عدة. والأشخاص أيضاً. وعرف أن الفروق، في حُمّيا بقينها الخاص، تبهت وتختفي، بين الأزمان والأحلام والأشخاص والرؤى والخيالات والوقائع والتحديات والصدمات.

قال لها: لماذا أنت اليوم على غير مألوف حيويتك؟ ليست هذه نوبة كآبة فيما أرجو؟

قالت: لا، هذا تغير الفصول، لا أكثر. في الربيع يحدث هذا، أنت تعرف، الحيات تغير جلدها في هذا الأوان. في بَرَمهات كنا نرى جلودها

المرمية في الجيشان وأنا صغيرة في الشرقية. أنت تعرف أنني شرقاوية؟

قال: والطيور، تغير ريشها؟

قالت: آه، العنقاء القديمة.

قال: المتجددة. المولودة كل يوم.

قالت: ليس لي جذور، ليس لي مرساة في نفسي، هذا ما يخيفني. أنا انعكاس للآخرين، مقضي عليّ أن أكون انعكاساً لمن أحب. أتفانى في كل ما يحبون. أحب لنفسي ما يحبه كل طاغية جديد. فينفي عني نفسي. لا أعرف، في كل مرة، إلا مايريد حتى دون أن يقول.

قال: فيك نواة هي جوهرك. هذه لا تتغير. هذه لم يعرفها أحد. هل تعرفينها، أنت؟ أريد أن أراها في البلورة السحرية، أريد أن أصل إلى قلب هذا الصفاء. أهذا مستحيل؟

قالت: انقلبت أدوارنا. لم يكن ينقصني عندك إلا المكنسة أطير بها في نصف الليل بجوار برج الكنيسة. وربما هذه لم تكن تنقصني، عندك أصبحت أنت الآن عرّافاً..

وضحكا معاً، ضحكة قلقة.

كانت ما تزال مستمرة في حكاياتها، على شوب البيرة الثاني:

ـ كان أول من أحببته حقاً، بعد نزوات بنت الثانوي طبعاً، هو أستاذي في الجامعة. هذا تقليدي، ومكرر النمط. لكنه مختلف. كان أمريكياً، يحاضرنا في الجامعة، معاراً عندنا لفترة سنة، وعضواً في بعثة متحف بروكلين، ولم يكن يكبرني إلا بسنوات قلائل. طويلاً، لوحت شمس الأقصر وجهه، لحيته خفيفة وكاملة، كان فيه شاعر كامن، وعلّمني كيف يكون الشعر في الأحجار والمسارح والتمائم والترّاكوتا والعملات القديمة الممسوحة وبقايا العظام، والشقف والفخار. نشر هذا العام فقط كتابه عن

الإلاهة موت زوجة آمون، ومعبدها العظيم المبني على نفس محور معبد آمـون بالكرنك، كنت قرأت مسودات الكتاب، وكتبت عنه النايم مقـالاً كبيراً، انقطعت الرسائل بيني وبينه من زمن. ولكنه عندما سافر، أول مرة، كانت تصلني رسالة منه كل يوم، وأحيانـاً رسالتـان، وثلاث رسـائل. صـدقني. رجعت إليها أخيراً، بعد انقطاع طويل. لم أكن اطيق أن أعود إليها، لفـترة طـويلة. أحتفظ بهـا في صنـدوق خشبي، ليس تـابـوتـاً ولكن علبـة كبـيرة للزينـة، علبة الصيغـة التي تحتفظ بهـا كـل امـرأة ليس عنـدي صيغـة كـما تعـرف. يكفيني حلق، أو عقـد، ولكن متجـددة بـاستمـرار، ولا أحب الذهـب. أشيائي دائماً تختفي بشكل ما. الاسـورة والبروشات والعقود، أهلاً وسهـلاً بها لأي صـديقة تـأتي وتعجبهـا، أو حتى الشغـالـة، أو القـريبـات وصديقات القريبات. هكذا تجد كـل زينتي متجددة، ومن الفضـة، أو أي معدن، إلا الذهب. نهايته، خطبني ريتشارد في نهاية السنـة، كان مجنـوناً، لأنني كنت فعلاً متزوجـة، كنت انفصلت عن زوجي الأول، صحيح، كـما تعـرف، ولكنني كنت ما زلت مـتزوجة عنـدمـا جـاء للبيت يخطبني، وهـو يعرف. كانت استحالة زواجنا لا تخطر له على بال، رغم أنني كنت متزوجة ومسلمة ومصرية وفي أيام عبد الناصر، وهو أمـريكي بروتستـانتي. صحيح كـان زوجي الأول قـد انتهى مني فعـلاً وتركني. كـان حبـه لي حب شـاب متهوس، وانكشفت لي ثوريته وتقدميتـه عن ساديـة لا يمكن تصورهـا. لن أقول لك ماذا لقيت منه. لا تسألني. كيف كان يعذبني، جسـانياً، وروحياً وعـاطفياً. كيف كـان يمتهنني، بدنيـاً، وعقليـاً. لن أقـول ولا أريد حتى أن أتذكر من ذلك شيئاً. وذهلت أمي بالطبع عندمـا زارنا ريتشـارد، يخطبني. عندما عاد من بلدته في ماساشـوستس، ذهبت إليه. منـذ صباي لا أتحـرج من شيء أنا مقتنعة به، ولا يهمني، عندمـا ينبغي ذلك، مـا يقول النـاس، وما يفعلونه. أعرف كيف أواجهه وأتحداه أو لا أبالي منـه. من غير دراما. لا أحس فعلاً وعلى الاطـلاق أن في المسألـة كلها مـا يستحق مني الاهتمام.

وأمضيت معه أسبوعاً هو أسعد أيام حياتي. أسبوعاً لا نعرف إلا أحدنا الآخر. كان عالمنا كله هو نحن، فقط. لم نكن نتعب من صنع الحب. ونأخذ طعامنا في السرير، دون لحظة ملل واحدة. هل تصدق؟ ليس هذا مجرد كلام. الحب قادر على المعجزات كما يقولون، هذا حقيقي. أعرفه أنه. القوة الدافعة ليست في هذا العمل الجسماني وحده، الميكانيكي إذا شئت، كما تعرف.

كان ميخائيل يستمع مسحوراً، لقصة ليست فيها مع ذلك نغمة مبتذلة واحدة كان الزمن الأول للصداقة الجديدة، وحده بينهما، هو الذي يُتيح له أن يستمع، باعجاب، مبهوتاً. بشيء من الانفصال الزمني الجسماني والعاطفي معاً، لقصة حب ما كان يمكن أن تتاح حكايتها بين محبين. كان التمثال، تحت نافذة المطعم الواسعة، يستضيء بنور غريب يأتي من حكايتها.

قالت، في نوع من الحلم الأسيان: لا أشك أنه يمقتني الآن.

قال، مأخوذاً: لماذا؟

قالت: عندما عاد وجد كل شيء قد انقلب عليه. أوقفت أعمال البعثة الأمريكية وانقطعت المحاضرات، وطلبت منه السلطات، بأدب وحزم، مغادرة البلاد. كان هذا أيام دالاس والأزمة بيننا وبين أمريكا ولم أره بعد ذلك. وجاء الطلاق. كانت الأشياء أقوى مني. ولعلها ما زالت قوية.

قال لها: نعم، لديك حيلة مدهشة وجميلة. حيلة بالمعنى الطيب الذي يدعو للاعجاب. عندما تحبين شيئاً أو شخصاً، ينكشف لك عنه الحجاب. ألا أقول إنك ساحرة؟ هذه حقيقتك. هل هناك أبداً، عند أي منا، صدق آخر؟ هو عندنا مختلط ومغشوش. نقاؤه هو حيلتك.

وسأل نفسه عن الفرق بين الجو الخفي الذي تبدو فيه الوعود، غامضة،

وراء نور مشاع متوزع غير محدد المصدر، وما يخامره من سحر غير مفصح وجاذبية غير محسوسة، الجو الذي تتولد فيه النوايا والمشروعات وتتخلق البدايات وتبزغ الأشياء دون أن تحس حتى أنها تتكون وتتشكل ويقوى عودها، وبين الحدث الذي وقع، والعلاقة التي انعقدت عراها، وتجسدت لها أضلاع تلمسها اليد وتضغط على صلابتها. الشيء الغريب الأجنبي الذي وجد، وقام، نهائياً وجافاً وله ثقله، له خصائص أخرى غير تلك التي كانت تشيع في فجره. له قوانينه، ومساره، وظلمته المحددة. ما هو الشق، الشرخ، الخط الحاجز - وإن كان غير مرئي، بين الحُلُم والنية، بين النية والشيء المتحقق، بين المشروع والجذع الضارب بخشبه المفتول في الأرض الركينة.

في كل شيء، في الحب، وبناء جدار، في الشعر والجماعة السياسية، أو حتى عند الوصول إلى مشارف مدينة جديدة والدخول في ضواحيها، وعندما تشتري لنفسك كتاباً أو قميصاً.

لم يأت هذا الزمن الأول، مرة أخرى.

في الزمن التالي قالت له: أنت قلق.. وغير.. غير متأكد.

كانت تتلمس عنده النغمة المطلوبة، وتتكشف ما عنده. فاستقر رأيها على كلمة مريحة: «غير متأكد».

وسألته بعد لحظة: لماذا أنت غير متأكد؟

قال، باندفاع: غير متأكد منك. أنا الذي أسألك ما مدى حقيقة هذا القلق في اليقين؟

قالت: ليس هناك مجال للسؤال، بالتأكيد.

قال: يا لها من اجابة. ارجوك. تخلّي عن ذكائك معي، لحظة. دعينا نصل إلى الأساس، أمعنى ذلك نعم، لا مجال للسؤال. يجب أن تكون متأكداً. أم أن معناه، على العكس: لا. لا محل للسؤال اطلاقاً. ليس

هناك ما يدعو، حتى، لأن تكون غير متأكد. ليس هناك أصل للحكاية كلها.

قال لنفسه: يعني، نعم، حبي لك ثابت، ليس موضع التساؤل. أم يعني، لا، ما الذي يدعوك أصلاً للتساؤل. ليس هناك بيننا شيء.

قالت: عدم اليقين جزء لا يتجزأ وطبيعي، من هذه العلاقة، أليس كذلك؟

قال ببساطة، دون شرح: لا.

قالت: على الأقل، إلى حد ما، هذا طبيعي.

كان هذا تنازلاً منها، كما يرى، تقابله في منتصف الطريق.

قال: ليس عندي. أريد اليقين، مطلقاً، نهائياً. هذا وحده هو الرد.

قالت: أما أنا فسأرد فيما بعد. الرد الأساسي.

وبالطبع لم ترد أبداً. الأشياء الأساسية لا يمكن أن تكون موضع رد. ولا موضع سؤال في الحقيقة.

قالت، فيما بعد: هناك أشياء يحسن أن تبقى بلا رد. بعض الأشياء ينبغي ألا تقال، أبداً.

وكان ذلك، بالفعل، هو الرد الممكن.

هل القول نفي، وتعرية، والغاء؟ هل التحديد يتضمن أيضاً تجفيفاً وتصغيراً وتهويناً؟ أم أن القول معناه أن توقع الألم، وتكشف الأوهام؟

جدار هذه النفس يتهاوى من الداخل، تفيض منه قطرات مياه ملحية خطّاً متقطعاً عريضاً صدئاً كمد اللون.

كانت قد قالت له: إنني سعيدة أنك توجد، وأنني التقيت بك.

ولم يكن هذا يكفيه.

كانت رامة، بوضوح، نجمة الحفلة الصغيرة التي انعقدت، تلقائياً

وبسرعة، بعد أن انحسرت عن الأوبرج أمواج زوار النهار، وهدأ الآن.

عندما فتح ميخائيل نافذته نَشَق رائحة الملح من البحيرة التي رانت عليها عشوة أول الليل، وثبتت على صفحتها الساكنة طعنات نجوم حادة فضية مشعة السنان. كان في الوشيش الرتيب الذي تذوب به الأمواج الصغيرة على الشط الرملي، وفي الهواء المشبع بنفث راكد يفوح بشبهة عفن قليل، حس بتهديد يمس حواف قلبه برفق ولكن بالحاح متكرر.

نحّى هذا السكون الخطر، عن نفسه، وذهب فطرق بابها. وعندما فتحت له لقيته على الفور هتفات وتحيات الصحبة المتحلقة في الغرفة، بازدحام وتشوف. كانت الحفلة قد انعقدت. والمصابيح كلها موقدة، على المائدة، والسرير وفي السقف وفي الحمام، وزجاجتا ويسكي فات ٦٩ وكونياك يشع بسائل اصهب عنبري رائق وثمين وملىء بالايحاء، ماركة بيسكويت، والأقداح مختلفة الأنماط منها الطويل بزجاجة العادي الرقيق ومنها كريستال يتكسر عليه النور، وبنظرة خاطفة كانت الأطباق متراصة ومتراكبة صغيرة وكبيرة: شرائح الجبن القريش بلحمها المتماسك المتضلّع الندي، ورقائق البصطرمة الداكنة الحمرة بعروقها الدهنية البيضاء، ولفائف السجق المدورة المسلوقة الحمرة، وبذخ الخس القاره الغض الخضرة والرقة في أوراق النعناع كأنها زهور خضراء داكنة حريفة اللون.

قام عبد الجليل، مدكوك الجسم، ياقة قميصه مفتوحة، له عين جاحظة قليلاً في وجه شبه الزنجي العربي الملامح، وأخذ يدها إلى فمه بشفتيه الكبيرتين اللحيمتين وقال: أنت يا سيدتي كنتِ أول من علمتنا كيف نحب الانسان، وكيف نضحي من أجل هذا الحب، بكل شيء. كان في صوته بداية انطلاق الشحنات التي تثار بعد أول أو ثاني كأس، وقال: ميخائيل، هل تعرف أن رامة هي أستاذتنا، كنا نعرفها باسمها الحركي: فاطمة. هي التي علمتني مبادىء الثورة. من يصدق؟ أكثر من خمسة وعشرين عاماً

الآن. وكانت بعد ـ اسمحي لي يا سيدتي ـ بنتاً صغيرة، لكنها أستاذة. في منتهى الحزم والصرامة والدقة، والجمال أيضاً. كانت ماكينة الرونيو تحت سريرها.

قال محمود: نشرب نخب الجمال أولاً، ثم نخب الصرامة الثورية.

خففت الضحكات، وشرب الأنخاب، من جدية الذكريات المشحونة. وقام سامح، بقامته الطويلة الرياضية وسذاجة وجهه الأبيض الذي تجتمع فيه وداعة شاعر بقسوة المطاردين، وأفرغ كأسه مرة واحدة وقال: وكنت أنا طفلاً، ما أزال، في شوارع حيفا.

كانت رامة بالأمس قد قامت لترقص مع سامح وأخذتهما الموسيقى المنبعثة في حشرجة خفيفة من الريكوردر، وسورة حنان مفاجىء متبادل، فخرجا إلى الشرفة الغامضة الأنوار المطلة على البحيرة المقفلة على الرمل كأنها ميتة، متعانقين. كان ميخائيل يشرب ويتحدث مع سامية النحيلة الوجه العميق العينين، ويرقبهما، وضجيج الريكوردر الخشن يصل إليه كثيفاً في زحمة الظهور السائبة العارية التي استقرت عليها أذرع الراقصين في أوضاع تقليدية شكلية وعفهفة الحرير وفساتين السهرة الأنثوية تدور محكمة بالاستدارات والامتلاءات وتفرج فقاقعة موسيقية الاهتزاز عن الأطراف والحواشي في رشاقة الحركة وتلاصقها. وكانت في حمالته عريلة مضطربة من ضراوة ضربات الويسكي المثلج، وتهذي سامية الصغيرة جداً، المثيرة في دقتها، تحت عينيه، ودقات الريكوردر الشرس والتساليل حيناً بعد حين، وهواجس العشق والغيرة الراودة.

وكانت رامة في الشرفة تبدو كأنها مرمية بين ذراعي سامح، وضغطت وجهها على كتفه العريض، والتحق بفمه على شعرها الأسود المربوط بعصابتها الزرقاء، الأنيقة. عندما أحس ميخائيل جسدها الوفير في حضن

الشاعر الهارب من اسرائيل تقلبت دماء رجولته، فجأة وبلا مقاومة ممكنة، كأنما هو في مخض فعل الحب، فوضع كأسه وأمسك بيدي سامية وقام يرقص، ببطء وعناد.

أما الآن فقد كانت رامة إلى جانبه، ركبته تلتصق بساقها تحت المائدة. موجات الحديث والشُرب تضرب في داخله الآن خفيفة مداعِبة، وميخائيل يروي حكاية متعددة العُقَد والتطورات عن مغامرات ترميم أعمدة ومدرجات المسرح الروماني القديم، وسور الاسكندرية، في كوم الدكة، وكيف كان يقود، من صفوف الجماهير، مظاهرة ضد الملك فاروق ورئيس ديوانه عبد الهادي، في نفس الموقع تقريباً ومنذ ثلاثين عاماً تقريباً، وكيف كان قد وضع للمظاهرة، لأول مرة، شعار «لا استعمار ولا استقلال بعد اليوم»، وكيف رفعوا العلم الأخضر على اليونيون جاك، في وجه رصاص متفرق يجيء بتردد، غير حاسم، من الثكنة البريطانية التي كانت أيامها على كوم الدكة، وقد أخذته الرواية والذكريات، فتألق، واستولى على اهتمام الجماعة، وكانت سلوى الصغيرة المدورة كالبطة شقية ومرحة ومتهدجة القلب، بعد الحكاية، فغنت أغنية القدس لفيروز بصوت خفيض وحار وشبقي، ونورا بوجهها الطويل وشعرها الفاتح المنسدل منطلقة بلهجة أهل البلد وقد نسيت، لحظة، نبرات صوتها المدرب على الرقة والتهذيب، تروي نكتة بعد نكتة فيها لمحة من البذاءة والجرأة بالقدر المناسب تماماً، دون إسفاف يجرح أو تحفّظ يُضيِّق على الأنفاس. وألقى سامح أغاني الشيخ إمام وقال إنه سمعها وحفظها في اسرائيل، وتحدث عبد الجليل عن النميري وعبد الخالق محجوب وعبد الشفيع وقد سكر تماماً والواضح أنه لم يزر الخرطوم منذ كان صبياً في الابتدائية، وتكلم محمود عن المكائد التي تدور في كواليس موظفي الأمم المتحدة وفساد السياسيين فيها.

فرغت زجاجة الكونياك بعد زجاجة الويسكي، فقال ميخائيل: لحظة

واحـدة. عندي مفـاجـأة، كنت أخفيهـا، لكم. ونخـرج ليأتي من غـرفتـه بزجاجة فودكـا. وعندما رجع يحمـل الـسائل الشفاف الـرائق في زجاجتـه بحروفها الروسية المحيرة الشكل تلقته موجة التصفيق فقال: هذا أحسن ما عندهم. ليس عندهم شيء آخر إلا الكافيـار ربما. وضحـك معهم عبـد الجليـل. وعندمـا رجعت رامة بعـد أن غسلت الأقـداح تحت صنبـور المـاء الضخم الفـوهة الـذي تعطلت ميـاهه لحظة ثم اندلقت في عمـود ثقيـل، تغيرت أوضاع المقاعد بدون سبب في نوع من التحـرك والتحرر المفـاجىء، فاقتربت سـامية، صـامتة مـا تزال ثقيلة العينـين وفي يدهـا طبق من حبات الـترمس الـرطبـة إلى جـوار محمـود، وجلسـت سلوى ونـورا معـاً في مـواجهة عبـد الجليل وميخـائيل. أمـا رامة فقـد وزعت الأقـداح ومـلأتهـا وجاءت جلستها بجانب سامح، قريبة منه جداً، وصفقت كأسها مع كـأسه ونظرت إليه وهي تشرب وفي عينيها الغياب والاستغـراق الذي لا خـطأ في فهم معناه، وشرب ميخائيل كأساً بعد كأس من الفودكـا. دون أكل، مـع الـسيجارة، وكانت الوجوه والأحاديث تتألق حوله حيناً وتتحدد بشكل باهـر الوضوح ثم تغيم وتتشابك في سيولة ناعمة الوقع على الحواس، ونـواة الألم والحس بـالفقـدان حجـر صلب مغـروز في لـدونـة الصحبـة والحكـايـات والشرب، نتـوءاً يرتفـع فوق طنـين الريكـوردر الخفيض الذي يئـز ويحتـك بالأعصاب بموسيقى منسية لا يـسمعهـا أحد، وشـظية حـادة تغلّفها لُـزوجة التأجيل والتهوين وتسويف القرار وعدم الوضـوح.

كـانت تحيات التـوديع، بعـد إنهاك الضحـك والشرب والغنـاء والنكت والغزل الخفي والمداعبات العَرَضيـة للأيـدي والسيقان، ثقيلة، من الشبـع والتوتر معـاً. والخطوات إلى الغـرف المتجاورة والمتقـابلة ثابتـة حقاً وبـطيئة ولكن فيها شبه الترنح وعـدم الاستقرار وتصبحـوا على خـير ومسـاء الخـير، وتلويحات بالأيدي وضحك خفيف أخير.

كان ميخائيل، في آخر لحظات الصحو المضطرب على مشارف السكر ولم يتخطّها بعد، يحدس، دون تحديد، بقية دراما هذه الليلة، وعندما عاد ألقى بنفسه على سريره بملابسه، وانتظر في غيبوبة لا تفكير فيها، لم يكن باستطاعته تقدير كم مضى من وقت قبل أن يدير رقم غرفتها بالتليفون الداخلي، وظل الرنين يصلصل طويلاً دون رد، يخيل إليه أنه يملأ الليل، ظن أنه أخطأ الرقم وأعاد السماعة وأدار الرقم مرة أخرى وسمع الرنين ملحاحاً بإصرار، ومرة ثالثة أدار الرقم وقد تصاعد في وهمه الشك واليقين معاً متوازيين، فما كان من الممكن أنها نامت أو أنها خرجت، وأخيراً انقطع الرنين فجأة وجاءه صوتها ضعيفاً ومتردداً وعارفاً: هاللو. فقال إنه نسي علبة سجايره عندها ولا يمكن الآن أن يشتري سجاير هل تسمح له أن يأتي فيأخذها. قالت، وقد قطعت تردّدها، بصوت حاسم يُنهي الموقف كله ويختمه: نعم. تعال. سامح عندي.

وذهب فعلاً، رغم ذلك.

لم يعرف كيف دق على الباب وكيف رأى سامح يفتح له غرفتها، بقامته الفتية وجسده الشاب، عاري الساقين، يرتدي جاكتة صيد من الشامواه البيج الخفيف، واضحاً أنها على اللحم، وقال له هادىء النبرة جداً: تفضل. كان كل شيء يبدو غير حقيقي، ولا يحدث. وكانت رامة جالسة على السرير، عنيدة الأسارير، مرتكنة بظهرها إلى مسند السرير على الحائط، رافعة ركبتيها قليلاً تحت الملاءة البيضاء، وعلى جسمها قميص نومها الأبيض النايلون القصير الذي يعرفه، وفوق رأسها صورة بذيئة الألوان كأنه يراها لأول مرة لتخيل تحت الهرم وجمال على حافة مياه، والاباجورة وحدها مضيئة. كان كل شيء واضحاً، ولكن صلته قد انقطعت به. في صدمة اليقين والمعرفة كان كل شيء يدور على مهل،

بإيقاع خاص وبشكل لا يوقَف، في مسار عالم آخر لا يوجد هو فيه. في النور النهائي الكامل الوضوح كانت الضربة غير محسوسة كأن القلب الذي وقعت عليه بثقل لا يطاق وطأة القبضة المحكمة المُصمِية قد فقد القدرة على الحس، قالت له: هل أخذت سجايرك؟ كان قد فقد القدرة على أن يقول كلمة واحدة، وسمعها من هذا العالم الآخر الغريب الذي لا جسر بينهما فيه. وكان يخيل إليه أن سامح ينظر إليه وينتظر في بساطة دون حرج ودون انتصار. ولم يكن في حسه بازائه ضغن أو حزازة بل لم يكن يدرك، تماماً، أنه هناك.

ولم يعرف ميخائيل ولا يذكر، مهما حاول، كيف رجع وكيف خلع ملابسه وماذا فعل. أحس الماء يتدفق على جسمه السخن العاري المهتز برعشات لا تقاوَم تحت الدوش وهو يشعر بثقل الماء وحجمه ولكن لا يحس له برودة أو فتوراً أو شيئاً إلا وزنه وانسكابه، ولم يدرك إلا فيما بعد أن جسمه نفسه كان شيئاً غريباً عنه. وفي الحمام كانت تشنّجات القيء العصبي تختلط بنفضات الدموع وانصباب الماء على جسمه وهو يكاتم زئير ما تطرده أحشاؤه في تقلص فيزيقي لا غِلاب له، له إرادته، متكررة، حتى الانهاك السحيق، ولا يعرف في دوار الألم والارهاق الذي ينحط به إلى حضيض غائر من اضطراب الرؤى كيف جاء إلى سريره والتفّ في ملاءته تحتضنه وتهزه رفرفة خفقات ساحقة مميتة من جناحين يضمان في مداهما طول السماء وعرضها، حتى جاءته رحمة الفجر وهو لا يدري، والنوم، رحمة ممزقة مختلطة الأشلاء.

في الصبح عندما خلّص نفسه من نومه القلق وصعد فوق موج الرؤى المضطربة وجد على الكومودينو بجانبه ورقة مطوية تحت علبة كبريت، وبضع عملات نقدية صغيرة وكوبين مغسولين من الأكواب التي كانت عندها وطبقاً صغيراً من الصيني القديم مصفر البطن قليلاً به حفنة من

الفول السوداني. بقية حفلة الأمس. فلم يتبين ما هذا كله أو يفهمه، عندما فتح عينيه أخيراً في عتمة صبح الغرفة المسدلة الستائر العطنة بدخان السجاير الراكد ورطوبة ماء الحمام ورائحته. ثم تيقّظ معه الألم. وطعنه الطعنة المكتومة التي جاءت لتبقى، مثلومة الحد، ثقيلة القبضة. كان في الورقة رسالة منها، بالقلم الرصاص، بخطها الكبير، لم يقرأها. متى كتبتها؟ متى دخلت غرفته وجاءت بهذه الأشياء؟ هل كانت غرفته مفتوحة؟ تلمس ساعته تحت الاباجورة وكان طعم دخان السيجارة في فمه مراً وآسناً. السادسة صباحاً. لم يبدأ اليوم بعد. نمت ساعتين فقط. هل نمت؟: «يا أعز الناس. عندما كنت تتحدث بالأمس كنت أطولهم قامة. وأحببتك. كانت قامتك في السماء. ما أقدرك أن تبعث في نفسي الفخر بك. لماذا أفسدت كل شيء؟ ماذا يعني هذا الذي رأيته؟ كلانا يعرف أن هذا شيء صغير. ما حدث الليلة لم يكن شيئاً. ألا تعرف هذا؟ لم أكن أملكه. أنا لا أطلب أن تغفر لي. لا أطلب شيئاً. كان ما بيننا أبقى وأقوى. رامتك».

لم يحس إجهاشته القصيرة. هزة نفضته وأعادته كأنما هو مجوف، مفرَّغ تماماً. الوجع لا يطاق. وتلمس الاسبرينة وابتلعها وهو يمزق الورقة، دون تفكير.

وعندما تأخر عن النزول للافطار جاء محمود يسأل عنه. وكانت يده باردة على جبهته السخنة. وجاءت رامة بعد ذلك، مع محمود ونورا. ومكثت معه قليلاً. قال لها محمود: سأتركه في رعايتك. وأحضرت له، بعد الحاح منها، كوب الشاي السادة من غير لبن، ودخنت معه سيجارة، دون أن يتحدثا في شيء. كأنها هي التي تفهم، وتغفر.

كنت أزحف ببطء، منحنياً، في الحارة الضيقة المتربة. كانت الفوانيس كلها قد انطفأت والحيطان مائلة عليّ، وعالية، ومسدودة. لا أحد في

النوافذ المغلقة. لا أحد من وراء الحيطان. الوجوه قد استدارت واختفت، والعيون صمتت، لا تريد تورطاً، الصمت مليء وكثيف. أزحف ببطء وعلى كتفي طائر ما أُحسُّه ملتصقاً بمؤخرة عنقي، خفيف الوزن ولكن ريشه خشن. محكم القرب من عنقي. وثيقاً، لا يتزحزح، شيئاً لا وجه له. أجد منْ وراء عنقي مسَّ المخالب كأن فيها رائحة الحديد وصلابته والُمح لمعانها المكتوم، تمسك بعظمة كتفيّ من الجانبين، مسكة لا فكاك منها. البجعة الرخ الصقر العنقاء طائر «براك» الأبيض في سواد الكابوس المطبق جناحاه وحشيان ومنقاره رمح مشرع جارح، يتضخم على كتفيَّ، ويزداد وزنه، باطراد، ولا تنفك وطأته. أنهض قليلاً، بصعوبة، في العتمة الموحشة، والحارة ما زالت خاوية طويلة، طويلة. ليس هناك أحد في هذا الليل. لا نجدة. وأستند إلى الأرض بيدي بكل قوتي أحاول النهوض بالثقل الذي يحتضن كتفيّ بمخالبه، قبضته لن تنتزع إلى الأبد، رائحته حريفة، خانقة للأنفاس، وجناحاه يتسعان، ويعمق غوص المخالب في عظامي بلا ألم، هناك ثقلها فقط، كلابات غائرة تنزل في العظم، لم يعد أمل في أن أنفضه عني، أن أخلص من هذا العبء الذي لا يطاق الذي يرزح بي، فلا أعود أستطيع النهوض، أزحف باصرار اليائس وتقل سرعة زحفي على التراب، يداي تحتكان به، بخشونة، نقياً، غير ملوث، وتحته حصى وأحجار دقيقة، من غير جرح ولا دماء، وتضعف المقاومة واتجه إلى أسفل، لا جدوى من أية مقاومة، وأتجه نحو السقوط على الأرض.

ابيس ساقط ينقضّ من عل، على حقول الذرة المحروثة، مقلوب في السماء، وديع وثابت ويطير محلقاً دون حركة، لا يذرع مسافة ولا يستغرق زمناً، معلقاً لا تهتز جناحاه.

سماء القلب الداخلية المعتمة تتفتّح فجأة، وتشرق، وتستضيء. وينتهي

السقوط. لم يوجد قط. خفة لا يقارن بها شيء، وكل ثقل قد انزاح. الأعمدة الحجرية سامقة رشيقة في الكنيسة الصعيدية العتيقة، تنتهي إلى القبة البعيدة التي لا نور فيها. أزهار القلب الوحشية الفرح على الزجاج الملون، عبر السماء المحرقة، حمراء بنفسجية متقدة بالكبرياء. الشمس من وراء الزجاج المعشق المجزع، هادئة. حجر الكنيسة حار، بخضرته القديمة. وهناك صمت جليل، فيه سلام قد تغلب على كل توتر، مهابته عظيمة.

١٣ - الموت والذبابة

في النهاية، كنا نقوم بطقوس الحب، لا أكثر. بفعل الايمان.

لم نكن نصنع - أو يُصنع بنا - الحب.

بين الأعمدة اليونانية المستديرة المصنوعة على الطراز الفرعوني، في وحشة الرمال التي تبدو هادئة وديعة الجسم، كان التفاؤهما، بالصدفة، أثناء جولة لا هدف لها، يشعره بسعادة مضطربة غير خالصة. كان مجرد وجودهما معاً، على غير تخطيط تحت الحجر الدافيء الذي يصعد إلى السماء، يعطيه نوعاً من الأمن الموقوت دون اطمئنان إلى اللحظة القادمة، في هذا الرواق الضيق بين الأعمدة التي تتكرر بلا تغيير كأنها نغمة أحادية في هارمونية موسيقى عتيقة راسخة.

وبينما الكاميرات تسدّد وتطقطق، وزمزميات الماء تفتّح وتغرغر بسلسال قطراتها المحيية، والأقدام تغوص في الرمل الناعم وتُنتزع بصعوبة تبعث في السيقان حيوية وفي عضلاتها شدة طيبة وفي الجسم كله توتراً جديداً، وبينما الأحذية تصطدم بشظايا دقيقة مضلعة من الجرانيت المترب، والأعين تدور في الظلال ما تزال بها عشوة من بهرة الشمس القريبة، والضحكات الجانبية تبدو صغيرة الصوت في البراح ولها صدى يتردد مفاجيء بين أحجار الأعمدة، والجماعة كلها تبدو منفرطة العقد حول المعبد الصغير وفي رواقه

الوحيد. كان ميخائيل يحس نفسه تائهاً، قليلاً، لا يصل إلى حس واحد مركز.

كانت جولتها القصيرة قد أتت بها إلى جانبه، وهما يتأملان الآن تاج العمود المضفور من صوّان اللوتس، برشاقة ناضجة مسرفة الجمال، عذبة أكثر بكثير مما ينبغي، ليس فيها جلال الصرامة العتيقة والمهابة، تبدو مع رجعة الزمن كأنها بيزنطية.

وعندما نظر إليها في الظل، كان في وجهها هذا النوع من الجمال نفسه وقد وصل إلى الاكتمال النهائي المشدود الذروة قبل التدهور، كأنما سوف يراه، اللحظة التالية، وقد انهمر وانهار في ذوبان التحلل الأخير، ويتوقع دائماً هذه اللحظة لا تجيء أبداً ولكنها تهدد دائماً بالانفجار.

كانت قد قالت له وهما في السيارة الفولكس التي تئز على المدق الرملي في الصحراء الشاسعة، انها من جنس عابدات القمر، وتكلمت عن البغايا الآلهيات.

أما هنا، بين الأعمدة، وهي ببنطلونها البلوجينز الداكن الذي يلتف بفخذيها المكتنزتين، وشقي ردفيها المسبوكين الثقيلين يهتزان ببطء وهي ترفع قدميها من قبضة الرمل المحيطة، مرة بعد مرة، فكانت تبدو كأن تعاويذها وتمائمها قد جفت وذبلت، مرصودة لآلهة قد ماتت، لم تعد فيها طاقة الفعل. شيء كأنه صدى الحب يتحرك في قلبه، والتوجس. كانت فتحة بلوزتها المثقلة تكشف عن أعلى صدرها وقد تفصدت على جلده المشدود حبات عرق صغيرة منفصلة تلمع كل منها على حدة في استدارة كاملة الدقة، وكانت خضرة عينيها، بعد النور المحرق، تبدو غائمة، في الظل الحجري، الرطيب، داكنة، متغيرة باستمرار.

قال: لم أسمع صوتك بالأمس، في المركز، لم تسألي.

قالت: كنت مريضة. حرارتي ارتفعت بالليل قليلاً، أويت للفراش مع اسبرينة وعصرت ليمونة على جبهتي.
لم يصدقها، كالعادة، وقال: سلامتك. لا أستطيع، بشكل ما، أن أتصورك مريضة.

كان يقصد بالطبع أنها لم تكن لا في سريرها ولا في غرفتها، وأنه رأى على شفتيها في أول الليل تلك الابتسامة الغائبة، الحالمة بسعادة قادمة منتظرة، دون أن تراه.

قالت في نبرة دفاع وتحدّ وعدوانية معاً: لماذا؟ لست واثقة أنك تعني مجاملة ما. كأنك تُصورني صخرة، جبل طارق، أو الهملايا. كأنني لست كائناً بشرياً، يصح ويمرض، وتأتي له كما تأتي لكل الناس نوبات الكدر في الجسم أو حتى العقل. كأنني لست امرأة.

قال: بل امرأة. امرأة حقيقية. أتقولين لي، أنا؟
قالت: أهذه لباقتك المعتادة؟

قال: وإنما قصدت أنك قطعاً فوق إنسانية، أن فيك عنصراً يتجاوز مجرد الحدود التي نعرفها نحن سائر البشر. ألم أقل لك أنت ساحرة؟
قالت: دعك من هذا. أنا أحياناً لا مناعة عندي، بشكل خاص.
قال: بل أنت، بشكل ما، لست أدري كيف أقول.. خالدة؟ كأنما لا يجوز عليك المرض ولا الموت كما يجوز على سائر الناس.
قالت: لو كانت السيارة تاهت بنا وسط الصحراء، لعرفت.
قال: بعد الشر..!

قالت، حالمة: عندئذ، بعد أن أموت، أصبح زهرة صبار حمراء في الرمال. نبتة صبار لها أشواك ثقيلة، تزدهر مرة واحدة فقط كل عام بزهرة حمراء.

قال: نعم. أعرف شوك الصبارة في قلبي. وأعرف أيضاً زهرته الحمراء التي لا يوصف جمالها ونعومتها، ولكن مرة واحدة في العام؟ لأن أزهارك كثيرة.

كان محمود قد وجه إليهما الكاميرا، وهما مستغرقان، مستندان إلى كتف الحجر الداخلي، على حافة النور، وطقطقت الآلة، وثبتت الصورة في ذلك الخلود العرضي للورق الحساس.

قال ميخائيل: تعال أصوّرك الآن.

قال محمود: لا يا عم. نحن، فقط، نخدم. لا نريد جزاءً ولا شكوراً.

نظر إليه، بدون غيظ، ولحق بها الآخرون.

كانوا قد أكلوا الكعك والبيض الملون وفرغوا من الفسيخ والترمس والغزل الخفيف والمداعبات العابرة وشربوا وثرثروا ونطّوا الحبل ولعبوا الورق وناموا بعد الظهر في ظل الحجر العتيق على الرمال الناعمة، وكان ميخائيل يحس نفسه يطفو فوق سطح هذه الجماعة، لا يلتقي ورامة إلا في مدارات الصدفة. كانت قد تأبطت ذراع محمود وسارا في الرمال، يتحدثان، بينما كان يقلب صفحات ترجمة جديدة لكتاب الموق، ولا يثيره. وكانت سامية قد صنعت لنفسها، من الايشارب الأبيض، عمامة، كالصعايدة وعبد الجليل وسامح ونورا وسلوى والهام وبطرس وسوزي في البنطلونات الخفيفة الملونة القماش والقمصان نصف كم والبلوزات المفتوحة والطواقي البيضاء المزركشة على الطريقة النوبية والكاسكيتات المنحرفة على الجباه، والكاميرات والترامس وحقائب اليد وزجاجات الكوكاكولا الفارغة والويسكي نصف الملآنة واللفائف والأكياس النايلون المنقوشة بإعلانات السجاير، يضطربون ويدورون في لحظات الاستعداد للرحيل. السيارات مفتوحة الابواب، تنتظر على بعد قليل في الرمال، وأقبل محمود عليهما،

بخطوته البطيئة ووجهه المثلث المتطاول الجاف الغائر التجاعيد وعينيه المحفورتين اللامعتين بوهج قلق كأنه يحمل نذيراً وتهديداً، وأصابع يديه الطويلة المستدقة العظام. كان شاعراً وكانت قد قالت له مرة: صورة دوريان جراي ولكنه طيّب..!

نداءات الاستعداد للعودة والتصفيق باليد وصيحات: يالله يا جماعة! تأخرنا! ولملمة اللفف والحقائب الصغيرة والمشتريات من السلال الصغيرة وقبعات الخوص البدائية وعقود الخرز والبلح المجفف التي باعها لهم أطفال الواحة وكبارها بعد مساومات وفصال باللهجة الأعرابية نصف المفهومة، في سورة من الأيدي التي تشد أنصاف الأكمام شداً رقيقاً في دعوة للانتباه والشراء والعيون الذابلة نصف المغلقة من أرماد متعاقبة والأجسام الضاوية.

قالت له: أرني ماذا اشتريت؟

الجعران المنقوش المقلّد المنتفخ الظهر، وأوزيريس الملفف بالكفن من فخار هش مومياء صغيرة لا تملأ الكف جاء عليه العيد ومضى وظل دفيناً في القبر الحجري ولم تأت مريم ولم تبك. والقطة بستيت بأهدابها البرونزية وخدها الناعم في طول الأصبع ولكن بكل فعالية توفز جلستها المتربصة الواثقة.

قالت من غير اقتناع، كأنها تُلقي شكاً في مقدرته على الاختيار ومعرفته بفن الفصال والشراء: نعم كويس. مبروك. أشياء حلوة أنت عارف أنها ليست أصلية طبعاً؟

فضحك، متفجراً بالضحك.

ثم اختفت عن ناظريه في هرجلة الرحيل واضطراب العودة وكان

الغروب يوشك أن يحل والطريق الطويل ليس فيه إلا ملل تواتر الرمال والصخور السوداء الهرمية الشكل القصيرة القامة وطنين المحرك الذي لا يكف، يجرح الهدوء الصحراوي باحتكاك طويل متصل لا ثغرة ولا هوادة فيه. كانوا الآن في الاستيشن واجون الطويلة البيضاء، وكان سامح هو الذي يقودها، والترانزستور يخشخش بموسيقى كلاسيك غير مستبينة، والسيارة معتمة، وقد مال ميخائيل برأسه على المقعد الخلفي، وحده، تهزه عجلات تدور بلا توقف بكآبة لا علاج لها، وقد استقرت في قلبه مرارة مكتومة بلا صوت. وهو يراها، من جلسته الخلفية، وقد تعبت من الرحلة، وسهر الليلة الفائتة بلا شك، فأسندت رأسها إلى كتف محمود، ونامت على ظهره وشعرها القوي النبات الذي يعرف - هو - خشونة عطره البدائي الحيوي الخاص، مربوطاً بعصابتها الزرقاء من على جبهتها، قد تناثر على جاكتة محمود الجلدية الداكنة في وضع حميم أليف، بتقارب جسدي وثيق ليس جديداً. وجه دوريان جراي، على انعكاس النور الأمامي للسيارة، محفور الخطوط، أسود ومضيء، بارز النحت. لم تكن الغيرة القديمة هي التي تهزه الآن، بل نوع من التردي البطيء المتصل في غيبوبة الخذلان. كان السكوت المرهق قد حلّ بالجميع والرؤوس تنفض في دحرجة الاستيشن واجون المستمرة الأزيز، وقد أخذ ظلام الليل وبرده ووحشته تتسلل إلى العظام المكدودة.

في محطة البنزين في الفيوم التي يلمع فيها مصباح واحد شديد القوة، فوق مصابيح صغيرة ضئيلة تلقي أشعة صفراء على الصفائح والكواريك والعِدد والأنابيب وأجسام العجلات الداخلية السوداء المتهدلة الناعمة البذاءة، مستديرة وملقاة على بعضها البعض كالأشلاء، وكومة من الاطارات المنفوخة الخشنة المطاط المتربة في النور، ومربعات البلاط عليها آثار شحم لا تزول، جاء لها بفنجان قهوة ما زال فاتراً من آخر الترموس

وقدمه لها بصمت فقبلته. كانت السيارة الطويلة وفيها سامية وعبد الجليل وسوزي وسلوى قد عادت بطنينها الرتيب تمضي في ظلام الليل بين الحقول الغامضة الساقطة بهدوء على جانب الطريق الزراعي من بين تجمعات هشة من أشجار لا معالم لها.

وصحت رامة فجأة ورفعت رأسها وقالت: أين ميخائيل؟ لم أسمع صوته من زمن. أين ميخائيل؟

فلم يجد في نفسه قوة أن يرد، لم يكن واثقاً من نبرة صوته، وكان جامد الحس. فسكت لحظة، في توتر، وهي تحدّق في آخر السيارة وتقول في لهفة وخوف: هل تركناه في أسيوط؟ ماذا حدث؟ هل راح في الفولكس مع الآخرين؟ أين هو؟ وارتفعت عدة أصوات شبه نائمة: الله.. ميخائيل.. ميخائيل هذا هو.. معنا. لم نتركه طبعاً.. ماذا حدث؟ وهز رأسه دون أن يتكلم أو يضحك. ولم يضحك أحد. وصمتت وعاد الجميع للنوم المضطرب في الأزيز القوي العنيد. وسامح يقود بثبات دون يحول رأسه. ولم يتكلم محمود. وميخائيل يغمض عينيه بيقظة موجعة يرى رأسها الصغير يهتز على الجاكتة الجلدية السوداء الآن.

قالت له كيف جاءت من سنين قليلة في مهمة، إلى معبد حوريس في أدفو. واضطربت المواعيد، وعندما وصلت إلى المحطة، آخر الليل، كان القطار قد فاتها. لم يصل، بسبب حادث بعد أسيوط. جاء المعاون بذقنه غير الحليقة وياقته ذابلة، من غير كراقتة، وجاكتته الرسمية القديمة منتفخة الجيوب، وقال لها. ولم تجد في المحطة أحداً، لا مفتش الآثار العجوز، ولا الساعي ولا ملاحظ الأنفار، فلا شك أنهم أيقنوا أنها سافرت قبلهم أو لم تجيء بعد. قالت له إنها لم يسقط في يدها، كما يقولون. هي في المآزق تتوهج حيوية ولا تفقد بديهتها. قالت إنها عندما سألت ناظر المحطة عرفت أن جماعة الآثار قد عادت بالسيارة الحكومية إلى الاستراحة، وما من سبيل

الآن للحاق بهم، لا العربة الحنطور الواحدة المهدمة وحصانها الهزيل، بقادرة على الرحلة، ولا تليفون في الاستراحة. وعندما سألته عن فندق تبيت فيه حتى تلحق بقطار الصباح، ضحك الرجل الطيب العجوز وقال لها: أنت يا بنتي، في فندق، في ادفو؟ وكان بالطبع كريماً وصاحب نجدة، كما ينبغي أن يكون. قالت إن عم فانوس كان قبطياً من الطراز القديم، ما زال يضع على رأسه الطربوش، وياقته بيضاء عالية صلبة تحت جاكتته الصفراء الميري بأزرارها النحاسية المدورة. قالت إنه كان قد تجاوز الستين، بلا شك، لم يكونوا يعرفون على أيامهم شهادات الميلاد، والأطباء يتساهلون عند كتابة شهادات التسنين، لمسوّغات التعيين، ولم يكن ليقل بيوم واحد عن السبعين. وجهه ناعم الغضون، صابح وغض في تجاعيده، وعيناه يقظتان من وراء النظارة المدورة العدستين. قائم العود، صلب، عظْمة زرقاء، صحيح، وكله طيبة قلب.

كان عم فانوس قد قال لها: حضرة الست مفتشة الآثار؟ أهلاً وسهلاً. شرفت البلد. تذهبين لفندق، هنا، بالليل، وحدك يا بنتي؟ أليس في الدنيا خير؟ والله ما تفترقين عن بنتي في شيء. أم أننا لسنا من المقدار؟ عليّ النعمة تبيتين عندي الليلة.

قالت: إنها سعدت به، وقضت ليلتها عند العائلة القبطية، وهم اصدقاؤها حتى اليوم. قالت إن البيت كان وراء المحطة مباشرة، كالمعتاد في السكة الحديد، وأرسل عم فانوس شيّال المحطة الوحيد، صبي يعرج قليلاً، منبعج الكتفين، وجهه الأسود مجدور محفور وخشن، فذهب بالخبر للبيت. قالت إنها عندما دخلت البيت كانت زوجته قد قامت من سريرها تعد لها العشاء، ملوخية من طبيخ الأمس، اعتذرت لها عنها ولم ينته اعتذارها، وجناح بطة من الأمس. هذا كل ما بقي. كانت تحتفظ به لعم فانوس، نظيفاً كالفل، وعزمت عليها بالنعمة لتأكل، وخبز شمسي طازج

من خبيز الصبح . قالت إنها جاءت لها بقميص نوم بنتها ماتيلدة التي تدرس الطب في القاهرة، ولقمة هنية تكفي ميّة يا بنتي يا حبيبتي، تسافرين في الليالي، يا عيني، من أجل شغلك! يكتب لك في كل خطوة سلامة. . !
وقالت إنها باتت عندهم ودموع الامتنان، والفرح، في عينيها، ولم تنم في حياتها ليلة أطيب من ليلتها عندهم.

أما هو فقد كان كل ما لديه فنجان قهوة من آخر الترموس، صبّه لها في الغطاء البلاستيك، فاتر الحرارة، في محطة البنزين، بين شقين من رحلة طويلة مرهقة تنيم رأسها فيها على كتف صديقه وصديقها، وتضع ذراعها في ذراعه، في عتمة السيارة الاستيشن واجون المليئة بالنوم والتعب.

قال لنفسه، بسخرية خفيفة يعرف أن لا محل لها ولا يملكها: من ثلاث سمكات ورغيفين، أكل وشبع خمسة آلاف، وبقيت بقية.

كان طول اليوم قد افتقد فيها عنف الحب وقلق الشهوة، وكان يبدو عليها نوع من القناعة بل الاكتفاء والشبع، ونوع من الازدهار الفيزيقي المكتوم بلا تألق ولا حدة، شوكته لا تنكسر ولا تُنتزع، في قلب أوراق الخضرة اليانعة الملتفة النعومة.

قالت له في الليلة التي مات فيها أبوها استيقظت على نهنهة الدموع. لكنها لم تبك. لم يكن ممكناً أن تبكي، حتى دموع أمها لم تستطع أن تجعل صدرها يجيش بالبكاء. كان ممدداً على السرير، انتهت الحياة المليئة بالمغامرات والحب والحظ وانحسرت الحيوية التي كانت تدور كالعاصفة، عندما يرفع الطفلة الصغيرة الضامرة البارزة العظام، بضفيرتيها الطويلتين، بين ذراعيه ويطوح بها إلى السقف، كأنه يهبها السماء فتمسها وتأخذها بيديها الصغيرتين. دفعة يديه اللتين تضمان وسطها، تملكها وتطلقها، خفيفة مندفعة إلى فوق، ثم تتلقفها في عناق وثيق، وقد تطاير فستانها

المضطرب غير الأنيق وهب الهواء بين ساقيها العاريتين. توقف فجأة هذا ـ الانطلاق المرح الجسور الذي يتخطى كل الحواجز نحو نسائه، جميلات، يتوهجن لمعاناً وروعة كأنها هن في مستوى آخر، وصمتت أمجاده وانتصاراته، وصلت الأسطورة التي لا تصدق إلى هذا السكون، بلا حراك. أمامها. في الغرفة التي يتقد فيها مصباح واحد صغير النور، بابها مفتوح على الصالة المعتمة، وأمها تنهنه بالدموع. دولاب ملابسه موارب غير محكم الاغلاق.

صوره على الجدران وهو في ملابسه العسكرية الكاملة، مسيطراً، سيداً، عيناه معتزتان، صارم الوجه ولكن بوداعه، بنطلونه الضيق يضغط على ساقيه الطويلتين ويحبكهما. وهو في خوذة الطيران القديمة الطراز كأنه يتحكم بها في كل السماء، بابتسامته الجريئة الخجول معاً، يعطي للمصور وللعالم نصف وجهه بلون السيبيا الباهت، شفتاه فيهما لحم قليل، كشفتيها، ثابتتان ولكن تحتهما رعدة توفز قريبة جداً سريعة إلى الظهور عند أدنى حركة انفعال، هي تعرف على خديها مَسّتهما وضغطتهما السريعة والطويلة والخفيفة والوثيقة، وعيناه الخضراوان الصفراوان رأى بهما ما لم يره أحد، قاسيتان ومعذَّبتان وتسيلان حناناً ومطويتان على أسرارهما التي كانت تهز البلد بأسرها، ولن يبوح بها لأحد بعد الآن. وهو يمتطي حصانه كأنه سوف يخرج وشيكاً من الإطار. وهو يلعب الشيش يمد يده بالحسام الرفيع الطويل المهتز الذؤابة وعلى وجهه قناع السلك بشبكته الرفيعة الخيوط. وهو يحتضنها، طفلة رضيعاً وكأنه يريها للمصور، للعالم كله، فخوراً بها فخره بأعز ما في العالم. كان قد قال لها، عندما جاءته مرة تبكي بكاء الأطفال: لا تنسي أبداً أنك ابنتي..!

لم يستطع أحد أن يخرجها من غرفة نومه الأخير. هادىء مستريح، في السرير النحاسي الأصفر بقائمته الخلفية ذات الأعمدة النحيلة المدورة

والكرات اللامعة على النواحي الأربع. وسهرت معه ليلتها، كأنها وحدهما. السهرة الأولى التي أمضتها معه. كأنها، طول الليل، وحدهما. كأنما هي تتهجد في صلاة حسية، يداها معقودتان، لا شعائر ولا طقوس. لا يتكلم ولا يتحرك. كأنه ليس هناك. وحشتها معه ليست وحشة فقدان ووحدة، بل أعمق وأبعد مدى بكثير، هو معها وحدها لأول مرّة، وقد مات. ولم تَغْمُض عيناها. لم تعد تذكر كيف انقضت الليلة. هل انقضت؟ الخير كله يجف أمام عينيها والحب كله لن يجيب أبداً على ندائها المحرق يند، بلا انتهاء، عن صدرها الطفلي الممسوح، صدر بنت تتيقظ جائعة على نار طعام لن تعرفه أبداً. جيشان البحر قد جاءت موجته الأخيرة مرت عليها وأغرقتها وغاض ماؤها في الرمل الجامد الكثيف جسم العالم وقد نضب ويبس ولم يعد بقادر على عطاء شيء. لا تذكر إلا أنّ ذبابة صغيرة سوداء كانت تئز في الغرفة المكتومة الهواء باغتها الليل والنور والموت تدور في تقلبات سريعة تهتز لها أطراف الأعصاب ثم هبطت الذبابة فجأة وحطت على جبينه الصافي الذي لا غضون فيه. وسكنت هناك. لم يهشها أحد، ذبابة، بشعة في صغر جسمها المدور اللزج، في تحريكها لأجنحتها وسيقانها الدقيقة الكثيرة الشَعْراء، آمنة، تدور برأسها، على الشمس الوحيدة التي لم تغب ولن تغيب، واقفة على جبهته، هو، الذي يتفجر بالتوقد والاكتساح، الذي لا يحتمل القبح في أصغر شيء، وتسير ببطء على جبهته، ويتركها، لا ينتفض غاضباً بصوته الأجش الذي تهتز له جنبات العالم، تعلقت عيناها بها، وقد وقعت في قبضة افتتان غائم غير مدرك ولكن يقظ شديد اليقظة تنتظر معجزة أو شيئاً. ولا يحدث شيء.

قالت إنها عندئذ فقط في قاع هذا السحر الداكن الثابت الذي ليس فيه زمن، لا ليل ولا نهار، عرفت، معرفة نهائية، أنه قد مات. وكان

انكسارها من الداخل بلا صوت ولا دموع. وحملوها، جافة العينين، بلا مقاومة.

هذا ما قالت.

وهي لا تني، في حلم طويل متقلب الأدوار، ترى هذا الحب الذي مات، ولن تجده أبداً.

يا طفلتي، لن ترتفع هذه القبضة أبداً عن جسمك الطفليّ. ليس من هذه الأرض حنانها ولا قوتها.

قال لنفسه: هذا كلاسيك.

قالت له في الصباح: كل شيء على ما يرام إذا ما انتهى على ما يرام.

قال لها: تريدين أن تقولي إن كل شيء قد انتهى؟..

قالت بحدة: لم ينته شيء. لعله لم يبدأ بعد.

آخر غمرات الشيء الذي بيننا كنفضات الدور الأخير من الحمى، تجيء وتذهب، تغرقني وتنحسر، ألم تنته بعد؟

لم تكن كل رسالتي هذه لك إلا صرخة وحيد مستوحش. هذا طبيعي ومألوف وعادي. وحيد آخر في هذا المركب الذي يبحر بلا نهاية غاصة بالمستوحشين المالئين شعاب الأرض ومناكبها. أليس كذلك؟ في زحمة الناس وضجيج الأسفار وطنين خلاطات الاسمنت وقعقعة حديد التسليح وارتطام الطوب وعواء فرملة سيارات الشحن التي تقف فجأة والصرخات الآمرة من الريس بجلبابه الطويل النظيف وغناء الصعايدة الرتيب الحزين الذي لم ينته بعد لا ينقرض جنسهم العتيق بفانلاتهم القطن المحمرة الطويلة الأكمام وهرابيدهم التي جمد عليها رشاش الاسمنت الرمادي المزرق ومعهم قبيلة جديدة من شباب المدارس يضعون في سيقانهم أحذية طويلة سوداء من المطاط ويدخنون سجاير أمريكية ويلمع شعرهم بالبريانتين ويصعدون

السقالات بصدور عارية وشورتات، في خيلاء وثقة، ويكسبون خمسة جنيهات في اليوم. وفي وسط الدوامة والغضب والأزيز عندما تدهمني صرخات جسمك وأنين شهوتك وبكاء عذاباتك كنت أقول لك إنني أريد منك الرد ولم أكن أعني بالطبع أنني أريد هذه الاجابات المنطقية المعقولة الفكرة التي تحسب حساب الأشياء وتقدّر احتمالات المستقبل وتقوم انعكاسات الماضي وتحلّل الوضع النفسي والديالكتيك الاجتماعي، كما تفعلين، هذه أيضاً بهجة مفضلة ولكن رثة تفهة المذاق، بوسعي، وقد كان دائماً من دأبي، أن ألعب هذا أيضاً، باستمتاع ملول وشبهة من سخرية، بل كنت أريد أن أجد عندك استجابة لصرخة الوحشة، هذه الوحشة اليومية المبتذلة، إجابة بأنني في النهاية لست وحيداً كل الوحدة، أن هناك على الأقل من يسمعني، ويعرف أنني هناك، ولم أجد رداً، ولم يكن منطقياً ولا في طبائع الأشياء أن أجد رداً، ولم أقبل أبداً هذا المنطق ولا طبائع الأشياء.

وقفت على باب غرفته كأنها تتردد في الدخول: كانت ترتدي فستان السهرة الطويل، أسود وبه خيوط ملونة ذات أزهار عريضة، عاري الظهر ومحكم على صدرها المحبوك. قالت له: ألا تريد أن ترى ما اشتريت؟ قال: نعم. قالت: تعال معي. وفي غرفتها المسدلة الستائر الشائعة الضوء الملحية الأنفاس فرشت له على سريرها، في تشوق طفلي وانتظار أقمشة منسوجة باليد على الطريقة البدوية، وحزاماً رقيقاً من خوص النخل، وآنية من فخار مكورة البطن منقوشة بالأحمر المحروق، وابريقاً صغيراً لامع الزرقة له بزبوز رفيع، وحلياً على شكل أهلّة صفراء كبيرة لها شراشير معدنية صغيرة تجلجل، وعقوداً من الكهرمان الأصفر الفاتح لها حبوب كبيرة لامعة. قال: هايل يا رامة. بديعة، أشياء في منتهى الجمال. نظرت إليه ببطء، تشع سعادة مكبوحة من عينيها، بتأمل، وارتداد مَنْ كان ينتظر ولم يُستجَب

انتظاره، وجمعت ثرواتها الصغيرة وانحنت تضعهـا دون ترتيب ودون عنـاية في حقيبتها الواسعة، وعندما قامت، اقـتربت منه بتحـوط وخطىً بـطيئة ثم قبّلته على الفم قبلة هادئة، غير منتظرة، صـامتة، جـافة وخفيفـة، من غير شبق ولا التصاق، مرة ومرتين، قبلة عرفان بـالجميل، بنـوع من الاستغفار دون إقرار بأن ثمّ خـطيئة عـلى أي حال. قبلة تكفـير مسبق عما تعـرف أنه سيحدث من جديد.

أحسّ الجـو في غرفتهـا معلّقاً، كـأنما هـو بعد انقضـاض شيء مـا، وفي انتظار مجرد شعائر ختامية.

قالت له: أنت لن تأتي للحفلة، قد انتهى قرارك في هذا؟ قال: لا، لن آتي. مرهق جداً كما قلت لك. قالت دون اقتناع، كأنما لمجرد تبرئة الذمة: ألا تغيّر رأيك، ما زال هناك وقت، أنت تعرف. قال: لا، فات الوقت.

قالت: هل أطلب منك معروفاً؟ قال: أمرك. قالت: حقيبة يدي. لن أحتـاج إليها. معي حقيبـة التواليت هـذه الصغيرة - وكـانت سوداء مـطرزة بخيوط فضية اللون، مرصعة بما يشبه اللآلىء الصـغيرة، رقيقـة ومسـطحـة، بديعة التصميم - وأخشى أن أترك حقيبتي هكذا في الغرفة. فهي مفتـوحة. قال: نعم، مفتوحة أبداً، جاهزة لكل طارق! قالت: عليك نور يا حبيبي!

وسلمته الحقيبة المكتنزة بألف صنف وصنف، وحاولت، من باب إجراء بيـان عملي لا غـير، أن تشد السـوستة فـاستحالت عليهـا فنفضت كتفيهـا الرائعتين وقـالت: أراك عندمـا أعود، لا أعـد أن يكون ذلـك الليلة، قد أتأخر. إذن غداً على الأغلب.

وودعته بعزم مفاجىء وحسم، دون قبلة، دون كلمة، نفضت يديها من شيء ما، وهي مشغولة تماماً بشيء آخر.

راقبها، وهي تمضي، ظهرها الأسمر الراسخ يبـدو غضاً ولا مَنَعَـة فيه،

وقـد رفعت يدهـا فألقت عليـه الشال الأسـود المشغول بنقـوش فضيـة، في حركة استدارتها للخـروج، شريط السوتيـان يضغط على لحم ظهـرها. من وراء النـسيج الناعم، ويستدير به من الجانبـين، خطوطـه واضحة من تحت الفتحة مباشرة، فتتحـدد استدارة جـانبي نهديها، بارزين قليـلاً في الفستان الضيق، وفي عينيه، وهو يخرج وراءها، غيامة خفيفة غير لاذعة.

كانت الحقيبة بين يديه، جلدها القديم الغالي ما زال دافئاً، ناصل الوبر قليلاً في بعض الثنيات، به تجعدات طرية مطواعة، بـطنها مكتنـزة مدورة تغوص تحت أصابعه بما تتضخم به من أشياء تفيض من فتحتها كأنما توشك أن تنهمـر منها، فيهـا رائحة منهـا، من جلدها، والبـارفان الـذي يعـرفـه، ويـروده في كـوابيس المضض والشـوق، فلم يـتردد، عـلى الـرغم من وازع خلقيّ، وأخذ يفرغ ما فيها، بهدوء وثقة، قلبه تتسارع نبضاته قليـلاً ولكن عينه اليقظة تلحظ ترتيب الأشياء في نية قد انعقـدت بالفعـل على أن يعيـدها بنفس نظامها. هل في هذا خيانة للأمانة؟ كان رده الداخلي الفوري أن من حقه بشكل ما، غير محدد الآن، أن يغوص في كـل شيء يتعلق بها، كـما لو كان من أشيائه هو، أن هذا الذي بين يديه ليس غريباً عنه، على نحو مـا، بل هو له. قال لنفسه إنه هو، قد فتح لها نفسـه، وكل ما هو له.

وخطر له، فيما بعد ـ عندما انجـابت الصدمـة وتركتـه في نور عـارٍ خام قاس، كأنه مخدَّر بين حيطان بيضاء خشنة الطلاء ليس فيها ستارة ولا شباك ولا حتى مسمار ـ أن رامة أيضاً، دون أن تدري تماماً، ربما، كانت تريد ولا تريد له في وقت معاً أن يفتح هذا الجانب من حياتها الحميمة، كما لو كانت تريد ـ ولا تريد في وقت معاً ـ أن يتناول بيديه، ويرى في النور شيئاً من ملابسها الداخلية وما زال فيها دفء طيّات جسمها وآثاره الخفيّة، نعم لعلّها كانت تريده أن يعرف. أن يجتاز محنة ما.

أخرج من حقيبة يدها أول شيء بـطاقة البـريد التي كـان قد أرسلهـا لها

في عيد ميلادها وعليها كلمة واحدة أحبك، وأسداً ملوناً كوميدياً من ورق لامع مقوّى يفتح شدقيه فاغراً فاه، عيناه بليتان مدورتان متحركتان في محجريهما كانت قد تلقته بالبريد في عيد ميلادها أيضاً وقالت له انظر من ابن عميّ في سيدي بشر أسد ابن حلال يموّت من الضحك. تذكرة مباراة كرة قدم عليها امضاء بيليه نفسه بخط يده واعلان أنيق مصقول الورق عن فندق فلسطين وورقة حجز بمبلغ خمسة عشر جنيهاً في سان ستيفانو بتاريخ ٦ يونيو وقلم ماكياج أسود للعينين سميك مدور في أنبوبة نحاسية صدئت جوانبها وبهت لمعانها وشوكة تنفذ طويلة مدببة سوداء وجعران من حجر السشت الأخضر وزجاجة مانيكير داكنة الحمرة لها فوهة طويلة بغطاء بلاستيك أبيض ومشط ما زالت معلقة به خيوط رقيقة من شعرها ودبوس انجليزي كبير وقلم حواجب ومرآتها الصغيرة ومرآة أخرى مدورة قديمة الطراز في اطار برونزي مشغول بدقة ومنديل مغضن ما زال نديّاً أبيض مشغول الحافة بدانتيللا دقيقة الخروم جداً وقاموس جيب صغير للغة اليونانية القديمة وصورة صغيرة غريبة حائلة اللون على كارت بوستال بني سيبيا من مقاس قديم لم يعد مستعملاً لفتاة صغيرة في أول مراهقتها عارية ونحيلة في بانيو حمام رخاميّ فخم ملكي الطراز، صدرها لم يكد ينبت بعد، والحمام، يبدو في الصورة القديمة حوائطه من رخام مجزع والحوض بيضوي الشكل عليه علب وزجاجات فخمة ومتعددة الأشكال من ماركات قديمة لم تعد شائعة، تحت حنفية تبدو كأنها من فضة ثقيلة خالصة والبنت عظامها بارزة قليلاً ولكن حتى ورق الصورة الذابل ما زال ينفح بجاذبية أنثوية لافحة ومبكرة جداً وشعرها غير مصفف منفوش الأطراف قليلاً في عهد لم يكن الكوافير ولا السيشوار معروفين فيه. وجهها غريب ومألوف جداً، في عينيها بحدقتيها الصافيتين نظرة مباشرة يعرفها فيها انتصار.

ثم غاص فجأة قلبه وثبتت عيناه في سياق لم يعد للزمن فيه وجه.

كان بين يديه خطاب غرامي على ورق مسطر من كراسات التلاميذ، بخط يبدو واضحاً أنه خط غير مثقفٍ، كبير الحروف، متدفق، ليس فيه كبير عناية باللغة، ولكن فيه اندفاعاً غليظ القوام لانفعالات حب كثيف غير مرهفة:

«بطة حبيبتي، أول مرة أسافر وأنا بالي مستريح من غير وخدان خاطر. أنت كنت الذكْرة المجسدة الخالدة للقاءنا الأول بكل الحنان والحب. فاكرة أول مرة جيتك فيها كان أول رمضان يعني بقى لنا سنة. أول مرة في الهرم تحت القمراية فاكرة يا بطة؟. وغنيت لي، فاكرة؟ أنا لا أريد أن أضع عليك مسؤوليات ولكن فقط قولي لي. اسأليني، ازيك؟ اسألي عليّ ماذا تفعل يا حبيبي؟ أنا لا أنسى فستانك الأسود بالأبيض في ليلتنا الخالدة ولا أنسى مرض العصر الذي تكلميني عنه. قولي لي اقرأ هذا الكتاب يا حبيبي وأنا اقرأه. نريد أن نستقر يا بطة وأرجو الا تخزليني في شقة الزمالك. أنا عارف أني أقدر أن أعتمد عليك كلية. أنا أقول دائماً حبيبي ولد ولا كل الأولاد! عم فانوس قابلني أمس في قطار حلوان وقال عليك: أما حتة دين بنت يا ولاد؟ كنت أريد أن أرد عليه: دي حبي وحياتي. ولكن الظرف لم يسمح. كلماتك لا تفارقني: كان لازم نقابل بعض من زمان! كان نفسي يبقى عندنا احمد أو مديحة ولكن يظهر أن عندك مانع! ربنا يخلينا لبعض يا بطة! حبيبك إلى الأبد».

والامضاء يبدو له فيه حرف الميم وحرف الحاء، مختلط متشابك شأن امضاءات من يظنون أنهم أول العالم وآخره لا حاجة بهم لبيان من هم.

قرأ الخطاب مرة، ومرتين، وثلاثاً، لا يدري. ثم أعاد كل شيء إلى الحقيبة، إلى مواقع نظامها أو اضطرابها دون تغيير، بعناية يعرف أنها كاملة، كأنه في رواية من روايات المغامرات البوليسية، لا يريد أن يترك دليلاً أو قرينة. وخلع ملابسه، يتحرك حركات يحسها آلية، صامتة، في

غرفته التي أغلق العالم دونها، وأطفأ النور، ونام على الفور، مخدَّراً، كأنه خرج من عملية جراحية رئيسية.

كانت ذراعها على عنقه، قريبة من عينيه، الزغب الخفيف على جلدها الأسمر، وعند المرفق بقعة داكنة قليلاً، عليها حبوب دقيقة جداً وخشنة قليلاً، فرفع ذراعها وقبّلها عند الكوع قبلة طفيفة وأحس على شفتيه بتغير ملمس الجلد وجفافه، قبلة محبة صافية كان فيها شيئاً من الشفقة والتعزية عن هذه المنة في جمالها، تزيده حنواً، هذا العيب في ملاسة جسدها يجعلها محبوبة أكثر، ونظرت إليه بسرعة وغضب فلم تفتها دلالة هذه القبلة كأنها لا محل لها ولا ضرورة وعبرت بوجهها سحابة تجهّم سرعان ما انجابت ولكن لم يكن في نظرتها الآن شكر ولا غضب ولا تقدير ولا غفران، كأنما كان قد أهانها بهذه القبلة غير المطلوبة.

وعندما استيقظ كانت عيناه ملحيتين بدموع الحلم غير المسكوبة.

كانت قد قالت له: لست أجمل النساء، هذا بالطبع أعرفه، ولكني أزعم أنني أحنّ النساء وأقدرهن على الإمتاع أيضاً..!

وكان قد قال لها: أنت عندي الأجمل والأروع والأعظم والأبقى.

وكانت قد ردت عليه: يا لك من طفل!

قال لنفسه: والحب؟ هذا يبدو لا معنى له من فرط ما يحمل من عبوات! لعبة الحب والكره المزدوج هذه! عميقة الجذور تفور من حولها الدماء المكتومة ويسفح فيها ماء الوجه، من غير خجل..! ما هذه اللعبة؟ وكل شيء حولنا جاد..! ماذا يفعل أحدنا بالآخر، والقبح والقسوة حولنا ضارية الظفر والناب..! أفهم أن يكون ثم عمل لتهوين هذا الطغيان، بشكل عملي ومحدد ومفيد..! ما الذي يخفف العذابات ويطامن وحشتها؟ عظام الجوع والقهر والذل سوداء حولنا في كل مكان وآلات

الترف التافه الكهربية المصقولة أيضاً تتراكم، كلها تنهش الأرض، معاً، في وقت واحد. ونحن، ماذا نفعل؟ في عناق الصراع نصنع فعل الحبّ، والعرق يتفصد من جسدينا المتلاصقين أبداً بلا افتراق وكأنما بلا ارادة وتحرقنا لسعات رؤى ممزقة.

قال لنفسه: هذه الهواجس، والتوجسات، أهذا ميراثنا؟ نصيبنا المقدور؟ وهذا العكوف على متع ضاربة بأيد لا عداد لها في داخل غرف مغلقة الأبواب؟

يقول لها ميخائيل: ليس لي إلا أن أخفي عنك وعن الآخرين، حبي. دورات هذا النزوع إليك والنفرة منك، تقلّبات الوجد والصبو والمقت والنشوة أخفيها عنك وعن الآخرين. أنت تخفين عني كل شيء في داخل حياتك وأنا أُنقب بيدين عاريتين مثلومتي الأظافر في طبقات الأرض تحت رمال كأن أجيالاً لا بدء لها ولا نهاية قد راكمتها على سطح جسدك على سطح نفسك على سطح قلبك، ولأنك تكرهين العاطفة والانهيار والتهافت، وأكرهها، عليّ أن أحتمل بصمت ووحدي خَوَر قلبي وليس فيه مع ذلك إلا صلابة الرقة الصارمة ووعيه الحار نعم بل الساخر أحياناً بكل خلجة فيه.

أين خذلتك إذن؟ أين فشلت؟ لماذا ترفضينني؟ وهل أنت التي رفضت، أم أنا، أم هو الرفض طقس أُدير بنا؟ ما كان بوسعي أن أرفضك مهما كانت خطواتي قد ارتدت إلى الوراء، لم أنكص عن عهدك أبداً ولا نكثت به، يا أرض حبي، يا جسد وطني الذي أنا منفيّ فيه، مهما أطبقت شفتيّ على عذاب الصمت ومفازعه، أنت التي تقبلين كل الغزاة لأقداس جسدك في تفتح عذب وطري دون ادانة ولا جفوة؟

لست أعرف الخطوط الحميمة التي يمضي عليها نبضك الدفين وجيشان باطنك الملغز وتحركك الغامض الاتجاه نحو صباح اليوم القادم. أنت التي لا تقولين أبداً، أيتها المتحدثة بألف لسان التي لا يغيض لها حديث.

ولكنك عنيده يا قلبي وقوية العزم وتنفذين ارادتك الداخلية التي لا أعرف كيف تصلين بها إلى قرار، ودون أن تقولي لا، أبداً، تلفين وتدورين حول الأشياء والارادات، في بطء يستغرق آماداً. فلا حساب عندك لنفاد الزمن، لكي تصلي إلى وجهتك التي رسمتها لنفسك، لا أحد يعرفها، في غمرات اشعاع أبيك الأول والأخير الذي لا يموت.

قالت له: تأتيني نوبات من الاغراق في فحص الذات والعكوف على النفس والصمت عن العالم كله. معها حتى أصل إلى ما يشبه التفسير لنفسي، أقبله، مؤقتاً، في غير راحة.

قال: أريد، أريد أن أشاركك فيها!

قالت: المشاركة من أفدح الأمور.

قال: أنا شديد الاحتمال.

قالت له، وعيناها صامتتان لا تنكرانه ولا تقبلانه: نعم، أنت مثلي. شديد الاحتمال!

قال: لست مع ذلك آلة لصنع الحب!

قالت: لا.. ! أعرف!

وكانت جارحة الآن، حتى إن لم تكن تريد أن تجرحه.

عرفت أقنعتك السبعة أي رامة البجعة الساحرة كيريكي العنقاء القط الأمازونة ايزيس، ولا أعرفك. وسمعت أصواتك التي لا عداد لها، صوتك الطفليّ الصغير الحجم وأنت تخافين الظلام، صوتك شاكية تطلبين النجدة بيأس في ليل وحشتك الذي يشغل بؤرة النهار كلها لا شرخ لها، وصوتك صلبة لا تكسرها ضربات تفلق الصوان وصوتك العملي الذي تصرّفين به الأمور بين العمال والأعمدة والصروح والأوراق، باعتداد بالذات لا حس فيه بالذات ولا بالآخرين، صوت التعامل محسوب الدقات

والأدوات والأشياء، وصوتك عاشقة تتوفّز الرجولة في حضنك وتطعن، وصوتك الشهواني يتقطر بأنوثة خالصة خاضعة ليس فيها إلا سيولة الجسد النسائي المسكوب من غير قوام، صوتك الأجش فيه بحة، وصوتك الحالم الذي يأتي من عالم كله موجة واحدة يانعة قمرية رقيقة الاخضرار ليس لها حدود، وأمسكت بوجهك وأنت تصرخين صرخة الشبق والفرح وقبلت شعرك وشعب البرق ساطعاً في قلبي وأنت تهتفين هتفة الألم والنشوة، ووقفت جامداً محنيّ الرأس ولكن لا أرجع أمام صوتك العدواني الشرس وانحنيت كلّي نحوك أحاول أن أنفذ من حاجز صوتك اللامبالي، وسمعت صوت اكتئابك وشقشقة نبرات سعادتك في حفيف فجر يهتز وينشق عنه قلب العتمة والعزلة القابضة، ولم أصدّق صوت الرضى والتسليم والعينين المسدلتين إلا عندما أعطيتني يديك كأنك تهبينني كل شيء. أنين توسلك ودموعك العنيدة والمنهارة لم يكن لي أن أردها فجئت إليك، المرة بعد المرة، كأنني أنا الذي أقتحم واحتك المتفجرة الينابيع قادماً من رمال تمتد حتى نهاية العمر، وصرختك من اللذة عند طعنة الالتقاء الحميم ألقف بين يديّ المفتوحتين شموس الأفلاك وأجمع بين أحضاني أطراف السماء الباهرة الضياء.

قال: أنا أحبك على ذلك. وأنت.. لا أدري. وسوف أستمر في هذا، حتى ولو لم تكوني هناك على الاطلاق، سوف استمر، لن أدخل في التفاصيل. أنا أعرف أنني سوف أجالد هذا طول العمر، ما بقي من العمر، طوال حياة ممضة، ومملة. نعم، قد أكون متوحشاً، متعثر الخطى، بدائياً إذا شئت، في صخب هذه العاطفة الجموح التي أمسك بأعنتها بكل جهد يدي ولا أصل إلى كبح لها. نعم، غير ناضج إذا شئت، مللت النضوج والاتزان، صحيح، ولكن ليس الملل الذي يدفعني ويحثني، بل الاعصار يطوح بي ويتخبط بي أسلم نفسي له نصف استسلام وأريده نصف إرادة، هل استطعت أن أقول؟

قالت له: بل تخففت كثيراً من تحفظك القبطي في تعبيرك عن نفسك. كان يستحيل عليك في الأول أن تعرف قبلة اللقاء البسيطة التلقائية والعناق السهل الودود.

قال: من حسن حظي أنني تلقيت دروسي على أحسن معلمة..!

قالت: صحيح. تعلمت مني شيئاً من هذا. ولكن الأهم أنك تعلمت عني كل شيء. لم يبق شيء لم تعرفه عني. حياتي صفحة مفتوحة أمامك.

قال: أبداً. لا أعرف عنك الكثير ولعله الأهم.

فسكتت، لا تريد أن تجادل.

قال: ما زلت ترفضين أنك يمكن أن تكوني مقبولة، ومبررة نهائياً، رغم كل شيء.

قالت، ساهمة، في صوت التمني المحبط: لو حدث هذا لكان رائعاً.

ثم استطردت بسرعة: ولكن إثارة السؤال نفسه، وحده، هو الذي يضع الشك في قلب القضية كلها، بل ينفي إمكانها. التبرير شيء غير مشروط، وغير مطروح. هو يوجد، أولاً، من غير سؤال.

وأدرك، مرة واحدة، أنها على حق.

فقال: ومع ذلك فلست مقحاماً، أخاذاً نهاباً، ولا مسيطراً.. إلى آخره. هذا ما لا أستطيع أن أكون.

قالت، بنظرتها الطويلة الصامتة، تعرف أنه يحس حرج الخروج من الموضوع: لا.

كانت خطواته قبل الأخيرة معها بجانب حائط من الطوب الأحمر القديم، تحت ظلال أشجار كثيفة تقع عليه كأنها مرسومة بقلم رقيق السن، في آخر أشعة شمس الغروب الناعمة، فتجعل أحجاره كأنها رقيقة لدنة ومتماسكة معاً، غاضت عنها صلابتها، وانحسرت عنها العذابات البائدة فهي ذكريات لا ينفر الحس منها نفرة الغضب والمرارة، انزاحت

عنها غشاوة أسرار غابرة، فمسحت عنها كل خفاء. عرفا وراء هذا الحائط الإلفة وراحة النوم من غير أحلام. كان السور يمتد منخفضاً حتى يواجههما في نهايته بيت قديم له حديقة متساقطة صغيرة، يسد الطريق، والبحر يوشوش تحت، لا يريانه. وهما يبتعدان نحو ضجة الترام واللوريات والمحلات التي تشتعل أنوارها واحدة بعد الأخرى في شارع أبو قير يسمعان وقع حوافر الخيل على الاسفلت بين السيارات والاتوبيسات، ودخلت عليهما فجأة فصيلة من خفر السواحل بملابسها الكاكي ووجوهها الحليقة السمراء اليابسة، والجنود يرفعون وهم على متون خيولهم، بنادقهم الطويلة السوداء.

كانت يده على كتفها وهما يسيران معاً، يحس ثقل خطواتها المليئة، وقد نفضا أيديهما من الضرب في مجاهل الغد وأسلما الجسم الواني لغموض نور المغيب.

١٤ - اليوم التاسع والاخير

قالت له: تلقيت بطاقتك. أنت الوحيد الذي تذكرت عيد ميلادي. حتى أنا، كنت قد نسيت تماماً.

قال: هذا يوم لا أنساه. يوم اعلان الحرب الفلسطينية الأولى. يوم اعتقلتُ في ٤٨.

قالت: كان يحسن بك أن تنسى.

قال: كل سنة وأنت طيبة. ماذا جرى؟ لا أفهم.

قالت: حزينة وغاضبة. وملولة فوق كل شيء.

كان على وجهها ذلك التعبير المكتوم كأن فيه نوعاً من الكمدة، حتى عيناها تمتلئان بلون أزرق داكن معكر المياه.

قالت: لا أفهم كيف يصمتون على هذا. لم أحتقرهم أبداً كما أحتقرهم اليوم. كيف يتركونه يموت؟ هكذا، ضحية باردة؟ وأيديهم مكتوفة. يغلّون أيديهم بأنفسهم.

قال: في العمل السياسيّ، في العمل الثوري، يموت الناس أحياناً. أليست هذه ما يسمونه مخاطرة محسوبة؟

قالت: هكذا؟ دون ثمن؟ في أربع وعشرين ساعة؟ هذه المحاكمة الصورية الهزلية والفاجعة؟ ويُقتل؟ لقد قُتِل. هذا قتل وليست محاكمة.

قال: نعم. ولكن، للانصاف، ألم يكن هو ليفعل نفس الشيء، ربما أبشع وأوسع مدى، لو تغيّرت المواقع؟

قالت: ربما. ولكن هذا يختلف.

قال: ييه..! يختلف! لا، لا يختلف! دعينا من هذا. حكاية الغاية والواسطة، كل هذا الكلام. هو غير حقيقي، ببساطة، على أقل تقدير. لا تأتي لي أبداً بحكاية الشعب وديكتاتورية الأغلبية التي هي الديمقراطية الوحيدة، وكل هذا العبث الصبياني على أحسن الأحوال، والسيّء النية في أغلب الأحوال. لا، ليست ديمقراطية ياستي..! فقتل انسان واحد، واحد، عمداً وقصداً ولأي غرض، مهما كان، هذا لا تعويض له، لا مبرر له، على أي نحو. الانسان لا يُقتل، أبداً. ولا يَقتل. أنا لا أعرف ضرورة، أية ضرورة، هنا. ولا حتى ضرورات الأخلاق وما يسمى بالعدالة. الانسان لا يُقتل.

قالت له بتأمل: نعم. أنت موقفك واضح، ومعلن. أنت تخليت عن العمل السياسي، وقلت هذا، بلا تردد.

قال: لم يبق إلا شغل يوم بيوم. لأكل العيش ربما، باستغراق بالتأكيد، بكل الهم والعكوف، نعم. هذا كل شيء. العمل؟ ما هو؟ ما قيمته حقاً؟ فقط العبور من ضفة يوم إلى ضفة يوم آخر.

قالت: هذا واضح، وشريف، ولا خفاء فيه. لكن أولئك الذين يقولون إنهم يعملون، يناضلون! هؤلاء ماذا يفعلون؟ لقد قررت من ناحيتي أن أنهي نوع حياتي هذا، كله. قررت، نهائياً، صدقني. لا تقل انني منفعلة الآن، ومندفعة. لقد درست المسألة كلها، موضوعياً، دراسة كاملة، من كل جوانبها. سأترك كل شيء. سأعود للعمل تحت الأرض، كما كنت من زمان.

كان صوتها يتهدج مرة أخرى بهذا التهدج الأنثوي الذي عرفه أحياناً في سورات لقائهما الجسدي الخالص الحميم.

قالت: أنا أيضاً كنت قد تركت هذا كله. لكن هذا لا يطاق. لا أطيق السكوت. لا أطيق هذا الخذلان. سأعود إلى الاحتراف. سأعود. وأنا، لن أتردد في أن أَقْتُل، بقي أن أُقتل أنا. نعم أُقتل، وأنسف، وأضرب. بالرشاش، والقنابل.

فلم يبتسم، وبالطبع لم يصدق. ولكن هوس انفعالها، في صوتها المكتوم، كان حقيقياً. كان هذه الصورة التي استحوذت عليها شديد الوضوح قاطع الحدود.

قالت: لن أسكت. ماذا في هذه الحياة؟ الرتابة، والخواء.

قال: أنت؟ حياتك رتيبة وخالية؟

قالت: نعم، نعم، نعم. ماذا تظن؟ هذا كله فراغ، أو فرار من الفراغ.

كان الصمت الوجيز الوثيق الأواصر بينهما، محمّلاً بثقل ضيق الصدر لم يستطع الأخذ والرد، والحدة والغضب، أن تخفف عنه، في حديقة «لي بيتيه تريانون».

على سور الحديقة المشمسة أصص شجيرات قصيرة القامة، مقصوصة النواصي، معتنىً بها أكثر مما ينبغي، لامعة الخضرة من الرش بالماء، كأنها صناعية. ومفارش الموائد البيضاء الناصلة اللون قليلاً عليها تصميمات زرقاء رفيعة الخطوط. كانت الشمس خافتة والبيرة الاستيللا في الكوبين الطويلين بزجاجهما الرقيق، قد همدت رغوتها، لونها عكر قليلاً، وكوم قشر الترمس الأصفر في طبق فنجان.

وخطر له، لحظة، أنها ربما كانت جادة، وأنها ربما فعلت ذلك حقاً، وأن الأمر ليس مجرد رؤيا هلاسية تفجرت من لوعة فقد علاقة حميمة قديمة،

ليست علاقة سياسية فقط بالتأكيد، ليس هذا مجرد تكريم أخير لقامة أخرى سقطت في ساحتها، ليس مجرد الوفاء - على طريقتها - لصداقة عريقة الأصول في القلب والجسم معاً.

ثم قال لنفسه: ما أعجبها..! صداقتها لرئيس وزرائه المطرود، الارستقراطي العجوز العريق، ثم هذا أيضاً. العمالي الشيوعي المرموق المقتول، في الوقت نفسه! ما أعجب الصلات التي تعقدها..! محيرة، وغير مفسّرة، وحقيقية، كأنها ماتاهاري، أو إحدى شخصيات رواية عن جيمس بوند، مثلاً، من غير تسطيح، من غير إثارة، لها أصدقاء - أكثر من أصدقاء بالتأكيد؟ - على كل موقع من السلّم الاجتماعي، والسلّم النفسي أيضاً..!

قالت: كنت معه في خلية واحدة. كنت المسؤولة عنه. هنا في الاسكندرية، على الكورنيش، كانت مناقشاتنا لا تنتهي. هنا عرفت طيبته وأخلاقه وشجاعته وصدق قلبه. هنا علمته، وتعلمت منه، أحلام العدل والانتصار.

قال لها: نعم. أحلام العدل. دعيكِ الآن من احلام الانتصار. أين ذهبت هذه الأحلام؟ الحرية، وانحسار القبح من على وجه الأرض؟ كم حلمنا في طفولة هذا العمل، كل منا في ناحية. الثورة على كل قهر جسدي وروحي! انتفاء كل كبت واستغلال وجوع واغتراب! ماذا بقي بين أيدينا من فتات هذه الأحلام - حتى الفتات لا نجده بين أصابعنا. والضحايا والشهداء والآلام والحماسة التي تطير بنا والايمان الذي يشعلنا بعزم أصلب وأعلى من كل الجبال، نحمله بفخر ودون أن نحس، ليس له ثقل. الفناء في هذا الذي كنا نعرفه باسم النضال، لا نعرف فيه ليلاً أو نهاراً. كأن ملكوت السماء يأتي غداً، فعلاً، بعد الناصية القادمة، ولكنه يأتي هنا، على هذه الأرض التي كنا نرى جوع فقرائها جميعاً قديسين. ما من شيء له وزن

في غمار هذا الجنون بالايثار، والتضحية بالذات وبالعالم، في سبيل هذه العدالة المستحيلة.

قالت، كأنها ما زالت تحلم: كل التفاصيل الصغيرة العملية التي تستغرق الحياة، وتعلو عليها، يقظة ونوماً، المنشورات والمجلات السرية، الاجتماعات التي لا تنتهي، اللقاءات والدعوة ولجاج المناقشة كأن مصير العالم وحياة البشر أو موتهم جميعاً معلقة كلها بكلمة واحدة، بحرف واحد. تنظيم الاعتصامات وتدبير الاضرابات وتسيير المظاهرات وصياغة النداءات ووضع البرامج وتشكيل اللجان وتوزيع المهمات وتحدي الأخطار، بلا مبالاة، بلا تفكير حتى في أنها أخطار، كأنها لا شيء، في كل لحظة.

قال: أين ذهب هذا كله؟ وذهب معه شبابنا، إلى الأبد. بلا عودة. صدمة السقوط إلى الصمت لا يمكن وصفها. لا أستطيع حتى أن أعود فأتصورها. بعد سقوط هذه الأحلام تعلمت كيف أسهر، وأسكر، وتعلمت التدخين أيضاً، ودخلت في مغامرات غرامية، ما أتفهها..! كنت، في الأول، بيوريتانياً، حقاً. ومع اليأس، عدت إنسانياً أكثر، كبقية الناس..! كنت أعود إلى البيت في فجر كل يوم، لكي أذهب كل صباح إلى مكتبي في شركة المقاولات المصرية، هنا، في الاسكندرية، وأنا ـ لفترة سبع دقائق محسوبة بساعة داخلية خاصة ـ في الأتوبيس. استيقظ وحدي قبل النزول في محطتي، مباشرة، وبدقة، ومغامراتي كنت آخذ بها لمجرد الأخذ بها، لا أعرف ولا يهمني، باستهتار غريب وممتع في لا أخلاقيته وفي حزنه، ماذا يحدث غداً.

قالت: أنا رجعت إلى الصوفا، في غرفتي، ورقدت عليها، بلا حراك، بلا كلام، تسعة أشهر كاملة، كأنها فترة حمل مقلوبة، لا ألد بعدها شيئاً، بل أصل إلى موت جديد، وآخر، في قلب الحياة. لم أكن أفتح فمي. كنت غائبة غيبة حقيقية. لم أكن أريد العالم. لم أكن أهتم به. ولا أعرف حتى

الآن كيف رجعت من هـذا التيه. رجعت طبعاً بجـرح، أو قـل، في صراحة، بتشويه، لابرء منه. ولا أعرف هل اندمل؟

قال: انحسرت هذه الطفولة. كبرنا. ببساطة. نحن اليوم منفيّون في أحلامنا، غرباء عنها، دون أن نبرحها. ماذا نفعل؟ أنت باحثة الآثار، عمّ تبحثين؟ عن طلل بائد في قلب الحطام، لن تصل إليه أبداً حفرياتك. وأنا؟ أقيم أعمدة وأسجل طرز المعمار، وأقوّم هندسة قِيَمٍ قديمة لم يعد أحد يقيم لها وزناً؟ لا يجدي فيها الترميم. فيم تنفعكِ الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية؟ ماذا قرأتِ في نقوشك؟ كل هـذا العبث العقيم مكتوب - هـو نفسه - بكل اللغات، في كل الأزمان. فما جدواه؟ هناك تسليات أظرف، بلا شك!

كـان قد قـال: في هذه الشوارع، منذ أكثر من أربعين سنة ربما، لمست بغموض، شممت على الأصح، في الهواء، هكذا، رائحة الجنس المفتوح، حتى دون أن أعرفه. هـل كنت قد بلغت السابعة؟ لا أذكر. ربما كنت أصغر. لكنني أرى شارع العطارين، والهماميل - والترام الـذي كان أصفر اللون، نظيفاً، أنيقاً، بمقاعده الخشبية اللامعة في شمس أول الصبح. كان الجو بليلاً، ورطباً وناعم الملمس أيضاً. وكنت أمشي، وربما أجري، أمدّ الخطى مهرولاً ويدي في يد أبي، في يده الأخرى عصاه الابنوس السوداء بمقبضها العاجي المنحوت فيه رأس طير - صقر - عينه حبة خضراء ثمينة. وهو إلى جانبي شاهق، فيه كل الأمان، والحب، ومعطفه الطويل يطير به الهواء فوق القفطان السكروتة السمني الحرير، والحزام العريض. ربما كان يسرع ليلحق بموعد ما في الوكالة، أمام كوم الناضورة. الشوارع واسعة وعربات الحنطور تتخايل فيها بجيادها الصهب رافعة الرأس في مشاكمها النحاسية، تنفث فجأة من منخريها وتصهل، فأرتعد قليلاً أمام مهابتها الشامخة العالية. مغازات الخشب العريضة بأسوارها الحجرية الممتدة

وأبوابها الحديدية المصمتة مفتوحة على مصاريعها، أجوافها المعتمة تحت عقود البيبان المقوسة تنتهي إلى رحات مشمسة فسيحة ترتفع فيها رصص الخشب الجديد المنجور المسوى الداكن الصفرة المتساوي الأطراف تماماً، تبدو طويلة، هائلة كيف يحملونها، ويرفعونها، ويرصونها بهذا الإحكام الهندسي؟الدكاكين قليلة. بعرض أبوابها مصات رخامية بيضاء عليها الميزان بكفتيه النحاسيتين وقائمه الحديدي الأسود، الحادّ السنّ يتأرجح بحساسية مرهفة، هل تذكرين هذا النوع من الدكاكين، من وراء الميزان رفوف عليها علب سجاير كوتاريللي وماتوسيان ودخان الغزالة، وبرطمانات الحلوى الزجاجية المدورة، وعلى جانبيه مرايا بيضاء، مكتوب عليها بحروف انجليزية مزركشة الأطراف لا أعرفها، وحروف عربية بالخط الثلث والنسخ. لم يكونوا يكتبون الرقعة أيامها ولا الخطوط البزرميط الشائعة اليوم وأنا أقرأها جميعاً، غصباً عني، بصوت داخلي مسموع لي وحدي، كأنه واجب لا أفوته، قضيت طفولتي ـ وما أزال ـ أقرأ خطوط الاعلانات، لا أترك منها حرفاً. وبلاط الشارع تحت قدمي كبير أسود مصقول، كل بلاطة منه مقعرة قليلاً، مليئة بالقوة، متلاصقة في أشكال هندسية ولامعة فلا بد أنها كانت مرشوشة ولم يجف الماء بعد، فقد كنا في بكرة الصبح.

قال أبي: تعال ندخل من هنا، فيه تخريمة توصلنا حالاً.

ودخل بي في حارة ضيقة طويلة بيوتها منخفضة ومتقاربة، طلاؤها أصفر باهت، النوافذ والشرفات الحديدية مغلقة فوق فوانيس النور المطفأة بزجاجها المقوس الصافي على شكل نواقيس مقلوبة. عربات الكبدة والباذنجان المخلل خالية ومركونة على الحوائط وليس بجانبها أحد. وفي الحارة رائحة نوم متأخر وخمول. وهناك، على عتبات البيوت، أمام أبواب خشبية ضيقة وراءها سلالم مظلمة لا تكاد تُرى في نور الشارع الهامد، هناك رأيت هؤلاء النساء، يجلسن على راحتهن، بقمصان نوم خفيفة تشف

عن ملابس داخلية ملوّنة واسعة. على العتبات الحجريّة، متجاورات ومتقابلات عبر الحارة، سيقانهن العارية ممدودة على الأرض، في تراخ مفضوح لا خجل فيه. وفي عيونهن الضيقة المتفخة الجفون خطوط الكحل الثقيلة السوداء. أفواههن كبيرة وحادّة لونها أحمر باهت، كأنها جروح. هل كان نبض قلبي المتسارع الدقات من سرعة الهرولة واليد القوية الكبيرة تمسك بي؟ أم كان من روع المفاجأة بمشهد نساء لم ير الطفل الذي كنته شيئاً يشبههن، في استسلامهن على الأرض، على الصبح، كأنهن يقتنصن أشياء عابرة ولا أعرف ما هي، من المارة القليلين في أول اليوم، بعيونهن الكاسرة؟ أشارت امرأة واقفة من داخل بابها المنخفض، كأنما كانت على وشك الدخول، اشارة لم أفهمها، كأنها تدعو، أو تحذر، وكانت تبتسم، ثم ضحكت مرة واحدة ضحكة جارحة متطاولة ثاقبة ليس فيها أدنى اهتمام بشيء، وفي المفاجأة المباغتة لم أعرف إلى من كانت تشير. وعلام هذه الضحكة المعتدية، فلم يكن في الحارة، أمام الباب، غيرنا. ولكن هذه الحارة الضيقة الغريبة المغلقة النوافذ والشرفات كان فيها مع ذلك جو مقلق وناعم للحواس، معاً. كانت النسوة في هذا التحلل والتخفف والهمود يحملن في وجوههن المرهقة العظام واشاراتهن الغريبة نوعاً من الاستمتاع والاستسلام فيه تحرر، كأنهن في لعبة ما، صعبة ولكن حلوة، وازدهارها مكتوم، نباتات صبار في حرارة زجاج مغلق ومريح.

وعندما مررنا بين امرأتين كانتا تجلسان على عتبتين متواجهتين، أحسست، وأنا أرتجف بخوف قليل أحبه وأجد فيه مذاقاً جديداً غير مكروه، أنني أجتاز منطقة تتهددها أخطار غير مدركة، ولم أكن، على أي حال، لأتفاداها، فقد كنت آمناً. سمعت إحداهما تقول للأخرى، بصوت أجش منهك ولكنه لاذع النبرة، في سياق حديث مقطوع لم أتبعه: وعنها يا حبيبتي، وخليت اللي ما يشتري يتفرج. وكان صدرها كبيراً ومتهدلاً على

البطن من غير شيء يسنده تحت القميص على اللحم ولكن غامضاً وكأنه هو أيضاً نحيف قليلاً، وكان فخذاها على العكس رفيعتين مسحوبتين في سمرة لم تلوحها الشمس أبداً عاريتين تقريباً حتى ما يقرب البطن.

وعندما عبرنا إلى شارع السبع بنات والترام يجري فيه بصلصلة بهيجة، واجتزنا الميدان المدور أمام نقطة اللبان التقطت عيني، بفرح، دكان الحلواني الافرنجي الذي نأخذ منه الهريسة عند العودة، وقد انبسطت الصينية الواسعة المستديرة، بنحاسها الداكن، وعليها الهريسة بلونها البني الفاتح الشهي وجهها يلمع وحبوب البندق والجوز فصوصٌ بيضاء عاجية مغروسة في اللحم بارزة قليلاً من على السطح، هذه في أول المساء قبل العودة إلى البيت أحلى لحظات النهار، عندما آخذ في يدي علبة الورق المقوى وأحس سخونة ربع وقّة من الهريسة العطرة الرائحة التي ينضح عسلها على ورق الزبدة الملفوف حولها، وعندما اقتربنا من كوم الناضورة كانت الأعلام الخضراء والبيضاء والزرقاء المثلثة والمربعة ترفرف على حبالها وصواريها، وكرة سوداء ضخمة معلقة، اشارات للسفن القادمة من البحر تأتي رياحه الندية أخيراً تحمل وعوداً فسيحة ليس لها حدود. عبر أكوام البيوت وركام المغازات ووكالات البصل والخيش وأقفاص الفراخ والخضار ومحلات الحدايد وحبال البصطرمة المعلقة عليها الكتل الداكنة المدورة النفاذة الرائحة ودكان المصوراتي بصوره من وراء الزجاج: الوجوه الباسمة الثابتة العينين وحواجب النساء مزججة بأقواس رفيعة جداً كالخيوط السوداء وشفاههن مرسومة على شكل قلبين صغيرين مفتوحين أحدهما على الآخر. والمعلّمين بجلاليبهم وشواربهم المفتولة وطرابيشهم وعصيانهم الطويلة، عالم كامل آخر، لم تبق إلا رثاثته وأنقاضه.. أين ذهب؟

هذه كانت حكايته.

كانت الجماعة كلها قد اندمجت في استمتاع قصير بفترة راحة، تحت الشمسيات، أمام أكواب الشاي الصغيرة المسحوبة الخصر وفناجين القهوة الصيني الزرقاء النقوش وزجاجات الاستيللا العالية والكوكاكولا القصيرة، وأقراص الطاولة تنتقل بسرعة في خبطات متلاحقة وعساكر الشطرنج تتساقط والجرسون النوبي الصغير السن يبدو بجلبابه الأبيض وابتسامته وحزامه الأحمر وعمامته الكبيرة كأنه ولد في مدرسة يمثل دور الجرسون، عندما لمحها فجأة، على مبعدة، وحدها، لحظة، كأنها جزيرة خالية وسط الأمواج. رفعت يدها، إلى عينيها، تهبط بها من جبهتها على جفنيها. تسدهما، تدعكهما ببطء، وشفتاها متوترتان، في مكابدة موحشة، صامتة، شريحة من الألم اقتطعت منها فجأة، على الرغم منها. كان هذا موجعاً له، وهَم أن يذهب إليها، وقد سال قلبه. ثم توقفت حركته الداخلية فجأة، بتصميم.

كنت عنيفاً مع نفسي، وقد وصلت إلى قرار، وعقدت عليه عزمي.

في العودة كان يتلكأ عن عمد، حتى لا يجد نفسه، قريباً منها. يلمحها تبحث عنه بعينيها، ويحس أنها، بالرغم من كل شيء، تدعوه إليها. لكنه يتشاغل، ويسخر في دخيلته من هذه المناورة الصغيرة التقليدية من مناورات العشاق، حتى شُغِل المقعد الخالي بجانبها. وجلس إلى جوار محمود، كارهاً ومتصبراً، كأنما لم يتنبه إلى شيء، وانخرط معه، ببسالة، في حديث طويل عن مصاعب الشغل ومتاعب هندسة ترميم الآثار وغباوة المسؤولين وأفكارهم العتيقة وتمسكهم بالروتين المدمّر ونقص الاعتمادات وبطء التنفيذ وغرائب طباع الأثريين أيضاً، وهو طول الطريق يدير رأسه وهو يقهقه ويشور بيديه في حماسة ويلمح النظرة الطويلة التي تصوبها إليه رامة، متأملة هادئة، في عتاب أسف مزدوج، له ولها. كان عزمه المعقود فيه تحد لنفسه،

وتشف صغير، وفيه ألم يعصره بقبضة قوية، بتقلصات مكبوحة تحت الضحك.

رامة، رامة، ندائي الأخير، لماذا أجد نفسي دائماً وحيداً كأن الوحدة هي الشيء الطبيعي فلماذا إذن لا تحتمل؟ لماذا لا أجد القوة على احتمالها، كان ينبغي أن تكون هناك، هذه القوة. ومن ناحية أخرى أهي حقاً مقضيّ علينا بها، هذه الوحدة؟ أم هذه الشكوى الصبيانية التقليدية، وضعف غير مقبول على أي حال؟ لماذا لا أجد الحرارة القديمة في عينيك، عينيك هاتين اللتين أراهما جميلتين وقاسيتين بمجرد التعقل والعتاب الذي فيهما؟ وحتى عندما كنت أقول لك ما لا أقوله أبداً، لا لأحد ولا لنفسي، في تعثر، في غير إجادة للصنعة، في تدفق أو توقف مُلَهْوَج ومتخبط قليلاً، أحاول أن أفتح، بصعوبة، من غير كفاءة - نعم من غير كفاءة - أبواباً قديمة صدئت لأنها لم تفتح منذ أن أوصدت، أحاول أن اتلمس الصدى، في نبرة صوتك، لذلك الضجيج الذي تتردد حركاته الوحشية ليل نهار من مسوخ العذابات العارية الملتصقة بجدران نفسي متشبثة بها بالمخلب والناب، لا تغمض عيونها، احتضنتها إليّ، على كل شوهاتها، لا أستطيع الافلات من عناقها.

لماذا أقول لك، وكلامي شحيح وصعب، فلا أجد في عينيك إلا نظرة التأمل المحايدة التي تزيد من تعثر الكلمات، وأجد نفسي أغوص وحدي، أكثر فأكثر، بيدين لا حراك بهما، في مستنقع هذه الوحشة الضحلة المياه.

قال لنفسه: لماذا؟

لأنّ فيك، يا صديقي، ضعفاً أساسياً أنت تزعم لنفسك أنه قوة أساسية. هذا كل شيء.

أيها الأخلاقي المخضرم الذي اعوجّت بين يديه المعايير.

لا ضعف، ولا قوة، هذا الشيء؟

لم تأت، بالطبع، إجابة.

كان قد قال لها: في هذه الحكاية كلها حوار لم يحدث، أو لم يتم.

قالت: بل حدث. حدث بالتأكيد.

قال: إن كان قد حدث، فبطريقة غير متوقعة، وغير مألوفة. لم أعرفه وفاتني.

قالت: نعم. حدث.

قال: يا للأسف.

قالت: لا تكن آسفاً، أبداً.

كان قد قال لها: تعرفين، إنني صعيدي، في قرارتي، ما أزال. والصعايدة، كلهم، يؤمنون بإله واحد، غير متكرر.

طول عمرهم، بين الجبل غير ذي الزرع والوادي الضيق العميق، على ضفاف نهرهم الوحيد بسطحه الساكن الشاسع القادر على جيشان لا يغلب، على مشارف صحرائهم القفراء، متوحدين، وموحدين.

قالت: ما أسعدك..! أنت تؤمن إذن، على الأقل، ولو كان ذلك بواحد لا يتكرر.

قال: هذا ما أعرف. لا أعرف غيره. لا أستطيع أن أعرف أكثر من واحد يستغرق كل شيء، هو كل شيء. حبي واحد، رهباني. أما أنتِ فطبيعتك متعددة الآلهة، كأنك من أحراش أفريقية، من آخر الحدود، تعيشين، عند الشلالات، في منطقة داخلية شبه استوائية، صرخات آلهتها مسيطرة ومتعددة، صرخات آمرة في غابات من الأشواق الممضة والعذابات وتفتق المتعات واندلاع بروق الانهارات الموسمية تحت السحب الثقيلة الداكنة التي تتمزق، كأنها جدران الصروح الشبقية المنحوتة المحفورة بآلاف الآلهة في مضاجعة متصلة عبر كل الزمن.

وقال: هذه الأحادية، هذا النزوع الصحراوي، الرهباني، يصنع فيّ، فيما أظن، كل هذا التوتر الذي تكرهينه، ويؤدي بالطبع إلى عدم الكفاءة.. ! ليس هناك عندي إلا قطب واحد يشد إليه كل شيء في عالمي.

وقال: ليس هناك مجال عندي للاختيار، والتبادلات، والتنويع. لا فسحة لتخفيف قوة هذا الجذب الذي لا يطاق، ولا يقاوَم، نحو غاية واحدة وحيدة.

وقال: كان من الممكن، لولا رحمة الله، أن أتحول حقاً إلى طاغية لا يرى العالم إلا بلون واحد، وبنغمة واحدة، يصبه في قالب واحد، شامل.

قالت: لا أفهم هذه الوحدانية. قد اقتنع بها، عقلياً، نعم. هذا كل شيء. مظاهر الكثرة والتعدد بكل روعاتها المختلفة، بكل صنوف جمالها وخطرها، تشدني كل مرة، وتغويني. وما أسرع استسلامي للغواية..!!

قال: لا، ليس استسلامك قبولاً للغواية. ربما كنت أنت، أولاً وقبل كل شيء، صانعة للغوايات. أليس كذلك؟ الاهة أيضاً. بحقك الخاص، من بين الآلهة. ربما كنت كل الآلهة، في صور لا نهائية التعدّد، ولكنك واحدة، غير متكررة.

قالت بابتسامة رضى: لا أدري. هذه مياه أعمق بكثير جداً من أن أخوضها.

قال: أنت؟ بل أنت التي تجيدين السباحة. وأنا كالعادة، الذي أغرق في شبر ماء!

وقال لنفسه: هل يجري كل شيء، في هذه الحكاية، في غرف فنادق مقفلة، ومحطات قطارات مسقولة بالزجاج، بين نوافذ مسدلة الأستار وأعمدة من الحديد والجرانيت؟ محطة مصر في الليل، قطار الصعيد تأخر ومعاون المحطة يقول إن السيمافور مفتوح وسيصل حالاً ثم يقول لا. هذا

قطار رشيد. والجماعة كلها قد تكومت في رصيف الدرجة الأولى على المقاعد الخشبية ومعهم حقائبهم ولففهم، في إرهاق ولهفة التشوف معاً. سامية تربعت على المقعد الخشبي الطويل ورفعت ساقيها النحيلتين بسمرتهما المزرقة المشدودة دون أن تبالي بعريهما، وأسندت رأسها، بعمامتها الصعيدية الشكل، إلى يدها، كأنها في وضع من أوضاع اليوغا، ونامت، يخيل إليك أنها مفتوحة العينين، ومحمود يدور في المحطة بجاكتته السبور الجلد المصنوعة في برلين، مرمية على كتفه، عيناه غائرتان ومحترقتان والجلد قد تهدل وتقوس تحتهما، وعبد الجليل يأتي من البوفيه بصينية عليها فناجين قهوة اندلقت وجوهها العلوية في صحونها وبدت مياهها الداكنة مترجرجة خفيفة القوام، وزجاجات مياه من ماركة اسكندرانية، ونورا تضع رأسها، بعينين صاحيتين كعيون القطط، على كتف سامية التي تهمس إليها، بين وقت وآخر، بكلمات هادئة ماكرة الايحاء وناعمة، وفي المحطة صفير قطار يدخل على الرصيف من الناحية الأخرى وتتردد له أصداء مليئة بالخوف والقوة من تحت زجاج السقف. كان ميخائيل قد ذهب لمجرد أن يوصل الجماعة للمحطة، فقد قرر أن يبيت ليلتها في البلد واستطاع أن ينفذ قراره. كان في هذا إيذانٌ بفراق ما، ببدء عملية لا رجعة فيها، حاسمة وإن لم تكن نهائية مبتوتاً فيها من الآن، كأن شيئاً ما قد وصل إلى غايته، لم يعد أمل في مد حباله. وكانت نظراتها إليه، من بعيد، تشي بأنها تعرف.

في الكافيتريا، مساء أمس، انفجرت فجأة في نوبة بكاء تبدو كأنها لا يمكن التحكم فيها، وهي تقول إنها لن تستطيع التخلف عن الجماعة، ولن تبقى في البلد كما كان قد انعقد الاتفاق بينهما حتى ذلك الصباح. وكانت، بعد الحفلة أمس، لم تعد للفندق حتى الفجر، وكذلك لم يعد محمود ولا سامح ولا الهام. وكان ميخائيل قد قال لها بنصف ضحك ونصف مرارة إن العنقاء تنفض عنها ريشها مرة أخرى، ودموعها المنهمرة في مياه صافية

متسلسلة العقد، لم تهزه، كان يعرف كفاءتها في البكاء، وقال لنفسه هذه الدموع متقنة، وسهلٌ عليها إتقانها. وقال لنفسه أيضاً إن القسوة، في آخر مشاهد هذه العلاقة، على النفس وعلى الآخر، شيء مبتذل ومتوقّع، وسهل أيضاً.

وقد صفّر القطار من بعيد، داخلاً من آخر الخضّرة، بين البيوت الليلية والرصيف الترابي الرملي المغطى بنفايات جافة وحشائش قديمة، تحت نوره الكهربائي المتحرك الساطع، ومبخائيل يصافح الجماعة واحداً واحداً، ويقبلهم بخفة ومن غير كبير تأثر، فسوف يلتقون بعد يومين في القاهرة، في طريقهم إلى أدفو، ومعبد حوريس، وأقبل عليها بخطوات لا تردد فيها، يحس عينيه تلمعان بالقرار الذي اتخذه وانتهى منه، فنهضت من جلستها الساهمة. كان في جسمها كله نوع من العزم المقابل أيضاً، وأحس الأنظار تتجه إليها ـ وإن كانت مسترقة وجانبية ـ، وسامية تومىء، بما لا يكاد يحس، إلى نورا. وصافحته رامة، بقبضة قوية، وهزت يده مرتين، وثلاثاً، دون أن تتراخى قوتها، ولم تهمّ إليه فلم تمس شفتاه خديها بالقبلة التقليدية الخفيفة الوقع، فقال لها: مع السلامة. فقالت: إلى اللقاء. بعينين فيهما صلابة، من غير مرارة ولا غضب ولا إنكار ولا موافقة على القرار، ضمنية أو مسفراً عنها.

كانت خطواته إلى باب المحطة، وهو يستدير ويشور لهم، ويردون التحية وهم واقفون على الرصيف، وهي أيضاً، خطوات ثابتة. قال لنفسه: بهذه الخطوات يترك المنفيون أرض الوطن، يعرفون أنهم لن يعودوا.

كانت قد قالت: لا شيء. لا أخبار يعني، لا جديد. لا يحدث شيء. أريد أن يحدث شيء ما، يسترعي انتباهي.

فقال: يا بختك!

قالت: هكذا..! اين الفطنة والحصافة واللباقة المعهودة عنك في التعبير؟ أليس الأصح أن تقول: يا حرام! يا عيني!

قال: لأنك تبحثين عن شيء يسترعي الانتباه؟ ذهبت الفطنة ـ كما تقولين ـ أدراج الرياح!

قالت: العفو! لم أكن أقصد طبعاً.

قال: كنت أريد أن أقول ـ ولم أعرف أن أقول، طبعاً! ـ انك سعيدة الحظ لأنك ما زلت تستطيعين أن تأملي ـ وتبحثي ـ عن شيء يشد الانتباه!

هناك مَنْ لا يشتت شيءٌ تركيزَ عذابهم المكبوت المطبق للشفاه.

قال: ولكن هذا لا يعني شيئاً بالطبع. مجرد افتقار إلى لباقة في التعبير، كما تقولين.

الآن أوشكت الرقصة على الانتهاء، وموسيقى العذاب واللذة ترتطم أصداؤها بالأحجار العارية الصلدة القديمة. الجمجمة، بفجوة محجري العينين الفاغرين، تستند إلى الخد الناعم الأسيل فيه تضرج المتعة والبهجة. الراقصات الجنائزيات، بعيونهن اللوزية، برشاقتهن الصبيانية، صغيرات الثديين عاريات إلا من حزام رقيق أسفل البطن، على شعرهن المضفور ضفائر رفيعة طويلة أكاليلُ رقيقة من اللوتس والياسمين. قبلة الأنياب المكشوفة في نواجذها دون شفاه تمتص السلافة من لدونة فمها الحار المفتوح ومن لسانها الصناع البارع السريع الحركة في تلمسه. وهي تنتقل من ذراع عظمي مشقوق الأصابع إلى ذراع، في سورة الرقص الأخيرة، بين الوجوه الصخرية المنقورة والعظام المحدودبة والناحلة والمطوطة. الوجوه الكامدة الخضرة جاحظة العيون تضغط على وجوه ملائكة الشاروبيم الصغار الباسمة المكورة الخدود. القطة بستيت مقعية في سكون وحياد تنظر إلى ما وراء الشيوخ ببطونهم المتهدلة الممتلئة بالأحشاء المتدلية التي تهتز في

نغم بذيء، يسيرون في خطى رقص مترنح مطوِّح الذراعين نحو التفريغ والانهاء. أضلاع أقفاص الصدور في هياكل العظم المفتوحة الجافة البيضاء تحتضن النهدين اللذين المحشوين بدسامة متهاسكة. عظام الأذرع والسيقان مرفوعة تتذبذب تنتهي بأصابع طويلة متراكبة المفاصل تصطفق وتطقطق ملتفة بالخصور الهضيمة والأرداف المحبوكة المليئة تحت أثوابها الشفافة ترتجف في نشوة الرقصة المتسارعة الايقاع نحو عتمة مغارات مجوفة تهدر بين أحجار جدرانها مياه البحر المالحة وهي تضرب الصخر وستظل تضرب الصخر بلا هوادة ولا أمل.

لا، كان في هذه العتمة ما يشبه الأمل، وإن كان من غير راحة.

وكل ما آخذه عليها أنها، حبي، لم تعرفني حقاً. هل كانت مغامرتها معي - شأن مغامراتها مع كل رجالها، غزاتها؟ - معرفة وتكشفاً وانتصاراً لشيء ما فيها هي، يتجاوزني ويتجاوزهم، شيء لا علاقة له بي، أو بنا، بل يشتملنا ويتعدانا، ذلك العنصر الذي في الرجال، غير شخصي وغير فردي وغير متحدد بالميزات أو النقائص؟

قال، من غير أن يلوم نفسه: ليس صحيحاً أنني أقع - حتى - في الصف الأول من محباتها. ولكنني، في وقت معاً، شغلت مكاناً في حياتها، ليس هو المكان الأخير.

لم يكن في ذلك عزاء، ولا مرارة أيضاً.

في الزمن الأخير كان وجهها يبدو له غريباً. كأنه لم يعرفها من قبل.

قال لنفسه: ولكن هذا ما يحدث دائماً. وراء قناع هذه الغربة عرفت الجسد والروح ونبضهما معاً، عاريين، مفتوحين، ذبيحين، لا حماية ولا منعة فيهما، يقطران دماً وشوقاً.

كانت موسيقى صوتها تتقطر إليه، وهي تتحدث إليه كما تتحدث إلى غريب، وللمرة الأولى عرف أن هذه ليست خدعة من خدع الحب. سيرين ذات المخالب التي تجذب إليها السفن بعدٍ لا يقاوم وتتحطم على صخرتها أجساد الملاحين، جيلاً بعد جيل. والتفت بهما، في الغربة، جماعة جديدة من أصدقائها، هؤلاء لا يعرفهم، وقدمتهم إليه واحداً واحداً. وقدمته إليهم، ولم يعلق بذاكرته المقطوعة اسم ولا صورة، كأنه ينفي عن نفسه هجوماً أجنبياً ويلغيه. بقي في ركام الأنقاض المنفية وجه دائري بسام يهضب بالضحك والحديث والمشروعات والخطط، في وسط التعارف والتهاتف والتنادي والتشابك بالأيدي والتحايا، وقالت للوجه الطيِّب المليء، عيناه ضيّقتان وذكيّتان من وراء نظّارة كثيفة الحجر، بصوت عاديّ النبرة ليس فيه كلفة لكنه لا يجوز عليه، هو: تأخرت أمس عن ميعاد البنك كان معي مائة وخمسون جنيهاً التزامات عاجلة للمصلحة من حساب الترميمات، غداً أردها أو أظهّر الشيك. فقال: نعم. ماشي. الليلة إذن حسب ما اتفقنا، شارلي في «الديكتاتور الصغير» قالت: سنضحك الليلة. والتفتت إليه، فجأة، كأنما تذكرته، كان منذ الآن خارج الحلقة، وقالت: ميخائيل هل تأتي معنا السينما الليلة؟ قال: متشكر. الليلة مشغول. وكان كل شيء يبدو له، لا طعم له ومزدحماً وسخيفاً لا يستفز فيه رجع فعل. وعندما عاد إلى غرفته وجد تحت عقب الباب ورقة بيضاء، ميخائيل لو كان عندك وقت يسرني أن أتحدث إليك، دون امضاء، وعندما طلبها في التليفون كان صوتها: هاللو، فيه استقامة وبياض وحياد، قالت: نعم. وعندما فتحت له كانت ترتدي فستاناً خفيفاً مفتوح الصدر والذراعين يسقط على جسمها العاري تحته بوضوح، في إهمال وبلا أناقة، فوضعت يدها على صدرها وقالت: أهلاً. تفضل، معذرة. كأنها لم تكن تنتظره حقاً، وقالت مستدركة: وصلت بأسرع مما كنت أنتظر. تسمح لي؟ ومضت بسرعة إلى الغرفة الداخلية وكان في فمه مرارة طفيفة وحقيقية أحسها على لسانه، وقد

هجس بنفسه أنها تعتذر لي الآن عن مظهرها كما لو كنت زائراً يأتي للمجاملة. في يوم ما، ما زال غير بعيد، كان التكاشف الجسدي وتعري الروح وتخفف القلب أيضاً من كل رواسبه مادة من مواد العقيدة، تقريباً، أو روتيناً طقسياً يومياً بيننا.

وجاءت ترتدي جلابيتها البدوية السابغة على جسدها، المشغولة بالعملات البرونزية النقدية القديمة الصغيرة عليها طغراوات سلطان باد اسمه وعهده معاً، وعقداً من النحاس المشغول وقرطاً هلالياً كبيراً يتدلى تحت شعرها الذي صففته، بسرعة، ورمته إلى جانب واحد من وجهها.

قبلها، على فمها، كأنما كانت قبلة تجريبية، قبلة استطلاع واسترجاع، الروح لم تنتفض فيها بعد. كانت روحه محتجزة وراء عائق داخلي عنيد، كأنها ترفرف بأجنحة صغيرة مربوطة بخيوط من الحيرة وعدم اليقين، موثقة في بُعد آخر لا تستطيع الوصول إلى هذا التماس الذي يمارسه بشفتيه كأنه يقوم بشعائر من غير إيمان. وهو مشتت الوجدان، نيرانه ما زالت فيها جذوة لا يعرف هل هي تتقد في الحبس؟

بعد حركة انعطاف واستجابة قصيرة جداً تركت له فمها دون مشاركة، ثم وضعت يدها على ذراعه برفق، ترفع يده عن ظهرها، وقد مضت أيضاً تهتم، كأنما من تلقائها، باستعادة روتين حركات مألوفة جرت عليها عادات قديمة، دون هدف ودون حماسة.

قالت له: ميخائيل. دعنا نكن أصدقاء. نتصرف تصرف الأصدقاء. ألا يمكن؟ دعوتك لكي نشرب كأساً، ربما. ليس عندي إلا هذه البقية من زجاجة الريمي مارتان يا للأسف، أو ربما لحسن الحظ، أنا لا أشرب. كل ما أريد أن أراك قليلاً، لأجل الأيام القديمة. وهي قد صبت له الكأس وأعطته له، وقالت: نخبها..!

فتذكر الليلة الأولى وكيف دعته، لكي نثرثر، وتهجأت له الكلمة، نثرثر، كأنه لا يعرفها. وقال: ألا تريدين أن نتحدث قليلاً؟ هيا بنا نخرج إلى البلد؟

قالت: نعم، ما أحلم به أن أجلس معك، في مكان ما، دون حديث، بل دون كلام، دون أن أفعل شيئاً، دون أن أفكر في شيء. يكفيني أن أجلس معك، في نور هادىء. دون اضطرار أن أفتح فمي. الصمت مع صديق أجلب الأشياء للراحة. أنا متعبة. أحلم أن أجلس معك، في بار صغير. وحدنا، صامتة، لا أشرب، ليس ضرورياً. . فقط أستريح.

قال لها: نعم فليكن. ولكن عندي لك مفاجأة صغيرة.

وأخرج من جيب جاكته زجاجة كونياك نابليون مدورة، داكنة الخضرة بمائها الأصهب، رشيقة العنق، وعليها شعار مذهب فخم بارز الحروف.

قالت: آه. . هذا لا يمكن مقاومته. . ! نشرب هنا معاً.

وجلست على الأرض وقذفت حذاءها بحركة سريعة. حافية. وانبسطت الجلابية حولها في صلصلة برونزية خفيفة الرنين على بساط من دائرة ذات شعر متهدل طويل، سوداء وبيضاء. قالت له: هذا جلد قرد. من أديس أبابا. جاءني هدية من صديق، متخصص في التاريخ القبطي. فاقتعد الجلد الناعم، بالبنطلون والحذاء، جنبها، بصمت، بنصف ابتسامة، في حركة متصلبة، والبنطلون ضيقٌ قليلاً عند ركبتيه، فمد ساقيه وارتكن مرفقه، وسمعا من ريكوردر يبدو غالي الثمن وحديث الشكل في صرامة مستقبلية القالب ـ كأنه آلة صناعية اليكترونية لتسيير أجهزة معقدة ـ تسجيلات لأشعار شعبية ثورية وكلية في رفضها، بلا اهتمام، لكل شيء، بصوت عجوز مبحوح من الحشيش، ولم يكن سعيداً بالأشعار ولا بالصوت المتهدّم المعالم وقال لها ذلك فلم تكن سعيدة بما قال، ولم تنته المناقشة إلى شيء.

وقالت له: سأعد شيئاً تأكله، الكونياك يفتح الشهية. عندي زيتون وبصطرمة. قال: أبداً لا داعي. السجاير عندي مزّة. قالت: أنا أريد شيئاً آكله وقد دفئت من الكونياك وعرقت. سآخذ دوش، سأتخفف من هذه الجلابية، ثقلت على جسمي الآن. هل تعرف كم تزن؟ قال باسماً: لا. قالت: عشرة أرطال..! وزنتُها بالفعل! فقهقه بضحكة عالية تفجرت منه من الحرج فقد كان يعرف أنها عارية تحت عشرة أرطال من القماش والبرونز... وعادت وفي يدها طبق صغير فيه الحبات السوداء الطرية المجعدة اللحم في زيتها الخفيف، وهي مفكوكة الشعر ترتدي قميص نوم جديداً لم يكن يعرفه أحمر طوبيّاً خفيف النسيج غير شفاف قصيراً حتى منتصف الفخذين وحواشيه مشغولة بشريط رفيع جداً من الدانتيلا البيضاء الرقيقة الخروم جداً، مغسولة الوجه.

كان ممدداً على السرير العريض، بحذائه، ما زال. خلع جاكتته فقط. فنظرت إليه في عجب خفيف جداً، وتساؤل لا يكاد يُحس وقالت: كنت أظنك قد أخذت راحتك، وتخففت على الأقل من حذائك. فلم يفعل شيئاً وكانت قبلاتها تصادمات والتصاقات حسيّة وخدر الكونياك لا ينجاب عنه ولا تأتي تلك الصحوة المتعشة المتوهجة التي يزول فيها وزن الجسم والعالم، وذراعاها حول عنقه ثقيلتان، وجسمها في قميص نومها الطوبي اللون، الجديد الذي لم يكن يعرفه؛ بطيء الحركة حول ساقيه، في غمرات رقصة صعبة جسدية وشحيحة العطاء من غير موسيقى ولا كلمات.

وقالت له: لا، لا، ليس بهذه الطريقة. وتراخت الأطراف في إنهاك السقوط والخذلان، ونامت إلى جواره وأغفى اغفاءات مختنقة قصيرة متعاقبة، دون أن يغيب حقاً في راحة التحقق والوفاء، وهو يحتضن خصرها العاري، ثدياها يمسان جانب ذراعه من غير حياة، وترك غرفتها قبيل الفجر من غير أن يوقظها.

وفي المساء التالي كان تليفونها دائماً مشغولاً وهو يدير القرص الأسود مرة بعد مرة في إصرار لا يفهم له ضرورة، ودائماً كان التليفون مشغولاً، إذن فقد رفعت السماعة، لا يمكن أن تكون مستمرة في الحديث بلا انقطاع، ولا يتعطل التليفون، في هذا البلد، عادة، هل هي تسهر بالخارج وقد رفعت السماعة؟ أبداً. أهي حفلة أخرى؟ أم لقاء خاص مع الصديق الجديد؟ أم أنها قد عرفت بالخبرة مدى العناد الذي يتملكني أحياناً فقطعت، على هذا النحو، كل امكانية للاتصال؟ وهكذا وهكذا تدور هواجسه ويظل يدير الرقم حتى فات كل ميعاد متصور وجاءت الثالثة صباحاً في تهويمات يقظة غريبة موحشة معمورة بالكوابيس وسقط في هوة نوم مضطرب. وعندما استيقظ في غبشة الضوء الصباحي المتسلل من وراء خصاص الشباك وستارة نصف مغلقة سطع في ذهنه فجأة أن الرقم الذي ظل يطلبه طول الليل بالأمس لم يكن رقمها، بل كان رقم تليفونه هو، وشهق في مفاجأة الاكتشاف وصدمة العجب والإحباط. يطلب نفسه، يطلب رقمه هو، تصوّر أن يحدث هذا؟ نعم، نعم، كيف أمكن أن يظلّ يطلب رقم تليفونه هو، من تليفونه هو، فيرد التليفون على نفسه، بالطبع، مشغولاً، بهذا الطنين الأصم الممدود، طول الليل، ولا يدرك الخطأ الغريب؟ أهو، في النهاية، خطأ؟ أكان، بإرادة تتجاوز إرادته، يسد كل طريق بيده، على نفسه؟ من يدري؟ وما أسهل هذا الكشف الذي لا يجدي، الآن، في الصبح الرمادي الغائم.

قال لها: يخيل إليّ أحياناً أنك تشبهين صخرة ضخمة وارفة متعددة الفروع. بل متعددة الجذور. تعرفين؟ كهذه الأشجار التي كانت زمان ـ ولا أدري إن كانت باقية ـ في الأزبكية، ملتفة السيقان، أغصانها تهبط فتتحول إلى جذوع تخترق الأرض، وتقف. أعمدة راسخة ومتلاصقة، لها جذورها العميقة هي أيضاً. شيء كهذا قصدته عندما قلت لك مرة إنك متعددة، وثنية.

فسرحت بخواطرها، تتأمل، وقد شاقتها، أو ساءتها، هذه الصورة.

قالت: نعم، تزوجت مرتين، وطلقت مرتين، ولا أزعم أنني كنت راهبة. أنت تعرف هذا. وحتى قبل الزواج كانت لي علاقاتي الصبيانية، ككل البنات.

قال لنفسه: أستطيع الآن أن آخذ هذا في سياقه الجديد، وأحتمله. كأن عرامة العلاقة الأولى، وحمّو وقدتها، قد آن الأوان أن يؤوب إلى هدوء رواقي، طبيعي الآن في مكانه من الأشياء.

وكان يعرف في قرارته أن هذا ليس صحيحاً، بعد، على الأقل.

قال: وأنا، ما مكاني على هذه الشجرة؟

قالت، وهي تنظر إليه من بعد ما، من علو ما: أنت.. أنت تذكّرني بولد يتسلق بجهد وتفان أحد جذوع الشجرة، يبحث عن ثمرة، كما كنا نفعل في موسم المنجة. ولكن يستغرقك الطلوع على الشجرة، وتغوص في الأوراق الكثيفة. ولا تريد النزول بالثمرة، أحياناً.

فضحكا معاً.

ولكن طعنة ما، نافذة، دهمته على غير انتظار، وهو يضحك، لم يكن يعرف أن الطعنة يمكن أن تصل إلى عمق جديد. من الاحباط للمرارة، ومن الكراهة للاحتقار، ومن النفور إلى اللامبالاة، الدورة الكلاسيكية!

قالت: ولكنك ظللت تحتفظ طول الوقت بقناع من الرصانة والتحفظ. فأنسى أحياناً. معذرة.

قال: لا، لا شيء.

ليس هذا قناعاً. بل تابوت من الصوان. وليس الذي بداخله مومياء، بل شيء حي في قبضة وحوش العذاب. فوضى من الاضطراب

والاحتراق، روح متجسدة، جياشة الجسد محبوسة لا تعرف منفذاً ولا ثغرة تمرق منها إلى زرقة السماء الباردة، تتفجر تحت ضغط مستمر لا يريم، لا يهتز غطاء الصوان.

قال لنفسه: أحقاً كان البحث عن الوحدانية، من الأول للآخر، هو ما دمركْ؟ وهل تم الدمار، ووُضِعت عليه الأختام؟ هذا السعي الملح المحرق الذي يريد أن يبري أطراف العالم من حولك ولا يخدشه مع ذلك، لكنه يهدمك، أليس كذلك؟ - قطعة بعد قطعة متساقطة.

وقال لنفسه أيضاً: وأخيراً، حتى في السقوط، ما دام هذا يحدث، فلن تكون موضوعاً لرثائك لنفسك! هذه الدموع القديمة..! لا شأن لأحد بها. أنت تستطيع أن تتحملها أيضاً..!

ونزل من غرفته، كانت الحيطان تسجنه، كان مخض الألم قد أنهكه، وفي نفسه صفاء هذا الارهاق. الليل قد جاوز منتصفه ودخل في منطقة السكون العميقة. كان الهواء مثقلاً ومسدوداً وكان يعرف أن أمامه أياماً وليالي طويلة، وأنه لم يفرغ من شيء. وفي الاتساع الرحيب بجانب البحر، على رصيف الميناء، كانت الليلة، في منتصف مايو، حارة أكثر جداً من المألوف، وصفحة المياه الممتدة ملقاة بلا حراك، سطحاً من الرصاص جامداً وزيتيّ اللون، بلا موج، تذوب مياهه بصمت على سيف الرمل القليل، تحت قوارب الصيادين البارزة العظام، بصدورها الشمّاء، وشباكهم المفروشة عليها، تجف ممزقة ومتهدلة وساكنة لا تتحرك أهدابها، في الصبح سوف يرتقونها، ويخرجون بالليل، في أول القمر، سعياً وراء الأرزاق الشحيحة.

سمع ميخائيل خطوات غير متعجلة وراءه، ولكن مصممة، وعندما نظر خلفه جاء إلى جانبه، وحاذاه، وتمهل في خطوته وحيّاه: ليلتك سعيدة يا أفندينا..!

كان واضحاً أنه اسكندراني من أهل البلد، بقميص وبنطلون ولكن على رأسه لاسة صغيرة بيضاء مخرمة. كان نحيلاً، يقظ العينين في الليل، وواضح أن الشمس قد لوحت وجهه الحليق، الفتي المشدود اللحم لا ترهل فيه، بنضارة قوية.

فرد عليه: سعيدة!

نظر إليه دون تحرج، ودون تحفظ، وخطواته معه، بنوع من الزمالة التلقائية وقال: أية خدمة؟

قال: أبداً. شكراً. أتمشى فقط.

قال: غريب؟

قال: غريب؟ نعم، غريب.. ! ولكن أصلي من هنا، ولدت وعشت عمري هنا.. !

قال الشاب بطيبة وكرم: أهلاً وسهلاً. شرفتنا.. !

وتسارعت خطوته قليلاً ثم: نفوتك بعافية.. ! ومضى في طريقه متجهاً إلى البيوت المنخفضة الحجرية المتلاصقة، من وراء السراي الداخلة في البحر، غامضة الأبراج والقباب، والفوانيس لا تضيء، في القمر، إلا بقعاً مستديرة محدودة، وأمامها الحديقة الخضراء الواسعة، أشجار النخيل الهندي مرسومة مفروشة الجدائل بسكون، في الحر، صامتة، لا حفيف لها. وأمام البيوت كان الرجال نائمين، في العراء، على الحصير، متكوّمين في نومهم، يسندون رؤوسهم على أذرعهم المطوية. في استسلامهم لليل، تحت السماء، نوع من الكبرياء لا يحسونه.

كانت قد قالت له: أليس هذا كله قديم الطراز نوعاً ما، عفت عليه الأيام؟

وكان قد قال لنفسه، بصوت عال: أليس هذا كله بدائياً جداً وساذجاً جداً؟ *

فقالت له: بداتي ربما. ولكنه أيضاً ليس فجاً، ولا.. ماذا أقول؟ ليس نيئاً، ليس بذيئاً.

فقال لها: وشرس، ولا محلّ له هنا الآن.

فقالت: ولهذا أحبك.

قال: ولهذا أيضاً أحبك، وأكرهه.

قالت: ليس هذا صحيحاً. على الأقل ليس تماماً. أنت تحبه جداً. قد تكون أيضاً كارهاً له، ولكنك بالتأكيد تحبه.

كان قد قال: ربما.

كانت أرض الرصيف تحت قدميه بيضاء، مغسولة، شقوقها رقيقة، والطريق أمامه خاو، ولكن غير موحش. السماء، ليس فيها سحابة واحدة، فادحة ولكن كتفيه ترفعانها بمشقة اعتادها الآن، كأنها جزء منه. والقمر قد غاص في البحر، وترك حمرة مصفرة باهتة، والنجوم متكاثفة ومحتشدة، بوخزات أنوارها المتقاربة في زرقة داكنة ووثيرة وحريرية السواد. وكانت الحدأ تطير في أقواس واسعة، تهبط، هادئة الأجنحة، مستقيمة، ثم ترتفع، بلا جهد، تأتي إلى البحر من ناحية المقابر.

وعرف ميخائيل أن هناك حباً دفيناً، لا ذنب لأحد فيه، في قلبه ما زال. وعلى الرغم من كل الأكاذيب والتشوهات فإن تدفق ماء الحياة في هذا الحب قد علّمه أن هناك، مع ذلك، صدقاً ووفاء يتجاوز كل شيء، لم يكن في حبها ولا شهوتها كذب.

أما أنا، فهاأنذا أُسلم نفسي لآخر ما عندي ـ وبقدر ما أعرف، آخر ما يوجد ـ أنني أواجه الألم المتصل، حتى اليوم الأخير، من غير درع، من غير تغطية، من غير تبرير.

القاهرة، ابريل ١٩٧٠ ـ أغسطس ١٩٧٨

نديمي غير منسوب إلى شيء من الحيف
سقاني مثلما يشرب فِعْلَ الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح مع التنّين في الصيف

الحسين بن منصور الحلاج

الفهرس

١ ـ ميخائيل والبجعة ٥
٢ ـ مركب في آخر البحيرة ٢٩
٣ ـ السلالم الضيقة والتنين ٥٦
٤ ـ رامة نائمة... نائمة تحت القمر ٨٢
٥ ـ شرخ في الرخام القديم ١٠٨
٦ ـ حمامة تحت الأعمدة، مكسورة القدم ١٣٤
٧ ـ إيزيس في أرض غريبة ١٥٨
٨ ـ الأمازونة على الرمال البيضاء ١٨٢
٩ ـ الشهوة وأعواد البوص ٢٠٥
١٠ ـ قناع من النحاس فاغر العينين ٢٢٨
١١ ـ عمود دقلديانوس ٢٥١
١٢ ـ العنقاء تولد كل يوم ٢٧٥
١٣ ـ الموت والذبابة ٢٩٩
١٤ ـ اليوم التاسع والأخير ٣٢٢

رقم الايداع ٩٢/٥٩٩٥
الترقيم الدولي 4 / 07 / 5365 /977

لم يقل لها: عَلّمَني حبيّ بفقدانك أننا نحب وحدنا. ونموت وحدنا. واستشرفت أنه ليس حتى في الموت برءٌ من الوحدة. بعد حياة الوحشة المحكوم بها علينا، نحن نموت. ولا نجد في الموت نجدة. ولا نلتقي فيه بأحد. الموت يطوي الكتاب ويغلقه ويكرّس ختمه. والحب؟ الحب كذبة. هو الشهوة العارمة للخلاص من الوحدة، الاندفاعة التي لا توقف نحو الانصهار الكامل والاندماج والاشتعال المزدهر لكنه يدور أيضاً في الوحدة. وينتهي بتكريسها، أكثر علقماً من الموت. نحن نحب وحدنا. الحب أيضاً وحدة لا شفاء منها.

قال يصرخ في ظلمة ليلة، مسدود الحلق: ليس صحيحاً. . لا يمكن أن يكون صحيحاً. لا.

كان الصمت هو الذي يواجهه. دون رد.

التزام التوزيع بلبنان والعالم العربي

مكتبة المعارف ببيروت